تفسير

شيخ الإسلام ابن تيمية

الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير

جمعه وحققه وعلق عليه

إياد بن عبد اللطيف بن إبراهيم القيسي

راجعه

عثمان بن معلم محمود

أشرف على طبعه

سعد بن فواز الصميل

الجزء السابع

سورة الغاشية - سورة الناس

دار ابن الجوزي

تفسير

شيخ الإسلام ابن تيمية

الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير

٧

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ

دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية: الدمام - طريق الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٨٢
الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨ - جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الإحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢ - جدة - ت: ٦٣٤١٩٧٣ - ٦٨١٣٧٠٦ - ٠٥٦٣٤٧٦٣٨٨ - بيروت - هاتف:
٠٣/٨٦٩٦٠٠ - فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - القاهرة - ج.م.ع - محمول: ٠١٠٦٨٢٣٧٨٣ - تلفاكس:
٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠ - الإسكندرية - ٠١٦٩٠٥٧٥٧٣ - البريد الإلكتروني:
aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com

تفسير

شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير

جمعه وحققه وعلق عليه

إياد بن عبد اللطيف بن إبراهيم القيسي

راجعه

عثمان بن معلم محمود

أشرف على طبعه

سعد بن فواز الصميل

الجزء السابع

سورة الغاشية - سورة الناس

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الغاشية

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾﴾.

(وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾﴾ وهذا يكون يوم القيامة. وهذا هو الصواب من القولين بلا ريب) ا.هـ[١].

وقال شيخ الإسلام في تفسيره المطبوع:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾﴾.

فيها قولان:

«أحدهما» أن المعنى وجوه في الدنيا خاشعة عاملة ناصبة، تصلى يوم القيامة ناراً حامية، ويعني بها عباد الكفار كالرهبان، وعباد اليهود، وربما تؤولت في أهل البدع كالخوارج.

و«القول الثاني» أن المعنى أنها يوم القيامة تخشع أي تذل وتعمل وتنصب، قلت: هذا هو الحق لوجوه:

«أحدها» أنه على هذا التقدير يتعلق الظَرف بما يليه، أي وجوه يوم الغاشية خاشعة عاملة ناصبة صالية، وعلى الأولى لا يتعلق إلا بقوله: ﴿تَصْلَىٰ﴾ ويكون قوله: ﴿خَٰشِعَةٌ﴾ صفة للوجوه، قد فصل بين الصفة والموصوف بأجنبي متعلق بصفة أخرى متأخرة، والتقدير: وجوه خاشعة عاملة ناصبة يومئذٍ تصلى ناراً حامية، والتقديم والتأخير على خلاف الأصل، فالأصل إقرار الكلام على نظمه وترتيبه لا تغيير ترتيبه.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٥٥٧).

ثم إنما يجوز فيه التقديم والتأخير مع القرينة أما مع اللبس فلا يجوز، لأنه يلتبس على المخاطب، ومعلوم أنه ليس هنا قرينة تدل على التقديم والتأخير، بل القرينة تدل على خلاف ذلك، فإرادة التقديم والتأخير بمثل هذا الخطاب خلاف البيان، وأمر المخاطب بفهمه تكليف لما لا يطاق.

«الوجه الثاني» أن الله قد ذكر وجوه الأشقياء ووجوه السعداء في السورة، فقال بعد ذلك: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾﴾ [الغاشية] ومعلوم أنه إنما وصفها بالنعمة يوم القيامة لا في الدنيا. إذ هذا ليس بمدح، فالواجب تشابه الكلام وتناظر القسمين لا اختلافهما، وحينئذ فيكون الأشقياء وصفت وجوههم بحالها في الآخرة.

«الثالث» أن نظير هذا التقسيم قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ [القيامة] وقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس] وهذا كله وصف للوجوه لحالها في الآخرة لا في الدنيا.

«الرابع» أن وصف الوجوه بالأعمال ليس في القرآن وإنما في القرآن ذكر العلامة، كقوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾ [الفتح: ٢٩] وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ [محمد: ٣٠] وقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۗ﴾ [الحج: ٧٢] وذلك لأن العمل والنصب ليس قائماً بالوجوه فقط، بخلاف السيما والعلامة.

«الخامس» أن قوله: ﴿خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾﴾ لو جعل صفة لهم في الدنيا لم يكن في هذا اللفظ ذم، فإن هذا إلى المدح أقرب، وغايته أنه وصف مشترك بين عُبَّاد المؤمنين وعُبَّاد الكفار، والذم لا يكون بالوصف المشترك، ولو أريد المختص لقيل خاشعة للأوثان مثلاً، عاملة لغير الله، ناصبة في طاعة الشيطان، وليس في الكلام ما يقتضي كون هذا الوصف مختصاً بالكفار، ولا كونه مذموماً، وليس في القرآن ذم لهذا الوصف مطلقاً، ولا عيب عليه، فحمله على هذا المعنى خروج عن الخطاب المعروف في القرآن.

«السادس» أن هذا الوصف مختص ببعض الكفار ولا موجب للتخصيص، فإن الذين لا يتعبدون من الكفار أكثر، وعقوبة فساقهم في دينهم أشد في الدنيا والآخرة، فإن من كف منهم عن المحرمات المتفق عليها، وأدى الواجبات المتفق عليها لم تكن عقوبته كعقوبة الذين يدعون مع الله إلهاً آخر، ويقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ويزنون.

فإذا كان الكُفر والعذاب على هذا التقدير في القسم المتروك أكثر وأكبر كان هذا التخصيص عكس الواجب.

«السابع» أن هذا الخطاب فيه تنفير عن العبادة والنسك ابتداء، ثم إذا قيد ذلك بعبادة الكفار والمبتدعة، وليس في الخطاب تقييد، كان هذا سعياً في إصلاح الخطاب بما لم يذكر فيه»[1].

﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

(وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٦] ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾ [المائدة: ١٣] ﴿وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟﴾ [التغابن: ١٤] ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٠٩] ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤] ونحو هذا في القرآن مما أمر الله به المؤمنين بالعفو والصفح عن المشركين فإنه نسخ ذلك كله قوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] وقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] فنسخ هذا عفوه عن المشركين) ا.هـ[2].

﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾.

(﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ أي إلينا مرجعهم) ا.هـ[3].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٢١٧ ـ ٢٢٠). (٢) الصارم المسلول (٢٢٦).
(٣) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢١٣).

سورة الفجر

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾.

(وعشر ذي الحجة: اسم لمجموع الليالي وأيامها؛ فإن يوم النحر من عشر ذي الحجة، ولهذا قال النبي ﷺ: «ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله تعالى من هذه الأيام العشر[١]» وقال تعالى: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ ويوم النحر داخل فيها، وقال تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ [الأعراف: ١٤٢] ويوم النحر هو آخر الأربعين[٢]. ولفظ العشر ـ وإن كان في الأصل اسماً للمؤنث لأنه بغير هاء ـ: فإنما دخل فيه اليوم لسببين:

أحدهما: أنهم في التاريخ إنما يؤخرون[٣] بالليالي؛ لأنها أول الشهر الهلالي، وتدخل الأيام تبعاً، ولهذا لو نذر اعتكاف عشر ذي الحجة لزمه اعتكاف يوم النحر.

والثاني: أنه قد يجيء هذا في صفة المذكر بغير هاء لقول النبي ﷺ: «من صام رمضان وأتبعه ستاً من شوال»[٤]، وقوله: «من هذه الأيام العشر») ا.هـ[٥].

﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩﴾.

(وقوله: ﴿جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ دل على أنهم جابوا الصخر: أي قطعوه) ا.هـ[٦].

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦﴾.

(قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا

---

(١) البخاري (٢/ ٢٤ ـ ٢٥).
(٢) روي هذا عن بعض السلف كما في ابن جرير (٣٠/ ١٦٩).
(٣) كذا في الأصل، والصواب: يؤرِّخون. (٤) مسلم (١١٦٤).
(٥) شرح العمدة ـ الحج (١/ ٣٨٠ ـ ٣٨١). (٦) مجموع الفتاوى (٨/ ١٧).

مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ يقول: ما كل من وسعت عليه أكرمته، ولا كل من قدرت عليه أكون قد أهنته، بل هذا ابتلاء ليشكر العبد على السراء، ويصبر على الضراء، فمن رزق الشكر والصبر كان كل قضاء يقضيه الله خيراً له، كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يقضي الله للمؤمن من قضاء إلا كان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»[1]) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾، بين سبحانه أنه ليس كل من ابتلاه في الدنيا يكون قد أهانه، بل هو يبتلي عبده بالسراء والضراء، فالمؤمن يكون صباراً شكوراً، فيكون هذا وهذا خيراً له، كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له») ا.هـ[3].

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ قال الله تبارك وتعالى: ﴿كَلَّا﴾، ولفظ: ﴿كَلَّا﴾ فيها زجر وتنبيه: زجر عن مثل هذا القول، وتنبيه على ما يخبر به ويؤمر به بعده، وذلك أنه ليس كل من حصل له نعم دنيوية تعد كرامة يكون الله ﷻ مكرماً له بها، ولا كل من قدر عليه ذلك يكون مهيناً له بذلك؛ بل هو سبحانه يبتلي عبده بالسراء والضراء، فقد يعطي النعم الدنيوية لمن لا يحبه. ولا هو كريم عنده ليستدرجه بذلك. وقد يحمي منها من يحبه ويواليه لئلا تنقص بذلك مرتبته عنده أو يقع بسببها فيما يكرهه منه) ا.هـ[4].

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ أي ليس الأمر كذلك، فليس كل من وسع عليه رزقه يكون مكرماً، ولا [كل] من قدر عليه رزقه يكون

---

(١) مرّ تخريجه. (٢) مجموع الفتاوى (٢٢/٤٤٧ ـ ٤٤٨).

(٣) مجموع الفتاوى (٨/ ٧٤ ـ ٧٥)، والحديث مرّ تخريجه.

(٤) مجموع الفتاوى (١١/٣٠١).

مهاناً؛ بل قد يوسع عليه رزقه إملاء واستدراجاً، وقد يقدر عليه رزقه حماية وصيانة له، وضيق الرزق على عبد من أهل الدين قد يكون لما له من ذنوب وخطايا، كما قال بعض السلف[١]: إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب»[٢]) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ فإنه قد أخبر أنه أكرمه، وأنكر قول المبتلى: ربي أكرمن، واللفظ الذي أخبر الله به مثل اللفظ الذي أنكره الله من كلام المبتلى، لكن المعنى مختلف. فإن المبتلى اعتقد أن هذه كرامة مطلقة، وهي النعمة: التي يقصد بها [أن] النِّعم إكرام له، والإنعام بنعمه لا يكون سبباً لعذاب أعظم منها، وليس الأمر كذلك، بل الله تعالى ابتلاه بها ابتلاءً، ليتبين هل يطيعه فيها أم يعصيه، مع علمه بما سيكون من الأمرين، لكن العلم بما سيكون شيء وكون الشيء والعلم به شيء.

وأما قوله تعالى: ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ فإنه تكريم بما فيه من اللذات، ولهذا قرنه بقوله: ﴿وَنَعَّمَهُۥ﴾ ولهذا كانت خوارق العادات التي تسميها العامة «كرامة» ليست عند أهل التحقيق كرامة مطلقاً، بل في الحقيقة الكرامة هي: لزوم الاستقامة، وهي طاعة الله، وإنما هي مما يبتلي الله به عبده، فإن أطاعه بها رفعه، وإن عصاه بها خفضه، وإن كانت من آثار طاعة أخرى، كما قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾ [الجن]) ا.هـ[٤].

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾.

(إنه تعالى وتقدس يجيء يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده والملائكة صفاً

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٠٢٢)، وأحمد (٥/ ٢٧٧، ٢٨٠، ٢٨٢) وغيرهم، وقد صح من قول السلف.

(٢) مر تخريجه وفيه ضعف.

(٣) مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٣).

(٤) جامع الرسائل (٢/ ٣٥٢)، وانظر أيضاً المصدر نفسه (٢/ ٣٤٢).

صفاً، كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴿٢٢﴾﴾ وزاد النبي ﷺ: وأنه تعالى وتقدس يجيء يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده فيغفر لمن يشاء من مذنبي الموحدين، ويعذب من يشاء، كما قال تعالى: ﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾ [المائدة: ١٨]) ا.هـ(١).

وقال رحمه الله: (كذلك قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴿٢٢﴾﴾ بمعنى أنه سيجيء؛ فلم يستحدث الاسم بالمجيء، وتخلف الفعل لوقت المجيء، فهو جاء سيجيء ويكون المجيء منه موجوداً بصفة لا تلحقه الكيفية ولا التشبيه، لأن ذلك فعل الربوبية فيستحسر العقل، وتنقطع النفس عند إرادة الدخول في تحصيل كيفية المعبود، فلا تذهب في أحد الجانبين؛ لا معطلاً ولا مشبهاً، وارض لله بما رضي به لنفسه، وقف عند خبره لنفسه مسلماً، مستسلماً، مصدقاً، بلا مباحثة التنفير ولا مناسبة التنقير) ا.هـ(٢).

وقال رحمه الله: (وقال أبو عبد الله أحمد بن سعيد الرباطي: حضرت مجلس الأمير عبد الله بن طاهر وحضر إسحاق بن راهويه، فسئل عن حديث النزول: صحيح هو؟ قال: نعم. فقال له بعض قواد عبد الله: يا أبا يعقوب، أتزعم أن الله ينزل كل ليلة؟ قال: نعم. قال: كيف ينزل؟ قال له إسحاق: أثبته فوق حتى أصف لك النزول. فقال له الرجل: أثبته فوق. قال له إسحاق: قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴿٢٢﴾﴾ فقال الأمير عبد الله بن طاهر: يا أبا يعقوب، هذا يوم القيامة، فقال إسحاق: أعز الله الأمير، ومن يجيء يوم القيامة من يمنعه اليوم؟) ا.هـ(٣).

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾.

وقال رحمه الله: (وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾، فخاطبها بالرجوع إلى ربها، وبالدخول في عباده ودخول جنته وهذا تصريح بأنها مربوبة، والنفس هنا هي الروح التي تقبض فإنما تتنوع صفاتها، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح ـ لما ناموا عن صلاة الفجر في السفر ـ قال: «إن الله قبض أرواحنا حيث شاء، وردها حيث شاء ـ

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٦٠ ـ ٦١).
(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ٦٤)، وهو من كلام عمرو بن عثمان المكي.
(٣) مجموع الفتاوى (٥/ ٣٧٥)، الاستقامة (١/ ٧٧ ـ ٧٨).

وفي رواية قبض أنفسنا حيث شاء[١]») ا.هـ[٢].

(ويقال النفوس ثلاثة أنواع:

وهي «النفس الأمارة بالسوء» التي يغلب عليها اتباع هواها بفعل الذنوب والمعاصي.

و«النفس اللوامة» وهي التي تذنب وتتوب، فعلها خير وشر، لكن إذا فعلت الشر تابت وأنابت فتسمى لوامة، لأنا تلوم صاحبها على الذنوب، ولأنها تتلوم أي تتردد بين الخير والشر.

و«النفس المطمئنة» وهي التي تحب الخير والحسنات وتريده وتبغض الشر والسيئات وتكره ذلك وقد صار ذلك لها خلقاً وعادة وملكة.

فهذه صفات وأحوال لذات واحدة، وإلا فالنفس التي لكل إنسان هي نفس واحدة وهذا أمر يجده الإنسان من نفسه) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (الأنفس ثلاث: أمارة، ومطمئنة، ولوامة فالأولون هم أهل [الأنفس الأمارة التي تأمرهم بالسوء. والأوسطون هم أهل] النفوس المطمئنة التي قيل فيها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾.

[والآخرون هم] أهل النفوس اللوامة: التي تفعل الذنب ثم تلوم عليه، وتتلوم تارة كذا، وتارة كذا، أو تخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً وهؤلاء يرجى أن يتوب عليهم إذا اعترفوا بذنوبهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [التوبة].

ولهذا لما كان الناس في زمن أبي بكر وعمر ـ اللذين أُمر المسلمون بالاقتداء بهما، كما قال ﷺ: «اقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر وعمر»[٤] ـ أقرب عهداً

(١) البخاري (٥٩٥). (٢) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٢٥).
(٣) مجموع الفتاوى (٩/ ٢٩٤).
(٤) الترمذي (٣٦٦٣) وابن ماجه (٩٧) وأحمد (٥/ ٣٩٩) والحميدي (٤٤٩) والحديث حسن أو صحيح.

بالرسالة وأعظم إيماناً وصلاحاً، وأئمتهم أقوم بالواجب وأثبت في الطمأنينة، لم تقع فتنة، إذ كانوا في [حكم] القسم الوسط.

ولما كان في آخر خلافة عثمان وفي خلافة علي [رضي الله عنهما] كثر القسم الثالث، فصار فيهم شهوة وشبهة مع الإيمان والدين، وصار ذلك في بعض الولاة وبعض الرعايا، ثم كثر ذلك بعد، فنشأت الفتنة التي سببها ما تقدم من عدم تمحيص التقوى والطاعة في الطرفين، واختلاطهما بنوع من الهوى والعصبية في الطرفين، وكل منهما متأول أنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وأن معه الحق والعدل، ومع هذا التأويل نوع من الهوى، ففيه نوع من الظن وما تهوى الأنفس، وإن كانت إحدى الطائفتين أولى بالحق [من الأخرى] فلهذا يجب على المؤمن أن يستعين بالله ويتوكل عليه، في أن يقيم قلبه ولا يزيغه ويثبته على الهدى والتقوى ولا يتبع الهوى) ا.هـ[1].

(١) الاستقامة (٢/٢٥١ ـ ٢٥٣).

سورة البلد

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾.

(وكذلك روى الواقدي عن أبي برزة قال: فيَّ نزلت هذه الآية ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾ أخرجت عبد الله بن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة فضربت عنقه بين الركن والمقام) ا.هـ[1].

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾.

(قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾ وهو مكابدة أمر الدنيا والآخرة، وهذه المكابدة تقتضي قوة صاحبها، وكثرة تصرفه واحتياله، فقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾ فهذا الإنسان من جنس أولئك الأمم، ومن جنس الذين قال: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ۝٢٩﴾ [الحاقة] له قوة يكابد بها الأمور، وكل أهلكه أفيظن مع هذا أنه لن يقدر عليه أحد فيجازيه بأعماله؟ ويحسب أن ما أهلكه من المال لم يره أحد، فيعلم ما فعل؟

والقدرة والعلم بهما يحصل الجزاء؛ بل بهما يحصل كل شيء، وإخباره تعالى بأنه قادر وأنه عالم يتضمن الوعيد والتهديد؛ فإنه إذا كان قادراً أمكن الجزاء، وإذا كان عالماً أمكن الجزاء فبالعدل يقدر ما عمل ومن لم يكن قادراً لم يمكنه الجزاء، فإن العاجز عن الشخص لا يمكنه جزاؤه، والذي له قدرة لكن لا يرى ما فعل إن جازاه بلا علم كان ظالماً معتدياً، فلا بد له من العلم بما فعل.

ولهذا كان الحاكم يحتاج إلى الشهود، والملوك يحتاجون إلى أهل الديوان يخبرونهم بمقادير الأموال وغيرها، ليكون عملهم بعلم[2] ذكر أنه خلق الإنسان في كبد

(١) الصارم المسلول (١٤٠).
(٢) بياض في الأصل.

أيحسب أن لن يقدر عليه أحد؟. ولن لنفي المستقبل، يقول: أيحسب أن لن يقدر عليه في المستقبل أحد، ولهذا كان ذاك الخائف من ربه، الذي أمر أهله بإحراقه وذرايته يعلم أن الجزاء متعلق بالقدرة، فقال: «لئن قدر الله علي ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً من العالمين»(١).

وهو سبحانه يهدد بالقدرة لكون المقدور يقترن بها، كما يهدد بالعلم لكون الجزاء يقع معه، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥] فقال النبي ﷺ لما نزلت: «أعوذ بوجهك، أعوذ بوجهك» ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥] فقال: (هاتان أهون)(٢) وذلك لأنه تكلم في ذكر القدرة ونوع المقدور، كما يقول القائل: أين تهرب مني؟ أنا أقدر أن أمسكك.

وكذلك في العلم بالرؤية، كقوله هنا: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾ وقوله تعالى في الذي ينهى عبداً إذا صلى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤﴾ [العلق] وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥] وقوله: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ۝٨٠﴾ [الزخرف] وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣﴾ [القمر] وأمثال ذلك) ا.هـ(٣).

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩﴾.

(﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩﴾ بمعنى ألم نجعله ناظراً متكلماً فعبر عن الكلام باللسان والشفتين لأنهما مكان له وذكر الشفتين لأن الكلام الذي جرت به النعمة لا يتم إلا بهما) ا.هـ(٤).

قال شيخ الإسلام رحمه الله في مجموع الفتاوىٰ:

(قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ الهداية محلها القلب، وهذه الأعضاء الثلاثة التي هي دائمة الحركة والكسب، إما للإنسان وإما عليه، بخلاف ما يتحرك من داخل فإنه لا يتعلق به ثواب ولا عقاب،

---

(١) البخاري (٣٤٨١)، ومسلم (٢٧٥٦).
(٢) مرّ تخريجه.
(٣) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣١٦ ـ ٣١٨).
(٤) مجموع الفتاوى (٧/ ٣٣٤).

وبخلاف بقية الأعضاء الظاهرة، فإن السكون أغلب، وحركتها قليلة بالنسبة إلى هذه، وهذه الثلاثة التي يروى عن عيسى ابن مريم عليه السلام أنه قال: من كان صمته فكراً، ونطقه ذكراً، ونظره عبرة[١] ـ وفي حديث عند ابن أبي حاتم[٢] في صفة النبي ﷺ أنه كان كثير الصمت، دائم الفكر، متواصل الأحزان فالصمت والفكر للسان والقلب، وأما الحزن فليس المراد به الحزن الذي هو الألم على فوت مطلوب أو حصول مكروه فإن ذلك منهي عنه ولم يكن من حاله، وإنما أراد به الاهتمام والتيقظ لما يستقبله من الأمور، وهذا مشترك بين القلب والعين.

وفيه أيضاً في الصحيحين[٣] حديث ابن عباس أنه كان إذا قام من الليل يصلي ينظر إلى السماء، ويقرأ الآيات العشر من أواخر سورة آل عمران.

فيجمع بين الذكر والنظر والفكر، فالنظر أي نظر القلب ونظر العين والذكر أيضاً لا بد مع ذكر اللسان من ذكر القلب.

ولما كان النظر مبدأ والذكر منتهى؛ لأن النظر يتقدم الإدراك، والعلم والذكر يتأخر عن الإدراك والعلم، ولهذا كان المتكلمة في النظر المقتضى للعلم، وكان المتصوفة في الذكر المقرر للعلم قدم آلة النظر على آلة الذكر، وختم بهداية الملك الجامع الذي هو الناظر الذاكر.

وذَكَر سبحانه اللسان والشفتين؛ لأنهما العضوان الناطقان، فأما الهواء والحلق والنطع واللهوات والأسنان فمتصلة حركة بعضها مرتبطة بحركة البعض بمنزلة غيرها من أجزاء الحنك، فأما اللسان والشفتان فمنفصلة، ثم الشفتان لما كانا النهاية حملا الحروف الجوامع: الباء، والفاء، والميم، والواو.

---

(١) كذا في الأصل دون جواب الشرط.

(٢) لا أدري هل يعني به هذا أم (أبي حاتم ابن حبان) والحديث المقصود في صفة النبي هو حديث هند بن أبي هالة المعروف والذي رواه الترمذي في شمائله، والطبراني وابن أبي عاصم في «الآحاد المثاني» والبيهقي في سننه وشعبه وابن سعد في طبقاته.
ولم أجده عند ابن أبي حاتم، وإنما وجدت عند ابي حاتم ابن حبان في الثقات (٢/ ١٤٥ ـ ١٤٧).

(٣) مرّ تخريجه.

فأما الباء والفاء فهما الحرفان السببيان، فإن الباء أبداً تفيد الإلصاق والسبب، وكذلك الفاء تفيد التعقيب والسبب، وبالأسباب تجتمع الأمور بعضها ببعض.

وأما الميم والواو فلهما الجمع والإحاطة، ألا ترى أن الميم ضمير لجمع المخاطبين في الأنواع الخمسة: ضميري الرفع والنصب المتصلين والمنفصلين، وضمير الخفض في مثل قوله: (أنتم) و(علمتم) و(إياكم) و(علمكم) و(ربكم) وضمير لجمع الغائبين في الأنواع الخمسة أيضاً والمضمر أياً كان، إما متكلم أو مخاطب أو غائب، واحد أو اثنان أو جمع، مرفوع أو منصوب، أو مجرور، فقد أحاطت بالجميع مطلقاً، أما الجمع المطلق فبنفسها، وأما الجمع المقدر باثنين فبزيادة علم التثنية، وهو الألف في مثل أنتما وعلمتما، وكذلك الباقي.

ولهذا زيدت الواو في الجمع المطلق فقيل عليهموا، وأنتموا، كما زيدت الألف في التثنية، ومن حذفها حذفها تخفيفاً، ولأن ترك العلامة علامة، فصارت الميم مشتركة، ثم الفارق الألف أو عدمها مع الواو.

وأما الواو فلها جموع الضمائر الغائبة في مثل قالوا ونحوها، وأما المتصلة مثل إياكم وهم، فعلى اللغتين، فلما صارت الواو تمام المضمر المرفوع المنفصل، والياء تمام المؤنث: صارت للمؤنث مطلقاً في جميع أحواله، لأنه تلو المذكر، والمفرد مذكرة ومؤنثة قبل المثنى والمجموع فإن المفرد قبل المركب، ثم الألف صارت علم التثنية مطلقاً في المظهر والمضمر كما أن الواو علم لجمع المذكر، وجعل الياء علمي النصب والجر في المظهر من المثنى والمجموع، لأن المظهر قبل المضمر وأقوى منه، فكانت أحق أن تكون فيه من الألف، فحين كان أقوى كانت الواو وحين ما كان أوسط كان الياء.

وأما الجموع الظاهرة فالواو هي علم الجمع المذكر الصحيح، كما أن الألف علم التثنية، ولهذا ينطق بها حيث لا إعراب، لكن في حال النصب والخفض قلبتا يائين لأجل الفرق؛ وذلك لأن الأسماء الظاهرة لها الغيبة دون الخطاب في جميع العربية، وذلك لأن الواو أقوى حروف العلة، والضمة بعضها، وهي أقوى الحركات، لما فيها من الجمع، وكونها آخراً، فجعلت للجمع والألف أخف حروف العلة، فجعلت للاثنين لأن الياء كانت قد صارت للمؤنث في المفرد المرفوع الذي هو

الأصل في قولك[١]: وجاءت الميم في مثل اللهم إشعار بجميع الأسماء، وذلك حرف الشفة لما كان جامعاً للقوة من مبدأ مخارج الحروف إلى منتهاها بمنزلة الخاتم الآخر، الذي حوى ما في المتقدم وزيادة كان جامعاً لقوى الحروف فجعل جامعاً للأسماء مظهرها ومضمرها وجامعاً بين المفردات والجمل، فالواو والفاء عاطفان، والفاء رابطة جملة بجملة.

ولما كانت النون قريبة من الفيهة[٢] فهي أنفية جعلت لجمع المؤنث، لأنه دون جمع المذكر، وثنى العينين والشفتين لأن العينين هما ربيئة القلب، وليس من الأعضاء أشد ارتباطاً بالقلب من العينين، ولهذا جمع بينهما في قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾ [الأنعام: ١١٠] ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾﴾ [النازعات] ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٧] ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠] ولأن كليهما له النظر، فنظر القلب الظاهر بالعينين، والباطن به وحده، وكذلك اللسان هو الذكر والشفتان أنثاه[٣].

﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾.

(قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ قال علي وابن مسعود: سبيل الخير والشر، وعن ابن عباس: سبيل الهدى والضلال، وقال مجاهد: سبيل السعادة والشقاوة[٤]، أي فطرناه على ذلك، وعرفناه إياه، والجميع واحد، والنجدان الطريقان الواضحان، والنجد المرتفع من الأرض، فالمعنى ألم نُعَرِّفْه طريق الخير والشر ونبينه له كتبيين الطَّريقين العاليين، لكن الهدى والتبيين والتعريف في هذه الآية يشترك فيه بنو آدم، ويعرفونه بعقولهم) ا.هـ[٥].

وقال رحمه الله: (وكذلك روى ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ قال: الشقاوة والسعادة.

---

(١) بياض الأصل.
(٢) كذا في الأصل، ولعل الصواب: «الشفهية» لأنها مخرج الواو والفاء والباء والميم التي كان الحديث عنها آنفاً.
(٣) مجموع الفتاوى (١٦/ ٢٢١ ـ ٢٢٥).
(٤) الأقوال عن علي وابن مسعود وابن عباس ومجاهد عند ابن جرير (٣٠/ ١٩٩ ـ ٢٠٠).
(٥) مجموع الفتاوى (١٠/ ٥٨٠ ـ ٥٨١).

وقد قال هو وجماهير السلف: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾: أي الخير والشر، رواه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود، ثم قال: وروي عن علي بن أبي طالب، وابن عباس في إحدى[١] وشقيق بن سلمة، وأبي صالح، ومجاهد، والحسن، ومحمد بن كعب، وعكرمة، وشرحبيل بن سعيد، وابن سنان الرازي، والضحاك، . وعطاء الخراساني، وعمرو بن قيس الملائي، نحو ذلك، وروى عن محمد بن كعب القرظي قال[٢]: الحق والباطل) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (قد قيل في قوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ أي بينا له طريق الخير والشر، وهو هدى البيان العام المشترك، وقيل: هدينا المؤمن لطريق الخير، والكافر لطريق الشر؛ فعلى هذا يكون قد جعل الفجور هدى، كما جعل أولئك البيان إلهاماً) ا.هـ[٤].

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾.

(والرحمة ممدوحة: وقد قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾) ا.هـ[٥].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ فلا بد أن يصبر وأن يرحم، وهذا هو الشجاعة والكرم) ا.هـ[٦].

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ وهذا أعلى من ذاك، وهو أن يكون صباراً شكوراً فيه سماحة بالرحمة للإنسان وصبر على المكاره، وهذا ضد الذي خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً، وإذا مسه الخير منوعاً، فإن ذاك ليس فيه سماحة عند النعمة، ولا صبر عند المصيبة) ا.هـ[٧].

وقال رحمه الله: (وقد قال الله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾، وفي الأثر، أفضل الإيمان: السماحة والصبر[٨]) ا.هـ[٩].

---

(١) بياض بالأصل وتقديره (الروايتين) وهذا الكلام عند ابن أبي حاتم وهذه طريقته.
(٢) هذا لعله عند ابن أبي حاتم ولم أجده لا في «الدر» ولا في «ابن كثير»، ونقل عنه القرطبي قولاً غير ذلك والله أعلم.
(٣) مجموع الفتاوى (١٦/ ١٤٣).
(٤) مجموع الفتاوى (١٥/ ٩٩).
(٥) مجموع الفتاوى (٦/ ١١٧).
(٦) مجموع الفتاوى (٢٨/ ١٥٤).
(٧) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٦٤).
(٨) مرّ تخريجه.
(٩) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٩١).

وقال رحمه الله: (وقرن بين الرحمة والصبر في مثل قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ وفي الرحمة الإحسان إلى الخلق بالزكاة وغيرها، فإن القسمة أيضاً رباعية، إذ من الناس من يصبر ولا يرحم، كأهل القوة والقسوة، ومنهم من يرحم ولا يصبر: كأهل الضعف واللين، مثل كثير من النساء ومن يشبههن، ومنهم من لا يصبر ولا يرحم كأهل القسوة والهلع، والمحمود هو الذي يصبر ويرحم، كما قال الفقهاء في صفة المتولي: ينبغي أن يكون قوياً من غير عنف، ليناً من غير ضعف، فبصبره يقوى، وبلينه يرحم، وبالصبر ينصر العبد، فإن النصر مع الصبر، وبالرحمة يرحمه الله تعالى، كما قال النبي ﷺ: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء[١]» وقال: «من لا يرحم لا يرحم»[٢]، وقال: «لا تنزع الرحمة إلا من شقي، الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[٣] والله أعلم، انتهى) ا.هـ[٤].

---

(١) البخاري (١٢٨٤)، مسلم (٩٢٣). (٢) البخاري (٥٩٩٧)، مسلم (٢٣١٨).
(٣) أبو داود (٤٩٤١) والترمذي (١٩٢٤) أحمد (٢/ ١٦٠) والحاكم (٤/ ١٥٩) والحديث صحيح.
(٤) مجموع الفتاوى (١١/ ٣٦).

سورة الشمس

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾.

(وقال: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾ أي تبعها) ا.هـ[(١)].

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾.

(ومنه قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾ على القول الصحيح إنها اسم موصول، والمعنى: وبانيها، وطاحيها، ومسويها [و] لما قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس] ـ أخبر بـ(مَنْ)، لأن المقصود الإخبار عن فلاح عينه وإن كان فعله للتزكية والتدسية قد ذهب في الدنيا.

فالقسم هناك بالموصوف بحيث إنه إنما أقسم بهذا الموصوف والصفة لازمة، فإنه لا توجد مبنية إلا ببانيها، ولا مطحية إلا بطاحيها، ولا مسواة إلا بمسويها، وأما المرء المزكي نفسه والمدسيها فقد انقضى عمله في الدنيا، وفلاحه وخيبته في الآخرة ليسا مستلزماً لذلك العمل.

ونحو ذلك هذا قوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣﴾ [الليل]) ا.هـ[(٢)].

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾.

(وفي صحيح [مسلم][(٣)] من حديث أبي الأسود الدؤلي قال: قال لي عمران بن حُصَيْن: أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، أشيء قُضِيَ عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم؟، فقلت: بل شيء قضي عليهم [ومضى عليهم]، قال [فقال]: أفلا يكون ظلماً؟ قال: ففزعت من

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٧٠).

(٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٩٦ ـ ٥٩٧).

(٣) مسلم (٨/ ٤٨ ـ ٤٩ ـ النووي).

ذلك فزعاً شديداً. وقلت: كل شيء خَلْقُ الله، ومُلْكُ يده، فلا يُسْأَلُ عما يفعل وهم يسألون. فقال لي: يرحمك الله، إني لم أرد بما سألتك إلا لأحزر عقلك. إن رجلين من مُزَيْنَةَ أتيا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله، أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، أشيء قضي عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون منه مما أتاهم به [نبيهم] وثبتت الحجة عليهم؟ قال: لا بل شيء قضي عليهم ومضى فيهم. وتصديق ذلك في كتاب الله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾) ا.هـ[(١)].

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ على قول الأكثرين، وهو أن المراد أنه ألهم الفاجرة فجورها، والتقية تقواها، فالإلهام عنده هو البيان بالأدلة السمعية والعقلية.

وأهل السنة يقولون: كلا النوعين من الله، هذا الهدى المشترك وذاك الهدى المختص، وإن كان قد سماه إلهاماً كما سماه هدى، كما في قوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧] وكذلك قد قيل في قوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد] أي بينا له طريق الخير والشر، وهو هدى البيان العام المشترك. وقيل: هدينا المؤمن لطريق الخير، والكافر لطريق الشر؛ فعلى هذا يكون قد جعل الفجور هدى، كما جعل أولئك البيان إلهاماً) ا.هـ[(٢)].

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ فهو سبحانه يلهم الفجور والتقوى للنفس، والفجور يكون بواسطة الشيطان، وهو إلهام وسواس، والتقوى بواسطة ملك، وهو إلهام وحي، هذا أمر بالفجور، وهذا أمر بالتقوى، والأمر لا بد أن يقترن به خبر) ا.هـ[(٣)].

قال ابن القيم:

(قال شيخنا: والأظهر أن المراد نفس الإنسان مطلقاً، فإن نفس كل إنسان لوامة، كما أقسم بجنس النفس في قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ فإنه لا بد لكل إنسان أن يلوم نفسه أو غيره على أمره، ثم هذا اللوم قد يكون محموداً وقد

---

(١) الاستقامة (١/ ١٧٢ ـ ١٧٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ٩٨ ـ ٩٩).

(٣) مجموع الفتاوى (١٧/ ٥٢٩).

يكون مذموماً، كما قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ۝٣٠ قَالُوا يَٰوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ۝٣١﴾ [القلم] وقال تعالى: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤] فهذا اللوم غير محمود) ا.هـ[١].

سئل شيخ الإسلام:

(عن قوم قد خصوا بالسعادة، وقوم قد خصوا بالشقاوة، والسعيد لا يشقى والشقي لا يسعد، وفي الأعمال لا تراد لذاتها، بل لجلب السعادة، ودفع الشقاوة وقد سبقنا وجود الأعمال، فلا وجه لإتعاب النفس في عمل، ولا كفها عن ملذوذ، فإن المكتوب في القِدَمِ واقع لا محالة، بينوا ذلك؟؟

فأجاب رحمه الله: الحمد لله.

هذه «المسألة» قد أجاب فيها رسول الله ﷺ في غير حديث، ففي الصحيحين عن عمران بن حصين قال: «قيل يا رسول الله! أعُلِمَ أهل الجنة من أهل النار؟ قال: نعم. قيل: ففيم يعمل العاملون؟ قال: كل ميسر لما خلق له» وفي رواية البخاري «قلت: يا رسول الله كل يعمل لما خلق له أو لما يسر له» رواه مسلم في صحيحه عن أبي الأسود الدؤلي قال: قال لي عمران بن حصين: أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر سابق، أم فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم؟ فقلت: بل شيء قضي عليهم ومضى عليهم، قال: فقال: أفلا يكون ذلك ظلماً. قال: ففزعت من ذلك فزعاً شديداً. وقلت: كل شيء خلق الله وملك يده فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون. فقال: يرحمك الله إني لم أرد بما سألتك إلا لأجود[٢] عقلك، إن رجلين من مزينة أتيا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله! أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشيء قضي عليهم ومضى فيهم من قدر سابق أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم؟ فقال: «لا، بل شيء قضي عليهم، ومضى فيهم. وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾».

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (٢٩).

(٢) كذا في الأصل، وصوابها: «لأَحْزِرَ» كما في الحديث، ومعناها: لأمتحن عقلك وفهمك.

وروى مسلم في صحيحه عن زهير عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله قال: جاء سراقة بن مالك بن جعشم فقال: «يا رسول الله بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن، فيم العمل اليوم؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير؟ أم فيما يستقبل؟ قال: لا بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير، قال: ففيم العمل؟ قال زهير: ثم تكلم أبو الزبير بشيء لم أفهمه فسألت: عما قال؟ فقال: اعملوا فكل ميسر» وفي لفظ آخر «قال: رسول الله ﷺ كل عامل ميسر بعمله»[(١)]) ا.هـ[(٢)].

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾.

(فإن التزكي هو التطهر والترك بترك السيئات الموجب زكاة النفس، كما قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ ولهذا تفسر الزكاة تارة بالنماء والزيادة وتارة بالنظافة والإماطة. والتحقيق أن الزكاة تجمع بين الأمرين ـ إزالة الشر، وزيادة الخير. وهذا هو العمل الصالح، وهو الإحسان) ا.هـ[(٣)].

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾.

(في «تزكية النفس» وكيف تزكو بترك المحرمات مع فعل المأمورات. قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى] ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾.

قال سفيان بن عيينة وقتادة[(٤)] وغيرهما: قد أفلح من زكى نفسه بطاعة الله وصالح الأعمال. وقال أبو الفرج[(٥)] معنى زكاها: طهرها من الذنوب وأصلحها بالطاعة، وقيل: قد أفلحت نفس زكاها الله وقد خابت نفس دساها الله، وهذا قول الفراء والزجاج وكذلك ذكره الوالبي عن ابن عباس[(٦)] وهو منقطع و[ليس] هو مراد من الآية؛ بل المراد بها الأول قطعاً لفظاً ومعنى.

أما «اللفظ» فقوله: من زكاها اسم موصول ولا بد فيه من عائد على (مَنْ) فإذا قيل: قد أفلح الشخص الذي زكاها كان ضمير الشخص في زكاها يعود على (مَنْ) وهذا وجه الكلام الذي لا ريب في صحته كما يقال: قد أفلح من اتقى الله وقد أفلح من أطاع ربه، [وقد أفلح من خاف منه].

---

(١) مسلم (٢٦٤٨).
(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣).
(٣) مجموع الفتاوى (١٦/ ١٩٨).
(٤) ابن جرير (٣٠/ ٢١١).
(٥) زاد المسير (٩/ ١٤١).
(٦) ابن جرير (٣٠/ ٢١١).

وأما إذا كان المعنى: قد أفلح من زكاه الله لم يبق في الجملة ضمير يعود على (مَنْ) فإن الضمير على هذا يعود على الله وليس هو (مَنْ) وضمير المفعول يعود على النفس المتقدمة فلا يعود على (مَنْ) لا ضمير الفاعل ولا المفعول. فتخلو الصلة من عائد وهذا لا يجوز.

نعم! لو قيل: قد أفلح من زكى الله نفسه أو من زكاها الله له ونحو ذلك صح الكلام، وخفاء هذا على من قال به من النحاة عجب. وهو لم يقل: قد أفلحت نفس زكاها. فإنه هنا كانت تكون زكاها صفة لنفس لا صلة؛ بل قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ فالجملة صفة لـ(مَنْ) لا صفة لها.

ولا قال أيضاً: قد أفلحت النفس التي زكاها؛ فإنه لو قيل ذلك وجعل في (زكاها) ضمير يعود على اسم الله صح، فإذا تكلفوا وقالوا: التقدير (قد أفلح من زكاها) هي النفس التي زكاها. وقالوا: في زكى ضمير المفعول يعود على (مَنْ) وهي تصلح للمذكر والمؤنث والواحد والعدد، فالضمير عائد على معناها المؤنث وتأنيثها غير حقيقي ولهذا قيل: (قد أفلح) ولم يقل أفلحت، قيل لهم: هذا مع أنه خروج من اللغة الفصيحة فإنما يصح إذا دل الكلام على ذلك في مثل [﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ [الأحزاب: ٣١]، فإن قوله (منكن) دل على أن المراد النساء، فقيل تعمل. وكذا قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٤٢] ونحو ذلك.

وأما هنا فليس في لفظ (مَنْ) وما بعدها ما يدل به النفس المؤنثة [فإنه لم يقل: قد أفلحت، ولا قال: قد أفلح مِنَ النفوس مَنْ زكاها، وقد تقدمها قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾، ثم قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ فتقدم ما يصح عود ضمير المؤنث إليه، ولم يتقدم دليل على عوده إلى غير ذلك]، فلا يجوز أن يراد بالكلام ما ليس فيه دليل على إرادته؛ فإن مثل هذا مما يصان كلام الله ﷻ عنه، فلو قدر احتمال عود ضمير (زكاها) إلى نفس وإلى (مَنْ) مع أن لفظ (من) لا دليل يوجب عوده عليه لكان إعادته إلى المؤنث أولى من إعادته إلى ما يحتمل التذكير والتأنيث، وهو في التذكير أظهر، لعدم دلالته على التأنيث، فإن الكلام إذا احتمل معنيين وجب حمله على أظهرهما، ومن تكلف غير ذلك فقد خرج عن كلام العرب المعروف، والقرآن منزه عن ذلك، والعدول عما يدل عليه ظاهر الكلام إلى ما

لا يدل عليه بلا دليل لا يجوز البتة فكيف إذا كان نصاً من جهة المعنى؟! فقد أخبر الله أنه يلهم التقوى والفجور. ولبسط هذا موضع آخر.

والمقصود هنا: أمر الناس بتزكية أنفسهم والتحذير من تدسيتها، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّنٰهَا ۝٩﴾ فلو قدر أن المعنى قد أفلح من زكى الله نفسه لم يكن فيه أمر لهم ولا نهي، ولا ترغيب ولا ترهيب. والقرآن إذا أمر أو نهى، لا يذكر مجرد «القدر» فلا يقول: من جعله الله مؤمناً؛ بل يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ [المؤمنون] ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤﴾ [الأعلى] إذ ذكر مجرد القدر في هذا يناقض المقصود، ولا يليق هذا بأضعف الناس عقلاً فكيف بكلام الله؟ ألا ترى أنه في مقام الأمر والنهي والترغيب والترهيب يذكر ما يناسبه من الوعد والوعيد، والمدح والذم [والتخصيص[1] والترهيب]، وإنما يذكر القدر عند بيان نعمه عليهم: إما بما ليس من أفعالهم، وإما بإنعامه بالإيمان والعمل الصالح، ويذكره في سياق قدرته ومشيئته، وأما في معرض الأمر فلا يذكره إلا عند النعم. كقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ﴾ الآية [النور: ٢١]، فهذا مناسب. وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤﴾ وهذه الآية من جنس الثانية لا الأولى.

والمقصود «ذكر التزكية» قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ﴾ الآية [النور: ٣٠]. وقال: ﴿فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٨] وقال: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: ٧] وقال: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾ [عبس].

(وأصل «الزكاة» الزيادة في الخير. ومنه يقال: زكا الزرعُ، وزكا المالُ إذا نما. ولن ينمو الخير إلا بترك الشر، والزرع لا يزكو حتى يزال عنه الدغل، فكذلك النفس والأعمال لا تزكو حتى يُزَالَ ما يناقضها ولا يكون الرجل متزكياً إلا مع ترك الشر [ومن لم يترك الشر لا يكون زاكياً البتة فإن الشر] يدنس النفس ويدسيها قال الزجاج[2]: (دساها) جعلها (ذليلة حقيرة)[3] خسيسة وقال الفراء: دساها؛ لأن البخيل يخفي نفسه ومنزله وماله، قال ابن قتيبة: أي أخفاها بالفجور والمعصية، فالفاجر بارتكاب الفواحش دس نفسه؛ أي قمعها وخباها، وصانع المعروف شهر نفسه ورفعها، وكانت أجواد

---

(١) لعلها: «التحضيض». (٢) زاد المسير (٩/ ١٤٢).

(٣) في المطبوع في زاد المسير (قليلة) وفي (معاني القرآن) ما يوافق زاد المسير (٥/ ٣٣٢).

العرب تنزل الربى لتشهر أنفسها، واللئام تنزل الأطراف والوديان) ا.هـ[١].

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى:

(في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤﴾. وضمير التأنيث في «جلاها» و«يغشاها» لم يتقدم ما يعود عليه إلّا الشمس، فيقتضي أن النهار يجلي الشمس، وأن الليل يغشاها، و«التجلية» الكشف والإظهار، و«الغشيان» التغطية واللبس، ومعلوم أن اللَّيل والنهار ظرفا الزمان، والفعل إذا أضيف إلى الزمان فقيل هذا الزمان أو هذا اليوم يبرد، أو يبرد أو ينبت الأرض، ونحو ذلك، فالمقصود أن ذلك يكون فيه، لما يوصف الزمان بأنه عصيب، وشديد، ونحس، وبارد، وحار، ورطب ومكروه ـ والمراد وصف ما فيه، فكون الشيء فاعلاً وموصوفاً هو بحسب ما يليق به ـ كل شيء بحسبه.

فالنهار يجلي الشمس، والليل يغشاها، وإن كان ظهور الشمس هو سبب النهار، ومغيبها سبب الليل، وقد ذكر ذلك بقوله: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ فأضاف الضحى إليها، والضحى يعم النهار كله، كما قال: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩﴾ [النازعات] وقال: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ [الضحى]، وقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾.

فقد قيل: إن «ما» مصدرية، والتقدير: والسماء وبناء الله إياها، والأرض وطحو الله إياها، ونفس وتسوية الله إياها، لا بد من ذكر الفاعل في [الجملة][٢]، لا يصلح أن يقدر المصدر هنا مضافاً إلى الفعل فقط، فيقال «وبنائها» لأن الفاعل مذكور في الجملة في قوله ﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾ ﴿وَمَا طَحَىٰهَا﴾ فإن الفعل لا بد له من فاعل في الجملة، ومفعول أيضاً. فلا بد أن يكون في التقدير الفاعل والمفعول، لكن إذا كانت مصدرية كانت (ما) حرفاً ليس فيها ضمير، فيكون ضمير الفاعل في (بناها) عائداً على غير مذكور بل إلى معلوم، والتقدير: والسماء وما بناها الله وهذا خلاف الأصل. وخلاف الظاهر.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٢٥ ـ ٦٢٩)، والزيادات ما بين [] من نسخة طبعة مستقلة بها زيادات.

(٢) من إضافات (عبد الصمد).

والقول الثاني: أنها موصولة، والتقدير: الذي بناها، والذي طحاها، و(ما) فيها عموم وإجمال ـ يصلح لما لا يعلم، ولصفات من يعلم، كقوله تعالى: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣﴾ [الكافرون] وقوله: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣]، وهذا المعنى يجيء في قوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣﴾ [الليل].

وهذا المعنى كما أنه ظاهر الكلام وأصله هو أكمل في المعنى أيضاً، فإن القسم بالفاعل يتضمن الإقسام بفعله، بخلاف الإقسام بمجرد الفعل، وأيضاً فالأقسام التي في القرآن عامتها بالذوات الفاعلة، وغير الفاعلة يقسم بنفس الفعل، كقوله: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٣﴾ [الصافات] وكقوله: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ [النازعات: ١]، ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ﴾ [المرسلات: ١] ونحو ذلك.

وهو سبحانه تارة يقسم بنفس المخلوقات، وتارة بربها وخالقها، كقوله: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الذاريات: ٢٣] وكقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣﴾ [الليل] وتارة يقسم بها وبربها.

وفي هذه السورة أقسم بمخلوق وبفعله، وأقسم بمخلوق دون فعله، فأقسم بفاعله.

فإنه قال: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤﴾ فأقسم بالشمس والقمر والليل والنهار، وآثارها وأفعالها، كما فرق بينهما في قوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ﴾ [فصلت: ٣٧] وقال: ﴿كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣] فإن بأفعال هذه الأمور وآثارها تقوم مصالح بني آدم وسائر الحيوان.

وقال: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ ولم يقل: (ونهارها) ولا (ضياءها) لأن (الضحى) يدل على النور والحرارة جميعاً، وبالأنوار والحرارة تقوم مصالح العباد.

ثم أقسم بالسماء والأرض، وبالنفس، ولم يذكر معها فعلاً، فذكر فاعلها، فقال «وما بناها» «وما طحاها» و«نفس وما سواها» فلم يصلح أن يقسم بفعل النفس لأنها تفعل البر والفجور، وهو سبحانه لا يقسم إلا بما هو معظم من مخلوقاته. لكن ذكر في ضمير القسم أنه خالق أفعالها بقوله: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨﴾

فإذا كان قد بين أنه خالق فعل العبد الذي [هو][(١)] أظهر الأشياء فعلاً واختياراً وقدرة فلأن يكون خالق فعل الشمس، والقمر، والليل، والنهار، بطريق الأولى والأحرى.

وأما السماء والأرض فليس لهما فعل ظاهر يعظم في النفوس حتى يقسم بها إلا ما يظهر من الشمس، والقمر، والليل، والنهار.

والسماء والأرض أعظم من الشمس والقمر والليل والنهار، والنفس أشرف الحيوان المخلوق، فكان القسم بصانع هذه الأمور العظيمة مناسباً، وكان إقسامه بصانعها تنبيهاً على أنه صانع ما فيها من الشمس والقمر والليل والنهار.

فتضمن الكلام الإقسام بصانع هذه المخلوقات، وبأعيانها، وما فيها من الآثار والمنافع لبني آدم.

وختم القَسَم بالنفس التي هي آخر المخلوقات، فإن الله خلق آدم يوم الجمعة آخر المخلوقات، وبين أنه خالق جميع أفعالها، ودل على أنه خالق جميع أفعال ما سواها.

وهو سبحانه مع ما ذكر من عموم خلقه لجميع الموجودات على مراتبها حتى أفعال العبد المنقسمة إلى التقوى والفجور (و)[(٢)] بين انقسام الأفعال إلى الخير والشر، وانقسام الفاعلين إلى مفلح وخائب، سعيد وشقي، وهذا يتضمن الأمر والنهي، والوعد والوعيد، فكان في ذلك رد على القدرية المجوسية الذين يخرجون أفعال العباد عن خلقه وإلهامه، وعلى القدرية المشركية الذين يبطلون أمره ونهيه ووعده ووعيده، احتجاجاً بقضائه وقدره.

وقد قيل في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ إن الضمير عائد إلى (الله) أي (قد أفلح من زكاها الله، وقد خاب من دساها الله) وهذا مخالف للظاهر، بعيد عن نهج البيان الذي ألف عليه القرآن، إذ كان الأحسن قد أفلحت من زكاها الله، وقد خابت من دساها، وهذا ضعيف.

وأيضاً فقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ بيان للقدر، فلا حاجة إلى ذكره مرة ثانية عقب ذلك في مثل هذه السورة القصيرة.

---

(١) من إضافات (عبد الصمد).

(٢) إضافة من صاحب المجموع، ولعل حذفها أنسب، لأن الكلام الأول لم يتمّ معناه.

ولهذا لم يذكر عن النبي ﷺ في إثبات القدر إلا هذه الآية دون الثانية، كما في صحيح مسلم عن أبي الأسود الدؤلي قال: قال لي عمران بن حصين: أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق، أو فيما سيتقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم؟ فقلت: بل شيء قضي عليهم ومضى عليهم، قال. فقال: [أ] فلا يكون ذلك ظلماً؟ قال: ففزعت من ذلك فزعاً شديداً وقلت: [كل شيء] خلق الله وملك فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون. فقال لي: يرحمك الله: إني لم أرد بما سألتك إلا لأحرز عقلك. فإن رجلين من مزينة أتيا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله؟ أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشيء قضي عليهم ومضى فيهم [من قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم؟.

فقال: (لا) بل شيء قضي عليهم ومضى فيهم]، وتصديق ذلك في كتاب الله [ﷻ] ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾[1] فبين النبي ﷺ أن تصديق ما أخبر به من القضاء قوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾.

والذي في الحديث هو القدر السابق من علم الله وكتابه وكلامه، وهذا إنما تنكره غالية القدرية، وأما [الذي][2] في القرآن فهو خلق الله أفعال العباد وهذا أبلغ، فإن القدرية المجوسية تنكره.

فالذي في القرآن يدل على ما في الحديث وزيادة، ولهذا جعله النبي ﷺ مصدقاً له، وذلك من وجوه:

أحدها: أنه إذا علم أن الله هو الملهم للفجور والتقوى ـ ولم يكن في ذلك ظلم كما تقوله القدرية الإبليسية، ولا مخالفة للأمر والنهي والوعد والوعيد كما تقوله القدرية المشركية ـ [ف][3] الإقرار بأن الله كتب ذلك وقدره قبل وجوده مما لا نزاع فيه عند الإنسان من جهة القدر، ولهذا قد أقر بالقدر السابق جمهور القدرية الذين ينكرون خلق الأفعال، ولم يثبت أحد من القدرية أن الله خالق أفعال العباد وينكره من جهة القدر أن الله خالق ذلك.

---

(١) مرّ تخريجه.
(٢) بياض في الأصل وما بين [ ] من تقدير (عبد الصمد).
(٣) يقتضيها السياق (عبد الصمد).

الوجه الثاني: أنه إذا ثبت أن الله خالق فعل العبد، وأنه الملهم الفجور والتقوى، كان ذلك من جملة مصنوعاته، والشبهة التي عرضت للقدرية ـ التي سأل المزنيان للنبي ﷺ ـ إنما هي في أعمال العباد التي عليها الثواب والعقاب خاصة، ولم ينكروا من جهة القدر أن الله قدر ما يخلقه هو قبل وجوده، وإنما أنكر من أنكر منهم إذا اشتبه أمر أفعال العباد.

وهؤلاء يقولون إن الله يقدر الأمور قبل وجودها إلا أفعال العباد والسعادة والشقاوة، فإن ذلك لا ينبغي أن يعلمه حتى يكون، لأن أمر الأمير بما يعلم أن المكلف لا يطيعه فيه، بل يكون ضرراً عليه، مستقبح عندهم، وقد حكى طوائف من المصنفين في أصول الفقه وغيرهم الخلاف في ذلك عن المعتزلة، وقالوا: يجوز أن الله يأمر العبد بما يعلم أنه لا يفعله، خلافاً للمعتزلة، لأن في جنس المعتزلة من يخالف في ذلك وأكثرهم لا يخالف في ذلك، وإنما يخالف فيه طائفة منهم.

فإذا كان القرآن قد أثبت أنه الملهم للنفس فجورها وتقواها كان ذلك من جملة مفعولاته، فلا تبقى شبهة القدرية أنه قدر ذلك قبل وجوده، كما لا شبهة عندهم في تقديره لما يخلقه من الأعيان والصفات.

وأما من أنكر تقديره العلم من منكرة الصفات أو بعضها فأولئك لهم مأخذ آخر، ليس مأخذهم أمر الصفات.

الوجه الثالث: أنه قد كان ألهم الفجور والتقوى، وهو خالق فعل العبد، فلا بد أن يعلم ما خلقه قبل أن يخلقه، كما قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤] لأن الفاعل المختار يريد ما يفعله، والإرادة مستلزمة لتصور المراد وذلك هو العلم بالمراد المفعول.

وإذا كان خلقه للشيء مستلزماً لعلمه به فذلك أصل القدر السابق وما علمه الله سبحانه بقوله وبكتبه فلا نزاع فيه، وهذا بين في جميع الأشياء ـ في هذا وغيره.

فإنه سبحانه إذا ألهم الفجور والتقوى فالملهم إن [لم][1] يميز بين الفجور والتقوى

(١) لا يوجد في الأصل (لم) (عبد الصمد).

ويعلم أن هذا الفعل الذي يريد أن يفعله هذا فجور. والذي يريد أن يفعله هذا تقوى، لم يصح منه إلهام الفجور والتقوى، فتظهر بهذا حسن ما ذكره النبي ﷺ من تصديق الآية لما أخبر به النبي ﷺ من القدر السابق.

وقوله سبحانه: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾ كما يدل على القدر فيدل على الشرع، فإنه لو قال (فألهمها أفعالها) كما يقول الناس (خالق أفعال العباد) لم يكن في ذلك تمييز بين الخير والشر، والمحبوب والمكروه، والمأمور به والمنهي عنه، بل كان فيه حجة للمشركين، ـ من المباحية والجبرية ـ الذين يدفعون الأمر والنهي، والحسن والقبح، فإنه خلق أفعال العباد، فلما قال: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾ كان الكلام تفريقاً بين الحسن المأمور به والقبيح المنهي عنه، وأن الأفعال منقسمة إلى حسن وسيء، مع كونه تعالى خالق الصنفين.

وهذه طريقة القرآن في غير موضع ـ يذكر المؤمن والكافر وأفعالهما الحسنة والسيئة (و)[١] وعده ووعيده، ويذكر أنه خالق الصنفين، كقوله: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨] ونحو ذلك.

وهذا الأصل ضلت فيه الجبرية والقدرية.

فإن القدرية المجوسية قالوا: إن الأفعال تنقسم إلى حسن وقبيح لصفات قائمة بها، والعبد هو المحدث لها بدون قدرة الله وبدون خلقه.

فقالت الجبرية: بل العبد مجبور على فعله، والجبر حق يوجب وجود أفعاله عند وجود الأسباب التي يخلقها الله وامتناع وجودها عند عدم شيء من الأسباب وإذا كان مجبوراً يمتنع أن يكون الفعل حسناً أو قبيحاً لمعنى يقوم به.

وهذه طريقة أبي عبد الله الرازي ونحوه من الجبرية النافين لانقسام في نفسه إلى حسن وقبيح، والأولى طريقة أبي الحسين البصري[٢] ونحوه من القدرية القائلين بأن

---

(١) سقطت من الأصل (عبد الصمد).

(٢) هو محمّد بن علي الطيب، أبو الحسين البصري، أحد أئمة المعتزلة ولد في البصرة، وسكن بغداد وتوفي بها عام (٤٣٦هـ) قال الخطيب البغدادي له تصانيف وشهرة. من كتبه: «المعتمد في أصول الفقه، وتصفح الأدلة، وغرر الأدلة، وشرح الأصول الخمسة كلها في الأصول وكتاب في الإمامة، وشرح أسماء الطبيعي».

فعل العبد لم يحدثه إلا هو، والعلم بذلك ضروري أو نظري، وأن الفعل ينقسم في نفسه إلى حسن وقبيح، والعلم بذلك ضروري.

وأبو الحسين هو إمام المتأخرين من المعتزلة، وله من العقل والفضل ما ليس لأكثر نظرائه، لكن هو قليل المعرفة بالسنن، ومعاني القرآن، وطريقة السلف.

وهو وأبو عبد الله الرازي في هذا الباب في طرفي نقيض، ومع كل منهما من الحق ما ليس مع الآخر، فأبو الحسين يدعي أن العلم بأن العبد يحدث فعله ضروري، والرازي يدعي [أن العلم][1] بأن افتقار الفعل المحدث الممكن إلى مرجح يجب وجوده عنده، ويمتنع عند عدمه ضروري كذلك، بل كلاهما صادق فيما ذكره من العلم الضروري.

ثم يعتقد كل فريق أن هذا العلم الضروري يبطل ما ادعاه الآخر من الضرورة، وليس الأمر كذلك، بل كلاهما صادق فيما ذكره من العلم الضروري ومصيب في ذلك، وإنما وقع غلطه في إنكاره ما مع الآخر من الحق، فإنه لا منافاة بين كون العبد محدثاً لفعله وكون هذا الإحداث ممكن الوجود بمشيئة الله تعالى.

ولهذا كان مذهب أهل السنة المحضة أن العبد فاعل لفعله حقيقة، كما ادعاه أبو الحسين من الضرورة؟ لا يقولون: ليس بفاعل حقيقة، أو ليس بفاعل، كما يقوله المائلون إلى الجبر مثل طائفة أبي عبد الله الرازي، يقولون مع ذلك: إن الله هو الخالق لهذا الفاعل ولفعله، وهو الذي جعله فاعلاً حقيقة، وهو خالق أفعال العباد، كما يقوله أهل الإثبات من الأشعرية ـ طائفة الرازي وغيرهم، لا كما يقوله القدرية ـ مثل أبي الحسين وطائفته: إن الله لم يخلق أفعال العباد.

ولهذا نص الأئمة ـ كالإمام أحمد ومن قبله من الأئمة كالأوزاعي وغيره ـ على إنكار إطلاق القول بالجبر نفياً وإثباتاً، فلا يقال: «إن الله جبر العباد» ولا يقال: «لم يجبرهم» فإن لفظ «الجبر» فيه اشتراك وإجمال، فإذا قيل (جبرهم) [أشعر بأن الله يجبرهم على فعل الخير والشر بغير اختيارهم، وإذا قيل «لم يجبرهم»][2] أشعر بأنهم

---

(١) سقط من الأصل (عبد الصمد).

(٢) سقطت هذه العبارة من الأصل (عبد الصمد).

يفعلون ما يشاءون بغير اختياره، وكلاهما خطأ، وقد بسطنا القول في هذا في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا أن هذين الفريقين اعتقدوا تنافي القدر والشرع، كما اعتقد ذلك المجوس والمشركون، فقالوا: إذا كان خالقاً للفعل امتنع أن يكون الفعل في نفسه حسناً له ثواب، أو قبيحاً عليه عقاب، ثم قالت القدرية: لكن الفعل منقسم، فليس خالقاً للفعل، وقالت الجبرية: لكنه خالق، فليس الفعل منقسماً.

ولكن الجبرية المقرون بالرسل يقرون بالانقسام من جهة أمر الشارع ونهيه فقط، ويقولون: له أن يأمر بما شاء لا لمعنى فيه، وينهى عما يشاء [لا][(١)] لأجل معنى فيه، ويقولون في خلقه وفي أمره جميعاً: يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

وأما من غلب عليه رأي أو هوى فإنه ينحل عن ربقة الشارع إذا عاين الجبر، ويقولون ما يقوله المشركون: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

ومن أقر بالشرع، والأمر والنهي، والحسن والقبح دون القدر وخلق الأفعال ـ كما عليه المعتزلة ـ فهو من القدرية المجوسية الذين شابهوا المجوس، وللمعتزلة من مشابهة المجوس واليهود نصيب وافر.

ومن أقر بالقضاء والقدر وخلق الأفعال وعموم الربوبية، وأنكر المعروف والمنكر، والهدى والضلال، والحسنات والسيئات، ففيه شبه من المشركين والصابئة.

وكان الجهم بن صفوان ومن اتبعه كذلك لما ناظر أهل الهند، كما كان المعتزلة كذلك لما ناظروا المجوس ـ الفرس ـ والمجوس أرجح من المشركين.

فإن من أنكر الأمر والنهي، أو لم يقر بذلك، فهو مشركٍ صريح كافر ـ أكفر من اليهود والنصارى والمجوس ـ كما يوجد ذلك في كثير من المتكلمة والمتصوفة ـ أهل الإباحة ونحوهم.

ولهذا لم يظهر هؤلاء ونحوهم في عصر الصحابة والتابعين لقرب عهدهم بالنبوة،

---

(١) سقطت من الأصل (عبد الصمد).

وإنما ظهر أولئك القدرية المجوسية لأن مذهبهم فيه تعظيم للأمر والنهي والثواب والعقاب، فهم أقرب إلى الكتاب والسنة والرسول والدين من هؤلاء المعطلة للأمر والنهي، فإن هؤلاء من شر الخلق.

وأما القدرية الإبليسية فهم الذين يقرون بوجود الأمر والنهي من الله ويقرون مع ذلك بوجود القضاء والقدر منه، لكن يقولون: هذا فيه جهل وظلم، فإنه بتناقضه يكون جهلاً وسفهاً، وبما فيه من عقوبة العبد بما خلق فيه يكون ظلماً.

وهذا حال إبليس، فإنه قال: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩] فأقر بأن الله أغواه، ثم جعل ذلك عنده داعياً(١) يقتضي أن يغوي هو ذرية آدم.

وإبليس هو أول من عادى الله، وطغى(٢) في خلقه وأمره، وعارض النص بالقياس ولهذا يقول بعض السلف: أول من قاس إبليس، فإن الله أمره بالسجود لآدم، فاعترض على هذا الأمر بأني خير منه، وامتنع من السجود، فهو أول من عادى الله، وهو الجاهل الظالم الجاهل بما في أمر الله من الحكمة، الظالم باستكباره الذي جمع فيه بين بطر الحق وغمط الناس.

ثم قوله لربه: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ﴾ [الأعراف: ١٦] جعل فعل الله ـ الذي هو إغواؤه له ـ حجة له، وداعياً إلى أن يغوي ابن آدم، وهذا طعن منه في فعل الله وأمره، وزعم منه أنه قبيح، فأنا أفعل القبيح أيضاً، فقاس نفسه على ربه، ومثل نفسه بربه.

ولهذا كان مضاهياً للربوبية، كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر عن النبي ﷺ: «إن إبليس ينصب عرشه على البحر، ثم يبعث سراياه، فأعظمهم فتنة أقربهم إليه منزلة، فيجيء الرجل فيقول: ما زلت به حتى فعل كذا، ثم يجيء الآخر فيقول: ما زلت به حتى فرقت بينه وبين زوجته فيلتزمه ويدنيه منه ويقول: أنت أنت»(٣).

---

(١) في الأصل (ديناً) هكذا قدرها (عبد الصمد) ولعل الأصل (ديناً) وفيها معنى سليم فكأنما جعل إبليس مقتضى الإغواء دَيناً في رقبته.

(٢) كذا في الأصل، ولعل الصواب: «وطعن».

(٣) مرّ تخريجه.

والقدرية قصدوا تنزيه الله عن السفه، وأحسنوا في هذا القصد، فإنه سبحانه مقدس عما يقول الظالمون ـ من إبليس وجنوده ـ علواً كبيراً، حكم، عدل، لكن ضاق ذرعهم وحصل عندهم نوع جهل اعتقدوا معه أن هذا التنزيه لا يتم إلا بأن يسلبوه قدرته على أفعال العباد، وخلقه لها، وشمول إرادته لكل شيء، فناظروا إبليس وحزبه في شيء، واستحوذ عليهم إبليس من ناحية أخرى.

وهذا من أعظم آفات الجدال في الدين بغير علم أو بغير الحق، وهو الكلام الذي ذمه السلف، فإن صاحبه يرد باطلاً بباطل وبدعة ببدعة.

فجاء طوائف ممن ناظرهم من أهل الإثبات فقرروا أن الله خالق كل شيء، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه على كل شيء قدير، فضاق ذرعهم وعلمهم، واعتقدوا أن هذا لا يتم إن لم ننكر محبة الله، ورضاه، وما خص به بعض الأفعال دون بعض من الصفات الحسنة والسيئة، وننكر حكمته، ورحمته ـ فيجوز عليه كل فعل، لا ينزه عن ظلم ولا غيره من الأفعال، وزاد قوم في ذلك حتى عطلوا الأمر والنهي والوعد والوعيد رأساً، ومال هؤلاء إلى الإرجاء، كما مال الأولون إلى الوعيد، فقالت الوعيدية: كل فاسق خالد في النار، لا يخرج منها أبداً، وقالت الخوارج: هو كافر، وغالية المرجئة أنكرت عقاب أحد من أهل القبلة، ومن صرح بالكفر أنكر الوعيد في الآخرة رأساً، كما يفعله طوائف من الاتحادية، والمتفلسفة، والقرامطة، والباطنية، وكان هؤلاء الجبرية المرجئة أكفر بالأمر والنهي والوعد والوعيد من المعتزلة الوعيدية القدرية.

وأما مقتصدة المرجئة الجبرية الذين يقرون بالأمر والنهي والوعد والوعيد، وأن من أهل القبلة من يدخل النار، فهؤلاء أقرب الناس إلى أهل السنة، وقد روى الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال: «لعنت القدرية والمرجئة على لسان سبعين نبياً أنا آخرهم»(١).

لكن المعتزلة من القدرية أصلح من الجبرية والمرجئة ونحوهم في الشريعة ـ علمها وعملها، فكلامهم في أصول الفقه وفي اتباع الأمر والنهي خير من كلام المرجئة من الأشعرية وغيرهم، فإن كلام هؤلاء في أصول الفقه قاصر جداً، وكذلك هم مقصرون

(١) ذكره ابن الجوزي في (العلل المتناهية) (١/١٤٣) والحديث لا يصح.

في تعظيم الطاعات والمعاصي. ولكن هم في أصول الدين أصلح من أولئك، فإنهم يؤمنون من صفات الله وقدرته وخلقه بما لا يؤمن به أولئك، وهذا الصنف أعلى.

فلهذا كانت المرجئة في الجملة خيراً من القدرية، حتى إن الإرجاء دخل فيه الفقهاء من أهل الكوفة وغيرهم، بخلاف الاعتزال، فإنه ليس فيه أحد من فقهاء السلف وأئمتهم.

فصل

فإذا كان الضلال في القدر حصل تارة بالتكذيب بالقدر والخلق[١]، وتارة بالتكذيب بالشرع والوعيد، وتارة بتظلم الرب، كان في هذه السورة رداً على هذه الطوائف كلها.

فقوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾ إثبات للقدر بقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾، وإثبات لفعل العبد. بإضافة الفجور والتقوى إلى نفسه ليعلم أنها هي الفاجرة والمتقية، وإثبات للتفريق بين الحسن والقبيح، والأمر والنهي، بقوله: ﴿فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾.

وقوله بعد ذلك: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾ إثبات لفعل العبد، والوعد والوعيد بفلاح من زكى نفسه، وخيبة من دساها، وهذا صريح في الرد على القدرية المجوسية، وعلى الجبرية للشرع أو لفعل العبد ـ وهم المكذبون بالحق.

وأما المظلمون[٢] للخالق فإنه قد دل على عدله بقوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧﴾ والتسوية: التعديل. فبين أنه عادل في تسوية النفس التي ألهمها فجورها وتقواها.

وذكر بعد ذلك عقوبة من كذب رسله وطغى، وأنه لا يخاف عاقبة انتقامه ممن خالف رسله، ليبين أن من كذب بهذا أو بهذا فإن الله ينتقم منه، ولا يخاف عاقبة انتقامه، كما انتقم من إبليس وجنوده، وأن تظلمه من ربه وتَسفيهه له إنما يهلك به نفسه ولن يضر الله شيئاً.

(١) في الأصل (الغلو) وقدرها عبد الصمد (الخلق) ويقصد به خلق أفعال العباد. والأصل فيه معنى صحيح أيضاً.

(٢) أي الذين ينسبونه إلى الظلم أو يشتكون منه.

«فإن العباد لن يبلغوا ضر الله فيضروه، ولن يبلغوا نفعه فينفعوه، ولو أن أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم كانوا على أتقى قلب رجل منهم ما زاد ذلك في ملكه شيئاً، ولو أن أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم كانوا على أفجر قلب رجلٍ منهم ما نقص ذلك من ملكه شيئاً»(١).

ولهذا لما سأل عمران بن حصين أبا الأسود الدؤلي عن ذلك ليحزر عقله «هل يكون ذلك ظلماً»؟ فذكر أن ذلك ليس منه ظلماً، وخاف من قوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ [الإسراء] وذكر حديث النبي ﷺ، واستشهاده بهذه الآية.

وقد تبين أن القدرية الخائضين بالباطل إما أن يكونوا مكذبين لما أخبر به الرب من خلقه أو أمره، وإما أن يكونوا مظلمين له في حكمه، وهو سبحانه الصادق العدل، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام] فإن الكلام إما إنشاء وإما إخبار، فالإخبار صدق، لا كذب ـ والإنشاء ـ أمر التكوين، وأمر التشريع ـ عدل، لا ظلم، والقدرية المجوسية كذبوا بما أخبر به عن خلقه وشرعه من أمر الدين، والإبليسية جعلوه ظالماً في مجموعهما، أو في كل منهما.

وقد ظهر بذلك أن المفترقين المختلفين من الأمة إنما ذلك بتركهم بعض الحق الذي بعث الله به نبيه وأخذهم باطلاً يخالفه، واشتراكهم في باطل يخالف ما جاء به الرسول، وهو من جنس مخالفة الكفار للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ إلى قوله ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

فإذا اشتركوا في باطل خالفوا به المؤمنين المتبعين للرسل نسوا حظاً مما ذكروا به فألقى بينهم العداوة والبغضاء، واختلفوا فيما بينهم في حق آخر جاء به الرسول، فآمن هؤلاء ببعضه وكفروا ببعضه، والآخرون يؤمنون بما كفر به هؤلاء ويكفرون بما يؤمن به هؤلاء.

وهنا كلا الطائفتين المختلفتين المفترقتين مذمومة، وهذا شأن عامة الافتراق

(١) مرّ تخريجه.

والاختلاف في هذه الأمة وغيرها، وهذا من ذلك فإنهم اشتركوا [في][1] أن كون الرب خالقاً لفعل العبد ينافي كون فعله منقسماً إلى حسن وقبيح، وهذه المقدمة اشتركوا فيها جدلاً من غير أن تكون حقاً في نفسها أو عليها حجة مستقيمة.

وهي إحدى المقدمتين التي يعتمدها الرازي في مسألة التحسين والتقبيح، فإنه اعتقد في «محصوله» وغيره على أن العبد مجبور على فعله، والمجبور لا يكون فعله قبيحاً، فلا يكون شيء من أفعال العباد قبيحاً.

وهذه الحجة بنفي ذلك أصلها حجة المشركين المكذبين للرسل ـ الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨] فإنهم نفوا قبح الشرك وتحريم ما لم يحرمه الله من الطيبات بإثبات القدر.

لكن هؤلاء الذين يحتجون بالجبر على نفي الأحكام إذا أقروا بالشرع لم يكونوا مثل المشركين من كل وجه، ولهذا لم يكن المتكلمون المقرون بالشريعة كالمشركين، وإن كان فيهم جزء من باطل المشركين.

لكن يوجد في المتكلمين والمتصوفة طوائف يغلب عليهم الجبر حتى يكفروا حينئذ بالأمر والنهي والوعد والوعيد والثواب والعقاب ـ إما قولاً، وإما حالاً وعملاً، وأكثر ما يقع ذلك في الأفعال التي توافق أهواءهم ـ يطلبونِ بذلك إسقاط اللوم والعقاب عنهم، ولا يزيدهم ذلك إلا ذماً وعقاباً ـ كالمستجير من الرمضاء بالنار ـ.

فإن هذا القول لا يطرد العمل به لأحد إذ لا غنى لبني آدم ـ بعضهم من بعض ـ من إرادة شيء والأمر به، وبغض شيء والنهي عنه، فمن طلب أن يسوي بين المحبوب والمكروه، والمرضي والمسخوط، والعدل والظلم، والعلم والجهل، والضلال والهدى، والرشد والغي، فإنه لا يستمر على ذلك أبداً، بل إذا حصل له ما يكرهه ويؤذيه فر إلى دفع ذلك، وعقوبة فاعله بما قدر عليه حتى يعتدي في ذلك.

فهم[2] من أظلم الخلق في تفريقهم بين القبيح من الظلم والفواحش منهم ومن غيرهم، وممن يهوونه ومن لا يهوونه، واحتجاجهم بالقدر لأنفسهم دون خصومهم.

---

(١) ما بين [] من تقدير صاحب المجموع والكلام يستقيم بدونها.

(٢) في الأصل (فهو) (عبد الصمد).

وتجد أحدهم عند فعل ما يحمد عليه يغلب على قلبه حال أهل القدر، فيجعل نفسه هو المحدث لذلك دون الله، وينسى نعمة الله عليه في إلهامه تقواه، وهذا من أظلم الخلق، كما قال أبو الفرج بن الجوزي: أنت عند الطاعة قدري، وعند المعصية جبري ـ أي مذهب وافق هواك تمذهبت به.

وأهل العدل ضد ذلك، إذا فعلوا حسنة شكروا الله عليها لعلمهم بأن الله هو الذي حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم، وأنه هو الذي كره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٣٥﴾ [آل عمران].

فاتبعوا أباهم حيث أذنب: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝٣٧﴾ [البقرة]. ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

ويقول أحدهم «أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي» كما قال النبي ﷺ: «سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب [إلا أنت]»(١) وكما في الحديث الصحيح أيضاً: «إن الله تعالى يقول: يا عبادي، إنما هي أعمالكم ترد عليكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد شراً فلا يلومن إلا نفسه»(٢) ويقولون بموجب قوله تعالى: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]»(٣).

قال ابن القيم رحمه الله(٤):

ذكر سبحانه في هذه السورة ثمود دون غيرهم من الأمم المكذبة، فقال شيخ الإسلام أبو العباس تقي الدين ابن تيمية:

---

(١) مرّ تخريجه. (٢) سبق تخريجه.

(٣) مجموع الفتاوى (١٦/٢٢٦ ـ ٢٤٨).

(٤) وهو كلام لابن القيم لم ينقله صاحب (دقائق التفسير) ونقله صاحب (المجموع) وتفسيرات ابن تيمية لعبد الصمد ذكر ذلك ابن القيم في كتاب (التبيان في أقسام القرآن) وقد جمعت بفضل الله جميع أقوال شيخ الإسلام عند ابن القيم في مجلد وسيطبع قريباً إن شاء الله.

هذا ـ والله أعلم ـ من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى، فإنه لم يكن في الأمم المكذبة أخف ذنباً وعذاباً منهم، إذ لم يذكر عنهم من الذنوب ما ذكر عن عاد، ومدين، وقوم لوط وغيرهم.

ولهذا لما ذكرهم وعاداً قال: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فصلت]. ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

وكذلك إذا ذكرهم مع الأمم المكذبة لم يذكر عنهم ما يذكر عن أولئك من التجبر والتكبر والأعمال السيئة كاللواط، وبخس المكيال والميزان، والفساد في الأرض، كما في سورة هود، والشعراء، وغيرهما، فكان في قوم لوط ـ مع الشرك ـ إتيان الفواحش التي لم يسبقوا إليها، وفي عاد ـ مع الشرك ـ التجبر، والتكبر، والتوسع في الدنيا، وشدة البطش، وقولهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، وفي أصحاب مدين ـ مع الشرك ـ الظلم في الأموال، وفي قوم فرعون الفساد في الأرض، والعلو.

وكان عذاب كل أمة بحسب ذنوبهم وجرائمهم، فعذب قوم عاد بالريح الشديدة العاتية التي لا يقوم لها شيء، وعذب قوم لوط بأنواع من العذاب لم يعذب بها أمة غيرهم، فجمع لهم بين الهلاك، والرجم بالحجارة من السماء وطمس الأبصار، وقلب ديارهم عليهم بأن جعل عاليها سافلها، والخسف بهم إلى أسفل سافلين، وعذب قوم شعيب بالنار التي أحرقتهم، وأحرقت تلك الأموال التي اكتسبوها بالظلم والعدوان.

وأما ثمود فأهلكهم بالصيحة فماتوا في الحال، فإذا كان هذا عذابه لهؤلاء وذنبهم ـ مع الشرك ـ عقر الناقة التي جعلها الله آية لهم فمن انتهك محارم الله، واستخف بأوامره ونواهيه، وعقر عباده وسفك دماءهم، كان أشد عذاباً.

ومن اعتبر أحوال العالم قديماً وحديثاً، وما يعاقب به من يسعى في الأرض بالفساد، وسفك الدماء بغير حق، وأقام الفتن، واستهان بحرمات الله، علم أن النجاة في الدنيا والآخرة للذين آمنوا وكانوا يتقون»[1].

(١) مجموع الفتاوى (١٦/٢٤٩ ـ ٢٥٠).

سورة الليل

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ۝١٠ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ۝١١ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ۝١٣ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ۝١٤﴾.

(وقد بين الكتاب والسنة هذا القدر وأجاب النبي ﷺ عن السؤال الوارد عليه، وهو ترك العمل لأجله، فأجاب ﷺ عن ذلك، ففي الصحيحين[1] عن علي بن أبي طالب قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله، ومعه مخصرة فنكس فجعل ينكت بمخصرته ثم قال: «ما منكم من أحد ـ أو قال ـ ما من نفس منفوسة إلا قد كتب الله مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة» قال فقال رجل: يا رسول الله أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل، فمن كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة؟ فقال: «اعملوا فكل ميسر: أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة ـ ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝٥﴾ إلى آخر الآيات، وفي رواية: كان رسول الله ﷺ ذات يوم جالساً وفي يده عود ينكت به الأرض فرفع رأسه فقال: «ما منكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة والنار» قالوا يا رسول الله ففيم العمل؟ أفلا نتكل؟ قال: «لا: اعملوا فكل ميسر لما خلق له ـ ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى﴾ الآية[2]) ا.هـ[3].

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ۝١٢﴾.

(قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ۝١٢﴾ أي الهدى إلينا هذا أصح الأقوال في الآيتين) ا.هـ[4].

---

(١) البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧).
(٢) البخاري (٦٥٩٦)، ومسلم (٢٦٤٩).
(٣) مجموع الفتاوى (٢/ ١٥٢ ـ ١٥٣).
(٤) مجموع الفتاوى (١٧/ ٢٣٠ ـ ٢٣١).

قال ابن القيم:

(سمعت شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية رضي الله عنه يقول: وهما نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾ قال: فهذه ثلاثة مواضع في القرآن في هذا المعنى.

قلت: وأكثر المفسرين لم يذكر في سورة ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾﴾ [الليل] إلا معنى الوجوب، أي علينا بيان الهدى من الضلال. ومنهم من لم يذكر في سورة «النحل» إلا هذا المعنى كالبغوي. وذكر في «الحِجْر» الأقوال الثلاثة. وذكر الواحدي في بسيطه المعنيين في سورة «النحل» واختار شيخنا قول مجاهد والحسن في السور الثلاث[١]) ا.هـ[٢].

وقال شيخ الإسلام رحمه الله:

(وأما آية الليل ـ قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾ ـ فابن عطية مثلها بهذه الآية، لكنه فسرها بالوجه الأول فقال: ثم أخبر تعالى أن عليه هدى الناس جميعاً، أي تعريفهم بالسبل كلها ومنحهم الإدراك، كما قال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩]، ثم كل أحد يتكسب ما قدر له. وليست هذه الهداية بالإرشاد إلى الإيمان، ولو كان كذلك لم يوجد كافر.

(قلت): وهذا هو الذي ذكره ابن الجوزي ـ وذكره عن الزجاج[٣]. قال الزجاج: إن علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال.

وهذا التفسير ثابت عن قتادة[٤]، رواه عبد بن حميد. حدثنا يونس، عن شيبان، عن قتادة: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾، علينا بيان حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته. وكذلك رواه ابن أبي حاتم في تفسير سعيد، عن قتادة[٥] في قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾، يقول: على الله البيان ـ بيان حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته.

---

(١) الآيات الثلاثة هي: آية النحل: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾، وآية الحجر ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ...﴾ والآية الثالثة ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾...﴾.

(٢) مدارج السالكين (١/١٧ ـ ١٨).

(٣) زاد المسير (٩/١٥١).

(٤) زاد المسير (٩/١٤٩).

(٥) ابن جرير (٣٠/٣٢٦).

لكن قتادة ذكر أنه البيان الذي أرسل الله به رسله وأنزل به كتبه، فتبين به حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته.

وأما الثعلبي، والواحدي[١]، والبغوي[٢]، وغيرهم، فذكروا القولين وزادوا أقوالاً أخر. فقالوا واللفظ للبغوي:

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢﴾، يعني البيان. قال الزجاج: علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلالة. وهو قول قتادة، قال: على الله بيان حلاله وحرامه.

وقال الفراء: يعني من سلك الهدى فعلى الله سبيله، كقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩]، يقول: من أراد الله فهو على السبيل القاصد.

قال: وقيل: معناه إن علينا للهدى والإضلال، كقوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦][٣].

(قلت): هذا القول هو من الأقوال المحدثة التي لم تعرف عن السلف، وكذلك ما أشبهه. فإنهم قالوا: معناه بيدك الخير والشر، والنبي ﷺ في الحديث الصحيح يقول «والخير بيديك، والشر ليس إليك».

والله تعالى خالق كل شيء ـ لا يكون في ملكه إلا ما يشاء ـ والقدر حق. لكن فهم القرآن، ووضع كل شيء موضعه، وبيان حكمة الرب وعدله مع الإيمان بالقدر، هو طريق الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

وقد ذكر المهدوي الأقوال الثلاثة، فقال: إن علينا للهدى والضلال. فحذَّف[٤] قتادة المعنى: إن علينا بيان الحلال والحرام.

وقيل: المعنى إن علينا أن نهدي من سلك سبيل الهدى.

قلت: هذا هو قول الفراء، لكن عبارة الفراء أبين في معرفة هذا القول.

فقد تبين أن جمهور المتقدمين فسروا الآيات الثلاث بأن الطريق المستقيم لا يدل إلا على الله. ومنهم من فسرها بأن عليه بيان الطريق المستقيم. والمعنى الأول متفق عليه بين المسلمين.

---

(١) الواحدي (٤/ ٥٠٥).
(٢) البغوي (٤/ ٤٦٣).
(٣) إلى هنا انتهى قول البغوي (٤/ ٤٦٣).
(٤) كذا في الأصل.

وأما الثاني، فقد يقول طائفة: ليس على الله شيء ـ لا بيان هذا، ولا هذا. فإنهم متنازعون هل أوجب على نفسه، كما قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] وقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] وقوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

وإذا كان عليه بيان الهدى من الضلال وبيان حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته فهذا يوافق قول من يقول: إن عليه إرسال الرسل، وإن ذلك واجب عليه، فإن البيان لا يحصل إلا بهذا.

وهذا يتعلق بأصل آخر، وهو أن كل ما فعله فهو واجب منه أوجبته مشيئته وحكمته، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فما شاءه وجب وجوده وما لم يشأه امتنع وجوده. وبسط هذا كله موضع آخر.

ودلالة الآيات على هذا فيها نظر.

وأما المعنى المتفق عليه فهو مراد من الآيات الثلاث قطعاً، وأنه أرشد بها إلى الطريق المستقيم، وهي الطريق القصد، وهي الهدى إنما تدل عليه ـ وهو الحق طريقه على الله لا يعرج عنه.

لكن نشأت الشبهة من كونه قال «علينا» بحرف الاستعلاء، ولم يقل «إلينا» والمعروف أن يقال لمن يشار إليه أن يقال «هذه الطريق إلى فلان»، ولمن يمر به ويجتاز عليه أن يقول «طريقنا على فلان».

وذكر هذا المعنى بحرف الاستعلاء. وهو من محاسن القرآن الذي لا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء.

فإن الخلق كلهم مصيرهم ومرجعهم إلى الله على أي طريق سلكوا كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾ [الانشقاق] وقال: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥﴾ [الغاشية]، أي إلينا مرجعهم، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٦٠ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۝٦١ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾

[الأنعام] وقال: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم]، وقال: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [يونس].

فأي سبيل سلكها العبد فإلى الله مرجعه ومنتهاه، لا بد له من لقاء الله: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

وتلك الآيات قصد بها أن سبيل الحق والهدى، وهو الصراط المستقيم، هو الذي يسعد أصحابه، وينالون به ولاية الله ورحمته وكرامته فيكون الله وليهم دون الشيطان. وهذه سبيل من عبد الله وحده وأطاع رسله. فلهذا قال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾، ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩]، ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [الحجر]. فالهدى، وقصد السبيل والصراط المستقيم، إنما يدل على عبادته وطاعته ـ لا يدل على معصيته وطاعة الشيطان.

فالكلام تضمن معنى «الدلالة» إذ ليس المراد ذكر الجزاء في الآخرة، فإن الجزاء يعم الخلق كلهم. بل المقصود ما أمر الله به من عبادته وطاعته وطاعة رسله ـ ما الذي يدل على ذلك؟ فكأنه قيل: الصراط المستقيم يدل على الله ـ على عبادته وطاعته.

وذلك يبين أن من لغة العرب أنهم يقولون: «هذه الطريق على فلان» إذا كانت تدل عليه، وكان هو الغاية المقصود بها، وهذا غير كونها «عليه» بمعنى أن صاحبها يمر عليه. وقد قيل:

فهنَّ المنايا أي واد سلكته ... عليها طريقي أو عليَّ طريقها

وهو كما قال الفراء: من سلك الهدى فعلى الله سبيله.

فالمقصود بالسبيل هو: الذي يدل ويوقع عليه، كما يقال: إن سلكت هذه السبيل وقعت على المقصود، ونحو ذلك، وكما يقال «على الخبير سقطت». فإن الغاية المطلوبة إذا كانت عظيمة فالسالك يقع عليها، ويرمي نفسه عليها.

وأيضاً، فسالك طريق الله متوكل عليه. فلا بد له من عبادته ومن التوكل عليه.

فإذا قيل «عليه الطريق المستقيم» تضمن أن سالكه عليه يتوكل، وعليه تدل الطريق، وعلى عبادته وطاعته يقع ويسقط، لا يعدل عن ذلك، إلى نحو ذلك من المعاني التي يدل عليها حرف الاستعلاء دون حرف الغاية.

وهو سبحانه قد أخبر أنه على صراط مستقيم. فعليه الصراط المستقيم، وهو على صراط مستقيم ـ تعالى ـ عما يقول الظالمون علواً كبيراً، والله أعلم) ا.هـ[١].

﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾﴾.

(وقوله: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾﴾ لا يخلو إما أن يكون المراد بالصِّلِيِّ نوعاً من التعذيب؛ كما قيل: إن الذي تصليه النار هو الذي تحيط به، وأهل القبلة لا تحرق النار منهم مواضع السجود، أو تكون ناراً مخصوصة) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (وقد ذكر في سورة الليل قوله: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾.

وهذا الصلي قد فسره النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم عن أبي سعيد الخدري قال، قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن أصابتهم النار بذنوبهم ـ أو قال: بخطاياهم ـ فأماتهم إماتة، حتى إذا كانوا فحماً أذن بالشفاعة، فجيء بهم ضبائر ضبائر. فبثوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة! أفيضوا عليهم. فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل»[٣]. فقال رجل من القوم: كأن رسول الله ﷺ قد كان بالبادية) ا.هـ[٤].

﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾.

(ومعصية من كذب وتولى، قال تعالى: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ أي كذب بالخبر وتولى عن طاعة الأمر، وإنما على الخلق أن يصدقوا الرسل فيما أخبروا ويطيعوهم فيما أمروا) ا.هـ[٥].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/٢٠٩ ـ ٢١٦).
(٢) منهاج السنة (٥/٢٩٨).
(٣) مسلم (٢٩٩).
(٤) مجموع الفتاوى (١٦/١٩٤ ـ ١٩٥).
(٥) مجموع الفتاوى (٧/٥٩).

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾.

(وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، أعانه بنفسه وماله لله، فقال الله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾) ا. هـ[(١)].

وقال رحمه الله رداً على الرافضة:

(قال الرافضي: «وأما قوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧﴾، فإن المراد به أبو الدحداح حيث اشترى نخلة لشخص لأجل جاره، وقد عرض النبي ﷺ على صاحب النخلة نخلة في الجنة، فسمع أبو الدحداح، فاشتراها ببستان له ووهبها الجار، فجعل النبي ﷺ له بستاناً عوضها في الجنة».

والجواب: أن يُقال: لا يجوز أن تكون هذه الآية مختصّة بأبي الدحداح دون أبي بكر، باتفاق أهل العلم بالقرآن وتفسيره وأسباب نزوله، وذلك أن هذه السورة مكيَّة باتفاق العلماء. وقصة أبي الدحداح كانت بالمدينة باتفاق العلماء، فإنه من الأنصار، والأنصار إنما صحبوه بالمدينة، ولم تكن البساتين ـ وهي الحدائق التي تسمى بالحيطان ـ إلا بالمدينة، فمن الممتنع أن تكون الآية لم تنزل إلا بعد قصة أبي الدحداح، بل إن كان قد قال بعض العلماء: إنها نزلت فيه، فمعناه أنه ممن دخل في الآية، وممن شمله حكمها وعمومها، فإن كثيراً ما يقول بعض الصحابة والتابعين: «نزلت هذه الآية في كذا» ويكون المراد بذلك أنها دلّت على هذا الحكم وتناولته، وأريد بها هذا الحكم.

ومنهم من يقول: بل قد تنزل الآية مرتين: مرة لهذا السبب، ومرة لهذا السبب.

فعلى قول هؤلاء يمكن أنها نزلت مرة ثانية في قصة أبي الدحداح، وإلا فلا خلاف بين أهل العلم أنها نزلت بمكة قبل أن يسلم أبو الدحداح، وقبل أن يهاجر النبي ﷺ.

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٥٤) منهاج السنة (٥/ ١٤) جامع الرسائل (٢/ ١٠٤).

وقد ذكر غير واحد من أهل العلم أنها نزلت في قصة أبي بكر. فذكر ابن جرير في تفسيره بإسناده عن عبد الله بن الزبير وغيره أنها نزلت في أبي بكر[١].

وكذلك ذكره ابن أبي حاتم ـ والثعلبي ـ أنها نزلت في أبي بكر عن عبد الله وعن سعيد بن المسيب[٢].

وذكر ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا أبي، حدثنا محمّد بن أبي عمر العدني، حدثنا سفيان، حدثنا هشام بن عروة عن أبيه، قال: أعتق أبو بكر سبعة كلهم يعذب في الله: بلالاً، وعامر بن فهيرة، والنهدية، وابنتها، وزنيرة، وأم عميس، وأمة بني المؤمل. قال سفيان: فأما زنيرة فكانت رومية، وكانت لبني عبد الدار، فلما أسلمت عميت، فقالوا: أعمتها اللات والعزى. قال: فهي كافرة باللات والعزى، فرد الله إليها بصرها. وأما بلال فاشتراه وهو مدفون في الحجارة، فقالوا: لو أبيت إلا أوقية لبعناكه. فقال أبو بكر: لو أبيتم إلا مائة أوقية لأخذته. قال: وفيه نزلت: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ١٧﴾ إلى آخر السورة.

وأسلم وله أربعون ألفاً، فأنفقها في سبيل الله. ويدل على أنها نزلت في أبي بكر وجوه:

أحدها: أنه قال: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ١٧﴾، وقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] فلا بد أن يكون أتقى الأمة داخلاً في هذه الآية، وهو أكرمكم عند الله، ولم يقل أحد، إن أبا الدحداح ونحوه أفضل وأكرم من السابقين الأوّلين من المهاجرين: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ، وغيرهم. بل الأمة كلهم ـ سنّيهم وغير سنّيهم ـ متفقون على أن هؤلاء وأمثالهم من المهاجرين أفضل من أبي الدحداح، فلا بد أن يكون الأتقى، الذي يؤتي ماله يتزكى، فيهم.

وهذا القائل قد ادّعى أنها نزلت في أبي الدحداح، فإذا كان القائل قائلَيْن: قائلاً يقول: نزلت فيه، وقائلاً يقول: نزلت في أبي بكر، وكان هذا القائل هو الذي يدل القرآن على قوله. وإن قُدِّر عموم الآية لهما، فأبو بكر أحق بالدخول فيها من أبي الدحداح.

(١) الطبري (٣٠/ ٢٢٨). (٢) الدر المنثور (٦/ ٣٥٩).

وكيف لا يكون كذلك، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «ما نفعني مال قط كمال أبي بكر»(١)! فقد نفى عن جميع مال الأمة أن ينفعه كنفع مال أبي بكر، فكيف تكون تلك الأموال المفضولة دخلت في الآية، والمال الذي هو أنفع الأموال له لم يدخل فيها؟!.

الوجه الثاني: أنه إذا كان الأتقى هو الذي يؤتي ماله يتزكى، وأكرم الخلق أتقاهم، كان هذا أفضل الناس. والقولان المشهوران في هذه الآية: قول أهل السنة أن أفضل الخلق أبو بكر، وقول الشيعة عليّ، فلم يجز أن يكون الأتقى الذي هو أكرم الخلق على الله واحداً غيرهما، وليس منهما واحد يدخل في الأتقى، وإذا ثبت أنه لا بد من دخول أحدهما في «الأتقى» وجب أن يكون أبو بكر داخلاً في الآية، ويكون أولى بذلك من عليّ لأسباب:

أحدها: أنه قال: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾. وقد ثبت في النقل المتواتر ـ في الصحاح وغيرها ـ أن أبا بكر أنفق ماله، وأنه مقدَّم في ذلك على جميع الصحابة. كما ثبت في الحديث الذي رواه البخاري عن ابن عباس، قال: خرج رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه عاصباً رأسه بخرقة، فقعد على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «إنه ليس من الناس أحدٌ أمنُّ عليَّ [في] نفسه وماله من أبي بكر بن أبي قحافة، ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن خلة الإسلام أفضل، سدُّوا عني كل خوخة في هذا المسجد إلا خوخة أبي بكر»(٢).

وفي الصحيحين عنه أنه قال ﷺ: «إن أمنّ الناس في صحبته وماله أبو بكر»(٣). وفي البخاري عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله بعثني إليكم، فقلتم: كذبت. وقال أبو بكر: صدقت، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟ مرتين فما أوذي بعدها»(٤).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ما نفعني مال قط ما نفعني مال أبي بكر» فبكى أبو بكر وقال: هل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله؟»(٥).

(١) مرّ تخريجه.
(٢) مرّ تخريجه.
(٣) مرّ تخريجه.
(٤) مرّ تخريجه.
(٥) مرّ تخريجه.

وعن عمر قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق، فوافق ذلك مالاً عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر، إن سبقته يوماً. فجئت بنصف مالي. فقال النبي ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» قلت: مثله. وجاء أبو بكر بماله كله. فقال له النبي ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» قال: أبقيت لهم الله ورسوله، فقلت: لا أسابقك إلى شيء أبداً» رواه أبو داود والترمذي وصححه[١].

فهذه النصوص الصحيحة المتواترة الصريحة تدل على أنه كان من أعظم الناس إنفاقاً لماله فيما يرضي الله ورسوله.

وأما عليّ فكان النبي ﷺ يمونه لما أخذه من أبي طالب لمجاعة حصلت بمكة، وما زال عليّ فقيراً حتى تزوج بفاطمة وهو فقير. وهذا مشهور معروف عند أهل السنة والشيعة، وكان في عيال النبي ﷺ، لم يكن له ما ينفقه، ولو كان له مال لأنفقه، لكنه كان منفَقاً عليه لا منفِقاً.

السبب الثاني: قوله: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾﴾ وهذه لأبي بكر دون عليّ، لأن أبا بكر كان للنبي ﷺ عنده نعمة الإيمان أن هداه الله به، وتلك النعمة لا يجزي بها الخلق، بل أجر الرسول فيها على الله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [ص]، وقال: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ﴾ [سبأ: ٤٧].

وأما النعمة التي يُجزى بها الخلق فهي نعمة الدنيا، وأبو بكر لم تكن للنبي ﷺ عنده نعمة الدنيا، بل نعمة الدين، بخلاف عليّ، فإنه كان للنبي ﷺ عنده نعمة دنيا يمكن أن تُجزى.

الثالث: أن الصديق لم يكن بينه وبين النبي ﷺ سبب يواليه لأجله، ويخرج ماله، إلا الإيمان، ولم ينصره كما نصره أبو طالب لأجل القرابة، وكان عمله كاملاً في إخلاصه لله تعالى، كما قال: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

وكذلك خديجة كانت زوجته، والزوجة قد تنفق مالها على زوجها، وإن كان دون النبي ﷺ.

---

(١) مرّ تخريجه.

وعليّ لو قدر أنه أنفق لكان قد أنفق على قريبه، وهذه أسباب قد يُضاف الفعل إليها، بخلاف إنفاق أبي بكر، فإنه لم يكن له سبب إلا الإيمان بالله وحده، فكان من أحق المتّقين بتحقيق قوله: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٠﴾، وقوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ۝١٧ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٠﴾ استثناء منقطع، والمعنى: لا يقتصر في العطاء على من له عنده نعمة يكافئه بذلك، فإن هذا من باب العدل الواجب للناس بعضهم على بعض، بمنزلة المعاوضة في المبايعة والمؤاجرة، وهو واجب لكل أحدٍ على أحد، فإذا لم يكن لأحد عنده نعمة تُجزى لم يحتج إلى هذه المعاوضة، فيكون عطاؤه خالصاً لوجه ربه الأعلى، بخلاف من كان عنده لغيره نعمة يحتاج أن يجزيه بها، فإنه يحتاج أن يعطيه مجازاة على ذلك.

وهذا الذي ما لأحدٍ عنده من نعمة تُجزى إذا أعطى ماله يتزكى في معاملته للناس دائماً يكافئهم ويعاوضهم ويجازيهم، فحين إعطائه ماله يتزكى، لم يكن لأحد عنده من نعمة تجزى.

وفيه أيضاً ما يبين أن الفضل بالصدقة لا يكون إلا بعد أداء الواجب من المعاوضات، كما قال تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ﴾ [البقرة: ٢١٩]، فمنْ عليه ديون من أثمان وقرض وغير ذلك، فلا يقدّم الصدقة على قضاء هذه الواجبات، ولو فعل ذلك: فهل تردّ صدقته؟ على قولين معروفين للفقهاء، فهذه الآية يحتج بها من تردّ[1] صدقته؛ لأن الله تعالى إنما أثنى على من آتى ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى، فإذا كان عنده نعمة تجزى، فعليه أن يجزي بها قبل أن يؤتي ماله يتزكى، فإذا آتى ماله يتزكى قبل أن يجزي بها لم يكن ممدوحاً، فيكون عمله مردوداً، لقوله ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[2].

الرابع: أن هذه الآية إذا قدر أنه دخل فيها من دخل من الصحابة، فأبو بكر أحق الأمة بالدخول فيها، فيكون هو الأتقى من هذه الأمة، فيكون أفضلهم. وذلك لأن الله تعالى وصف الأتقى بصفات أبو بكر أكمل فيها من جميع الأمة، وهو قوله:

(١) كذا في الأصل، ولعل الصواب: «من يَرُدُّ صدقته» أو «من يقول: تُردُّ صدقته».

(٢) مرّ تخريجه.

﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾، وقوله: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾.

أما إيتاء المال فقد ثبت في الصحاح عن النبي ﷺ أن إنفاق أبي بكر أفضل من إنفاق غيره، وأن معاونته له بنفسه وماله أكمل من معاونة غيره.

وأما ابتغاء النعمة التي تجزى، فأبو بكر لم يطلب من النبي ﷺ مالاً قط، ولا حاجة دنيوية، وأنه كان يطلب منه العلم، لقوله الذي ثبت في الصحيحين أنه قال للنبي ﷺ: «علمني دعاء أدعو به في صلاتي. فقال: قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»(١).

ولا أعطاه النبي ﷺ مالاً يخصه به قط، بل إن حضر غنيمة كان كآحاد الغانمين، وأخذ النبي ﷺ ماله كله، وأما غيره من المنفقين ـ من الأنصار وبني هاشم ـ فقد كان النبي ﷺ يعطيهم ما لا يعطي غيرهم، فقد أعطى بني هاشم وبني المطلب من الخُمس ما لم يعط غيرهم، واستعمل عمر وأعطاه عمالة. وأما أبو بكر فلم يعطه شيئاً، فكان أبعد الناس من النعمة التي تُجزى، وأولاهم بالنعمة التي لا تجزى.

وأما إخلاصه في ابتغاء وجه ربه الأعلى، فهو أكمل الأمة في ذلك. فعُلم أنه أكمل من تناولته الآية في الصفات المذكورة.

كما أنه أكمل من تناوله قوله: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزمر]، وقوله: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [الحديد: ١٠]، وقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وأمثال ذلك من الآيات التي فيها مدح المؤمنين من هذه الأمة، فأبو بكر أكمل الأمة في الصفات التي يمدح الله بها المؤمنين، فهو أولاهم بالدخول فيها، وأكمل من دخل فيها، فعلم أنه أفضل الأمة) ا.هـ(٢).

وقال رحمه الله: (ومما يبين الحب لله والحب لغير الله أن أبا بكر رضي الله عنه كان يحب

(١) البخاري (١/١٦٦)، مسلم (٤/٢٠٧٨).

(٢) منهاج السنة (٨/ ٤٩٣ ـ ٥٠٤).

النبي ﷺ مخلصاً لله، وأبو طالب عمه كان يحبه وينصره لهواه لا لله، فتقبل الله عمل أبي بكر وأنزل فيه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾. وأما أبو طالب فلم يتقبل عمله، بل أدخله النار لأنه كان مشركاً عاملاً لغير الله. وأبو بكر لم يطلب أجره من الخلق، لا من النبي ﷺ ولا غيره؛ بل آمن به؛ وأحبه وكلأه وأعانه بنفسه وماله متقرباً بذلك إلى الله، وطالباً الأجر من الله) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (وإنما كان كذلك لأنه أتقاهم [وأكرمهم]، وأكرم الخلق على الله تعالى أتقاهم بالكتاب والسنة. وإنما كان أتقاهم لأن الله تعالى قال: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾، وأئمة التفسير يقولون: إنه أبو بكر.

ونحن نبين صحة قولهم بالدليل فنقول: الأتقى قد يكون نوعاً، وقد يكون شخصاً. وإذا كان نوعاً فهو يجمع أشخاصاً. فإن قيل: إنهم ليس فيهم شخص هو أتقى، كان هذا باطلاً، لأنه لا شك أن بعض الناس أتقى من بعض، مع أن هذا خلاف قول أهل السنة والشيعة، فإن هؤلاء يقولون: إن أتقى الخلق بعد رسول الله ﷺ من هذه الأمة هو أبو بكر، وهؤلاء يقولون: هو عليّ. وقد قال بعض الناس: هو عمر. ويُحكى عن بعض الناس غير ذلك. ومن توقف أوشكَ لم يقل: إنهم مستوون في التقوى. فإذا قال: إنهم متساوون في الفضل، فقد خالف إجماع الطوائف. فتعين أن يكون هذا أتقى.

وإن كان الأتقى شخصاً، فإما أن يكون أبا بكر أو علياً. فإنه إذا كان اسم جنس يتناول من دخل فيه، وهو النوع، وهو القسم الأول، أو معيناً غيرهما. وهذا القسم منتف باتفاق أهل السنة والشيعة، وكونه علياً باطل أيضاً لأنه قال: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾. وهذا الوصف منتف في علي لوجوه:

أحدها: أن هذه السورة مكية بالاتفاق، وكان عليّ فقيراً بمكة في عيال النبي ﷺ،

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٥٢٥ ـ ٥٢٦) (١٨/ ٣٢١).

ولم يكن له مال ينفق منه، بل كان النبي ﷺ قد ضمّه إلى عياله لما أصابت أهل مكة سنة.

الثاني: أنه قال: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾﴾. وعلي كان للنبي ﷺ عنده نعمة تجزى، وهو إحسانه إليه لما ضمه إلى عياله. بخلاف أبي بكر؛ فإنه لم يكن له عنده نعمة دنيوية، لكن كان له عنده نعمة الدين، وتلك لا تُجزى؛ فإن أجر النبي ﷺ فيها على الله، لا يقدر أحد يجزيه فنعمة النبي ﷺ عند أبي بكر دينية لا تجزى. ونعمته عند علي دنيوية تجزى، ودينية.

وهذا الأتقى ليس لأحد عنده نعمة تُجزى، وهذا الوصف لأبي بكر ثابت دون علي.

فإن قيل: المراد به أنفق ماله لوجه الله، لا جزاء لمن أنعم عليه. وإذا قدِّر أن شخصاً أعطى من أحسن إليه أجراً، وأعطى شيئاً آخر لوجه الله، كان هذا مما ليس لأحد عنده من نعمة تجزى.

قيل: هب أن الأمر كذلك، لكن علي لو أنفق لم ينفق إلا فيما يأمره به النبي ﷺ، والنبي له عنده نعمة تجزى، فلا يخلص إنفاقه عن المجازاة، كما يخلص إنفاق أبي بكر.

وعلي أتقى من غيره، لكن أبا بكر أكمل في وصف التقوى، مع أن لفظ الآية أنه ليس عنده قط لمخلوق نعمة تجزى. وهذا وصف من يجازي الناس على إحسانهم إليه، فلا يبقى لمخلوق عليه منّة. وهذا الوصف منطبق على أبي بكر انطباقاً لا يساويه فيه أحد من المهاجرين؛ فإنه لم يكن في المهاجرين: ـ عمر وعثمان وعليّ وغيرهم ـ رجل أكثر إحساناً إلى الناس، قبل الإسلام وبعده، بنفسه وماله من أبي بكر. كان مؤلفاً محبباً يعاون الناس على مصالحهم، كما قال فيه ابن الدُّغُنَّة سيد القارة لما أراد أن يخرج من مكة: «مثلك يا أبا بكر لا يَخرُج ولا يُخْرَج؛ فإنك تحمل الكلّ، وتقري الضيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق»[1].

---

(١) البخاري (٥/٥٨ ـ ٦١).

وفي صلح الحديبية لما قال لعروة بن مسعود: «امصص بظر اللات، أنحن نفر عنه وندعه؟ قال لأبي بكر: لولا يد لك عندي لم أجزك بها لأجبتك»(١).

وما عُرف قط أن أحداً كانت له يد على أبي بكر في الدنيا، لا قبل الإسلام ولا بعده، فهو أحق الصحابة(٢): ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩﴾ فكان أحق الناس بالدخول في الآية.

وأما عليّ رضي الله عنه فكان للنبي ﷺ نعمة دنيوية. وفي المسند لأحمد أن أبا بكر رضي الله عنه كان يسقط السوط من يده فلا يقول لأحد: ناولني إياه. ويقول: إن خليلي أمرني أن لا أسأل الناس شيئاً(٣).

وفي المسند والترمذي وأبي داود حديث عمر، قال عمر: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق، فوافق ذلك مالاً عندي، فقلت اليوم أسبق أبا بكر، إن سبقته يوماً. فجئت بنصف مالي. فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» فقلت: مثله. قال: وأتى أبو بكر بكل ما عنده. فقال: «ما أبقيت لأهلك؟» قال: أبقيت لهم الله ورسوله. فقلت: لا أسبقك إلى شيء أبداً»(٤).

فأبو بكر رضي الله عنه جاء بماله كله، ومع هذا فلم يكن يأكل من أحد: لا صدقة ولا صلة ولا نذراً، بل كان يتّجر ويأكل من كسبه، ولما ولي الناس واشتغل عن التجارة بعمل المسلمين أكل من مال الله ورسوله الذي جعله الله له، لم يأكل من مال مخلوق.

وأبو بكر لم يكن النبي ﷺ يعطيه شيئاً من الدنيا يخصه به، بل كان في المغازي كواحد من الناس، بل يأخذ من ماله ما ينفقه على المسلمين. وقد استعمله النبي ﷺ وما عرف أنه أعطاه عمالة، وقد أعطى عمر عمالة وأعطى علياً من الفيء، وكان يعطي المؤلفة قلوبهم من الطلقاء وأهل نجد، والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار لا يعطيهم، كما فعل في غنائم حنين وغيرها، ويقول: «إني لأعطي رجالاً وأدع رجالاً،

---

(١) البخاري (٣/ ١٩٣ ـ ١٩٨). (٢) لعل «ب» سقطت.

(٣) الحديث في المسند (١/ ١٨٠) وهو ضعيف لانقطاعه بين أبي بكر وابن أبي مليكة.

(٤) مرّ تخريجه.

والذي أدع أحب إليّ من الذي أعطي. أعطى رجالاً لما في قلوبهم من الجزع والهلع، وأكِل رجالاً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير»[١]

ولما بلغه عن الأنصار كلام سألهم عنه، فقالوا: يا رسول الله أما ذوو الرأي منّا فلم يقولوا شيئاً، وأما أناس منا حديثة أسنانهم، فقالوا: يغفر الله لرسول الله، يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم. فقال رسول الله ﷺ: «فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم، أفلا ترضون أن يذهب الناس بالأموال وترجعوا إلى رحالكم برسول الله، فوالله لما تنقلبون به خير مما يتقلبون به» قالوا: بلى يا رسول الله قد رضينا. قال: «فإنكم ستجدون بعدي أثرة شديدة، فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله على الحوض» قالوا: سنصبر»[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ استثناء منقطع. والمعنى: لا يقتصر في العطاء على من له عنده يد يكافئه بذلك؛ فإن هذا من العدل الواجب للناس بعضهم على بعض، بمنزلة المعاوضة في المبايعة والمؤاجرة. وهذا واجب لكل أحد على كل أحد، فإذا لم يكن لأحد عنده نعمة تجزى لم يحتج إلى هذه المعادلة، فيكون عطاؤه خالصاً لوجه ربه الأعلى، بخلاف من كان عنده لغيره نعمة يحتاج أن يجزيه لها، فإنه يحتاج أن يعطيه مجازاة له على ذلك. وهذا الذي ما لأحد عنده من نعمة تجزى إذا أعطى ماله يتزكى، فإنه في معاملته للناس يكافئهم دائماً ويعاونهم ويجازيهم، فحين أعطاه الله ماله يتزكى لم يكن لأحد عنده من نعمة تجزى.

وفيه أيضاً ما يبين أن التفضيل بالصدقة لا يكون إلا بعد أداء الواجبات من المعاوضات. كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ومن تكون عليه ديون وفروض وغير ذلك أداها، ولا يقدم الصدقة على قضاء هذه الواجبات، ولو فعل ذلك: فهل ترد صدقته؟ على قولين معروفين للفقهاء.

وهذه الآية يحتج بها من تُرد[٣] صدقته، لأن الله إنما أثنى على من آتى

---

(١) مرّ تخريجه.

(٢) البخاري (٤/ ٩٤)، ومسلم (٢/ ٧٣٣ ـ ٧٣٤).

(٣) كذا في الأصل، ولعل الصواب: «من يردّ» كما في نسخة أشار إليها المحقق.

ماله يتزكى، وما لأحد عنده من نعمة تجزى، فإذا كان عنده نعمة تجزى فعليه أن يجزيها قبل أن يؤتي ماله يتزكى، فأما إذا آتى ماله يتزكى قبل أن يجزيها لم يكن ممدوحاً، فيكون عمله مردوداً، لقوله عليه الصلاة والسلام: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[(١)].

الثالث: أنه قد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «ما نفعني مال كمال أبي بكر»[(٢)]، وقال: «إن أمنّ الناس علينا في صحبته وذات يده أبو بكر»[(٣)]، بخلاف عليّ رضي الله عنه فإنه لم يذكر عنه النبي ﷺ شيئاً من إنفاق المال، وقد عرف أن أبا بكر اشترى سبعة من المعذبين في الله في أول الإسلام، وفعل ذلك ابتغاء لوجه ربه الأعلى، لم يفعل ذلك كما فعله أبو طالب، الذي أعان النبي ﷺ لأجل نسبه وقرابته، لا لأجل الله تعالى ولا تقرباً إليه.

وإن كان «الأتقى» اسم جنس، فلا ريب أنه يجب أن يدخل فيه أتقى الأمة، والصحابة خير القرون، فأتقاها أتقى الأمة، وأتقى الأمة [إما] أبو بكر وإما عليّ وإما غيرهما. والثالث منتفٍ بالإجماع، وعليّ إن قيل: إنه يدخل في هذا النوع، لكونه بعد أن صار له مال آتى ماله يتزكى، فيقال: أبو بكر فعل ذلك في أول الإسلام وقت الحاجة إليه، فيكون أكمل في الوصف، الذي يكون صاحبه هو الأتقى.

وأيضاً فالنبي ﷺ إنما كان يقدم الصديق في المواضع التي لا تحتمل المشاركة، كاستخلافه في الصلاة والحج، ومصاحبته وحده في سفر الهجرة، ومخاطبته وتمكينه من الخطاب، والحكم والإفتاء بحضرته ورضاه بذلك، إلى غير ذلك من الخصائص التي يطول وصفها.

ومن كان أكمل في هذا الوصف، كان أكرم عند الله، فيكون أحب إليه. فقد ثبت بالدلائل الكثيرة أنا أبا بكر هو أكرم الصحابة في الصديقية. وأفضل الخلق بعد الأنبياء الصديقون، ومن كان أكمل في ذلك كان أفضل.

وأيضاً فقد ثبت في النقل الصحيح عن عليّ أنه قال: «خير هذه الأمة بعد نبيها

---

(١) مرّ تخريجه.
(٢) مرّ تخريجه.
(٣) مرّ تخريجه.

أبو بكر وعمر» واستفاض ذلك وتواتر عنه، وتوعد بجلد المفتري من يفضله عليه، وروي عنه أنه سمع ذلك من النبي ﷺ، ولا ريب أن علياً لا يقطع بذلك إلا عن علم.

وأيضاً فإن الصحابة أجمعوا على تقديم عثمان الذي عمر أفضل منه وأبو بكر أفضل منهما. وهذه المسألة مبسوطة في غير هذا الموضع، وتقدم بعض ذلك، ولكن ذكر هذا لنبين أن حديث الطير من الموضوعات) ا.هـ[1].

(١) منهاج السنة (٧/ ٣٧٦ ـ ٣٨٥).

سورة الضحى

﴿وَالضُّحَىٰ ۝١﴾.

(الضحى يعم النهار كله، كما قال: ﴿أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۝٢٩﴾ [النازعات]، وقال: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾) ا.هـ[١].

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾.

(والخطاب في هذه السور له[٢]، كقوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾) ا.هـ[٣].

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾.

(قال ابن عطية في قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾، وجده [فأغاثه] إنعامه بالنبوة والرسالة على غير الطريق التي هو عليها في نبوته، هذا قول الحسن والضحاك[٤]) ا.هـ[٥].

قال رحمه الله: (قال البغوي: وأهل [الأصول] على أن الأنبياء كانوا مؤمنين قبل الوحي، [وكان] [النبي] ﷺ يعبد الله قبل الوحي على دين إبراهيم، ولم تبين له شرائع [دينه[٦]، قلت]: قوله [هذا] يناقض ما ذكره[٧] في قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ [قال]: ومعنى الآية: وجدك ضالاً عما أنت عليه اليوم فهداك لتوحيده، [فجعل التوحيد مما كان ضالاً عنه فهداه إليه]) ا.هـ[٨].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٢٢٧).

(٢) أي خطاب خاص للرسول وليس خطاب عام.

(٣) مجموع الفتاوى (١٦/ ٢٨٤).

(٤) قول الحسن والضحاك ذكرها البغوي (٤/ ٤٩٩)، وزاد المسير (٩/ ١٥٨).

(٥) تفسير آيات أشكلت (١/ ٢٠٩).

(٦) البغوي (٤/ ١٣٢).

(٧) أي البغوي نفسه (٤/ ٤٩٩).

(٨) تفسير آيات أشكلت (١/ ١٨١ ـ ١٨٢).

﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾.

(وقـــولـــه: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ هذا متناول لجميع الأمة) ا.هـ[١].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٣٢٧).

سورة الشرح

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾.

(قال ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ قال لا أُذكر إلا ذُكرت معي. وهذا كالتشهد والخطب والأذان، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فلا يصح الإسلام إلا بذكره والشهادة له بالرسالة) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (جاء مرفوعاً في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ قال: «لا أذكر إلا ذكرت معي ولا تتم لأمتك خطبة ولا تشهد حتى يشهدوا أنك عبدي ورسولي[2]») ا.هـ[3].

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾.

(﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾ أي أرغب إلى الله لا إلى غيره) ا.هـ[4].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾ فجعل التحسب والرغبة إلى الله وحده) ا.هـ[5].

وقال رحمه الله: (بل قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾ ولم يقل: ارغب إلى الأنبياء والملائكة) ا.هـ[6].

وقال رحمه الله: (قال: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾ فأمر بالرغبة

---

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ١٠٣ ـ ١٠٤) وهذا مروي عن مجاهد ثابت أما عن ابن عباس فلم أجده والله أعلم.

(٢) رواه الطبري (٣٠/ ٢٣٥) وعزاه صاحب الدر (٦/ ٣٦٥) لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وغيرهم ورواه ابن حبان (٣٣٨٢ ـ الإحسان) وأبو يعلى (١٣٨٣) وحسنه صاحب مجمع الزوائد (٨/ ٢٥٤) ولكن الحديث ضعيف والله أعلم.

(٣) الاستقامة (٢/ ٢١).

(٤) مجموع الفتاوى (١/ ١٨١).

(٥) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٧٦).

(٦) مجموع الفتاوى (٢٧/ ١٢٥).

إليه. ولم يأمر الله قط مخلوقاً أن يسأل مخلوقاً، وإن كان قد أباح في موضع من المواضع ذلك، لكنه لم يأمر به، بل الأفضل للعبد أن لا يسأل قط إلا الله) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (قال: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾ فالرغبة تتضمن التوكل وقد أمر أن لا يتوكل إلا عليه، كقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾ [المائدة: ٢٣] وقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩﴾ [النحل] فالتوكل على الله وحده والرغبة إليه وحده والرهبة منه وحده، ليس لمخلوق لا للملائكة ولا الأنبياء في هذا حق، كما ليس لهم حق في العبادة. ولا يجوز أن نعبد إلا الله وحده، ولا نخشى ولا نتقي إلا الله وحده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال]) ا.هـ[٢].

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾.

(وقد قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾ قيل: إذا فرغت من أشغال الدنيا فانصب في العبادة وإلى ربك فارغب. وهذا أشهر القولين. وخرج شريح القاضي على قوم من الحاكة يوم عيد وهم يلعبون فقال: ما لكم تلعبون؟ قالوا: إنا تفرغنا، قال: أو بهذا أمر الفارغ؟ وتلا قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾.

ويناسب هذا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ [المزمل] إلى قوله: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾ [المزمل] أي ذهاباً ومجيئاً، وبالليل تكون فارغاً. وناشئة الليل في أصح القولين: إنما تكون بعد النوم يقال: نشأ إذا قام بعد النوم، فإذا قام بعد النوم، كانت مواطأة قلبه للسانه أشد لعدم ما يشغل القلب، وزوال أثر حركة النهار بالنوم، وكان قوله (أقوم).

وقد قيل: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ من الصلاة ﴿فَانصَبْ﴾ في الدعاء، ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾ وهذا القول سواء كان صحيحاً أو لم يكن، فإنه يمنع الدعاء في آخر الصلاة، لا سيما والنبي ﷺ هو المأمور بهذا، فلا بد أن يمتثل ما أمره الله به.

---

(١) اقتضاء الصراط (٢/ ٨٢٧). (٢) الرد على الأخنائي (٢١٣).

ودعاؤه في الصلاة المنقول عنه في الصحاح وغيرها إنما كان قبل الخروج من الصلاة، وقد قال لأصحابه في الحديث الصحيح «إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع. يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال»(١).

وفي حديث ابن مسعود الصحيح لما ذكر التشهد قال: «ثم ليتخير من الدعاء أعجبه إليه»(٢) وقد روت عائشة وغيرها دعاءه في صلاته بالليل، وأنه كان قبل الخروج من الصلاة.

فقول من قال: إذا فرغت من الصلاة فانصب في الدعاء، يشبه قول من قال في حديث ابن مسعود لما ذكر التشهد فإذا فعلت ذلك فقد قضيت صلاتك، فإن شئت أن تقوم فقم، وإن شئت أن تقعد فاقعد. وهذه الزيادة سواء كانت من كلام النبي ﷺ، أو من كلام من أدرجها في حديث ابن مسعود، كما يقول من ذكره من أئمة الحديث. ففيها أن قائل ذلك جعل ذلك قضاء للصلاة، فهكذا جعله هذا المفسر فراغاً من الصلاة، مع أن تفسير قوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾ أي فرغت من الصلاة قول ضعيف فإن قوله: إذا فرغت مطلق ولأن الفارغ إن أريد به الفارغ من العبادة، فالدعاء أيضاً عبادة، وإن أريد به الفراغ من أشغال الدنيا بالصلاة، فليس كذلك.

يوضح ذلك أنه لا نزاع بين المسلمين أن الصلاة يدعى فيها، كما كان النبي ﷺ يدعو فيها فقد ثبت عنه في الصحيح أنه كان يقول في دعاء الاستفتاح: «اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد» وأنه كان يقول: «اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعاً فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق، فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها فإنه لا يصرف عني سيئها إلا أنت»(٣).

(١) البخاري (١٣٧٧)، ومسلم (٥٨٨). (٢) البخاري (٨٣٥)، ومسلم (٤٠٢).
(٣) مرّ تخريجه.

وثبت عنه في الصحيح أنه كان يدعو إذا رفع رأسه من الركوع، وثبت عنه الدعاء في الركوع والسجود، سواء كان في النفل أو في الفرض وتواتر عنه الدعاء آخر الصلاة، وفي الصحيحين أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي فقال: «قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم» فإذا كان الدعاء مشروعاً في الصلاة لا سيما في آخرها، فكيف يقول: إذا فرغت من الصلاة فانصب في الدعاء والذي فرغ منه هو نظير الذي أُمِرَ به، فهو في الصلاة كان ناصباً في الدعاء لا فارغاً ثم إنه لم يقل مسلم إن الدعاء بعد الخروج من الصلاة يكون أوكد وأقوى منه في الصلاة ثم لو كان قوله: ﴿فَٱنصَبۡ﴾ في الدعاء لم يحتج إلى قوله: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ۝٨﴾ فإنه قد علم أن الدعاء إنما يكون لله.

فعلم أنه أمره بشيئين: أن يجتهد في العبادة عند فراغه من أشغاله، وأن تكون رغبته إلى ربه لا إلى غيره كما في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة] فقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، موافق لقوله فانصب وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ موافق لقوله: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾ ومثله قوله: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣] وقوله: ﴿هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠] وقول شعيب عليه السلام: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨] ومنه الذي يروى عند دخول المسجد: «اللهم اجعلني من أوجه من توجَّه إليك، وأقرب من تقرَّب إليك وأفضل من سألك ورغب إليك» والأثر الآخر (وإليك الرغباء والعمل) وذلك أن دعاء الله المذكور في القرآن نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة ورغبة، فقوله: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ۝٨﴾ يجمع نوعي دعاء الله قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ۝١٩﴾ [الجن] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ﴾ [المؤمنون: ١١٧] ونظائره كثيرة) ا.هـ[١].

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٤٩٥ ـ ٤٩٨).

سورة التين

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾.

(وأغرب من ذلك قول بعض جهال المفسرين: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ إنهم الأربعة؛ فإن هذا مخالف للعقل والنقل، لكن الله أقسم بالأماكن الثلاثة التي أنزل فيها كتبه الثلاثة: التوراة والإنجيل والقرآن وظهر منها موسى وعيسى ومحمد كما قال في التوراة: جاء الله من طور سينا وأشرق من ساعير واستعلن من جبال فاران.

فالتين والزيتون: الأرض التي بعث فيها المسيح وكثيراً ما تسمى الأرض بما ينبت فيها فيقال: فلان خرج إلى الكرم وإلى الزيتون وإلى الرمان ونحو ذلك ويراد الأرض التي فيها ذلك فإن الأرض تتناول ذلك فعبر عنها ببعضها.

وطور سينين حيث كلم الله موسى وهذا البلد الأمين مكة أم القرى التي بعث بها محمد ﷺ) ا.هـ[(١)].

وقال رحمه الله: (وقوله: «ستشرق الشمس على الأرض ويهتدي بها الضالون ويضل عنها بنو إسرائيل»، يناسب قوله في التوراة: (جاء الله من طور سينا وأشرق من ساعير واستعلن من جبال فاران) فإن إشراقه من ساعير هو ظهور نوره بالمسيح، كما أن مجيئه من طور سينا: هو ظهور نوره بموسى، واستعلانه من جبال فاران هو ظهور نوره بمحمد ﷺ، وبهذه الأماكن الثلاثة أقسم الله في القرآن بقوله: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾.

فبلد التين والزيتون هي الأرض المقدسة التي بعث منها المسيح، وكان بها أنبياء بني إسرائيل وأسري بمحمد ﷺ إليها وظهرت بها نبوته، وطور سينين المكان الذي

---

(١) منهاج السنة (٧/ ٢٣٠).

كلم الله فيه موسى بن عمران، وهذا البلد الأمين هو بلد مكة التي بعث الله منه محمداً ﷺ وأنزل عليه القرآن) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (وذلك مثل قوله في التوراة ما قد ترجم بالعربية: «جاء الله من طور سينا» وبعضهم يقول: «تجلى من طور سينا وأشرق من ساعير واستعلن من جبال فاران».

قال كثير من العلماء واللفظ لأبي محمد بن قتيبة: ليس بهذا خفاء على من تدبره ولا غموض؛ لأن مجيء الله من طور سينا: إنزاله التوراة على موسى من طور سينا كالذي هو عند أهل الكتاب وعندنا وكذلك يجب أن يكون إشراقه من ساعير إنزاله الإنجيل على المسيح وكان المسيح من ساعير أرض الخليل بقرية تدعى (ناصرة) وباسمها يسمى من اتبعه نصارى.

وكما وجب أن يكون إشراقه من ساعير بالمسيح فكذلك يجب أن يكون استعلانه من جبال فاران: إنزاله القرآن على محمد ﷺ وجبال فاران هي جبال مكة، قال: وليس بين المسلمين وأهل الكتاب خلاف في أن فاران هي مكة فإن ادعوا أنها غير مكة فليس ينكر ذلك من تحريفهم وإفكهم.

قلنا: أليس في التوراة أن إبراهيم أسكن (هاجر) و(إسماعيل) فاران؟

وقلنا: دلونا على الموضع الذي استعلن الله منه واسمه فاران، والنبي الذي أنزل عليه كتاباً بعد المسيح أوليس (استعلن) و(علن) وهما بمعنى واحد؟ وهو ما ظهر وانكشف.

فهل تعلمون ديناً ظهر ظهور الإسلام وفشا في مشارق الأرض ومغاربها فشوه؟

وقال ابن ظفر: (ساعير) جبل بالشام، منه ظهرت نبوة المسيح، قلت: وبجانب بيت لحم القرية التي ولد فيها المسيح قرية تسمى إلى اليوم ساعير ولها جبل تسمى ساعير.

وفي التوراة: أن نسل العيص كانوا سكاناً بساعير وأمر الله موسى أن لا يؤذيهم.

---

(١) الجواب الصحيح (٣/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤).

وعلى هذا فيكون ذكر الجبال الثلاثة حقاً جبل حراء الذي ليس حول مكة جبل أعلى منه ومنه كان نزول أول الوحي على النبي ﷺ وحوله من الجبال جبال كثيرة، حتى قد قيل: إن بمكة اثني عشر ألف جبل وذلك المكان يسمى فاران إلى هذا اليوم وفيه كان ابتداء نزول القرآن.

والبرية التي بين مكة وطور سينا تسمى برية فاران ولا يمكن أحداً أن يدعي أنه بعد المسيح نزل كتاب في شيء من تلك الأرض ولا بعث نبي فعلم أنه ليس بالمراد باستعلانه من جبال فاران إلا إرسال محمد ﷺ وهو سبحانه ذكر هذا في التوراة على الترتيب الزماني فذكر إنزال التوراة ثم الإنجيل ثم القرآن وهذه الكتب نور الله وهداه.

وقال في الأول: جاء أو ظهر وفي الثاني: أشرق وفي الثالث: استعلن وكان مجيء التوراة مثل طلوع الفجر أو ما هو أظهر من ذلك ونزول الإنجيل مثل إشراق الشمس زاد به النور والهدى، وأما نزول القرآن فهو بمنزلة ظهور الشمس في السماء، ولهذا قال: واستعلن من جبال فاران؛ فإن النبي ﷺ ظهر به نور الله وهداه في مشرق الأرض ومغربها أعظم مما ظهر بالكتابين المتقدمين كما يظهر نور الشمس إذا استعلت في مشارق الأرض ومغاربها ولهذا سماه الله سراجاً منيراً وسمى الشمس سراجاً وهَّاجاً.

والخلق يحتاجون إلى السراج المنير أعظم من حاجتهم إلى السراج الوهاج فإن الوهاج يحتاجون إليه في وقت دون وقت وكما قيل: قد يَنْضَرُّون به بعض الأوقات وأما السراج المنير فيحتاجون إليه كل وقت وفي كل مكان ليلاً ونهاراً سراً وعلانية.

وقد قال النبي ﷺ: «زويت لي الأرض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها»[١].

وهذه الأماكن الثلاث أقسم الله بها في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾.

(١) مسلم (٢٨٨٩).

فأقسم بالتين والزيتون، وهو الأرض المقدسة الذي ينبت فيه ذلك ومنها بعث المسيح وأنزل عليه فيها الإنجيل وأقسم بطور سينين وهو الجبل الذي كلم الله فيه موسى وناداه من واديه الأيمن من البقعة المباركة من الشجرة وأقسم بالبلد الأمين وهي مكة وهو البلد الذي أسكن إبراهيم ابنه إسماعيل وأمه وهو الذي جعله الله حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم خلقاً وأمراً قدراً وشرعاً فإن إبراهيم حرمه ودعا لأهله فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم].

وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٢٦﴾ [البقرة].

فأخبر الله تعالى أن إبراهيم دعا الله بأن يجعل مكة بلداً آمناً واستجاب الله دعاء إبراهيم وذكر ذلك في غير موضع وبها بنى إبراهيم البيت كما قال تعالى:

﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾ [البقرة].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩٦ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧﴾ [آل عمران].

وقال تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤﴾ [قريش].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾ [القصص].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [العنكبوت]، فقوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾﴾.

إقسام منه بالأمكنة الشريفة المعظمة الثلاثة التي ظهر فيها نوره وهداه وأنزل فيها الثلاثة: التوراة والإنجيل والقرآن كما ذكر الثلاثة في التوراة بقوله: «جاء الله من طور سينا، وأشرق من ساعير واستعلن من جبال فاران».

ولما كان ما في التوراة خبراً عنها أخبر بها على ترتيبها الزماني فقدم الأسبق فالأسبق وأما القرآن فإنه أقسم بها تعظيماً لشأنها، وذلك تعظيم لقدرته سبحانه وآياته وكتبه ورسله فأقسم بها على وجه التدريج درجة بعد درجة فختمها بأعلى الدرجات فأقسم أولاً بالتين والزيتون ثم بطور سينا ثم بمكة لأن أشرف الكتب الثلاثة: القرآن ثم التوراة ثم الإنجيل وكذلك الأنبياء فأقسم بها على وجه التدريج كما في قوله: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾﴾ [الذاريات].

فأقسم بطبقات المخلوقات طبقة بعد طبقة فأقسم بالرياح الذاريات ثم بالسحاب الحاملات للمطر فإنها فوق الرياح ثم بالجاريات يسراً وقد قيل: إنها السفن ولكن الأنسب أن تكون هي الكواكب المذكورة في قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾ [التكوير].

فسماها جواري كما سمى الفلك جواري في قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾﴾ [الشورى] والكواكب فوق السحاب، ثم قال: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾﴾ [الذاريات] وهي الملائكة التي هي أعلا درجة من هذا كله) ا.هـ[١].

﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾.

(وقوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر] وقوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فحكم على النوع كله والأمة الإنسانية جميعها بالخسارة والسفول إلى الغاية إلا المؤمنين الصالحين) ا.هـ[٢].

---

(١) الجواب الصحيح (٥/ ٢٠٤ ـ ٢٠٩). (٢) مجموع الفتاوى (٢/ ٥).

قال رحمه الله:

(فصل

وهو سبحانه تارة يذكر خلق الإنسان مجملاً وتارة يذكره مفصلاً كقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون] ثم ذكر المَعَادَين الأصغر والأكبر فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون].

ومن الناس من يقول: لم دخلت لام التوكيد في الموت وهو مشاهد ولم تدخل في البعث وهو غيب فيحتاج إلى التوكيد؟ وذلك ـ والله أعلم ـ أن المقصود بذكر الموت والبعث هو الإخبار بالجزاء والمعاد وأول ذلك هو الموت فنبه على الإيمان بالمعاد واستعداد لما بعد الموت.

وهو إنما قال (تبعثون) فقط ولم يقل (تجازون) لكن قد علم أن البعث للجزاء.

وأيضاً ففيه تنبيه على قهر الإنسان وإذلاله. يقول: بعد هذا كله إنك تموت فترد إلى أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات كما قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾.

وهذا الرد هو بالموت، فإنه يصير في أسفل سافلين، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، كما قال: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾﴾ [المطففين]. وقال: ﴿إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨]. وفي قوله: ﴿أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ﴾ قولان: قيل: الهرم وقيل: العذاب بعد الموت، وهذا هو الذي دلت عليه الآية قطعاً، فإنه جعله في أسفل سافلين إلا المؤمنين. والناس نوعان: فالكافر بعد الموت يعذب في أسفل سافلين، والمؤمن في عليين.

وأما القول الأول ففيه نظر فإنه ليس كل من سوى المؤمنين يهرم فيرد إلى أسفل سافلين بل كثير من الكفار يموت قبل الهرم وكثير من المؤمنين يهرم وإن كان حال المؤمن في الهرم أحسن حالاً من الكافر فكذلك في الشباب حال المؤمن أحسن من حال الكافر فجعل الرد إلى أسفل سافلين في آخر العمر وتخصيصه بالكفار ضعيف.

ولهذا قال بعضهم إن الاستثناء منقطع على هذا القول وهو أيضاً ضعيف فإن المنقطع لا يكون في الموجب ولو جاز هذا لجاز لكل أحد أن يدعي في أي استثناء شاء أنه منقطع، وأيضاً فالمنقطع لا يكون الثاني منه بعض الأول، والمؤمنون بعض نوع الإنسان.

وقد فسر ذلك بعضهم على القول الأول بأن المؤمن يكتب له ما كان يعمله إذا عجز. قال إبراهيم النخعي[١] إذا بلغ المؤمن من الكبر ما يعجز عن العمل كتب الله له ما كان يعمل، وهو قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ وقال ابن قتيبة[٢] المعنى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ في وقت القوة والقدرة فإنهم في حال الكبر غير منقوصين وإن عجزوا عن الطاعات فإن الله يعلم لو لم يسلبهم القوة لم ينقطعوا عن أفعال الخير فهو يجري لهم أجر ذلك.

فيقال: وهذا أيضاً ثابت في حال الشباب إذا عجز الشاب لمرض أو سفر كما في الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «إذا مرض العبد أو سافر كتب الله له من العمل ما كان يعمل وهو صحيح مقيم»[٣].

وفسره بعضهم بما روي عن ابن عباس أنه قال: من قرأ القرآن فإنه لا يرد إلى أرذل العمر. فيقال: هذا مخصوص بقارئ القرآن والآية استثنت الذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء قرأوا القرآن أو لم يقرأوه وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها»[٤].

وأيضاً فيقال: هرم الحيوان ليس مخصوصاً بالإنسان بل غيره من الحيوان إذا كبر هرم.

وأيضاً: فالشيخ وإن ضعف بدنه فعقله أقوى من عقل الشاب ولو قدر أنه ينقص بعض قواه فليس هذا رداً إلى أسفل سافلين؛ فإنه سبحانه إنما يصف الهرم بالضعف

---

(١) ابن جرير (٣٠/ ٢٤٧). (٢) كما في القرطين (٢/ ٢١٤) لابن قتيبة.

(٣) البخاري (٢٩٩٦) وهو من أفراد البخاري.

(٤) سبق تخريجه.

كقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ﴾ [الروم: ٥٤] وقوله: ﴿وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ﴾ [يس: ٦٨] فهو يعيده إلى حال الضعف، ومعلوم أن الطفل ليس هو في أسفل سافلين، فالشيخ كذلك وأولى.

وإنما في أسفل سافلين من يكون في سجين لا في عليين كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

ومما يبين ذلك قوله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ۝٧﴾ فإنه يقتضي ارتباط هذا بما قبله لذكره بحرف الفاء ولو كان المذكور إنما هو رده إلى الهرم دون ما بعد الموت لم يكن هناك تعرض للدين والجزاء. بخلاف ما إذا كان المذكور أنه بعد الموت يرد إلى أسفل سافلين غير المؤمن المصلح فإن هذا يتضمن الخبر بأن الله يدين العباد بعد الموت فيكرم المؤمنين ويهين الكافرين.

وأيضاً فإنه سبحانه أقسم على ذلك بأقسام عظيمة بالتين والزيتون، وطور سنين، وهذا البلد الأمين وهي المواضع التي جاء منها محمد والمسيح وموسى وأرسل الله بها هؤلاء الرسل مبشرين ومنذرين.

وهذا الإقسام لا يكون على مجرد الهرم الذي يعرفه كل أحد بل على الأمور الغائبة التي تؤكد بالإقسام فإن إقسام الله هو على أنباء الغيب.

وفي نفس المُقسم به وهو إرسال هؤلاء الرسل تحقيق للمقسم عليه وهو الثواب والعقاب بعد الموت لأن الرسل أخبروا به.

وهو يتضمن أيضاً الجزاء في الدنيا كإهلاك من أهلكهم من الكفار، فإنه ردهم إلى أسفل سافلين بهلاكهم في الدنيا وهو تنبيه على زوال النعم إذا حصلت المعاصي، كمن رد في الدنيا إلى أسفل جزاء على ذنوبه.

وقوله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ۝٧﴾ أي الجزاء يتناول جزاءه على الأعمال في الدنيا، والبرزخ، والآخرة إذ كان قد أقسم بأماكن هؤلاء المرسلين الذين أرسلوا بالآيات البينات الدالة على أمر الله ونهيه ووعده ووعيده مبشرين لأهل الإيمان منذرين لأهل الكفر وقد أقسم بذلك على أن الإنسان بعد أن جُعل في أحسن تقويم إن آمن وعمل صالحاً كان له أجر غير ممنون وإلا كان في أسفل سافلين.

فتضمنت السورة بيان ما بعث به هؤلاء الرسل الذين أقسم بأماكنهم والإقسام بمواضع محنهم[١] تعظيم لهم، فإن موضع الإنسان إذا عظم لأجله كان هو أحق بالتعظيم ولهذا يقال في المكاتبات (إلى المجلس، والمقر ونحو ذلك السامي والعالي) ويذكر بخضوع له وتعظيم والمراد صاحبه.

فلما قال: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧﴾ دل على أن ما تقدم قد بين فيه ما يمنع التكذيب بالدين.

وفي قوله: ﴿يُكَذِّبُكَ﴾ قولان: قيل: هو خطاب للإنسان كما قال مجاهد وعكرمة ومقاتل، ولم يذكر البغوي غيره. قال عكرمة يقول: فما يكذبك بعد بهذه الأشياء التي فعلت بك. وعن مقاتل: فما الذي يجعلك مكذباً بالجزاء، وزعم أنها نزلت في عياش بن أبي ربيعة.

والثاني أنه خطاب للرسول وهذا أظهر؛ فإن الإنسان إنما ذكر مخبراً عنه لم يخاطب، والرسول هو الذي أُنزل عليه القرآن والخطاب في هذه السورة له كقوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى] وقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الإنشراح] وقوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١].

والإنسان إذا خوطب قيل له: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝٦﴾ [الانفطار] ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ [الانشقاق: ٦].

وأيضاً فبتقدير أن يكون خطاباً للإنسان يجب أن يكون خطاباً للجنس، كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ [الانشقاق: ٦] وعلى قول هؤلاء إنما هو خطاب للكافر خاصة المكذب بالدين.

وأيضاً فإن قوله: ﴿يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ أي يجعلك كاذباً هذا هو المعروف من لغة العرب فإن استعمال (كذب غيره) أي نسبه إلى الكذب وجعله كاذباً مشهور، والقرآن مملوء من هذا، وحيث ذكر الله تكذيب المكذبين للرسل أو التكذيب بالحق ونحو ذلك فهذا مراده.

---

(١) كذا في الأصل، ولم يتضح لي معناه هنا.

لكن هذه الآية فيها غموض من جهة كونه قال: ﴿يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ فذكر المكذب بالدين فذكر المكذب والمكذب به جميعاً وهذا قليل جاء نظيره في قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ [الفرقان: ١٩] فأما أكثر المواضع فإنما يذكر أحدهما إما المكذب كقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء] وإما المكذَّب به كقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾ [الفرقان: ١١] وأما الجمع بين ذكر المكذب والمكذب به فقليل.

ومن هنا اشتبهت هذه الآية على من جعل الخطاب فيها للإنسان وفسر معنى قوله ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾: فما يجعلك مكذباً.

وعبارة آخرين: فما يجعلك كذاباً. قال ابن عطية: وقال جمهور من المفسرين: المخاطب الإنسان الكافر أي ما الذي يجعلك كذاباً بالدين تجعل لله أنداداً وتزعم أن لا بعث بعد هذه الدلائل؟[١] قلت: وكلا القولين غير معروف في لغة العرب أن يقول (كذبك أي جعلك مكذباً) بل (كذبك: جعلك كذاباً).

وإذا قيل (جعلك كذاباً) أي كاذباً فيما يخبر به كما جعل الكفار الرسل كاذبين فيما أخبروا به فكذبوهم وهذا يقول: جعلك كاذباً بالدين فجعل كذبه أنه أشرك وأنه أنكر المعاد وهذا ضد الذي ينكر.

ذاك جعله مكذباً بالدين وهذا جعله كاذباً بالدين، والأول فاسد من جهة العربية والثاني فاسد من جهة المعنى؛ فإن الدين هو الجزاء الذي كذب به الكافر والكافر كذب به لم يكذب هو به.

وأيضاً فلا نعرف في المخبر أن يقول (كذبت به) بل يقال (كذبته).

وأيضاً فالمعروف في (كذبه) أي نسبه إلى الكذب لا أنه جعل الكذب فيه فهذا كله تكلف لا يعرف في اللغة بل المعروف خلافه وهو لم يقل (فما يكذبك) ولا قال (فما كذبك).

ولهذا كان علماء العربية على القول الأول[٢] قال ابن عطية: واختلف في

---

(١) المحرر الوجيز (١٦/ ٣٣٢).

(٢) هكذا في الأصل والصواب ينبغي أن يكون على القول الثاني (عبد الصمد).

المخاطب بقوله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ فقال قتادة والفراء والأخفش: هو محمد ﷺ قال الله له: «فما الذي يكذبك فيما تُخبر به من الجزاء والبعث وهو الدين بعد هذه العبرة[١] التي يوجب النظر فيها صحة ما قلت»؟

قال: ويحتمل أن يكون الدين على هذا التأويل جميع شرعه ودينه[٢].

قلت: وعلى أن المخاطب محمد ﷺ في المعنى قولان أحدهما قول قتادة[٣] قال: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧﴾ أي استيقن فقد جاءك البيان من الله وهكذا روى عنه ابن أبي حاتم بإسناد ثابت.

وكذلك ذكره المهدوي: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧﴾ أي استيقن مع ما جاءك من الله أنه أحكم الحاكمين فالخطاب للنبي ﷺ وقال: معناه عن قتادة. قال: وقيل المعنى: فما يكذبك أيها الشاك يعني الكافر في قدرة الله؟ أي شيء يحملك على ذلك بعدما تبين لك من قدرته؟ قال وقال الفراء[٤]: فما يكذبك بالثواب والعقاب؟ وهو اختيار الطبري[٥].

قلت: هذا القول المنقول عن قتادة هو الذي أوجب نفور مجاهد عن أن يكون الخطاب للنبي ﷺ كما روى الناس ومنهم ابن أبي حاتم عن الثوري عن منصور قال قلت لمجاهد: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧﴾ عنى به النبي ﷺ؟ قال: معاذ الله؟ عنى به الإنسان[٦].

وقد أحسن مجاهد في تنزيه النبي ﷺ أن يقال له: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ أي استيقن ولا تكذب فإنه لو قيل له (لا تكذب) لكان ذلك من جنس أمره بالإيمان والتقوى ونهيه عما نهى الله عنه وأما إذا قيل: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧﴾ فهو لم يكذب بالدين بل هو الذي أخبر بالدين وصدق به فهو ﴿وَالَّذِى جَآءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ [الزمر: ٣٣] فكيف يقال له: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧﴾؟ فهذا القول فاسد لفظاً ومعنى. واللفظ الذي

---

(١) في ابن عطية (العبر). (٢) ابن عطية (١٦/ ٣٣٢).

(٣) لم أجده لا عند ابن كثير ولا عند صاحب الدر؛ ولكن ذكره القرطبي وذكر ابن جرير بقول: وقيل (٢٠/ ١١٦).

(٤) معاني القرآن للفراء (٣/ ٢٧٧). (٥) ابن جرير (٣٠/ ٢٤٥).

(٦) ابن كثير (٤/ ٥٢٧) نقلاً عن ابن أبي حاتم والطبري (٣٠/ ٢٤٩).

رأيته منقولاً بالإسناد عن قتادة ليس صريحاً فيه بل يحتمل أن يكون أراد به خطاب الإنسان فإنه قال: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧﴾ قال: استيقن فقد جاءك البيان، وكل إنسان مخاطب بهذا فإذا كان قتادة أراد هذا فالمعنى صحيح.

لكن هم حكوا عنه أن هذا خطاب للرسول ﷺ وعلى هذا فهذا المعنى باطل فلا يقال للرسول (فأي شيء يجعلك مكذباً بالدين؟) وإن ارتأت به النفس لأن هذا فيه دلائل تدل على فساده ولهذا استعاذ منه مجاهد.

والصواب ما قاله الفراء والأخفش وغيرهما وهو الذي اختاره أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، وغيره من العلماء كما تقدم.

وكذلك ذكره أبو الفرج بن الجوزي عن الفراء فقال: إنه خطاب للنبي ﷺ والمعنى: فمن يقدر على تكذيبك بالثواب والعقاب بعدما تبين له أنا خلقنا الإنسان على ما وصفنا قاله الفراء[1].

قال: وأما (الدين) فهو الجزاء قلت: وكذلك قال غير واحد كما روى ابن أبي حاتم عن النضر بن عربي[2]: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧﴾ أي بالحساب. ومن تفسير العوفي عن ابن عباس[3]: أي بحكم الله قلت: قال (بحكم الله) لقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ وهو سبحانه يحكم بين المصدق بالدين والمكذب به.

وعلى هذا قوله ﴿فَمَا﴾ وصف للأشخاص ولم يقل (فمن) لأن ما يراد به الصفات دون الأعيان وهو المقصود كقوله: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣] وقوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ [الكافرون] وقوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾ [الشمس] كأنه قيل: فما المكذب بالدين بعد هذا؟ أي من هذه صفته ونعته هو جاهل ظالم لنفسه والله يحكم بين عباده فيما يختلفون فيه من هذا النبأ العظيم.

وقوله «بعد» قد قيل إنه «بعد ما ذكر من دلائل الدين» وقد يقال: لم يذكر إلا الإخبار به وأن الناس نوعان: في أسفل سافلين ونوع لهم أجر غير ممنون.

---

(١) زاد المسير (٩/ ١٧٤).
(٢) لم ينقله ابن كثير ولا صاحب الدر عن ابن أبي حاتم وهو عند ابن جرير (٣٠/٢٤٩).
(٣) ابن جرير (٣٠/ ٢٥٠).

فقد ذكر البشارة والنذارة والرسل بعثوا مبشرين ومنذرين فمن كذبك بعد هذا فحكمه إلى الله أحكم الحاكمين وأنت قد بلغت ما وجب عليك تبليغه.

وقوله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ ليس نفياً للتكذيب فقد وقع بل قد يقال: إنه تعجب منه كما قال: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

وقد يقال: إن هذا تحقير لشأنه وتصغير لقدره لجهله وظلمه كما يقال (من فلان؟) و(من يقول هذا إلا جاهل؟) لكنه ذكره بصيغة (ما) فإنها تدل على صفته وهي المقصودة إذ لا غرض في عينه كأنه قيل (فأي صنف وأي جاهل يكذبك بعد بالدين؟ فإنه من الذين يردون إلى أسفل سافلين) وقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ يدل على أنه الحاكم بين المكذب بالدين والمؤمن به والأمر في ذلك له ﷻ.

والقرآن لا تنقضي عجائبه، والله سبحانه بين مراده بياناً أحكمه لكن الاشتباه يقع على من لم يرسخ في علم الدلائل الدالة فإن هذه السورة وغيرها فيها عجائب لا تنقضي.

منها أن قوله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾﴾ ذكر فيه الرسول المُكذب والدين المكذب به جميعاً، فإن السورة تضمنت الأمرين تضمنت الإقسام بأماكن الرسل المبينة لعظمتهم وما أتوا به من الآيات الدالة على صدقهم الموجبة للإيمان وهم قد أخبروا بالمعاد المذكور في هذه السورة.

وقد أقسم الله عليه كما يقسم عليه في غير موضع وكما أمر نبيه أن يقسم عليه في مثل قوله: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧] وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣].

فلما تضمنت هذا وهذا ذكر نوعي التكذيب فقال: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾﴾ والله سبحانه أعلم.

وأيضاً فإنه لا ذنب له في ذلك والقرآن مراده أن يبين أن هذا الرد جزاء على ذنوبه ولهذا قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر: ٣] كما قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر].

لكن هنا ذكر الخسر فقط فوصف المُسْتَثْنَيْنَ بأنهم تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر

مع الإيمان والصلاح وهناك ذكر أسفل سافلين وهو العذاب والمؤمن المصلح لا يعذب وإن كان قد ضيع أموراً خسرها لو حفظها لكان رابحاً غير خاسر، وبسط هذا له موضع آخر.

والمقصود هنا أنه سبحانه يذكر خلق الإنسان مجملاً مفصلاً.

وتارة يذكر إحياءه كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة] وهو كقول الخليل عليه السلام: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فإن خلق الحياة ولوازمها وملزوماتها أعظم وأدل على القدرة والنعمة والحكمة)[١].

(١) مجموع الفتاوى (١٦/٢٧٨ ـ ٢٩٢).

سورة العلق

وقال في نزول العلق:

(بل قد ثبت في الصحيح أن أول ما أنزل عليه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ إلى قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق] ثم أنزل عليه بعد ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدثر] فهذا الخطاب إرسال له إلى الناس والإرسال بعد الإنباء فإن الخطاب الأول ليس فيه إرسال وآخر سورة اقرأ: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩] فأول السورة أمر بالقراءة وآخرها أمر بالسجود، والصلاة مؤلفة من أقوال وأعمال، فأفضل أقوالها القراءة وأفضل أعمالها السجود، والقراءة أول أقوالها المقصودة وما بعده تبع له) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (وقد ثبت في الصحيح[٢] عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كان أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي: الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّبَ إليه الخلاء، فكان يأتي غار حراء فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد ثم يرجع فيتزود لذلك، حتى فجأه الوحي وهو بغار حراء فأتاه الملك فقال له: اقرأ فقال لست بقارئ قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني ثم قال: اقرأ فقال لست بقارئ قال: مرتين أو ثلاثاً ثم قال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره» الحديث بطوله) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (وأول ما أنزله الله من القرآن: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ وختمها بقوله: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ فافتتحها بالأمر بالقراءة وختمها بالأمر بالسجود وكل

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٠٥).

(٢) البخاري (١/ ٣ ـ ٤)، ومسلم (١٠/ ٩٧ ـ ٩٨ ـ النووي).

(٣) مجموع الفتاوى (٢/ ١٥١ ـ ١٥٢) (٣٨٨/٣) الرد على المنطقيين (٤٩٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٧٩٦ ـ ٧٩٧).

منهما يكون عبادة مستقلة فالقراءة في نفسها عبادة مطلقاً إلا في مواضع والسجود عبادة بسبب السهو والتلاوة وسجود الشكر وعند الآيات على قول، فالتلاوة الخاصة سبب السجود) ا.هـ(١).

وقال رحمه الله: (أول ما أنزل على الرسول ﷺ فإن أوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق] فأطلق الخلق ثم خص الإنسان وأطلق التعليم ثم خص التعليم بالقلم، والخلق يتضمن فعله، والتعليم يتضمن قوله) ا.هـ(٢).

وقال رحمه الله: (ولهذا كان أول ما أنزل الله على نبيه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ فأمره أن يقرأ باسم الله فتضمن هذا الأمر بذكر الله وما نزل من الحق وقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾. فذكر سبحانه أنه خلق أكرم الأعيان الموجودة عموماً وخصوصاً وهو الإنسان وأنه المعلم للعلم عموماً وخصوصاً للإنسان وذكر التعليم بالقلم الذي هو آخر المراتب ليستلزم تعليم القول وتعليم العلم الذي في القلب) ا.هـ(٣).

وقال في عموم السورة:

(حيث افتتحها بقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ وختمها بقوله: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق] فوضعت الصلاة على ذلك أولها القراءة وآخرها السجود) ا.هـ(٤).

وقال رحمه الله: (قال له الملك عليه السلام: ﴿ٱقْرَأْ﴾ قال صلوات الله عليه وسلامه: «فقلت لست بقارئ» ولا كانوا يعرفون هذه الصلاة ولهذا لما صلاها النبي ﷺ نهاه عنها من نهاه من المشركين كأبي جهل قال الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ۝١٩﴾ [العلق]) ا.هـ(٥).

---

(١) المستدرك على مجموع الفتاوى مخطوط تحت الطبع.
(٢) مجموع الفتاوى (١٨/٢٢٩).
(٣) مجموع الفتاوى (٤/٣٨).
(٤) مجموع الفتاوى (١٤/٦).
(٥) مجموع الفتاوى (١٠/٣٩٤).

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾.

(ولهذا كان أول ما أنزل الله على نبيه سورة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾﴾ ذكر فيها النوعين فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾ فذكر جميع المخلوقات بوجودها العيني عموماً ثم خصوصاً فخص الإنسان بالخلق بعد ما عمَّ غيره ثم قال: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ فخص التعليم للإنسان بعد تعميم التعليم بالقلم، وذكر القلم لأن التعليم بالقلم هو الخط وهو مستلزم لتعليم اللفظ فإن الخط يطابقه وتعليم اللفظ هو البيان وهو مستلزم لتعليم العلم لأن العبارة تطابق المعنى.

فصار تعليمه بالقلم مستلزماً للمراتب الثلاث: اللفظي والعلمي والرسمي بخلاف ما لو أطلق التعليم أو ذكر تعليم العلم فقط لم يكن ذلك مستوعباً للمراتب.

فذكر في هذه السورة الوجود العيني والعلمي وأن الله سبحانه هو معطيهما؛ فهو خالق الخلق وخالق الإنسان وهو المعلم بالقلم ومعلم الإنسان) ا.هـ[(١)].

وقال رحمه الله: (ولهذا كان أول ما أنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾﴾ إلى قوله: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فبين سبحانه في أول ما أنزله أنه سبحانه هو الخالق الهادي الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى كما قال موسى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠] فالخلق يتناول كل ما سواه من المخلوقات ثم خص الإنسان فقال: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾ ثم ذكر أنه علَّم فإن الهدى والتعليم هو كمال المخلوقات.

والعلم له «ثلاث مراتب» علم بالجنان وعبارة باللسان وخط بالبنان، ولهذا قيل: إن لكل شيء أربع وجودات: وجود عيني وعلمي ولفظي ورسمي. وجود في الأعيان ووجود في الأذهان واللسان والبنان، لكن الوجود العيني هو وجود الموجودات في أنفسها والله خالق كل شيء، وأما الذهني الجناني فهو العلم الذي في القلوب والعبارة عن ذلك هو اللساني وكتابة ذلك هو الرسمي البناني وتعليم الخط يستلزم تعليم العبارة

(١) مجموع الفتاوى (٢/١٥٨ ـ ١٥٩).

واللفظ وذلك يستلزم تعليم العلم فقال: ﴿عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ لأن التعليم بالقلم يستلزم المراتب الثلاث وأطلق التعليم ثم خص فقال: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (أول ما أنزل الله على رسوله محمد ﷺ سورة ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾، فذكر في هذه السورة التي ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنها أول ما أنزل عليه من القرآن أنه سبحانه موجد الموجودات الأربعة فذكر الوجود العيني وهو الوجود الحقيقي الثابت في نفسه فعم بالخلق وخص الإنسان فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢﴾ ثم ذكر الموجودات الثلاثة المطابقة لهذا فعم وخص فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ فذكر العلم عموماً وخص الإنسان بالتعليم وذكر أنه علم بالقلم وذلك هو الخط والخط يطابق اللفظ واللفظ يطابق المعنى الذي في القلب فإن الخط لا يدل بنفسه على المعنى وإنما يدل على العبارة الدالة على المعنى.

ولهذا من لم يعرف لغة صاحب الخط فإنه إذا قرأ خطاً بالعربي واللسان فارسي وهو لا يعرف معنى اللغة الفارسية لم يعرف المعنى فإن الخط إنما يدل بواسطة اللفظ) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (لكل شيء أربع مراتب وجود في الأعيان ووجود في الأذهان ووجود في اللسان ووجود في البنان ولهذا أول ما نزل ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ فذكر الجميع بوجودها العيني عموماً ثم خصوصاً ثم قال: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣﴾ فخص التعليم للإنسان بعد تعميم التعليم بالقلم هو الخط وهو مستلزم التعليم للفظ فإن الخط يطابق وتعليم اللفظ هو البيان وهو مستلزم لتعليم العلم لأن العبارة تطابق المعنى فصار تعليمه بالقلم مستلزماً للمراتب الثلاث الرسمي واللفظي والعلم بخلاف ما لو أطلق التعليم وذكر تعليم العلم فقط لم يكن مستوعباً للمراتب) ا.هـ[3].

وقال رحمه الله: (بقوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ١١١ ـ ١١٢).
(٢) الصفدية (٢/ ٢٧٨).
(٣) مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب (٩/ ٢٦)، ولعل هذا مختصراً من العبارة في مجموع الفتاوى (١٢/ ١١١ ـ ١١٢).

﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ فذكر الخلق عموماً وخصوصاً ثم ذكر التعليم عموماً وخصوصاً فالخط يطابق اللفظ واللفظ يطابق العلم والعلم هو المطابق للمعلوم.

ومن هنا غلط من غلط فظن أن القرآن في المصحف كالأعيان في الورق فظن أن قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨﴾ [الواقعة] كقوله: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] فجعل إثبات القرآن الذي هو كلام الله في المصاحف كإثبات الرسول في المصاحف وهذا غلط: إثبات القرآن كإثبات اسم الرسول هذا كلام وهذا كلام وأما إثبات اسم الرسول فهذا كإثبات الأعمال أو كإثبات القرآن في زبر الأولين قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ۝٥٢﴾ [القمر] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٩٦﴾ [الشعراء] فثبوت الأعمال في الزبر وثبوت القرآن في زبر الأولين هو مثل كون الرسول مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ولهذا قيد سبحانه هذا بلفظ «الزبر» و«الكتب» يقال: زبرت الكتاب إذا كتبته، والزبور بمعنى المزبور أي المكتوب، فالقرآن نفسه ليس عند بني إسرائيل، ولكن ذكره كما أن محمداً نفسه ليس عندهم ولكن ذكره فثبوت الرسول في كتبهم كثبوت القرآن في كتبهم بخلاف ثبوت القرآن في اللوح المحفوظ وفي المصاحف؛ فإن نفس القرآن أثبت فيها، فمن جعل هذا مثل هذا كان ضلاله بيناً وهذا مبسوط في موضعه) ا.هـ[(١)].

وقال رحمه الله: (والله تعالى هو الخالق للأمور الموجودة في الأعيان، والمعلم للصور الذهنية المطابقة لما في الأعيان ولهذا كان أول ما أنزل على رسوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ بين في أول ما أنزل أنه خالق الأعيان عموماً وخصوصاً. فكما أنه خالق الموجودات العينية فهو المعلم للماهيات الذهنية) ا.هـ[(٢)].

وقال رحمه الله: (فأول ما أنزل الله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ فذكر أنه الأكرم وهو أبلغ من الكريم وهو المحسن غاية الإحسان، ومن كرمه أنه علم بالقلم عَلَّمَ

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠). (٢) الرد على المنطقيين (١٥٣).

الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ فعلمه العلوم بقلبه والتعبير عنها بلسانه وأن يكتب ذلك بالقلم فذكر التعليم بالقلم يتناول علم العبارة والنطق وعبارة المعاني والعلوم، فإذا كان قد علمه هذه العلوم فكيف يمتنع عليه أن يعلمه ما يأمره به وما يخبره به، وبيان ذلك أنه قال في أول السورة: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ ومعلوم أن من رأى العلقة قطعة من دم فقيل له هذه العلقة يصير منها إنسان يعلم كذا وكذا لكان يتعجب من هذا غاية التعجب وينكره أعظم الإنكار، ومعلوم أن نقل الإنسان من كونه علقة إلى أن يصير إنساناً عالماً قادراً كاتباً أعظم من جعل مثل هذا الإنسان يعلم ما أمر الله به وما أخبر به، فمن قدر على أن ينقله من الصغر إلى أن يجعله عالماً قارئاً كاتباً كان أن يقدر على جعله عالماً بما أمر به وبما أخبر به أولى وأحرى، وهذا كما استدل على قدرته على إعادة الخلق بقدرته على الابتداء وقد أخبر الله تعالى عن الكفار أنهم تعجبوا من التوحيد ومن النبوة ومن المعاد فقال تعالى: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص] فذكر تعجبهم من التوحيد والنبوة وقال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ﴾ [يونس: ٢] وهذا أيضاً تعجب من أن أرسل إليهم رجل منهم وقوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ دل على أنه منذر لجنس الناس وأنه من جنس الناس لا يختص به العرب دون غيرهم وإن كان أول ما أرسل إليهم وبلسانهم وقال تعالى: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾ [ق] وقال تعالى: ﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥﴾ [الرعد] وقال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۝١٢ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ۝١٣ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ۝١٤﴾ [الصافات] فالرسول كان يعجب من تكذيبهم لما جاءهم به من آيات الأنبياء وهم يعجبون مما جاء به لكونه خارجاً عما اعتادوه من النظائر فإنهم لم يعرفوا قبل مجيئه لا توحيداً ولا نبوة ولا معاداً قال تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا

يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأنعام] وأما حكمته في إرسال بشر فقد ذكر أنه من جنسهم وأنه بلسانهم فهو أتم في الحكمة والرحمة وذكر أنهم لا يمكنهم الأخذ عن الملك وأنه لو نزل ملكاً لكان يجعله في صورة بشر ليأخذوا عنه ولهذا لم يكن البشر يرون الملائكة إلا في صورة الآدميين كما كان جبريل يأتي في صورة دحية الكلبي وكما أتى مرة في صورة أعرابي ولما جاءوا إبراهيم وامرأته حاضرة كانوا في صورة بشر وبشروها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء]) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (أول ما أنزل الله من القرآن: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾ وذكر فيها أنه سبحانه معطي الوجودين فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾ فهذا الوجود العيني ثم قال: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ فذكر أنه أعطى الوجود العلمي الذهني وذكر التعليم بالقلم لأنه مستلزم لتعليم اللفظ والعبارة، وتعليم اللفظ والعبارة مستلزم لتعليم المعنى فدل بذكره آخر المراتب على أولها أو أطلق التعليم لم يدل ذلك على العموم والاستغراق) ا.هـ[2].

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾.

(وأما في قوله: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ [المزمل: ٨] فيقال: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله.

وهذا أيضاً مما يبين فساد قول من جعل الاسم هو المسمى وقوله في الذبيحة ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٨] كقوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾ وقوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرَىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود: ٤١] فقوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ هو قراءة بسم الله في أول السور.

وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع وبين أن هذه الآية تدل على أن القارئ مأمور أن يقرأ بسم الله وأنها ليست كسائر القرآن بل هي تابعة لغيرها، وهنا يقول: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾﴾ [الفاتحة] كما كتب سليمان وكما جاءت به

---

(١) النبوات (١٦٣ ـ ١٦٥).

(٢) مجموع الفتاوى (١٢/ ٣٨٥).

السنة المتواترة وأجمع المسلمون فينطق بنفس الاسم الذي هو اسم مسمى، لا يقول بالله الرحمن الرحيم كما في قوله: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ [المزمل: ٨] فإنه يقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ونحو ذلك وهنا قال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ لم يقل: اقرأ اسم ربك وقوله: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ يقتضي أن يذكره بلسانه.

وأما قوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ [آل عمران: ٤١] فقد يتناول ذكر القلب، وقوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ هو كقول الآكل: باسم الله والذابح باسم الله كما قال النبي ﷺ: «ومن لم يكن ذبح فليذبح بسم الله») ا.هـ[١].

﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾.

(ولعل هذا أيضاً هو الذي قصده في حكاية ابن عطاء إن كان لها أصل فإنه قد ذكر ابن قتيبة في المعارف: (أن الله لما أهبط آدم أنزل عليه حروف المعجم في إحدى وعشرين صحيفة)[٢].

فيكون ناقلها قصد أن آدم اختُص من بين الملائكة بأن عُلِّم الكتابة بهذه الحروف كما قال تعالى: ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾) ا.هـ[٣].

﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾.

قال في بيان غلط بعض الصوفية في تفسيرهم للآية بما ليس بصحيح: (﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ أي إن رأى ربه استغنى. والمعنى: إنه ليطغى أن رأى نفسه استغنى) ا.هـ[٤].

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨﴾.

(وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «عليكم بالصدق! فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب! فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وأن الفجور يهدي

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ٢١٠ ـ ٢١١).

(٢) المعارف (١٨) بلفظ فيه بعض الخلاف، وابن عطاء الروذباري المتوفي سنة ٣٧٩هـ ابن أخت أبي علي الروذباري.

(٣) الاستقامة (١/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤).

(٤) مجموع الفتاوى (١٠/ ٥٦٠).

إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً».

ولهذا قال ﷻ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ [الشعراء] وقال: ﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ قال غير واحد من الصحابة والتابعين كأبي هريرة وعبد الله بن الحارث وعطاء: هم الملائكة. وقال قتادة: الزبانية في كلام العرب الشُّرَط. وقال مقاتل: هم خزنة جهنم. قال أهل اللغة كابن قتيبة وغيره: هو مأخوذ من الزَّبْن وهو الدفع كأنهم يدفعون أهل النار إليها. قال ابن دريد: الزَّبْن الدفع يقال «ناقة زبون» إذا زَبنَتْ حالبها ودفعته برجلها و«تزابن القوم» تدارءوا، واشتقاق الزبانية من الزبن[2]) ا.هـ[3].

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾.

(ففي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: «هل يُعفِّر محمد وجهه بين أظهركم؟ قيل: نعم قال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته» فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه فقيل له: مالك؟ قال: «إن بيني وبينه لخندقاً من نار وَهَوْلاً وأجنحة» فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً» وأنزل الله تعالى[4]: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾) ا.هـ[5].

﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾.

(وقال تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ والمراد القرب من الداعي في سجوده كما قال:

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٦٧)، والحديث مرّ تخريجه.
(٢) زاد المسير (٩/ ١٧٩).
(٣) الرد على المنطقيين (٤٩٨).
(٤) مسلم (٢٧٩٧) وهو من أفراد مسلم.
(٥) الجواب الصحيح (٦/ ٢٧٧ ـ ٢٧٨).

«وأما السجود فأكثروا فيه من الدعاء فقمن أن يستجاب لكم» فأمر بالاجتهاد في الدعاء في السجود مع قرب العبد من ربه وهو ساجد، وقد أمر المصلي أن يقول في سجوده: (سبحان ربي الأعلى)[١] رواه أهل السنن) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (ولهذا قال النبي ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»[٣] وقال تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾) ا.هـ[٤].

قال شيخ الإسلام:

(في بيان أن الرسول ﷺ أول ما أنزل عليه بيان أصول الدين وهي الأدلة العقلية الدالة على ثبوت الصانع وتوحيده وصدق رسوله ﷺ وعلى المعاد إمكاناً ووقوعاً.

وقد ذكرنا فيما تقدم هذا الأصل غير مرة وأن الرسول ﷺ بين الأدلة العقلية والسمعية التي يهتدي بها الناس إلى دينهم وما فيه نجاتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، وأن الذين ابتدعوا أصولاً تخالف بعض ما جاء به هي أصول دينهم، لا أصول دينه وهي باطلة عقلاً وسمعاً، كما قد بسط في غير موضع وبين أن كثيراً من المنتسبين إلى العلم والدين قاصرون أو مقصرون في معرفة ما جاء به من الدلائل السمعية والعقلية.

فطائفة قد ابتدعت أصولاً تخالف ما جاء به من هذا وهذا.

وطائفة رأت أن ذلك بدعة فأعرضت عنه، وصاروا ينتسبون إلى السنة لسلامتهم من بدعة أولئك، ولكن هم مع ذلك لم يتبعوا السنة على وجهها، ولا قاموا بما جاء به من الدلائل السمعية والعقلية.

بل الذي يخبر به من السمعيات مما يخبر به عن ربه وعن اليوم الآخر غايتهم أن يؤمنوا بلفظه من غير تصور لما أخبر به، بل قد يقولون مع هذا إنه نفسه لم يكن يعلم معنى ما أخبر به، لأن ذلك عندهم هو تأويل المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله.

---

(١) مرّ تخريجه.
(٢) مجموع الفتاوى (٥/٢٣٦ ـ ٢٣٧).
(٣) مرّ تخريجه.
(٤) مجموع الفتاوى (٢١/٢٨٤)، الاستقامة (١/١٣٨ ـ ١٣٩).

وأما الأدلة العقلية فقد لا يتصورون أنه أتى بالأصول العقلية الدالة على ما يخبر به، كالأدلة الدالة على التوحيد والصفات، ومنهم من يقر بأنه جاء بهذا مجملاً، ولا يعرف أدلته، بل قد يظن أن ما يستدل به ـ كالاستدلال بخلق الإنسان على حدوث جواهره هو دليل الرسول.

وكثير من هؤلاء يعتقدون أن في ذلك ما لا يجوز أن يعلم بالعقل كالمعاد، وحسن التوحيد والعدل والصدق وقبح الشرك والظلم والكذب، والقرآن بين الأدلة العقلية الدالة على ذلك، وينكر على من لم يستدل بها، ويبين أنه بالعقل يعرف المعاد وحسن عبادته وحده وحسن شكره، وقبح الشرك، وكفر نعمه، كما قد بسطت الكلام على ذلك في مواضع.

وكثير من الناس يكون هذا في فطرته وهو ينكر تحسين العقل وتقبيحه إذا صنف في أصول الدين على طريقة النُّفاة الجبرية ـ أتباع جهم.

وهذا موجود في عامة ما يقوله المبطلون يقولون بفطرتهم ما يناقض ما يقولونه في اعتقادهم البدعي.

وقد ذكر أبو عبد الله[1] ـ ابن الجد الأعلى ـ أنه سمع أبا الفرج بن الجوزي ينشد في مجلس وعظه البيتين المعروفين:

هب البعث لم تأتنا رُسله ... وجاحمة النار لم تُضرم
أليس من الواجب المستحق ... حياء العباد من المنعم[2]

فقد صرح في هذا بأنه من الواجب المستحق حياء الخلق من الخالق المنعم، وهذا تصريح بأن شكره واجب مستحق ولو لم يكن وعيد، ولا رسالة أخبرت بجزاء، وهو يبين ثبوت الوجوب والاستحقاق وإن قدر أنه لا عذاب.

وهذا فيه نزاع قد ذكرناه في غير هذا الموضع، وبينا أن هذا هو الصحيح ونتيجة

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن قاسم الخضر بن محمد بن الخضر المعروف بابن تيمية فخر الدين الخطيب الواعظ الفقيه الحنبلي ولد سنة (٥٤٢هـ) لازم ابن الجوزي في بغداد وسمع منه زاد المسير، له «التفسير الكبير» في أكثر من ثلاثين مجلد.

(٢) شرح ابن القيم هذين البيتين في كتابه (مفتاح دار السعادة) (٢/ ٩٢ ـ ٩٦).

فعل المنهي انخفاض المنزلة وسلب كثير من النعم التي كان فيها وإن كان لا يعاقب بالضرر.

ويبين أن الوجوب والاستحقاق يعلم بالبديهة فتارك الواجب وفاعل القبيح وإن لم يعذب بالآلام كالنار فيسلب من النعم وأسبابه ما يكون جزاءه وهذا جزاء من لم يشكر النعمة بل كفرها ـ أن يسلبها.

فالشكر قَيْدُ النعم وهو موجب للمزيد، والكفر بعد قيام الحجة موجب للعذاب، وقبل ذلك ينقص النعمة ولا يزيد.

مع أنه لا بد من إرسال رسول يستحق معه النعيم أو العذاب فإنه ماثم دار إلا الجنة أو النار قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ [التين] وهذا مبسوط في مواضع.

والمقصود هنا أن بيان هذه الأصول وقع في أول ما أنزل من القرآن فإن أول ما أنزل من القرآن: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ عند جماهير العلماء وقد قيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾﴾ [المدثر] روي ذلك عن جابر والأول أصح فإن [ما][1] في حديث عائشة الذي في الصحيحين يبين أن أول ما نزل ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ نزلت عليه وهو في غار حراء وأن (المدثر) نزلت بعد.

وهذا هو الذي ينبغي؛ فإن قوله (اقرأ) أمر بالقراءة لا بتبليغ الرسالة، وبذلك صار نبياً وقوله: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾﴾ [المدثر] أمر الإنذار وبذلك صار رسولاً منذراً.

ففي الصحيحين من حديث الزهري، عن عروة، عن عائشة قالت: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حُبِّبَ إليه الخلاء، فكان يأتي غار حراء فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء».

---

(١) من زيادات (عبد الصمد).

فجاء الملك فقال: «اقرأ» قال: «ما أنا بقارئ»، قال: فأخذني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال «اقرأ» فقلت: «ما أنا بقارئ»، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال «اقرأ»، فقلت: «ما أنا بقارئ».

فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾.

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: «زملوني» زملوني [فزملوه] حتى ذهب عنه الروع.

فقال لخديجة ـ وأخبرها الخبر ـ «لقد خشيت على نفسي».

فقالت له خديجة: «كلا والله لا يخزيك الله أبداً ـ إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتقري الضيف، وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق».

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة. وكان أمرأً تنصَّر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبري فيكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي.

فقالت له خديجة: «يا ابن عم! اسمع من ابن أخيك».

فقال له ورقة: «يا ابن أخي! ماذا ترى؟».

فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى.

فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى يا ليتني فيها جذعاً؟ ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك؟.

فقال رسول الله ﷺ: «أو مخرجي هم؟».

قال: «نعم لم يأت أحد قط بمثل ما جئت به إلا عُودي وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً»[(١)].

(١) البخاري (١/٣ ـ ٤)، ومسلم (١/٩٧ ـ ٩٨).

ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي.

قال ابن شهاب الزهري: سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن قال: أخبرني جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي: «فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً فرفعت بصري قبل السماء فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض فجئت حتى هويت إلى الأرض، فجئت أهلي فقلت: زمِّلوني زمِّلوني فزملوني فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ إلى قوله ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ [المدثر]»[1].

فهذا يبين أن «المدثر» نزلت بعد تلك الفترة وأن ذلك كان بعد أن عاين الملك الذي جاءه بحراء أولاً، فكان قد رأى الملك مرتين.

وهذا يفسر حديث جابر الذي روي من طريق آخر كما أخرجاه من حديث يحيى بن أبي كثير قال: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ قلت: يقولون: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد الله عن ذلك [و] قلت له مثل ما قلت فقال جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال: جاورت بحراء؟ فلما قضيت جواري هبطت فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً ونظرت عن شمالي فلم أرَ شيئاً، ونظرت أمامي فلم أرَ شيئاً، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً فرفعت رأسي فرأيت شيئاً فأتيت خديجة فقلت: دثروني وصبوا علي ماء باراً فدثروني وصبوا علي ماء بارد»[2].

قال: فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ [المدثر].

فهذا الحديث يوافق المتقدم وأن «المدثر» نزلت بعد أن هبط من الجبل وهو يمشي، وبعد أن ناداه الملك حينئذ وقد بين في الرواية الأخرى أن هذا الملك هو الذي جاءه بحراء وقد بينت عائشة أن (اقرأ) نزلت حينئذ في غار حراء لكن كأنه لم يكن علم أن (اقرأ) نزلت حينئذ بل علم أنه رأى الملك قبل ذلك وقد يراه ولا يسمع منه لكن في حديث عائشة زيادة علم وهو أمره بقراءة (اقرأ).

وفي حديث الزهري أنه سمى هذا فترة الوحي وكذلك في حديث عائشة فترة

(١) البخاري (٤/١٤١)، ومسلم (١/٩٩). (٢) مرّ تخريجه.

الوحي فقد يكون الزهري روى حديث جابر بالمعنى وسمَّى ما بين الرؤيتين «فترة الوحي» كما بَيَّنَتْهُ عائشة وإلا فإن كان جابر سماه «فترة الوحي» فكيف يقول: إن الوحي لم يكن نزل؟

وبكل حال فالزهري عنده حديث عروة عن عائشة وحديث أبي سلمة عن جابر وهو أوسع علماً وأحفظ من يحيى بن أبي كثير لو اختلفا لكن يحيى ذكر أنه سأل أبا سلمة عن الأولى فأخبر جابر بعلمه ولم يكن علم ما نزل قبل ذلك وعائشة أثبتت وبينت.

والآيات ـ آيات ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ و﴿ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١] بين ذلك والحديثان متصادقان مع القرآن ومع دلالة العقل على أن هذا الترتيب هو المناسب.

وإذا كان أول ما أنزل: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ ففي الآية الأولى إثبات الخالق تعالى وكذلك في الثانية. وفيها وفي الثانية الدلالة على إمكان النبوة، وعلى نبوة محمّد ﷺ.

أما الأولى فإنه قال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ ثم قال: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢﴾ فذكر الخلق مطلقاً، ثم خص خلق الإنسان أنه خلقه من علق، وهذا أمر معلوم لجميع الناس ـ كلهم يعلمون أن الإنسان يحدث في بطن أمه وأنه يكون من علق وهؤلاء بنو آدم.

وقوله: ﴿الإنسان﴾ هو اسم جنس يتناول جميع الناس، ولم يدخل فيه آدم الذي خلق من طين، فإن المقصود بهذه الآية بيان الدليل على الخالق تعالى، والاستدلال إنما يكون بمقدمات يعلمها المستدل، والمقصود بيان دلالة الناس وهدايتهم، وهم كلهم يعلمون أن الناس يخلقون من العلق.

فأما خلق آدم من طين فذاك إنما علم بخبر الأنبياء أو بدلائل أخر ولهذا ينكره طائفة من الكفار ـ الدهرية وغيرهم ـ الذين لا يقرون بالنبوات.

وهذا بخلاف ذكر خلقه في غير هذه السورة فإن ذاك ذكره لمن يثبت النبوة وهذه السورة أول ما نزل وبها تثبت النبوة فلم يذكر فيها ما علم بالخبر بل ذكر فيها الدليل المعلوم بالعقل والمشاهدة والأخبار المتواترة لمن لم ير العلق.

وذكر سبحانه خلق الإنسان من العلق ـ وهو جمع «عَلَقَة» وهي القطعة الصغيرة من الدم ـ لأن ما كان قبل ذلك كان نطفة، والنطفة قد تسقط في غير الرحم كما يحتلم الإنسان، وقد تسقط في الرحم ثم يرميها الرحم قبل أن تصير علقة، فقد صار مبدأ لخلق الإنسان، وعلم أنها صارت علقة ليخلق منها الإنسان.

وقد قال في سورة القيامة: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة] فهنا ذكر هذا على إمكان النشأة الثانية التي تكون من التراب، ولهذا قال في موضع آخر: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [الحج: ٥] ففي القيامة استدل بخلقه من نطفة فإنه معلوم لجميع الخلق، وفي الحج ذكر خلقه من تراب فإنه قد علم بالأدلة القطعية وذكر أول الخلق أدل على إمكان الإعادة.

وأما هنا فالمقصود ذكر ما يدل على الخالق تعالى ابتداء فذكر أنه خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ وهو من العلقة ـ الدم يصير مضغة وهو قطعة لحم كاللحم الذي يمضغ بالفم ثم تخلق فتصور كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [الحج: ٥] فإن الرحم قد يقذفها غير مخلقة فبين للناس مبدأ خلقهم ويرون ذلك بأعينهم.

وهذا الدليل ـ وهو ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾ يشترك فيه جميع الناس فإن الناس هم المستدلون وهم أنفسهم الدليل والبرهان والآية.

فالإنسان هو الدليل وهو المستدل، كما قال تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات] وقال: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] وهذا كما قال في آية أخرى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور].

وهو دليل يعلمه الإنسان من نفسه ويذكره كلما تذكر في نفسه وفيمن يراه من بني جنسه فيستدل به على المبدأ والمعاد، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾﴾ [مريم] وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس].

وكذلك قال زكريا لما تعجب من حصول ولد على الكبر فقال: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۝٩﴾ [مريم] ولم يقل (إنه أهون عليه) كما قال في المبدأ والمعاد: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وقال سبحانه: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ بعد أن قال: ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ فأطلق الخلق الذي يتناول كل مخلوق، ثم عين خلق الإنسان فكان كلما يعلم حدوثه داخلاً في قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾.

وذكر بعد الخلق التعليم الذي هو التعليم بالقلم وتعليم الإنسان ما لم يعلم فخص هذا التعليم الذي يستدل به على إمكان النبوة.

ولم يقل هنا (هدى) فيذكر الهدى العام المتناول للإنسان وسائر الحيوان، كما قال في موضع آخر: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلى] وكما قال موسى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] لأن هذا التعليم الخاص يستلزم الهدى العام ولا ينعكس، وهذا أقرب إلى إثبات النبوة نوع من التعليم.

وليس جعل الإنسان نبياً أعظم من جعله العلقة إنساناً حياً عالماً ناطقاً سميعاً بصيراً متكلماً قد علم أنواع المعارف كما أنه ليس أول الخلق بأهون عليه من إعادته والقادر على المبدأ كيف لا يقدر على المعاد؟ والقادر على هذا التعليم كيف لا يقدر على ذاك التعليم وهو بكل شيء عليم ولا يحيط أحد من علمه إلا بما شاء؟

وقال سبحانه أولاً: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ فأطلق التعليم والمعلم فلم يخص نوعاً من المعلمين فيتناول تعليم الملائكة وغيرهم من الإنس والجن كما تناول الخلق لهم كلهم.

وذكر التعليم بالقلم لأنه يقتضي تعليم الخط، والخط يطابق اللفظ، وهو البيان والكلام، ثم اللفظ يدل على المعاني المعقولة التي في القلب فيدخل فيه كل علم في القلوب.

وكل شيء له حقيقة في نفسه ثابتة في الخارج عن الذهن ثم يتصوره الذهن

والقلب ثم يعبر عنه اللسان ثم يخطه القلم فله وجود عيني وذهني ولفظي ورسمي - وجود في الأعيان والأذهان واللسان والبنان لكن الأول هو هو وأما الثلاث فإنه مثال مطابق له فالأول هو المخلوق والثلاثة معلمة فذكر الخلق والتعليم ليتناول المراتب الأربع فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾.

وقد تنازع الناس في الماهيات هل هي مجعولة أم لا؟ وهل ماهية كل شيء زائدة على وجوده؟ كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع[1] وبين الصواب في ذلك وأنه ليس إلا ما يتصور في الذهن ويوجد في الخارج.

فإذا أريد بالماهية ما يتصور في الذهن وبالوجود ما في الخارج أو بالعكس فالماهية غير الموجود إلا كان ما في الأعيان مغايراً لما في الأذهان.

وإن أريد بالماهية ما في الذهن أو الخارج أو كلاهما وكذلك بالوجود، فالذي في الخارج من الوجود هو الماهية الموجودة في الخارج، وكذلك ما في الذهن من هذا هو هذا، ليس في الخارج شيئان. وهو سبحانه علم ما في الأذهان، وخلق ما في الأعيان وكلاهما مجعول له.

لكن الذي في الخارج جعله جعلاً خلقياً، والذي في الذهن جعله جعلاً تعليمياً فهو الذي: ﴿خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾ وهو: ﴿ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾.

وقوله: ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ يدخل فيه تعليم الملائكة الكاتبين ويدخل فيه تعليم كتب الكتب المنزلة فعلم بالقلم أن يكتب كلامه الذي أنزله كالتوراة والقرآن بل هو كتب التوراة لموسى.

وكون محمد كان نبياً أمياً هو من تمام كون ما أتى به معجزاً خارقاً للعادة ومن تمام بيان أن تعليمه أعظم من كل تعليم كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت] فغيره يعلم ما كتبه غيره وهو علم الناس ما يكتبونه وعلمه الله ذلك بما أوحاه إليه.

---

(١) تكلم شيخ الإسلام عن هذا في كتابه الرد على المنطقيين (٦٤ ـ ٦٩).

وهذا الكلام الذي أنزل عليه هو آية وبرهان على نبوته فإنه لا يقدر عليه الإنس والجن: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء] ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس] وفي الآية الأخرى: ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود].

فصل

وقد بسطنا في غير هذا الموضع طرق الناس في إثبات الصانع والنبوة [و][1] أن كل طريق تتضمن ما يخالف السنة فإنها باطلة في العقل كما هي مخالفة للشرع.

والطريق المشهورة عند المتكلمين هو الاستدلال بحدوث الأعراض على حدوث الأجسام.

وقد بينا الكلام على هذه في غير موضع، وأنها مخالفة للشرع والعقل، وكثير من الناس يعلم أنها بدعة في الشرع لكن لا يعلم فسادها في العلم وبعضهم يظن أنها صحيحة في العقل والشرع وأنها طريقة إبراهيم الخليل عليه السلام وقد بين فساد هذا في غير موضع[2].

والمقصود هنا أن طائفة من النظار ـ مثبتة الصفات أرادوا سلوك سبيل السنة ولم يكن عندهم إلا هذه الطريق.

فاستدلوا بخلق الإنسان لكن لم يجعلوا خلقه دليلاً كما في الآية بل جعلوه مستدلاً عليه وظنوا أنه يعرف بالبديهة والحس حدوث أعراض النطفة وأما جواهرها فاعتقدوا أن الأجسام كلها مركبة من الجواهر المنفردة وأن خلق الإنسان وغيره إنما هو إحداث أعراض في تلك الجواهر بجمعها وتفريقها ليس هو إحداث عين.

فصاروا يريدون أن يستدلوا على أن الإنسان مخلوق ثم إذا ثبت أنه مخلوق قالوا: إن له خالقاً.

---

(١) من زيادات صاحب المجموع.

(٢) تكلم شيخ الإسلام عن هذه في «درء تعارض العقل والنقل» وفي «تفسير سورة الإخلاص».

واستدلوا على أنه مخلوق بدليل الأعراض وأن النطفة والعلقة والمضغة لا تنفك من أعراض حادثة إذ كان عندهم جواهر تجمع تارة وتفرق أخرى فلا تخلو عن اجتماع وافتراق وهما حادثان فلم يخل الإنسان عن الحوادث وما لم يخل من الحوادث فهو حادث لامتناع حوادث لا أول لها.

وهذه هي الطريقة التي سلكها الأشعري في «اللمع في الرد على أهل البدع» وشرحه أصحابه شروحاً كثيرة وكذلك في «رسالته إلى أهل الثغر» وذكر قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩﴾ [الواقعة] فاستدل على أن الإنسان مخلوق بأنه مركب من الجواهر التي لا تخلو من اجتماع وافتراق فلم تخل من الحوادث فهي حادثة.

وهذه الطريقة هي مقتضية من كون الأجسام كلها كذلك.

وتلك هي الطريقة المشهورة التي يسلكها الجهمية والمعتزلة ومن اتبعهم من المتأخرين المنتسبين إلى المذاهب الأربعة وغيرهم من أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد كما ذكرها القاضي، وابن عقيل، وغيرهما، وذكرها أبو المعالي الجويني وصاحب (التتمة)(١) وغيرهما وذكرها أبو الوليد الباجي(٢) وأبو بكر بن العربي(٣) وغيرهما وذكرها أبو منصور الماتريدي(٤) والصابوني(٥) وغيرهما.

---

(١) صاحب التتمة هو أبو سعيد عبد الرحمن بن مأمون المعروف بالمتولي النيسابوري شيخ الشافعية والتتمة كتاب تمم في كتاب (الإبانة في فقه الشافعي) توفي سنة (٤٧٨هـ).

(٢) هو سليمان بن خلف بن سعد القرطبي أبو الوليد الباجي سبق الترجمة له وراجع: الديباج المذهب (١٢٠) والوفيات (١/ ٢١٥) والفوات (١/ ١٧٥) ونفح الطيب (١/ ٣٦١) وتهذيب ابن عساكر (٦/ ٢٤٨).

(٣) هو محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الأشبيلي المالكي أبو بكر بن العربي قاض من حفاظ الحديث ولد في أشبيلية ورحل إلى المشرق وبرع في الأدل وبلغ رتبة الاجتهاد في علوم الدين وصنف كتباً في الحديث والفقه والأصول والتفسير مات بقرب فاس ودفن بها عام (٥٤٣هـ) من كتبه: أحكام القرآن والقبس في شرح موطأ ابن أنس والناسخ والمنسوخ وغير ذلك كثير.

(٤) هو محمد بن محمد بن محمود أبو منصور الماتريدي سبق الترجمة له توفي عام (٣٣٣هـ).

(٥) الصابوني: هو نور الدين أبو المحامد أحمد بن أبي بكر الصابوني البخاري الحنفي المتوفي سنة (٥٨٠هـ) وهو صاحب كتاب (الكفاية في الهداية) في علم الكلام وهو والماتريدي حنفيان وقد ترجم الدكتور عميرة خطأ ذاهباً ذهنه إلى الصابوني المحدث.

لكن هؤلاء الذين استدلوا بخلق الإنسان فرضوا ذلك في الإنسان ظناً أن هذه طريقة القرآن وطولوا في ذلك ودققوا حتى استدلوا على كون عين الإنسان وجواهره مخلوقة لظنهم أن المعلوم بالحسن وبديهة العقل إنما هو حدوث أعراض لا حدوث جواهر وزعموا أن كل ما يحدثه الله من السحاب والمطر والزرع والثمر والإنسان والحيوان فإنما يحدث فيه أعراضاً وهي جمع الجواهر التي كانت موجودة وتفريقها.

وزعموا أن أحداً لا يعلم حدوث غيره من الأعيان بالمشاهدة ولا بضرورة العقل وإنما يعلم ذلك إذا استدل كما استدلوا فقالوا: هي أعراض حادثة في جواهر وتلك الجواهر لم تخل من الأعراض لامتناع خلو الجواهر من الأعراض.

ثم قالوا: وما لم يخل من الحوادث فهو حادث.

وهذا بنوه على أن الأجسام مركبة من الجواهر المنفردة التي لا تقبل القسمة وقالوا: إن الأجسام لا يتسحيل بعضها إلى بعض.

وجمهور العقلاء من السلف وأنواع العلماء وأكثر النظار يخالفون هؤلاء فيما يثبتون من الجوهر الفرد، ويثبتون استحالة الأجسام بعضها إلى بعض ويقولون بأن الرب لا يزال يحدث الأعيان كما دل على ذلك القرآن.

ولهذا كانت هذه الطريق باطلة عقلاً وشرعاً وهي مكابرة للعقل؛ فإن كون الإنسان مخلوقاً محدثاً كائناً بعد أن لم يكن أمر معلوم بالضرورة لجميع الناس وكل أحد يعلم أنه حدث في بطن أمه بعد أن لم يكن وأن عينه حدثت كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩] وقال تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾ [مريم].

ليس هذا مما يستدل عليه فإنه أبين وأوضح مما يستدل به عليه لو كان صحيحاً فكيف إذا كان باطلاً.

وقولهم: إن الحادث أعراض فقط وأنه مركب من الجواهر الفردة قولان باطلان لا يعلم صحتهما بل يعلم بطلانهما.

ويعلم حدوث جوهر الإنسان وغيره من المادة التي خلق منها وهي العلق كما قال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾.

وكونه مركباً من جواهر فردة ليس صحيحاً، ولو كان صحيحاً لم يكن معلوماً إلا بأدلة دقيقة لا تكون هي أصل الدين الذي هو مقدمات أولية فإن تلك المقدمات يجب أن تكون بينة أولية معلومة بالبديهة.

فطريقهم تَضَمَّن جحد المعلوم وهو حدوث الأعيان الحادثة وهذا معلوم للخلق وإثبات ما ليس بمعلوم بل هو باطل ولأن الإحداث لها إنما [هو][١] جمع وتفريق للجواهر وأنه إحداث أعراض فقط.

ولهذا كان استدلالهم بطريقة الجواهر والأعراض على هذا الوجه مما أنكره عليهم أئمة الدين وبينوا أنهم مبتدعون في ذلك بل بينوا ضلالهم شرعاً وعقلاً كما بسط كلام السلف والأئمة عليهم في غير هذا الموضع إذ هو كثير.

فالقرآن استدل بما هو معلوم للخلق من أنه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾ وهؤلاء جاؤوا إلى هذا المعلوم فزعموا أنه غير معلوم بل هو مشكوك فيه ثم زعموا أنهم يذكرون الدليل الذي به يصير معلوماً فذكروا دليلاً باطلاً لا يدل على حدوثه بل يظن أنه دليل وهو شبهة ولها لوازم فاسدة.

فأنكروا المعلوم بالعقل ثم الشرع وادعوا طريقاً معلومة بالعقل وهي باطلة في العقل والشرع فضاهوا الذين قال الله فيهم: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، وكذلك فإن إثبات النبوات وإمكانها وفي إثبات المعاد وإمكانه عدلوا عن الطريق الهادية التي توجب العلم اليقيني التي هدى الله بها عباده إلى طريق تورث الشك والشبهة والحيرة ولهذا قيل: غاية المتكلمين المبتدعين الشك وغاية الصوفية المبتدعين الشطح.

ثم لها لوازم باطلة مخالفة للعقل والشرع، فألزموا لوازمها التي أوجبت لهم السفسطة في العقليات والقرمطة في السمعيات وتكلموا في دلائل النبوة والمعاد ودلائل الربوبية بأمور وزعموا أنها أدلة وهي عند التحقيق ليست بأدلة ولهذا يطعن بعضهم في أدلة بعض.

---

(١) من زيادات عبد الصمد.

وإذا استدلوا بدليل صحيح فهو مطابق لما جاء به الرسول وإن تنوعت العبارات.

ولهذا قد يستدل بعضهم بدليل إما صحيح وإما غير صحيح فيطعن فيه آخر ويزعم أنه يذكر ما هو خير منه ويكون الذي يذكره دون ما ذكره ذاك وهذا يصيبهم كثيراً في الحدود ـ يطعن هؤلاء في حد هؤلاء ويذكرون حداً مثله أو دونه.

وتكون الحدود كلها من جنس واحد، وهي صحيحة إذا أريد بها التمييز بين المحدود وغيره، وأما من قال: إن الحدود تفيد تصوير ماهية المحدود، كما يقوله أهل المنطق، فهؤلاء غالطون ضالون كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع وإنما الحد معرف للحدود ودليل عليه بمنزلة الاسم لكنه يفصل ما دل عليه الاسم بالإجمال فهو نوع من الأدلة كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع(١).

إذ المقصود هنا التنبيه على الفرق بين الطريق المفيد للعلم واليقين ـ كالتي بينها القرآن ـ وبين ما ليس كذلك من طرق أهل البدع الباطلة شرعاً وعقلاً.

فصل

قوله: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ سمى ووصف نفسه بالكرم وبأنه الأكرم بعد إخباره أنه خَلَقَ ليتبين أنه ينعم على المخلوقين ويوصلهم إلى الغايات المحمودة كما قال في موضع آخر: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلى] وكما قال موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه] وكما قال الخليل عليه السلام: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨﴾ [الشعراء].

فالخلق يتضمن الابتداء، والكرم تضمن الانتهاء كما قال في أم القرآن: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ثم قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٢، ٣].

ولفظ الكرم لفظ جامع للمحاسن والمحامد، لا يراد به مجرد الإعطاء بل الإعطاء من تمام معناه، فإن الإحسان إلى الغير تمام المحاسن والكرم كثرة الخير ويسرته(٢).

ولهذا قال النبي ﷺ: «لا تسموا العنب الكرم فإنما الكرم قلب المؤمن»(٣).

---

(١) بسط المصنف الكلام في «الرد على المنطقيين».

(٢) كذا في الأصل ولعله (يسره). (٣) البخاري (٦١٨٣)، ومسلم (٢٢٤٧).

وهم سموا العنب «الكرم» لأنه أنفع الفواكه يؤكل رطباً ويابساً ويعصر فيتخذ منه أنواع:

وهو أعم وجوداً من النخل يوجد في عامة البلاد والنخل لا يكون إلا في البلاد الحارة ولهذا قال في رزق الإنسان: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس]. فقدم العنب، وقال في صفة الجنة: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾﴾ [النبأ].

ومع هذا نهى النبي ﷺ عن تسميته بالكرم وقال: «الكرم قلب المؤمن» فإنه ليس في الدنيا أكثر ولا أعظم خيراً من قلب المؤمن.

والشيء الحسن المحمود يوصف بالكرم قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾﴾ [الشعراء] قال ابن قتيبة: من كل جنس حسن وقال الزجاج: الزوج النوع والكريم المحمود وقال غيرهما: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ صنف وضرب ﴿كَرِيمٍ﴾ حسن من النبات مما يأكل الناس والأنعام: يقال: نخلة كريمة إذا طاب حملها وناقة كريمة إذا كثر لبنها.

وعن الشعبي: الناس من نبات الأرض فمن دخل الجنة فهو كريم ومن دخل النار فهو لئيم.

والقرآن قد دل على أن الناس فيهم كريم على الله يكرمه وفيهم من يهينه قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] وقال تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨].

وقال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل: «وإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»(١) وكرائم الأموال: التي تكرم على أصحابها لحاجتهم إليها وانتفاعهم بها من الأنعام وغيرها.

وهو سبحانه أخبر أنه الأكرم بصيغة التفضيل والتعريف لها فدل أنه الأكرم وحده

---

(١) البخاري (١٤٥٨).

بخلاف ما لو قال (وربك أكرم) فإنه لا يدل على الحصر وقوله: ﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾ يدل على الحصر.

ولم يقل (الأكرم من كذا) بل أطلق الاسم ليبين أنه الأكرم مطلقاً غير مقيد فدل على أنه متصف بغاية الكرم الذي لا شيء فوقه ولا نقص فيه.

قال ابن عطية: ثم قال له تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾ على جهة التأنيس كأنه يقول: امضِ لما أُمِرت به وربك ليس كهذه الأرباب بل هو الأكرم الذي لا يلحقه نقص فهو ينصرك ويظهرك[١].

(قلت) وقد قال بعض السلف[٢]: «لا يهدين أحدكم لله ما يستحي أن يهديَه لكريمه فإن الله أكرم الكرماء» أي هو أحق من كل شيء بالإكرام إذ كان أكرم من كل شيء.

وهو سبحانه ذو الجلال والإكرام فهو المستحق لأن يجل ولأن يكرم والإجلال يتضمن التعظيم والإكرام يتضمن الحمد والمحبة.

وهذا كما قيل في صفة المؤمن: إنه رُزِق حلاوة ومهابة[٣].

وفي حديث هند بن أبي هالة في صفة النبي ﷺ: «من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه»[٤].

وهذا لأنه سبحانه له الملك وله الحمد.

وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع وبين أن أهل السنة يصفونه بالقدرة الإلهية والحكمة والرحمة وهم الذين يعبدونه ويحمدونه وأنه يجب أن يكون هو المستحق لأن[٥] يعبد دون ما سواه والعبادة تتضمن غاية الذل وغاية الحب وأن

---

(١) المحرر الوجيز (١٦/٣٣٨).

(٢) كتب بهامش الأصل هو عروة بن الزبير (عبد الصمد).

(٣) ذكرها ابن القيم في جلاء الأفهام (١٢٠) عن الحسن البصري.

(٤) هو في الترمذي (٣٦٣٨) وفي الشمائل (٧، ١٩، ١٢٤) صحيح، وهذه هي رواية علي بن أبي طالب رضي الله عنه ولم أجده في رواية هند بن أبي هالة المشهورة في صفة النبي ﷺ وقد شرح هذه العبارة ابن القيم في كتابه (جلاء الأفهام/ ١١٩ ـ ١٢٠).

(٥) في الأصل لا يعبد بإسقاط النون والظاهر أنه من سهو الناسخ (عبد الصمد).

المنكرين لكونه يحب من الجهمية ومن وافقهم حقيقة قولهم أنه لا يستحق أن يُعبد كما أن قولهم إنه يفعل بلا حكمة ولا رحمة يقتضي أنه لا يحمد.

فهم إنما يصفونه بالقدرة والقهر وهذا إنما يقتضي الإجلال فقط لا يقتضي الإكرام والمحبة والحمد وهو سبحانه الأكرم قال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾ [البروج] ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البروج] وقال شعيب: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود].

وفي أول ما نزل وصف نفسه بأنه الذي خلق وبأنه الأكرم والجهمية ليس عندهم إلا كونه خالقاً مع تقصيرهم في إثبات كونه خالقاً لا يصفونه بالكرم ولا الرحمة ولا الحكمة.

وإن أطلقوا ألفاظها فلا يعنون بها معناها بل يطلقونها لأجل مجيئها في القرآن ثم يلحدون في أسمائه ويحرفون الكلم عن مواضعه فتارة يقولون: الحكمة هي القدرة وتارة يقولون: هي المشيئة وتارة يقولون: هي العلم.

وأن الحكمة وإن تضمنت ذلك واستلزمته فهي أمر زائد على ذلك فليس كل من كان قادراً أو مريداً كان حكيماً ولا كل من كان له علم يكون حكيماً حتى يكون عاملاً بعلمه.

قال ابن قتيبة وغيره: الحكمة هي العلم والعمل به وهي أيضاً: القول الصواب فتتناول القول السديد والعمل المستقيم الصالح.

والرب تعالى أحكم الحاكمين وأحكم الحكماء.

والإحكام الذي في مخلوقاته دليل على علمه وهم مع سائر الطوائف يستدلون بالإحكام على العلم وإنما يدل إذا كان الفاعل حكيماً يفعل لحكمة.

وهم يقولون إنه لا يفعل لحكمة وإنما يفعل بمشيئة تخص المتماثلين بلا سبب يوجب التخصيص وهذا مناقض للحكمة بل هذا سفه.

وهو قد نزه نفسه عنه في قوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا

فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنبياء].

وقد أخبر أنه إنما خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق وأنه لم يخلقهما باطلاً وأن ذلك ظن الذين كفروا وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥] وقال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة] أي مهملاً لا يؤمر ولا ينهى وهذا استفهام إنكار على من جوز ذلك على الرب.

والجهمية المجبرة تجوز ذلك عليه ولا تُنزههُ عن فعل وإن كان من منكرات الأفعال ولا تنعته بلوازم كرمه ورحمته وحكمته وعدله فيُعلم أنه يفعل ما هو اللائق بذلك ولا يفعل ما يضاد ذلك.

بل تجوز كل مقدور أن يكون وأن لا يكون وإنما يجزم بأحدهما لأجل خبر سمعي أو عادة مطردة مع تناقضهم في الاستدلال بالخبر ـ أخبار الرسل وعادات الرب كما بسط هذا في مواضع مثل الكلام على معجزات الأنبياء وعلى إرسال الرسل والأمر والنهي وعلى المعاد ونحو ذلك مما يتعلق بأفعاله وأحكامه الصادرة عن مشيئته فإنها صادرة عن حكمته وعن رحمته ومشيئته مستلزمة لهذا وهذا لا يشاء إلا مشيئة متضمنة للحكمة وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها»(١) فهم في الحقيقة لا يقرون بأنه الأكرم.

فصل

وقوله: ﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾ يقتضي اتصافه بالكرم في نفسه وأنه الأكرم وإنه محسن إلى عباده فهو مستحق للحمد لمحاسنه وإحسانه وقوله: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمٰن: ٢٧] فيه ثلاثة أقوال. قيل: أهل أن يجل وأن يكرم كما يقال إنه (أهل التقوى) أي المستحق لأن يتقى وقيل: أهل أن يجل في نفسه [و] أن يكرم أهل ولايته وطاعته وقيل: أهل أن يجل في نفسه وأهل أن يكرم.

(١) مرّ تخريجه.

ذكر الخطابي الاحتمالات الثلاثة ونقل ابن الجوزي كلامه فقال: قال أبو سليمان الخطابي: الجلال مصدر الجليل يقال: جليل بين الجلالة والجلال والإكرام مصدر أكرم يكرم إكراماً والمعنى إنه يكرم أهل ولايته وطاعته وأن الله يستحق أن يُجَلّ ويُكرم ولا يُجحد ولا يُكفر به قال: ويحتمل أن يكون المعنى: يكرم أهل ولايته ويرفع درجاتهم.

(قلت) وهذا الذي ذكره البغوي فقال: ﴿ذُو الْجَلَالِ﴾ العظمة والكبرياء ﴿وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمٰن: ٢٧] يكرم أنبياءه وأولياءه بلطفه مع جلاله وعظمته.

قال الخطابي: وقد يحتمل أن يكون أحد الأمرين وهو الجلال مضافاً إلى الله بمعنى الصفة له والآخر مضافاً إلى العبد بمعنى الفعل كقوله تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦] فانصرف أحد الأمرين إلى الله وهو المغفرة والآخر إلى العباد وهي التقوى قلت: القول الأول هو أقربها إلى المراد مع أن الجلال هنا ليس مصدر جل جلاله بل هو اسم مصدر أجل إجلالاً كقول النبي ﷺ: «إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه وإكرام ذي السلطان المقسط». فجعل إكرام هؤلاء من جلال الله أي من إجلال الله كما قال: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾ [نوح] وكما يقال: كلمه كلاماً وأعطاه عطاء والكلام والعطاء اسم مصدر التكليم والإعطاء والجلال قرن بالإكرام وهو مصدر المتعدي فكذلك الإكرام ومن كلام السلف: «أجلوا الله أن تقولوا كذا» وفي حديث موسى: «يا رب إني أكون على الحال التي أجلك أن أذكرك عليها. قال؛ اذكرني على كل حال».

وإذا كان مستحقاً للإجلال والإكرام لزم أن يكون متصفاً في نفسه بما يوجب ذلك كما إذا قال: الإله هو المستحق لأن يؤله أي يعبد كان هو في نفسه مستحقاً لما يوجب ذلك وإذا قيل: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ﴾ كان هو في نفسه متصفاً بما يوجب أن يكون هو المتقى.

ومنه قول النبي ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع بعد ما يقول «ربنا ولك الحمد: ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا

ينفع ذا الجد منك الجد»[١] أي هو مستحق لأن يثنى عليه وتمجد نفسه.

والعباد لا يحصون ثناء عليه وهو كما أثنى على نفسه، كذلك هو أهل أن يجل وأن يكرم وهو سبحانه يجل نفسه ويكرم نفسه والعباد لا يحصون إجلاله وإكرامه.

والإجلال من جنس التعظيم، والإكرام من جنس الحب والحمد، وهذا كقوله: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ [التغابن: ١] فله الإجلال والملك وله الإكرام والحمد.

والصلاة مبناها على التسبيح في الركوع والسجود والتحميد والتوحيد في القيام والقعود والتكبير في الانتقالات كما قال جابر: كنا مع رسول الله ﷺ فكنا إذا علونا كبرنا وإذا هبطنا سبحنا فوضعت الصلاة على ذلك[٢] رواه أبو داود.

وفي الركوع يقول: «سبحان ربي العظيم» وقال النبي ﷺ: «إني نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً أما الركوع فعظموا فيه الرب وأما السجود فاجتهدوا فيه في الدعاء فَقِمَنٌ أن يستجاب لكم»[٣].

وإذا رفع رأسه حمد فقال: «سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد» فيحمده في هذا القيام كما يحمده في القيام الأول إذا قرأ أم القرآن فالتحميد والتوحيد مقدم على مجرد التعظيم، ولهذا اشتملت الفاتحة على هذا، أولها تحميد وأوسطها تمجيد ثم في الركوع تعظيم الرب وفي القيام يحمده ويثني عليه ويمجده.

فدل على أن التعظيم المجرد تابع لكونه محموداً وكونه معبوداً فإنه يحب أن يحمد ويعبد ولا بد مع ذلك من التعظيم فإن التعظيم لازم لذلك.

وأما التعظيم فقد يتجرد عن الحمد والعبادة على أصل الجهمية فليس ذلك بمأمور به ولا يصير العبد به لا مؤمناً ولا عابداً ولا مطيعاً. وأبو عبد الله بن الخطيب الرازي يجعل الجلال للصفات السلبية والإكرام للصفات الثبوتية فيسمي هذه صفات الجلال وهذه صفات الإكرام، وهذا اصطلاح له، وليس المراد هذا في قوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن] وقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرحمن].

---

(١) مرّ تخريجه.
(٢) مرّ تخريجه.
(٣) مرّ تخريجه.

وهو في مصحف أهل الشام «تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذو الجلال والإكرام» وهي قراءة ابن عامر، فالاسم نفسه يُذوي بالجلال والإكرام. وفي سائر المصاحف ـ وهي قراءة الجمهور ـ (ذي الجلال) فيكون المسمى نفسه. وفي الأولى (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) فالمذوى وجهه سبحانه، وذلك يستلزم أنه هو ذو الجلال والإكرام، فإنه إذا كان وجهه ذا الجلال والإكرام كان ذلك تنبيهاً، كما أن اسمه إذا كان ذا الجلال والإكرام كان تنبيهاً على المسمى.

وهذا يبين أن المراد أنه يستحق أن يجل ويكرم.

فإن الاسم نفسه يسبح ويذكر ويراد بذلك المسمى. والاسم نفسه لا يفعل شيئاً ـ لا إكراماً ولا غيره ـ ولهذا ليس في القرآن إضافة شيء من الأفعال والنعم إلى الاسم.

ولكن يقال: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١﴾ [الأعلى] ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٧٨] ونحو ذلك فإن اسم الله مبارك تنال معه البركة، والعبد يسبح اسم ربه الأعلى فيقول: «سبحان ربي الأعلى» ولما نزل قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١﴾ قال: «اجعلوها في سجودكم»[(١)] فقالوا: سبحان ربي الأعلى.

فكذلك كان النبي ﷺ لا يقول: سبحان اسم ربي الأعلى، لكن قوله «سبحان ربي الأعلى» هو تسبيح لاسمه يراد به تسبيح المسمى لا يراد به تسبيح مجرد الاسم كقوله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الإسراء: ١١٠] فالداعي يقول يا الله يا رحمن ومراده المسمى وقوله: ﴿أَيّٗا مَّا﴾ أي الاسمين تدعو ودعاء الاسم هو دعاء مسماه.

وهذا هو الذي أراده من قال من أهل السنة: إن الاسم هو المسمى، أرادوا به أن الاسم إذا دعي وذكر يراد به المسمى فإذا قال المصلي الله أكبر فقد ذكر اسم ربه ومراده المسمى.

لم يريدوا به أن نفس اللفظ هو الذات الموجودة في الخارج؛ فإن فساد هذا لا يخفى على من تصوره، ولو كان كذلك كان من قال «ناراً» احترق لسانه، وبسط هذا له موضع آخر.

---

(١) مرّ تخريجه.

والمقصود أن الجلال والإكرام مثل الملك والحمد كالمحبة والتعظيم، وهذا يكون في الصفات الثبوتية والسلبية؛ فإن كل سلب فهو متضمن للثبوت وأما السلب المحض فلا مدح فيه.

وهذا مما يظهر به فساد من جعل أحدهما للسلب والآخر للإثبات لا سيما إذا كان من الجهمية الذين ينكرون محبته ولا يثبتون له صفات توجب المحبة والحمد، بل إنما يثبتون ما يوجب القهر كالقدرة، فهؤلاء آمنوا ببعض وكفروا ببعض وألحدوا في أسمائه وآياته بقدر ما كذبوا به من الحق كما بسط هذا في غير هذا الموضع[١].

فصل

قوله تعالى في أول ما أنزل: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾ وقوله: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾﴾، ذكر في الموضعين بالإضافة التي توجب التعريف وأنه معروف عند المخاطبين؛ إذ الرب تعالى معروف عند العبد بدون الاستدلال بكونه خلق وأن المخلوق مع أنه دليل وأنه يدل على الخالق لكن هو معروف في الفطرة قبل هذا الاستدلال ومعرفته فطرية مغروزة في الفطرة ضرورية بديهية أولية.

وقوله: ﴿ٱقْرَأْ﴾ وإن كانت خطاباً للنبي ﷺ أولاً فهو خطاب لكل أحد سواء كان قوله: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾﴾ هو خطاب للإنسان مطلقاً والنبي ﷺ أول من سمع هذا الخطاب أو من النوع أو هو خطاب للنبي ﷺ خصوصاً كما قد قيل في نظائر ذلك.

مثل قوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء: ٧٩] قيل خطاب له وقيل خطاب للجنس وأمثال ذلك فإنه وإن قيل إنه خطاب له فقد تقرر أن ما خوطب به من أمر ونهي فالأمة مخاطبة به ما لم يقم دليل التخصيص.

وبهذا يبين أن قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ﴾ [يونس: ٩٤] يتناول غيره حتى قال كثير من المفسرين: الخطاب لرسول الله ﷺ والمراد به غيره أي هم الذين أُريد منهم أن يسألوا لما عندهم من الشك وهو لم يرد منه السؤال إذ لم يكن عنده شك.

---

(١) مر تخريج جميع الآثار والأحاديث في موضع آخر سابق.

ولا شك أن هذا لا يمنع أن يكون هو مخاطباً ومراداً بالخطاب بل هذا صريح اللفظ فلا يجوز أن يقال إن الخطاب لم يتناوله ولأن ليس في الخطاب أنه أمر بالسؤال مطلقاً بل أمر به إن كان عنده شك وهذا لا يوجب أن يكون عنده شك ولا أنه أمر به مطلقاً بل أمر به إن كان هذا موجوداً والحكم المعلق بشرط عَدَمٌ عند عَدَمِه، وكذلك كثير من المفسرين يقول في قوله: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [البقرة] وفي قوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ٤٨] ونحو ذلك: إن الخطاب لرسول الله ﷺ والمراد به غيره أي غيره قد يكون ممترياً ومطيعاً لأولئك فَنُهِيَ وهو لا يكون ممترياً ولا مطيعاً لهم.

ولكن بتقدير أن يكون الأمر كذلك فهو أيضاً مخاطب بهذا وهو منهي عن هذا فالله سبحانه قد نهاه عما حَرَّمه من الشرك والقول عليه بلا علم والظلم والفواحش وبنهي الله له عن ذلك وطاعته لله في هذا استحق عظيم الثواب ولولا النهي والطاعة لما استحق ذلك ولا يجب أن يكون المأمور المنهي ممن يشك في طاعته ويجوز عليه أن يعصي الرب أو يعصيه مطلقاً ولا يطيعه بل الله أمر الملائكة مع علمهم أنهم يطيعونه ويأمر الأنبياء مع علمه أنهم يطيعونه وكذلك المؤمنون كل ما أطاعوه فيه قد أمرهم به مع علمه أنهم يطيعونه.

ولا يقال: لا يحتاج إلى الأمر بل بالأمر صار مطيعاً مستحقاً لعظيم الثواب.

ولكن النهي يقتضي قدرته على المنهي عنه وأنه لو شاء لفعله ليُثاب على ذلك إذا تركه وقد يقتضي قيام السبب الداعي إلى فعله فينهى عنه فإنه بالنهي وإعانة الله له على الامتثال يمتنع مما نهي عنه إذا قام السبب الداعي له إليه.

وكذلك قد قيل في قوله: ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [البقرة: ٢١١] إنه أمر للرسول والمراد به هو المؤمنون وقيل هو أمر لكل مكلف.

فقوله في هذه السورة ﴿ٱقْرَأْ﴾ كقوله في آخرها: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ وقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى] هذا متناول لجميع الأمة وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾﴾ [المزمل] فإنه كان خطاباً للمؤمنين كلهم.

وكذلك قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدثر] لما أمر بتبليغ ما أنزل إليه من الإنذار وهذا فرض على الكفاية فواجب على الأمة أن يبلغوا ما أنزل إليه وينذروا كما أنذر قال تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ۝١٢٢﴾ [التوبة] والجن لما سمعوا القرآن ﴿وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] وإذا كان كذلك فكل إنسان في قلبه معرفة بربه فإذا قيل له: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ عرف ربه الذي هو مأمور أن يقرأ باسمه كما يعرف أنه مخلوق والمخلوق يستلزم الخالق ويدل عليه.

وقد بسط هذا في غير الموضع وبين أن الإقرار والاعتراف بالخالق فطري ضروري في نفوس الناس وإن كان بعض الناس قد يحصل له ما يفسد فطرته حتى يحتاج إلى نظر تحصل له به المعرفة وهذا قول جمهور الناس وعليه حذاق النظار أن المعرفة تارة تحصل بالضرورة وتارة بالنظر كما اعترف بذلك غير واحد من أئمة المتكلمين.

وهذه الآية أيضاً تدل على أنه ليس النظر أول واجب بل أول ما أوجب الله على نبيه ﷺ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ لم يقل: انظر واستدل حتى تعرف الخالق.

وكذلك هو أول ما بلغ هذه السورة فكان المبلغون مخاطبين بهذه الآية قبل كل شيء ولم يؤمروا فيها بالنظر والاستدلال.

وقد ذهب كثير من أهل الكلام إلى أن اعتراف النفس بالخالق وإثباتها له لا يحصل إلا بالنظر.

ثم كثير منهم جعلوا ذلك نظراً مخصوصاً وهو النظر في الأعراض وأنها لازمة للأجسام فيمتنع وجود الأجسام بدونها.

قالوا: وما لا يخلو عن الحوادث أو ما لا يسبق الحوادث فهو حادث ثم منهم من اعتقد أن هذه المقدمة بينة لنفسها بل ضرورية ولم يميز بين الحادث المعين والمحدود وبين الجنس المتصل شيئاً بعد شيء إما لظنه أن هذا ممتنع أو لعدم خطوره بقلبه لكن وإن قيل هو ممتنع فليس العلم بذلك بديهياً.

وإنما العلم البديهي أن الحادث الذي له مبدأ محدود كالحادث. والحوادث

المقدرة من حين محدود فتلك ما لا يسبقها فهو حادث وما لا يخلو منها لم يسبقها فهو حادث فإنه إذا لم يسبقها كان معها أو متأخراً عنها وعلى التقديرين فهو حادث.

وأما إذا قدر حوادث دائمة شيئاً بعد شيء فهذا إما أن يقال هو ممكن وإما أن يقال: هو ممتنع لكن العلم بامتناعه يحتاج إلى دليل ولم تُعلم طائفة معروفة من العقلاء قالوا: إن العلم بامتناع هذا بديهي ضروري ولا يفتقر إلى دليل.

بل كثير من الناس لا يتصور هذا تصوراً تاماً بل متى تصور الحادث قدر [في](١) ذهنه مبدأ ثم يتقدم في ذهنه شيء قبل ذلك ثم شيء قبل ذلك لكن إلى غايات محدودة بحسب تقدير ذهنه كما يقدر الذهن عدداً بعد عدد ولكن كل ما يقدره الذهن فهو منته.

ومن الناس من إذا قيل له «الأزل» أو «كان هذا موجوداً في الأزل» تصور ذلك وهذا غلط بل الأزل ما ليس له أول كما أن الأبد ليس له آخر وكل ما يومئ إليه الذهن من غاية فـ«الأزل» وراءها وهذا لبسطه موضع آخر.

والمقصود هنا أن هؤلاء الذين قالوا: معرفة الرب لا تحصل إلا بالنظر ثم قالوا: لا تحصل إلا بهذا النظر هم من أهل الكلام الجهمية المقدرية من تبعهم. وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وجمهور العلماء من المتكلمين وغيرهم على خطأ هؤلاء في إيجابهم هذا النظر المعين وفي دعواهم أن المعرفة موقوفة عليه؛ إذ قد علم بالاضطرار من دين الرسول ﷺ أنه لم يوجب هذا على الأمة ولا أمرهم به بل ولا سلكه هو ولا أحد من سلف الأمة في تحصيل هذه المعرفة ثم هذا الدليل للناس فيه ثلاثة أقوال.

قيل: إنه واجب وأن المعرفة موقوفة عليه كما يقوله هؤلاء.

وقيل: بل يمكن حصول المعرفة بدونه لكنه طريق آخر إلى المعرفة وهذا يقوله كثير من هؤلاء ممن يقول بصحة هذه الطريقة لكن لا يوجبها كالخطابي والقاضي أبي يعلى وأبي جعفر السمناني(٢) قاضي الموصل شيخ أبي الوليد الباجي وكان يقول:

---

(١) زيادة من صاحب المجموع.

(٢) هو محمد بن أحمد بن محمد السمناني أبو جعفر ولد عام (٣٦١هـ) وهو قاض حنفي أصله من سمنان العراق نشأ ببغداد وولي القضاء بالموصل إلى أن توفي عام (٤٤٤هـ) وكان مقدم الأشعرية في وقته وشنع عليه ابن حزم له تصانيف في الفقه.

إيجاب النظر بقية بقيت على الشيخ أبي الحسن الأشعري من الاعتزال، وهؤلاء الذين لا يوجبون هذا النظر.

ومنهم من لا يوجب النظر مطلقاً كالسمناني وابن حزم وغيرهما ومنهم من يوجبه في الجملة كالخطابي وأبي الفرج المقدسي.

والقاضي أبو يعلى يقول بهذا تارة وبهذا تارة بل ويقول تارة بإيجاب النظر المعين كما يقوله أبو المعالي وغيره.

ثم من الموجبين للنظر من يقول: هو أول الواجبات ومنهم من يقول: بل المعرفة الواجبة به وهو نزاع لفظي كما أن بعضهم قال: أول الواجبات القصد إلى النظر كعبارة أبي المعالي ومن هؤلاء من قال: بل الشك المتقدم كما قاله أبو هاشم.

وقد بسط الكلام على هذه الأقوال وغيرها في موضع آخر وبين أنها كلها غلط مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف والأئمة بل وباطلة في العقل أيضاً.

وهذه الآية مما يستدل به على ذلك فإن أول ما أوجب الله على رسوله وعلى المؤمنين هو ما أمر به في قوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ والذين قالوا: المعرفة لا تحصل إلا بالنظر قالوا: لو حصلت بغيره لسقط التكليف بها كما ذكر ذلك القاضي أبو بكر وغيره.

فيقال لهم: وليس فيما قص الله علينا من أخبار الرسل أن منهم أحداً أوجبها بل هي حاصلة عند الأمم جميعهم ولكن أكثر الرسل افتتحوا دعوتهم بالأمر بعبادة الله وحده دون ما سواه كما أخبر الله عن نوح وهود وصالح وشعيب وقومهم كانوا مقرين بالخالق لكن كانوا مشركين يعبدون غيره كما كانت العرب الذين بعث فيهم محمد ﷺ.

ومن الكفار من أظهر جحود الخالق كفرعون حيث قال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣٨﴾ [القصص] وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] وقال لموسى: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩] وقال: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر].

ومع هذا فموسى أمره الله أن يقول ما ذكره الله في القرآن قال: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ۝١١ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ۝١٣ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝١٤ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ۝١٥ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝١٦ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٧ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝١٩ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٢٠ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢١﴾ [الشعراء].

قال فرعون إنكاراً وجحداً: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] قال موسى: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٢٤ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۝٢٥ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٢٦ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۝٢٧ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ [الشعراء].

وقد ظن بعض الناس أن سؤال فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ هو سؤال عن ماهية الرب كالذي يسأل عن حدود الأشياء فيقول ما الإنسان؟ ما الملك؟ ما الجني؟ ونحو ذلك قالوا: ولما لم يكن للمسؤول عنه ماهية عدل موسى عن الجواب إلى بيان ما يعرف به وهو قوله: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهذا قول قاله بعض المتأخرين وهو باطل.

فإن فرعون إنما استفهم استفهام إنكار وجحد لم يسأل عن ماهية رب أقر بثبوته بل كان منكراً له جاحداً ولهذا قال في تمام الكلام ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩] وقال: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٧] فاستفهامه كان إنكاراً وجحداً يقول: ليس للعالمين رب يرسلك فمن هو هذا؟ إنكاراً له.

فبين موسى أنه معروف عنده وعند الحاضرين وأن آياته ظاهرة بينة لا يمكن معها جحده وأنكم تجحدون بألسنتكم ما تعرفونه بقلوبكم كما قال موسى في موضع آخر لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢] وقال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝١٤﴾ [النمل].

ولم يقل فرعون: ومن رب العالمين؟ فإن «من» سؤال عن عينه يسأل بها من عرف

جنس المسؤول عنه أنه من أهل العلم وقد شك في عينه كما يقال لرسول عرف أنه جاء من عند إنسان من أرسلك؟؟

وأما ما؟ فهي سؤال عن الوصف يقول: أي شيء هو هذا؟ وما هو هذا الذي سميته رب العالمين قال ذلك منكراً له جاحداً فلما سأل جحداً أجابه موسى بأنه أعرف من أن ينكر وأظهر من أن يشك فيه ويرتاب فقال: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧﴾ [الدخان].

ولم يقل موقنين بكذا وكذا بل أطلق فأي يقين كان لكم بشيء من الأشياء فأول اليقين اليقين بهذا الرب كما قالت الرسل لقومهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وإن قلتم: لا يقين لنا بشيء من الأشياء بل سلبنا كل علم فهذه دعوى السفسطة العامة مدعيها كاذب ظاهر الكذب؛ فإن العلوم من لوازم كل إنسان فكل إنسان عاقل لا بد له من علم ولهذا قيل في حد العقل إنه علوم ضرورية وهي التي لا يخلو منها عاقل.

فلما قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] وهذا من افتراء المكذبين على الرسول[١] لما خرجوا عن عاداتهم التي هي محمودة عندهم نسبوهم إلى الجنون ولما كانوا مظهرين للجحد بالخالق أو للاسترابة والشك فيه هذه حال عامتهم ودينهم وهذا عندهم دين حسن وإنما إلههم الذي يطيعونه فرعون قال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾.

فبين له موسى أنكم الذين سلبتم العقل النافع وأنتم أحق بهذا الوصف فقال: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨] فإن العقل مستلزم لعلوم ضرورية يقينية وأعظمها في الفطرة الإقرار بالخالق فلما ذكر أولاً أن من أيقن بشيء فهو موقن به واليقين بشيء هو من لوازم العقل بين ثانياً أن الإقرار به من لوازم العقل.

ولكن المحمود هو العلم النافع الذي يعمل به صاحبه فإن لم يعمل به صاحبه قيل: إنه ليس له عقل ويقال أيضاً لمن لم يتبع ما أيقن به: إنه ليس له يقين فإن اليقين أيضاً يراد به العلم المستقر في القلب ويراد به العمل بهذا العلم فلا يطلق الموقن إلا على من استقر في قلبه العلم والعمل.

(١) كذا بالإفراد والجمع أولى كما قال بعده نسبوهم بالجمع (عبد الصمد).

وقوم فرعون لم يكن عندهم اتباع لما عرفوه فلم يكن لهم عقل ولا يقين وكلام موسى يقتضي الأمرين: إن كان لك يقين فقد عرفته وإن كان لك عقل فقد عرفته وإن ادعيت أنه لا يقين لك ولا عقل لك فكذلك قومك فهذا إقرار منكم بسلبكم خاصية الإنسان ومن يكون هكذا لا يصلح له ما أنتم عليه من دعوى الإلهية مع أن هذا باطل منكم فإنكم موقنون به كما قال: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

ولكم عقل تعرفونه به ولكن هواكم يصدكم عن اتباع موجب العقل وهو إرادة العلو في الأرض والفساد فأنتم لا عقل لكم بهذا الاعتبار كما قال أصحاب النار: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، وقال تعالى عن الكفار: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان]، قال تعالى عن فرعون وقومه: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف] والخفيف هو السفيه الذي لا يعمل بعلمه بل يتبع هواه وبسط هذا له موضع آخر.

والمقصود هنا أنه ليس في الرسل من قال أول ما دعا قومه: إنكم مأمورون بطلب معرفة الخالق فانظروا واستدلوا حتى تعرفوه فلم يكلفوا أولاً بنفس المعرفة ولا بالأدلة الموصولة إلى المعرفة إذ كانت قلوبهم تعرفه وتُقرُّ به وكل مولود يولد على الفطرة لكن عرض للفطرة ما غيرها والإنسان إذا ذكر ذكر ما في فطرته.

ولهذا قال الله في خطابه لموسى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ [طه: ٤٤] ما في فطرته من العلم الذي به يعرف ربه ويعرف إنعامه عليه وإحسانه إليه وافتقاره إليه فذلك يدعوه إلى الإيمان ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤] ما ينذره به من العذاب فذلك أيضاً يدعوه إلى الإيمان كما قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥] فالحكمة تعريف الحق فيقبلها من قبل الحق بلا منازعة ومن نازعه هواه وعظ بالترغيب والترهيب.

فالعلم بالحق يدعو صاحبه إلى اتباعه فإن الحق في الفطرة وهو أحب إليها وأجل فيها وألذ عندها من الباطل لا حقيقة له فإن الفطرة لا تحب ذاك.

فإن لم يدعه الحق والعلم به خوف عاقبة الجحود والعصيان وما في ذلك من

العذاب فالنفس تخاف العذاب بالضرورة فكل حي يهرب مما يؤذيه بخلاف النافع.

فمن الناس من يتبع هواه فيتبع الأدنى دون الأعلى كما أن منهم من يكذب بما خوف به أو يتغافل عنه حتى يفعل ما يهواه فإنه إذا صدق به واستحضره لم يبعث نفسه إلى هواها بل لا بد من نوع من الغفلة والجهل حتى يتبعه، ولهذا كان كل عاص لله جاهلاً كما قد بسط هذا في مواضع.

إذ المقصود هنا التنبيه على أن قوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ فيه تنبيه على أن الرب معروف عند المخاطبين وأن الفطر مقرة به.

وعلى ذلك دل قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] كما قد بسط الكلام عليها في غير هذا الموضع.

وكذلك قول الرسل: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١] هو نفي أي ليس في الله شك وهو استفهام تقرير يتضمن تقرير الأمم على ما هم مقرون به من أنه ليس في الله شك فهذا استفهام تقرير.

فإن حرف الاستفهام إذا دخل على حرف النفي كان تقريراً كقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح] ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨﴾ [البلد] ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٠] ومثله كثير بخلاف استفهام فرعون فإنه استفهام إنكار لا تقرير إذ ليس هناك إلا أداة الاسفتهام فقط ودل سياق الكلام على أنه إنكار.

فإن قيل: إذا كانت معرفته والإقرار به ثابتاً في كل فطرة فكيف ينكر ذلك كثير من النظار نظار المسلمين وغيرهم وهو يدعون أنهم الذين يقيمون الأدلة العقلية على المطالب الإلهية؟

فيقال أولاً: أول من عرف في الإسلام بإنكار هذه المعرفة هم أهل الكلام الذي[1] اتفق السلف على ذمه من الجهمية والقدرية وهم عند سلف الأمة من أضل الطوائف وأجهلهم ولكن انتشر كثير من أصولهم في المتأخرين الذين يوافقون السلف على كثير مما خالفهم فيه سلفهم الجهمية فصار بعض الناس يظن أن هذا قول صدر في

---

(١) في الأصل الذين (عبد الصمد).

الأصل عن علماء المسلمين وليس كذلك إنما صدر أولاً عمن ذمه أئمة الدين وعلماء المسلمين.

الثاني: أن الإنسان قد يقوم بنفسه من العلوم والإرادات وغيرها من الصفات ما لا يعلم أنه قائم بنفسه فإن قيام الصفة بالنفس غير شعور صاحبها بأنها قامت به فوجود الشيء في الإنسان وغيره غير علم الإنسان به.

وهذا كصفات بدنه فإن منها ما لا يراه كوجهه وقفاه ومنها ما يراه إذا تعمد النظر إليه كبطنه وفخذه وعضديه وقد يكون بهما آثار من خيلان وغير خيلان وغير ذلك من الأحوال وهو لم يره ولم يعرفه لكن لو تعمد رؤيته لرآه، ومن الناس من لا يستطيع رؤية ذلك لعارض عرض لبصره من العشي أو العمي أو غير ذلك.

كذلك صفات نفسه قد يعرف بعضها وبعضها لا يعرفه لكن لو تعمد تأمل حال نفسه لعرفه ومنها ما لا يعرفه ولو تأمل لفساد بصيرته وما عرض لها.

والذي يبين ذلك أن الأفعال الاختيارية لا تتصور إلا بإرادة تقوم بنفس الإنسان وكل من فعل فعلاً اختيارياً وهو يعرفه فلا بد أن يريده كالذي يأكل ويشرب ويلبس وهو يعرف أنه يفعل ذلك فلا بد أن يريده فالفعل الاختياري يمتنع أن يكون بغير إرادة وإذا تصور الفعل الذي يفعله وقد فعله لزم أن يكون مريداً وقد تصوره وإذا كان مريداً له وقد تصوره امتنع أن لا يريد ما تصوره وفعله.

فالإنسان إذا قام إلى صلاة يعلم أنها الظهر فمن الممتنع أن يصلي الظهر وهو يعلم هذا لم ينسه ولا يريد صلاة الظهر.

وكذلك الصيام إذا تصور أن غداً من رمضان وهو مريد لصوم رمضان امتنع أن لا ينوي صومه.

وكذلك إذا أهل بالحج[1] وهو يعلم أنه مهل به امتنع أن لا يكون مريداً للحج.

وكذلك الوضوء إذا علم أنه يتوضأ للصلاة وهو يتوضأ امتنع أن لا يكون مريداً للوضوء ومثل هذا كثير نجد خلقاً كثيراً من العلماء دع العامة يستدعون النية بألفاظ

---

(١) في الأصل الحج (عبد الصمد).

يقولونها ويتكلفون ألفاظاً ويشكون في وجودها مرة بعد مرة، ويخرجون إلى ضرب من الوسوسة التي يشبه أصحابها المجانين.

والنية هي الإرادة وهي القصد وهي موجودة في نفوسهم لوجودها في نفس كل من يصلي في ذلك المسجد والجامع ومن توضأ في تلك المطهرة، أولئك يعلمون هذا من نفوسهم ولم يحصل لهم وسواس وهؤلاء ظنوا أن النية لم تكن في قلوبهم ـ يطلبون حصولها من قلوبهم.

وهم يعلمون أن التلفظ بها ليس بواجب وإنما الفرض وجود الإرادة في القلب وهي موجودة ومع هذا يعتقدون أنها ليست موجودة وإذا قيل لأحدهم: النية حاصلة في قلبك لم يقبل لِمَا قام به من الاعتقاد الفاسد المناقض لفطرته.

وكذلك حب الله ورسوله موجود في قلب كل مؤمن لا يمكنه دفع ذلك من قلبه إذا كان مؤمناً وتظهر علامات حبه لله ولرسوله إذا أخذ أحد يسب الرسول ويطعن عليه أو يسب الله ويذكره بما لا يليق به، فالمؤمن يغضب لذلك أعظم مما يغضب لو سب أبوه وأمه.

ومع هذا فكثير من أهل الكلام والرأي أنكروا محبة الله وقالوا: يمتنع أن يكون محباً أو محبوباً وجعلوا هذا من أصول الدين وقالوا: خلافاً للحلولية كأنه لم يقل بأن الله يحب إلا الحلولية ومعلوم أن هذا دين الأنبياء والمرسلين والصحابة والتابعين وأهل الإيمان أجمعين، وقد دل على ذلك الكتاب كما قد بسطناه في مواضع.

فهذه المحبة لله ورسوله موجودة في قلوب أكثر المنكرين لها بل في قلب كل مؤمن وإن أنكرها لشبهة عرضت له.

وهكذا المعرفة موجودة في قلوب هؤلاء فإن هؤلاء الذين أنكروا محبته هم الذين قالوا: معرفته لا تحصل إلا بالنظر فأنكروا ما في فطرهم وقلوبهم من معرفته ومحبته.

ثم قد يكون ذلك الإنكار سبباً إلى امتناع معرفة ذلك في نفوسهم وقد يزول عن قلب أحدهم ما كان فيه من المعرفة والمحبة فإن الفطرة قد تفسد، فقد تزول وقد تكون موجودة ولا ترى ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وقد قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ

لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الروم].

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء» ثم يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ﴾.

فصل

قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾ بيان لتعريفه بما قد عرف من الخلق عموماً وخلق الإنسان خصوصاً وأن هذا مما تعرف به الفطرة كما تقدم.

ثم إذا عرف أنه الخالق فمن المعلوم بالضرورة أن الخالق لا يكون إلا قادراً، بل كل فعل يفعله فاعل لا يكون إلا بقوة قادرة، حتى أفعال الجمادات كهبوط الحجر والماء وحركة النار هو بقوة فيها وكذلك حركة النبات هي بقوة فيه وكذلك فعل كل حي من الدواب وغيرها هو بقوة فيها وكذلك الإنسان وغيره.

والخلق أعظم الأفعال فإنه لا يقدر عليه إلا الله، فالقدرة عليه أعظم من كل قدرة، وليس لها نظير من قدر المخلوقين.

وأيضاً فالتعليم بالقلم يستلزم القدرة، فكل من الخلق والتعليم يستلزم القدرة.

وكذلك كل منهما يستلزم العلم، فإن المعلم لغيره يجب أن يكون هو عالماً بما علمه إياه، وإلا فمن الممتنع أن يعلم غيره ما لا يعلمه هو، فمن علم كل شيء الإنسان وغيره ما لم يعلم أولى أن يكون عالماً بما علمه، والخلق أيضاً يستلزم العلم، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك] وذلك من جهة أن الخلق يستلزم الإرادة فإن فعل الشيء على صفة مخصوصة ومقدار مخصوص دون ما هو خلاف ذلك لا يكون إلا بإرادة تخصص هذا عن ذاك، والإرادة تستلزم العلم فلا يريد المريد إلا ما شعر به وتصور في نفسه، والإرادة بدون الشعور ممتنعة.

وأيضاً فنفس الخلق ـ خلق الإنسان ـ هو فعل لهذا الإنسان الذي هو من عجائب المخلوقات، وفيه من الإحكام والاتقان ما قد بهر العقول، والفعل المحكم المتقن لا

يكون إلا من عالم بما فعل، وهذا معلوم بالضرورة، فالخلق يدل على العلم من هذا الوجه، ومن هذا الوجه.

وقد قال في سورة الملك: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] وهو بيان ما في المخلوقات من لطف الحكمة التي تتضمن إيصال الأمور إلى غاياتها بألطف الوجوه، كما قال يوسف ﷺ: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [يوسف: ١٠٠] وهذا يستلزم العلم بالغاية المقصودة والعلم بالطريق الموصل وكذلك الخبرة وبسط هذا يطول؛ إذ المقصود هنا التنبيه على ما في الآيات التي هي أول ما أنزل ثم إذا ثبت أنه قادر عالم فذلك يستلزم كونه حياً وكذلك الإرادة تستلزم الحياة.

والحي إذا لم يكن سميعاً بصيراً متكلماً كان متصفاً بضد ذلك من العمى والصمم والخرس، وهذا ممتنع في حق الرب تعالى، فيجب أن يتصف بكونه سميعاً بصيراً متكلماً.

والإرادة إما أن تكون لغاية حكيمة أولاً فإن لم تكن لغاية حكيمة كانت سفهاً، وهو منزه عن ذلك، فيجب أن يكون حكيماً.

وهو إما أن يقصد نفع الخلق والإحسان إليهم أو يقصد مجرد ضررهم وتعذيبهم، أو لا يقصد واحداً منهما، بل يريد ما يراد سواء كان كذا أو كذا، والثاني شرير ظالم يتنزه الرب عنه، والثالث سفيه عابث فتعين أنه تعالى رحيم، كما أنه حكيم، كما قد بسط في مواضع.

... ...

والمقصود هنا أن كل واحد مِنْ ذِكْرِ أنه خَلَقَ، وأنه الأكرم الذي علم بالقلم، يدل على هاتين الطريقتين من إثبات الصفات، كما دلنا على الطريقة الأولى طريقة الاستدلال بالفعل.

فإن قوله: ﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾ يقتضي أنه أفضل من غيره في الكرم والكرم اسم جامع لجميع المحاسن، فيقتضي أنه أحق بجميع المحامد، والمحامد هي صفات الكمال، فيقتضي أنه أحق بالإحسان إلى الخلق والرحمة وأحق بالحكمة وأحق بالقدرة، والعلم، والحياة وغير ذلك.

وكذلك قوله: ﴿خَلَقَ﴾ فإن الخالق قديم أزلي، مستغن بنفسه واجب الوجود بنفسه، قيوم، ومعلوم أنه أحق بصفات الكمال من المخلوق المحدث الممكن.

فهذا من جهة قياس الأولى ومن جهة الأثر فإن الخالق لغيره الذي جعله حياً عالماً قادراً سميعاً بصيراً هو أولى بأن يكون حياً عالماً قديراً سميعاً بصيراً.

و﴿ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ فجعله عليماً، والعليم لا يكون إلا حياً، وكرمه أيضاً أن يكون قديراً سميعاً بصيراً، والأكرم الذي جعل غيره عليماً هو أولى أن يكون عليماً، وكذلك في سائر صفات الكمال والمحامد.

فهذا استدلال بالمخلوق الخاص، والأول استدلال بجنس الخلق، ولهذا دل هذا على ثبوت الصفات بالضرورة من غير تكلف، وكذلك طريقة التفضيل، والأولى أن يكون الرب أولى بالكمال من المخلوق، وهذه الطرق لظهورها يسلكها غير المسلمين من أهل الملل وغيرهم كالنصارى، فإنهم أثبتوا أن الله قائم بنفسه حتى يتكلم بهذه الطريق، لكن سموه جوهراً وضلوا في جعل الصفات ثلاثة، وهي الأقانيم.

فقالوا: وجدنا الأشياء تنقسم إلى جوهر وغير جوهر والجوهر أعلى النوعين فقلنا: هو جوهر، ثم وجدنا الجوهر ينقسم إلى حي وغير حي، ووجدنا الحي أكمل، فقلنا: هو حي، ووجدنا الحي ينقسم إلى ناطق وغير ناطق فقلنا: هو ناطق.

وكذلك يقال لهم في سائر صفات الكمال: إن الأشياء تنقسم إلى قادر وغير قادر، والقادر أكمل، وقد بسط ما في كلامهم من صواب وخطأ في الكتاب الذي سميناه: (الجواب الصحيح لمن يدل دين المسيح).

والمقصود هنا التنبيه على دلالة هذه الآية ـ وهذه الآيات التي هي أول ما نزل ـ على أصول الدين.

وقوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ يدل على قدرته على تعليم الإنسان ما قد علمه مع كون جنس الإنسان فيه أنواع من النقص، فإذا كان قادراً على ذلك التعليم فقدرته على تعليم الأنبياء ما علمهم أولى وأحرى، وذلك يدخل في قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ فإن الأنبياء من الناس.

فقد دلت هذه الآيات على جميع الأصول العقلية فإن إمكان النبوات هو آخر ما يعلم بالعقل.

وأما وجود الأنبياء وآياتهم فيعلم بالسمع المتواتر مع أن قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ يدخل فيه إثبات تعليمه للأنبياء ما علمهم فهي تدل على الإمكان والوقوع.

وقد ذكرنا في مواضع أن تنزيهه يرجع إلى أصلين:

تنزيهه عن النقص المناقض لكماله، فما دل على ثبوت الكمال له فهو يدل على تنزهه عن النقص المناقض لكماله.

وهذا مما يبين أن تنزهه عن النقص معلوم بالعقل بخلاف ما قال طائفة من المتكلمين إن ذلك لا يعلم إلا بالسمع.

وقد بينا في غير هذا الموضع أن الطرق العقلية التي سلكوها من الاستدلال بالأعراض على حدوث الأجسام لا تدل على إثباته ولا على إثبات شيء من صفات الكمال ولا على تنزهه عن شيء من النقائص فليس عند القوم ما يحيلون به عنه شيئاً من النقائص، وهم معترفون بأن الأفعال يجوز عليه منها كل شيء بخلاف الصفات لكن طريقهم في الصفات فاسد متناقض، كما قد بسط في غير هذا الموضع.

الثاني: أنه ليس كمثله شيء في صفات الكمال والقرآن مملوء بإثبات هذين الأصلين ـ بإثبات صفات الكمال على وجه التفصيل ـ وتنزيهه عن التمثيل ﷻ عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

فصل

وقوله: ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ وقوله: ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ يدل على إثبات أفعاله وأقواله.

فالخلق فعله والتعليم يتناول تعليم ما أنزله كما قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن] وقوله: ﴿بِٱلْقَلَمِ﴾ يتناول تعليم كلامه الذي يكتب بالقلم، ونزوله في أول السورة التي أنزل فيها كلامه وعلم نبيه كلامه الذي يكتب بالقلم دليل على شمول الآية لذلك، فإن سبب اللفظ المطلق والعام لا بد أن يكون مندرجاً فيه، وإذا دل على أنه خلق وتكلم.

وقد قال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣﴾ [الرحمٰن] ومعلوم بالعقل وبالخطاب أن الإنسان المخلوق غير خلق الرب له، وكذلك خلقه لغيره، والذين نازعوا في ذلك إنما نازعوا لشبهة عرضت لهم، كما قد ذكر بعد هذا وفي مواضع، وإلا فهم لا يتنازعون أن ﴿خَلَقَ﴾ فعل له مصدر ـ يقال: ـ خلق يخلق خلقاً ـ والإنسان مفعول المصدر ـ والمخلوق ليس هو المصدر.

ولكن قد يطلق لفظ المصدر على المفعول كما يقال: «درهم ضَرْبُ الأمير» ومنه قوله: «هذا خَلْقُ الله» والمراد هناك: هذا مخلوق الله، وليس الكلام في لفظ (خَلْقٍ) المراد به المخلوق، بل في لفظ الخلق المراد به الفعل الذي يسمى المصدر كما يقال: خلق يخلق خلقاً وكقوله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨] وقوله: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ [الزمر: ٦] وقوله: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: ٥١].

وإذا كان الخلق فعله فهو بمشيئته إذ يمتنع أن يكون فعله بغير مشيئته وما كان بالمشيئة امتنع قدم عينه بل يجوز قدم نوعه.

وإذا كان الخلق للحادث لا بد له من مؤثر تام أوجب حدوثه لزم أنه لم يزل متصفاً بما يقوم به من الأمور الاختيارية لكن إن يثبت أنه كان قبل هذا المخلوق مخلوق آخر ثبت أنه متصف بخلق بعد خلق.

وكذلك الكلام هو متكلم بمشيئته ويمتنع أن لا يكون متكلماً ثم يصير متكلماً لوجهين:

أحدهما: أنه سلب لكماله والكلام صفة كمال.

والثاني: أنه يمتنع حدوث ذلك فإن من لا يكون متكلماً يمتنع أن يجعل نفسه متكلماً ومن لا يكون علماً يمتنع أن يجعل نفسه عالماً، ومن لا يكون حياً يمتنع أن يجعل نفسه حياً، فهذه الصفات من لوازم ذاته.

وكذلك من لا يكون خالقاً يمتنع أن يجعل نفسه خالقاً، فإنه إذا لم يكن قادراً على أن يخلق فجعله نفسه خالقة أعظم، فيكون هذا ممتنعاً بطريق الأولى، فإن جعل نفسه خالقه يستلزم وجود المخلوق، ولهذا لما كان قادراً على جعل الإنسان فاعلاً

كان هو الخالق لما يفعله الإنسان، فلو جعل نفسه خالقة كان هو الخالق لما جعلها تخلقه.

فإذا فرض أنه يمتنع أن يكون خالقاً في الأزل امتنع أن يجعل نفسه خالقة بوجه من الوجوه ويلزم من القول بامتناع الفعل عليه في الأزل امتناعه دائماً وقد دلت الآية على أنه خلق فعلم أنه ما زال قادراً على الخلق ما زال يمكنه أن يخلق، وما زال الخلق ممكناً مقدوراً وهذا يبطل أصل الجهمية.

بل وإذا كان قادراً عليه فالموجب له ليس شيئاً بائناً من خارج بل هو من نفسه، فيمتنع أن يجعل نفسه مريدة بعد أن لم تكن، فيلزم أنه ما زال مريداً قادراً، وإذا حصلت القدرة والإرادة وجب وجود المقدور وأهل الكلام الذين ينازعون في هذا يقولون: لم يزل قادراً على ما سيكون.

فيقال لهم: القدرة لا تكون إلا مع إمكان المقدور وإذا كانت القدرة دائمة فهل كان يمكنه أن يفعل المقدور دائماً؟ وهم يقولون: لا، بل الإمكان ـ إمكان الفعل ـ حادث. وهذا يناقض إثبات القدرة، وإن قالوا: بل الإمكان حاصل تبين أنه لم يزل الفعل ممكناً فثبت إمكان وجود ما لا يتناهى من مقدور[1] الرب، وحينئذ فإذا كان لم يزل قادراً والفعل ممكناً، وهذا الممكن قد وُجِدَ فما[2] لا يزال، فالموجب لوجود جنس المقدور كالإرادة مثلاً إما أن يكون وجودها في الأزل ممتنعاً فليزم امتناع الفعل وقد بينا أنه ممكن.

وأيضاً إذا كان وجودها ممتنعاً لم يزل ممتنعاً لأنه لا شيء هناك يجعلها ممكنة فضلاً عن أن تكون موجودة ومعلوم أن وجودها بعد أن لم تكن لا بد له من موجب وإذا كان وجودها في الأزل ممكناً فوجود هذا الممكن لا يتوقف على غير ذاته، وذاته كافية في حصوله، فيلزم أنه لم يزل مريداً.

وهكذا في جميع صفات الكمال متى ثبت إمكانها في الأزل لزم وجودها في الأزل. فإنها لو لم توجد لكانت ممتنعة إذ ليس في الأزل شيء سوى نفسه يوجب

(١) في الأصل (مقدار) وهو خطأ ظاهر (عبد الصمد).
(٢) كذا في الأصل، ولعل الصواب: «فيما».

وجودها. فإذا كانت ممكنة والمقتضي التام لها نفسه لزم وجوبها[١] في الأزل.

وهذا مما يدل على أنه لم يزل حياً عليماً، قديراً، مريداً، متكلماً فاعلاً إذ لا مقتضى لهذه الأشياء إلا ذاته، وذاته وحدها كافية في ذلك، فيلزم قدم النوع، وأنه لم يزل متكلماً إذا شاء، لكن أفراد النوع تحصل شيئاً بعد شيء بحسب الإمكان والحكمة.

ولهذا قد بين في مواضع أنه ليس في نفس الأمر ممكن يستوي طرفا وجوده وعدمه، بل إما أن يحصل المقتضي لوجوده فيجب، أو لا يحصل فيمتنع. [فما][٢] اتصف به الرب فاتصافه به واجب وما لم يتصف به فاتصافه به ممتنع وما شاء كان ووجب وجوده وما لم يشأ لم يكن وامتنع وجوده فالممكن مع مرجحه التام واجب، وبدونه ممتنع.

ففي قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾ وفي قوله: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾﴾ دلالة على ثبوت صفات الكمال له وأنه لم يزل متصفاً بها.

وأقوال السلف في ذلك كثيرة وبهذا فسروا قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨] ونحوه كما ذكره البخاري في صحيحه عن ابن عباس ورواه ابن أبي حاتم من عدة طرق لما قيل له: قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ كأنه كان شيء ثم مضى؟ فقال ابن عباس: هو سَمَّى نفسه بذلك ولم يزل كذلك هذا لفظ ابن أبي حاتم من طريق أبي معاوية عن الأعمش عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فقال ابن عباس: كذلك كان ولم يزل.

ومن رواية عمرو بن أبي قيس، عن مطرف، عن المنهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: أتاه رجل فقال: سمعت الله يقول: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧] كأنه شيء كان؟ فقال ابن عباس: أما قوله: ﴿كَانَ﴾ فإنه لم يزل ولا يزال و﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد].

ومن رواية عبد الرحمن بن مغراء، عن مجمع بن يحيى، عن عمه، عن ابن عباس

---

(١) كذا في الأصل والصحيح (وجودها) (عبد الصمد).

(٢) سقط في الأصل والسياق يقتضيه (عبد الصمد).

قال قال يهودي: إنكم تزعمون أن الله كان عزيزاً حكيماً، فكيف هو اليوم؟ فقال ابن عباس: إنه كان في نفسه عزيزاً حكيماً.

وهذه أقوال ابن عباس تبين أنه لم يزل متصفاً بخبر كان ولا يزال كذلك وأن ذلك حصل له من نفسه فلم يزل متصفاً في نفسه إذا كان من لوازم نفسه، ولهذا لا يزال لأنه من نفسه. وقال أحمد بن حنبل: لم يزل الله عالماً متكلماً غفوراً، وقال أيضاً: لم يزل الله متكلماً إذا شاء(١).

فصل

وكما أنه أول آية نزلت من القرآن تدل على ذلك فأعظم آية في القرآن تدل على ذلك، لكن مبسوطاً دلالة أتم من هذا.

وهي آية الكرسي كما ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال لأبي بن كعب: يا أبا المنذر! أتدري أي آية في كتاب الله معك أعظم؟ فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فقال: (ليهنك العلم أبا المنذر)(٢).

وهنا افتتحها بقوله: ﴿ٱللَّهُ﴾ وهو أعظم من قوله: ﴿وَرَبَّكَ﴾ [المدثر: ٣] ولهذا افتتح به أعظم سورة في القرآن فقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة] وقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ إذا كان المشركون قد اتخذوا إلهاً غيره وإن قالوا بأنه الخالق ففي قوله: ﴿خَلَقَ﴾ لم يذكر نفي خالق آخر إذ كان ذلك معلوماً، فلم يثبت أحد من الناس خالقاً آخر مطلقاً خلق كل شيء، وخلق الإنسان وغيره بخلاف الإلهية قال تعالى: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ۝٦٨﴾ [الأنبياء] وقال تعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝٦﴾ [ص] وقال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [الأنعام: ١٩] وقال تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ۝٤٢﴾ [الإسراء] فابتغوا معه آلهة أخرى ولم يثبتوا معه خالقاً آخر.

فقال في أعظم الآيات: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ ذكره في ثلاثة مواضع

---

(١) كل الآثار السابقة مر تخريجها.
(٢) مرّ تخريجه.

من القرآن كل موضع فيه أحد أصول الدين الثلاثة وهي التوحيد، والرسل، والآخرة.

هذه التي بعث بها جميع المرسلين، وأخبر عن المشركين أنهم يكفرون بها في مثل قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٠] فقال هنا: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] قرنها بأنه لا إله إلا هو.

وزاد في آل عمران: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران] وهذا إيمان بالكتب والرسل.

وقال في طه: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ۝١٠٩ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ۝١١٠ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ۝١١١﴾ [طه].

فصل[1]

ومن أعظم الأصول معرفة الإنسان بما نعت الله به نفسه من الصفات الفعلية كقوله في هذه السورة ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ والخلق مذكور في مواضع كثيرة وكذلك غيره من الأفعال وهو نوعان.

فعل متعدٍّ إلى مفعول به مثل ﴿خَلَقَ﴾ فإنه يقتضي مخلوقاً وكذلك رزق كقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ [الروم: ٤٠] وكذلك الهدي والإضلال والتعليم والبعث والإرسال والتكليم.

وكذلك ما أخبر به من قوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢] وقوله: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩] وقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾ [الذاريات: ٤٧] وقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢] وقوله في الآية الأخرى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا

(١) أحاديث وآثار هذا الفصل كلها مر تخريجها.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [غافر: ٦٤] وهذا في القرآن كثير[١] جداً.

والأفعال اللازمة كقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩] ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] وقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر].

فأما النوع الأول فالمسلمون متفقون على إضافته إلى الله وأنه هو الذي يخلق ويرزق ليس ذلك صفة لشيء من مخلوقاته، لكن هل قام به فعل هو الخَلْقُ أو الفِعْلُ هو المفعول والخَلْقُ هو المخلوق؟ وهذا فيه قولان لمن يثبت اتصافه بالصفات، فأما من ينفي الصفات من الجهمية والمعتزلة فهم ينفون قيام الفعل به بطريق الأولى.

لكن منهم من يجعل الخلق غير المخلوق ويجعل الخلق إما معنى قام بالمخلوق أو المعاني المتسلسلة كما يقول معمر بن عباد[٢] أو يجعل الخلق قائماً لا في محل كقول بعضهم إنه قول كن لا في محل وقول البصريين: إنه إرادة لا في محل وهذا فرار منهم عن قيام الحوادث به مع أن منهم من يلتزم ذلك كما التزمه أبو الحسين وغيره.

والجمهور المثبتون للصفات هم في الأفعال على قولين: منهم من يقول: لا يقوم به فعل وإنما الفعل هو المفعول وهذا قول طائفة منهم الأشعري ومن وافقه من أصحابه وغير أصحابه كابن عقيل وغيره وهو أول قولي القاضي أبي يعلى.

وهؤلاء يقسمون الصفات إلى ذاتية ومعنوية وفعلية وهذا تقسيم لا حقيقة له فإن الأفعال عندهم لا تقوم به فلا يتصف بها لكن يخبر عنه بها. وهذا التقسيم يناسب قول من قال: الصفات هي الأخبار التي يخبر بها عنه لا معاني تقوم به كما تقول ذلك الجهمية والمعتزلة فهؤلاء إذا قالوا: الصفات تنقسم إلى ذَاتيَّة وفعلية أرادوا بذلك ما يخبر به عنه من الكلام تارة يكون خبراً عن ذاته وتارة عن المخلوقات ليس عندهم

(١) سقط من الأصل (عبد الصمد).
(٢) هو معمر بن عباد السلمي: معتزلي من الغلاة من أهل البصرة سكن بغداد وناظر النَّظَّام. توفي عام (٢١٥هـ).

صفات تقوم به فمن فسر الصفات بهذا أمكنه أن يجعلها ثلاثة أقسام ذاتية ومعنوية وفعلية.

وأما من كان مراده بالصفات ما يقوم به فهذا التقسيم لا يصلح على أصلهم ولكن أخذوا التقسيم عن أولئك وهم مخالفون لهم في المراد بالصفات.

وهذا التقسيم موجود في كلام أبي الحسن ومن وافقه كالقاضي أبي يعلى وأبي المعالي والباجي وغيرهم.

والقول الثاني: إنه تقوم به الأفعال وهذا قول السلف وجمهور مثبتة الصفات.

ذكر البخاري في كتاب خلق أفعال العباد أن هذا إجماع العلماء خالق وخلق ومخلوق وذكره البغوي قول أهل السنة وذكره أبو نصر محمد بن إسحاق الكلاباذي(١) في كتاب (التعرف بمذاهب التصوف) أنه قول الصوفية وهو قول الحنفية مشهور عندهم يسمونه (التكوين) وهو قول الكرامية والهشامية ونحوهما وهو قول القدماء من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وهو آخر قولي القاضي أبي يعلى.

ثم إذا قيل: الخلق غير المخلوق وإنه قائم بالرب فهو هو خلق قديم لازم لذات الرب مع حدوث المخلوقات كما يقوله أصحاب أبي حنيفة وغيرهم؟ أو هو خلق حادث بذاته ـ حدث لما حدث جنس المخلوقات؟ أم خلق بعد خلق؟ على ثلاثة أقوال.

وهذا أو هذا هو الذي عليه أئمة السنة والحديث وجمهورهم، وهو قول طوائف من أهل الكلام من الكرامية والهشامية. وغيرهم، فمن قال: إنه يتكلم بمشيئته واختياره كلاماً يقوم بذاته يمكنه أن يقول: إنه يفعل ذلك باختياره ومشيئته فعلاً يقوم بذاته.

والذين يقولون بقيام الأمور الاختيارية بذاته منهم من يصحح دليل الأعراض والاستدلال به على حدوث الأجسام، كالكرامية، ومتأخري الحنفية، والمالكية، والشافعية، ومنهم من لا يصححه، كأئمة السلف والحديث وأحمد بن حنبل والبخاري،

---

(١) هو محمد بن إبراهيم بن يعقوب الكلاباذي البخاري أبو بكر من حفاظ الحديث من أهل بخارى له «بحر الفوائد» ويعرف بمعاني الأخبار جمع فيه (٥٩٢) حديثاً والتعرف لمذهب أهل التصوف توفي عام (٣٨٠هـ).

وغيرهم، وهذه المسألة يعبر عنها بـ(مسألة التأثير) هل هو أمر وجودي أم لا؟ وهل التأثير زائد على المؤثر والأثر أم [لا]؟ وكلام الرازي في ذلك مختلف كما قد بسط الكلام على ذلك في مواضع.

وعمدة الذين قالوا: إن الخلق هو المخلوق والتأثير هو وجود الأثر لم يثبتوا زائداً أن قالوا: لو كان الخلق والتأثير زائداً على ذات المخلوق والأثر لكان إما أن يقوم بمحل أو لا والثاني باطل، فإن المعاني لا تقوم بنفسها، وهذا رد على طائفة من المعتزلة قالوا: وإذا قام بمحل فإما أن يقوم بالخالق أو بغيره، والثاني باطل، لأنه لو قام بغيره لكان ذلك الغير هو الخالق، لا هو، وهذا رد على طائفة ثانية يقولون: إنه يقوم بالمخلوق.

وإذا قام بالخالق فإما أن يكون قديماً أو محدثاً، ولو كان قديماً للزم قدم المخلوق فإن الخلق والمخلوق متلازمان، فوجود خلق بلا مخلوق ممتنع، وكذلك وجود تأثير بلا أثر.

وإن كان محدثاً فهو باطل لوجهين: أحدهما: أنه يلزم قيام الحوادث به، والثاني: أن ذلك الخلق الحادث يفتقر إلى خلق آخر ويلزم التسلسل ومعمر بن عباد التزم التسلسل وجعل للخلق خلقاً وللخلق خلقاً لكن لا في ذات الله وجعل ذلك في وقت واحد.

فهذه عمدة هؤلاء وكل طائفة تخالفهم منعت مقدمة من مقدمات دليلهم.

فمن جوز أن يقوم بنفسه أو بالمخلوق، منع تينك المقدمتين، وأما الجمهور فكل أجاب بحسب قوله.

منهم من قال بل الخلق والتكوين قديم، كما أن الإرادة عندكم قديمة، ومع القول بقدمها لم يلزم تقدم المراد، كذلك الخلق والتكوين قديم، ولا يلزم تقدم المخلوق، وهذا لازم للكلابية من الأشعرية وغيرهم لا جواب لهم عنه.

لكن لا يلزم من نفي قدم إرادة معينة، بل[1] نفي قدم الإرادة، كما يقوله الجهمية

---

(١) لعل «بل» زائدة.

والمعتزلة، أو يقول بقدم نوع الإرادة كما يقوله أئمة أهل الحديث ومن وافقهم من الفلاسفة والمتكلمين وغيرهم.

لكن صاحب هذا القول يقال له: التكوين القديم إما أن يكون بمشيئته وإما أن لا يكون بمشيئته، فإن كان بغير مشيئته لزم أن يكون قد خلق الخلق بلا مشيئته، وإن كان بمشيئته لزم أن يكون القديم مراداً، وهذا باطل ولو صح لأمكن كون العالم قديماً ـ مع كونه مخلوقاً ـ بخلق قديم بإرادة قديمة، ومعلوم أن هذا باطل. ولهذا كان كل من قال: (القرآن قديم) يقولون: تكلم بغير مشيئته وقدرته.

فالمفعول المراد لا يكون إلا حادثاً، وكذلك الفعل المراد لا يكون إلا حادثاً.

وأيضاً فهؤلاء المنازعون لهم يقولون: الإرادة مستلزمة للمراد، والخلق مستلزم للمخلوق وما ذكر حجة على هؤلاء وهؤلاء، فإن الإرادة والخلق من الأمور الإضافية وثبوت إرادة بلا مراد وخلق بلا مخلوق ممتنع لكن المنازع يقول: توجد الارادة والخلق ويتأخر المراد المخلوق؟.

فيقال لهؤلاء تقولون: توجد الإرادة أو الخلق، مع الإرادة،. ولا يوجد لا المراد ولا المخلوق ثم بعد ذلك بما لا يتناهى من تقدير الأوقات يوجد المراد المخلوق من غير سبب وهذا معلوم البطلان في بداهة العقول، فإن الإرادة أو الخلق كان موجوداً مع القدرة، فإن كان هذا مؤثراً تاماً استلزم وجود الأثر، ولزم وجود الأثر عند وجود المؤثر التام.

فإن المؤثر ممكن والممكن يجب وجوده عند وجود المرجح التام، إذ لو لم يكن كذلك كان جائزاً بعد وجود المرجح يقبل الوجود والعدم وحينئذ فيفتقر إلى مرجح، وهذا يستلزم التسلسل، ولا ينقطع التسلسل إلا إذا وجد المرجح التام الموجب.

هنا تنازع الناس، فقالت طائفة ـ مثل محمد بن الهيصم الكرامي ومحمود الخوارزمي ـ يكون الممكن أولى بالوقوع لكن لا ينتهي إلى حد الوجوب.

وقد قال أكثر المعتزلة والأشعرية: بل لا يصير أولى ولكن القادر أو القادر المريد يرجح أحد المتماثلين بلا مرجح.

وآخرون عرفوا أن هذا لازم فاعترفوا بأنه عند وجود المرجح التام يجب وجود

الأثر وعند الداعي التام مع القدرة يجب وجود الفعل كما اعترف بذلك أبو الحسين البصري والرازي، والطوسي، وغيرهم، وكثير من قدماء المتكلمين يقولون بالإرادة الموجبة وأن الإرادة تستلزم وجود المراد، والمتفلسفة أوردوا هذا على المتكلمين، لكن بأن الأثر يقارن وجود التأثير فيكون معه بالزمن.

وكثير من الناس لا يعرف إلا هذا القول، وذاك القول، كالرازي وغيره فيبقون حيارىٰ في هذا الأصل العظيم الذي هو من أعظم أصول الدين والعلم والكلام.

وقد بسطنا الكلام على هذا في غير موضع وبينا أن قولاً ثالثاً هو الصواب الذي عليه أئمة العلم وهو أن التأثير التام يستلزم وجود الأثر عقبه لا معه في الزمان، ولا متراخياً عنه فمن قال بالتراخي من أهل الكلام فقد غلط، ومن قال بالاقتران كالمتفلسفة فهم أعظم غلطاً، ويلزم قولهم من المحالات ما قد بيناه في مواضع.

وأما هذا القول فعليه يدل السمع والعقل ـ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس] والعقلاء يقولون: قطعته فانقطع وكسرته فانكسر وطلق المرأة فطلقت وأعتق العبد فعتق فالعتق والطلاق يقعان عقب الإعتاق والتطليق، لا يتراخى الأثر، ولا يقارن، وكذلك الانكسار والانقطاع مع القطع والكسر.

وهذا مما يبين أنه إذا وجد الخلق لزم وجود المخلوق عقبه، كما يقال: كوَّن الله الشيء فتكون، فتكونه عقب تكوين الله ـ لا مع التكوين، ولا متراخياً.

وكذلك الإرادة التامة مع القدرة تستلزم وجود المراد المقدور فهو يريد أن يخلق فيوجد الخلق بإرادته وقدرته، ثم الخلق يستلزم وجود المخلوق وإن كان ذلك الخلق حادثاً بسبب آخر يكون هذا عقبه فإنما في ذلك وجود الأثر عقب المؤثر التام، التسلسل في الآثار، وكلاهما حق، والله أعلم.

وأما المخلوق فلا يكون إلا بائناً عنه لا يقوم به مخلوق، بل نفس الإرادة مع القدرة تقتضي وجود الخلق، كما تقتضي وجود الكلام.

لا يفتقر الخلق إلى خلق آخر بل يفتقر إلى ما به يحصل ـ وهو الإرادة المتقدمة، وإذا خلق شيئاً أراد خلق شيء آخر وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

من قال: إن الخلق حادث ـ كالهشامية[١] والكرامية[٢] ـ قال: نحن نقول بقيام الحوادث.

ولا دليل على بطلان ذلك بل العقل، والنقل، والكتاب، والسنة، وإجماع السلف يدل على تحقيق ذلك كما قد بسط في موضعه.

ولا يمكن القول بأن الله يدبر هذا العالم إلا بذلك، كما اعترف بذلك أقرب الفلاسفة إلى الحق كأبي البركات صاحب المعتبر وغيره.

وأما قولهم: يلزم أن للخلق خلقاً آخر فقد أجابهم من يلتزم ذلك ـ كالكرامية وغيرهم ـ بأنكم تقولون: إن المخلوقات المنفصلة تحدث بلا حدوث سبب أصلاً، وحينئذ فالقول بحدوث الخلق الذي تحصل به المخلوقات بلا حدوث سبب أقرب إلى العقل والنقل.

وهذا جواب لازم على هذا التقدير ـ تقدير قيام الأمور الاختيارية.

والكرامية يسمون ما قام به حادثاً ولا يسمونه محدثاً ـ كالكلام الذي يتكلم به ـ القرآن أو غيره يقولون: هو حادث ويمنعون أن يقال: هو محدث، لأن الحادث يحدث بقدرته ومشيئته، كالفعل، وأما المحدث فيفتقر إلى إحداث فيلزم أن يقوم بذاته إحداثه غير المحدث، وذلك الإحداث يفتقر إلى إحداث، فيلزم التسلسل.

وأما غير الكرامية من أئمة الحديث والسنة والكلام فيسمون ذلك محدثاً كما قال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢] وفي الصحيحين عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الله يحدث من أمره ما يشاء وإن مما أحدث أن لا تكلموا في الصلاة» والذي أحدثه هو النهي عن تكلمهم في الصلاة.

---

(١) صاحبها عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب الجبائي من أبناء أبان مولى عثمان: عالم بالكلام من كبار المعتزلة له أراء انفرد بها، وله مصنفات الشامل في الفقه وتذكرة العالم والعدة في أصول الفقه توفي عام (٣٢١هـ).

(٢) محمد بن كرام السجستاني إمام الكرامية ـ من فرق الابتداع في الإسلام كان يقول: بأن الله تعالى مستقر على العرش وأنه جوهر، وولد ابن كرام في سجستان وجاور بمكة خمس سنين وورد نيسابور، فحبسه طاهر بن عبد الله ثم انصرف إلى الشام وعاد إلى نيسابور فحبسه محمد بن طاهر مرة ثانية وخرج منها سنة (٢٥١هـ) إلى القدس فمات فيها عام ٢٥٥هـ والسجزي نسبة إلى سجستان.

وقولهم: (إن المحدث يفتقر إلى إحداث، وهلم جرا) هذا يستلزم التسلسل في الآثار مثل كونه متكلماً بكلام بعد كلام، وكلمات الله لا نهاية لها، وأن الله لم يزل متكلماً إذا شاء وهذا قول أئمة السنة، وهو الحق الذي يدل عليه النقل والعقل.

وكذلك أفعاله فإن الفعل والكلام صفة كمال، فإن من يتكلم أكمل ممن لا يتكلم، ومن يخلق أكمل ممن لا يخلق، قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ⑰﴾ [النحل] وحينئذ فهو ما زال متصفاً بصفات الكمال منعوتاً بنعوت الإكرام والجلال.

وبهذا تزول أنواع الإشكال ويعلم أن ما أخبرت به الرسل عن الله من أصدق الأقوال، وأن دلائل العقول لا تدل إلا على ما يوافق أخبار الرسول.

ولكن نشأ الغلط من جهل كثير من الناس بما أخبر به الرسول، وسلوكهم أدلة برأيهم ظنوها عقلية، وهي جهلية، فغلطوا في الدلائل السمعية والعقلية، فاختلفوا ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦].

وقد بسط الكلام على هذا في مواضع، في مسألة الكلام والأفعال ـ وذكر ما تيسر من كلام السلف والأئمة في هذا الأصل، والمقصود هنا التنبيه على مآخذ الأقوال.

وهذا الموضع مما يبينه أئمة السنة كالإمام أحمد وغيرهم، فتكلم في الرد على الجهمية على قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣] وبين أن الجعل من الله قد يكون خلقاً كقوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] وقد يكون فعلاً ليس بخلق، وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ من هذا الباب.

وذلك أن الخلق ونحوه من الأفعال التي ليست خلقاً، مثل تكلمه بالقرآن وغيره، وتكلمه لموسى، وغيره ومثل النزول، والإتيان، والمجيء ونحو ذلك فهذه إنما تكون بقدرته، ومشيئته، وبأفعال أُخر تقوم بذاته ليست خلقاً.

وبهذا يجيب البخاري وغيره من أئمة السنة للكرامية إذا قالوا: (المحدث لا بد له من إحداث؟) فيقول: (نعم، وذلك الإحداث فعل ليس بخلق) والتسلسل نلتزمه.

فإن التسلسل الممتنع هو وجود المتسلسلات في آن واحد كوجود خالق للخالق وخالق للخالق أو للخلق خلق وللخلق خلق في آن واحد وهذا ممتنع من وجوه، منها

وجود ما لا يتناهى في آخر واحد، وهذا ممتنع مطلقاً، ومنها أن كل ما ذكر يكون محدثاً لا ممكناً، وليس فيها موجود بنفسه ينقطع به التسلسل، وإذاً كان أولى بالامتناع.

بخلاف ما إذا قيل «كان قبل هذا الكلام كلام، وقبل هذا الفعل فعل» جائز عند أكثر العقلاء، أئمة السنة، وأئمة الفلاسفة، وغيرهم فإذا قيل (هذا الكلام المحدث أحدثه في نفسه) كان هذا معقولاً وهو مثل قولنا تكلم به وهو معنى قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣] أي تكلمنا به عربياً وأنزلناه عربياً.

وكذلك فسره السلف، كإسحاق بن راهويه، وذكره عن مجاهد قال: ﴿جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ قلناه عربياً ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره، عن إسحاق بن راهويه قال: ذكر لنا عن مجاهد وغيره من التابعين ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ إنا قلناه ووصفناه، وذكره عن أحمد بن حنبل، عن الأشجعي، عن سفيان الثوري في قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ بيناه قرآناً عربياً.

والإنسان يفرق بين تكلمه وتحركه في نفسه وبين تحريكه لغيره، وقد احتج سفيان بن عيينة وغيره من السلف على أنه غير مخلوق بأن الله خلق الأشياء بـ﴿كُن﴾ [يس: ٨٢] فلو كانت ﴿كُن﴾ مخلوقة لزم أن يكون خلق مخلوقاً بمخلوق فيلزم التسلسل الباطل.

وذلك أنه إذا لم يخلق إلا بـ﴿كُن﴾ فلو كانت ﴿كُن﴾ مخلوقة لزم أن لا يخلق شيئاً وهو الدور الممتنع فإنه لا يخلق شيئاً حتى يقول ﴿كُن﴾ ولا يقول ﴿كُن﴾ حتى يخلقها، فلا يخلق شيئاً حتى يقول أصل التأثير، والفعل مثل أن يقال: لا يفعل حتى يفعل، فيلزم ألا يفعل ولا يخلق حتى يخلق، فيلزم أن لا يخلق. وأما إذا قيل: قال: ﴿كُن﴾ وقبل «كن» «كن»، وقبل: «كن» «كن» فهذا ليس بممتنع، فإن هذا تسلسل في آحاد التأثير لا في جنسه، كما أنه في المستقبل يقول «كن» بعد «كن» ويخلق شيئاً بعد شيء إلى غير نهاية.

فالمخلوقات التامة يخلقها بخلقه، وخَلْقُه فِعْلُه القائم به وذلك إنما يكون بقدرته ومشيئته.

وإذا قيل: هذا الفعل القائم به يفتقر إلى فعل آخر يكون هو المؤثر في وجوده غير القدرة والإرادة فإنه لو كان مجرد ذلك كافياً كفى في وجود المخلوق فلما كان لا بد له

من خلق فهذا الخلق أمر حادث بعد أن لم يكن وهو فعل قائم به فالمؤثر التام فيه يكون مستلزماً مستعقباً له كالمؤثر التام في وجود الكلام الحادث بذاته، والمتكلم من الناس إذا تكلم فوجود الكلام لفظه ومعناه مسبوق بفعل آخر فلا بد من حركة تستعقب وجود الحروف التي هي الكلام فتلك الحركة هي التي تجعل الكلام عربياً أو عجمياً وهو فعل يقوم بالفاعل، وذلك الجعل الحادث حدث بمؤثر تام قبله أيضاً.

وذات الرب هي المقتضية لذلك كله، فهي تقتضي الثاني بشرط انقضاء الأول لا معه واقتضاؤها للثاني فعل يقوم به بعد الأول وهي مقتضية لهذا التأثير وهذا التأثير.

ثم إن هذا التأثير وكل تأثير هو سبب عما قبله وشرط لما بعده وليس في ذلك شيء مخلوق وإن كانت حادثة.

وإن قال قائل: أنا أسمي هذا خلقاً كان نزاعه لفظياً وقيل له: الذين قالوا: (القرآن مخلوق) لم يكن مرادهم هذا ولا رد السلف والأئمة هذا إنما ردوا قول من جعله مخلوقاً بائناً عن الله كما قال الإمام أحمد: كلام الله من الله ليس بائناً عنه.

وقالوا: القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدأ.

قال أحمد: منه بدأ هو المتكلم به لم يبدأ من مخلوق كما قال من قال: إنه مخلوق قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤].

ولهذا لا يقول أحد: إنه خلق نزوله واستواءه ومجيئه وكذلك تكليمه لموسى ونداؤه له ناداه وكلمه بمشيئته وقدرته والتكليم فعل قائم بذاته وليس هو الخلق كما أن الإنسان إذا تكلم فقد فعل كلاماً وأحدث كلاماً ولكن في نفسه لا مبايناً له.

ولهذا كان الكلام صفة فعل وهو صفة ذات أيضاً على مذهب السلف والأئمة.

ومن قال إنَّه مخلوق يقول: إنه صفة فعل ويجعل الفعل بائناً عنه والكلام بائناً عنه ومن قال صفة ذات يقول: إنه يتكلم بلا مشيئته وقدرته.

ومذهب السلف أنه يتكلم بمشيئته وقدرته وكلامه قائم به فهو صفة ذات وصفة فعل ولكن الفعل هنا ليس هو الخلق، بل كما قال الإمام أحمد: الجعل جعلان: جعل

هو خلق، وجعل ليس بخلق، وهذا كله يستلزم قيام الأفعال بذاته وأنها تنقسم إلى قسمين: أفعال متعدية كالخلق وأفعال لازمة كالتكلم والنزول، والسلف يثبتون النوعين ـ هذا وغيره.

وأما جعل القرآن عربياً وإن كان متعدياً في صناعة العربية بمعنى أنه نصب مفعولاً ففي الكلام الفعل الذي هو التكلم متصلاً بالمفعول الذي هو الكلام كلاهما قائم بالمتكلم.

ولهذا قد يراد بالمفعول المصدر إذا قلت: قال قولاً حسناً فقد يراد بالقول المصدر فقط وقد يراد به الكلام فقط فيكون المفعول وقد يراد به المجموع فيكون مفعولاً به ومصدراً.

وكذلك القرآن هو في الأصل قرأ قرآناً وهو الفعل والحركة ثم سمَّى الكلام المقروء قرآناً قال تعالى في الأول: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨﴾ [القيامة] وقال في الثاني: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الإسراء: ٩].

وقد بسط هذا في غير هذا الموضع وبين [أن][1] التلاوة والقراءة في الأصل مصدر تلا تلاوة وقرأ قراءة كالقرآن لكن يسمى به الكلام كما يسمى بالقرآن وحينئذ فتكون القراءة هي المقروء والتلاوة هو المتلو.

وقد يراد بالتلاوة والقراءة المصدر الذي هو الفعل فلا تكون القراءة والتلاوة هي المقروء المتلو بل تكون مستلزمة له.

وقد يراد بالتلاوة والقراءة مجموع الأمرين فلا تكون هي المتلو لأن فيها الفعل ولا تكون مباينة مغايرة للمتلو لأن المتلو جزؤها.

هذا إذا أريد بالقراءة والمقروء شيء واحد معين مثل قراءة الرب ومقروئه أو قراءة العبد ومقروئه وأما إذا أريد بالقراءة قراءة العبد وهي حركته وبالمقروء صفة الرب فلا ريب أن حركة العبد ليست صفة الرب.

ولكن هذا تكلف بل قراءة العبد مقروءة كمقروئه وقراءته للقرآن إذا عنى بها نفس

---

(١) غير موجودة في الأصل (عبد الصمد).

القرآن فهي مقروءة وإن عنى بها حركته فليست مقروءة وإن عنى بها الأمران فلا يطلق أحدهما.

ولهذا كان من المنتسبين إلى السنة من يقول: القراءة هي المقروء ومنهم من يقول: القراءة غير المقروء ومنهم من لا يطلق واحداً منهما ولكل قول وجه من الصواب عند التصور التام والإنصاف، وليس فيها قول يحيط بالصواب بل كل قول فيه صواب من وجه وقد يكون خطأ من وجه آخر.

والبخاري إنما يثبت خلق أفعال العباد حركاتهم وأصواتهم، وهذه القراءة هي فعل العبد يؤمر به وينهى عنه، وأما الكلام نفسه فهو كلام الله، ولم يقل البخاري: إن لفظ العبد مخلوق ولا غير مخلوق كما نهى أحمد عن هذا وهذا.

والذي قال البخاري إنه مخلوق من أفعال العباد وصفاتهم لم يقل أحمد ولا غيره من السلف إنه غير مخلوق وإن سكتوا عنه لظهور أمره ولكونهم كانوا يقصدون الرد على الجهمية.

والذي قال أحمد إنه غير مخلوق هو كلام الله لا صفة العباد لم يقل البخاري إنه مخلوق.

ولكن أحمد كان مقصوده الرد على من يجعل كلام الله مخلوقاً إذا بلغ عن الله، والبخاري كان مقصوده الرد على من يقول: أفعال العباد وأصواتهم غير مخلوقة.

وكلا القصدين صحيح لا منافاة بينهما، وقد بين ذلك ابن قتيبة في مسألة اللفظ، ولكن المنحرفون إلى أحد الطرفين ينكرون على الآخر، والله سبحانه أعلم.

فصل

وأما الأفعال اللازمة كالاستواء والمجيء فالناس متنازعون في نفس إثباتها لأن هذه ليس فيها مفعول موجود يعلمونه حتى يستدلوا بثبوت المخلوق على الخلق وإنما عرفت بالخبر فالأصل فيها الخبر لا العقل.

ولهذا كان الذين ينفون الصفات الخبرية ينفونها ممن يقول (الخلق غير

المخلوق) وممن يقول (الخلق هو المخلوق) [ومن][1] يثبت الصفات الخبرية من الطائفتين يثبتها.

والذين أثبتوا الصفات الخبرية لهم في هذه قولان:

منهم من يجعلها من جنس الفعل المتعدي لجعلها أموراً حادثة في غيرها وهذا قول الأشعري وأئمة أصحابه ومن وافقهم كالقاضي أبي يعلى وابن الزاغوني وابن عقيل في كثير من أقواله.

فالأشعري يقول: الاستواء فعل فعله في العرش فصار به مستوياً على العرش وكذلك يقول في الإتيان والنزول ويقول: هذه الأفعال ليست من خصائص الأجسام بل توصف بها الأجسام والأعراض فيقال: (جاءت الحمى وجاء البرد وجاء الحر) ونحو ذلك وهذا أيضاً قول القاضي أبي بكر والقاضي أبي يعلي وغيرهما وحملوا ما روي عن السلف كالأوزاعي وغيره، [على][2] أنهم قالوا في النزول: يفعل الله فوق العرش بذاته كما حكاه القاضي عبد الوهاب عن القاضي أبي بكر وكما حكوه عن الأشعري وغيره كما ذكر في غير موضع من كتبه.

ولكن عندهم هذا من الصفات الخبرية وهذا قول البيهقي وطائفة وهو أول قولي القاضي أبي يعلى.

وكل من قال إن الرب لا تقوم به الصفات الاختيارية فإنه ينفي أن يقوم به فعل شاءه سواء كان لازماً أو متعدياً لكن من أثبت من هؤلاء فعلاً قديماً كمن يقول بالتكوين وبهذا فإنه يقول: ذلك القديم قام به بغير مشيئته كما يقول في إرادته القديمة.

والقول الثاني: إنها كما دلت عليه أفعال تقوم بذاته بمشيئته واختياره كما قالوا مثل ذلك في الأفعال المتعدية وهذا قول أئمة السنة والحديث والفقه والتصوف وكثير من أصناف أهل الكلام كما تقدم)[3][4].

---

(١) ليست في الأصل (عبد الصمد).

(٢) هذه ليست في الأصل (عبد الصمد) والكلام يستقيم بدونها.

(٣) ثم استطرد الشيخ بعد هذا في الكلام على الاستواء والنزول والمجيء وغيرها وأجاب عنه معارضاً المبتدعة على نصوص الصفات بما يحسن الاطلاع عليه لمن أراد الفائدة.

(٤) مجموع الفتاوى (١٦/٢٥١ ـ ٣٩٥)، مع بعض الحذف في المواضع المشار إليها بالنقاط.

سورة القدر

وقال في أسباب نزول هذه السورة:

(قال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: «بلغني أنه كان في بني إسرائيل رجل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر فلم يضعه عنه، فذكر ذلك رسول الله ﷺ لأصحابه، فعجبوا من قوله، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾ [القدر]، يقول الله تعالى: ليلة القدر خير لكم من تلك الألف شهر التي لبس فيها السلاحَ[(١)] وذلك الرجل في سبيل الله»[(٢)] رواه آدم بن أبي إياس عن الزنجي عنه) ا.هـ[(٣)].

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١﴾.

(جاء عن ابن عباس وغيره من السلف في تفسير قوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١﴾ أنه أنزله إلى بيت العزة في السماء الدنيا ثم أنزله بعد ذلك منجماً مفرقاً بحسب الحوادث[(٤)]) ا.هـ[(٥)].

---

(١) كذا في الأصل، والواو زائدة كما يتضح من مصادر التخريج؛ لأن اسم الإشارة هو فاعل فعل «لبس».

(٢) أخرجه: يحيى بن سلام في «تفسيره» (ص٦٨)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص٤٦١)، والبيهقي في «الكبرى» (٤/٣٠٦)، وابن أبي حاتم وابن المنذر في «تفسيريهما» كما في «الدر» (٦/٦٢٩).
قلت: وهو مرسل ضعيف الإسناد.
قال الطبري في «تفسيره» (٣٠/٢٦٠) بعد أن ذكر الأقوال في معنى قوله: ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣] قال: وأشبه الأقوال في ذلك بظاهر التنزيل قول من قال: عمل في ليلة القدر خير من عمل ألف شهر ليس فيها ليلة القدر. وأما الأقوال الأخر؛ فدعاوى معان باطلة لا دلالة عليها من خبر ولا عقل، ولا هي موجودة في التنزيل اهـ. (محقق الصيام).

(٣) شرح العمدة ـ الصيام (٢/٦٦٨).

(٤) زاد المسير (١/٥).

(٥) مجموع الفتاوى (١٢/١٢٦).

سورة البينة

وقال معنى (أهل الكتاب):

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝١﴾.

(قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ وقوله: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ [آل عمران: ٢٠] وأمثال ذلك إنما هو خطاب لهؤلاء الموجودين وإخبار عنهم. والمراد بالكتاب هو الكتاب الذي بأيديهم الذي جرى عليه من النسخ والتبديل ما جرى، ليس المراد به من كان متمسكاً به قبل النسخ والتبديل؛ فإن أولئك لم يكونوا كفاراً؛ ولا هم ممن خوطبوا بشرائع القرآن ولا قيل لهم في القرآن: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٦٤] فإنهم قد ماتوا قبل نزول القرآن. وإذا كان كذلك فكل من تديَّن بهذا الكتاب الموجود عند أهل الكتاب فهو من أهل الكتاب، وهم كفار تمسكوا بكتاب مبدل منسوخ؛ وهم مخلدون في نار جهنم كما يخلد سائر أنواع الكفار، والله تعالى مع ذلك شرع إقرارهم بالجزية، وأحل طعامهم ونساءهم) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله في سبب التفريق بين أهل الكتاب والمشركين:

(وأما قولهم[2]: «ونفى عنا اسم الشرك» فلا ريب أن الله فرق بين المشركين وأهل الكتاب في عدة مواضع، ووصف من أشرك منهم في بعض المواضع، (بل قد ميز بين الصابئين والمجوس وبين المشركين في بعض المواضع) وكلا الأمرين حق، فالأول كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [الحج: ١٧].

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨). (٢) يقصد النصارى الذين يردّ عليهم.

وقال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ [المائدة: ٨٢].

وأما وصفهم بالشرك ففي قوله: ﴿اتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة].

فنزه نفسه عن شركهم، وذلك أن أصل دينهم ليس فيه شرك، فإن الله إنما بعث رسله بالتوحيد والنهي عن الشرك كما قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا۟ اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا۟ الطَّٰغُوتَ ۖ﴾ [النحل: ٣٦] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء]) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (وقد سمى الرسول بينة كما قال: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ فإنه يبين الحق) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (فإن الصابئين كأهل الكتاب: تارة جعلهم الله قسماً من المشركين، وتارة يجعلهم قسيماً لهم، كما قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ وَالْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾.

وكذلك لما ذكر الملل الست في الحج فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَالَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [الحج: ١٧]، وقال تعالى: ﴿اتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة].

وهذا بعد قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَٰرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ﴾ إلى قوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَٰفِرُونَ﴾

(١) الجواب الصحيح (٣/ ١١١ ـ ١١٣). (٢) مجموع الفتاوى (٢/ ٧٢).

[التوبة: ٣٠ ـ ٣٢]، وقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢]، ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]، ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ انتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ [النساء: ١٧١]) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّٰغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠]، فإذا كان اليهود والنصارى قد يكونون مشركين فالصابئون أولى، وذلك بعد تبديلهم، فحيث وصفوا بالشرك فبعد التبديل، وحيث جعلوا غير مشركين، فلأن دينهم الصحيح ليس فيه شرك، فالشرك مبتدع عندهم، فينبغي التفطن لهذه المعاني.

وكان الوحيد[٢] من ذوي الرأي والقياس والتدبير من العرب، وهو معدود من حكمائهم وفلاسفتهم، ولهذا أخبر الله عنه بمثل حال المتفلسفة في قوله: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ [المدثر]) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (بخلاف ما إذا كان للتبعيض كقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ فإنه يدخل في الذين كفروا بعد مبعث النبي ﷺ جميع المشركين، وأهل الكتاب) ا.هـ[٤].

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ الزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾.

(فالعبادة كلها لله وحده لا شريك له: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ الزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً. وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم»[٥] وإخلاص الدين لله هو أصل العبادة) ا.هـ[٦].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٢٠ ـ ٢١).
(٢) هو لقب الوليد بن المغيرة.
(٣) تفسير آيات أشكلت (٢/ ٧٣١ ـ ٧٣٣).
(٤) الجواب الصحيح (٣/ ٦٤).
(٥) أبو داود (٣٦٦٠)، الترمذي (٣٦٥٦)، ابن ماجه (٢٣٠)، والحديث صحيح.
(٦) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٩٣ ـ ٩٤).

وقال رحمه الله في كلامه عمن اشترط النية عند العمل المعين: (يستدلون على النية الواجبة في الطهارة والصلاة ونحوهما بقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ قالوا: وإخلاص الدين هو النية. ومن اغتسل للتبرد أو التنظف لم يخلص الدين لله، (ويستدلون بقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ٢٠﴾ [الشورى] قالوا: ومن اغتسل للتبرد والتنظف لم يرد حرث الآخرة فيجب أن لا يخلص له.

ومعلوم أن هاتين الآيتين يدلان على وجوب العمل لله والدار الآخرة، أبلغ من دلالتهما على وجوب نية العمل المعين. لكن من نصر الوجه الأول قد يقول: نية النوع مستلزمة لنية الجنس، فإن من نوى العمل المُعَيَّن فقد نوى العمل لله بحكم إيمانه كما تقدم) ا.هـ[(١)].

وقال رحمه الله: (وهذا أصل مستقر في جميع العبادات المقصودة لا تصح إلا بنية لقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾) ا.هـ[(٢)].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ وإخلاص الدين له هو إرادته وحده بالعبادة) ا.هـ[(٣)].

وقال رحمه الله: (قال محمد بن نصر: وقال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ الآية وقال: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٩] فسمى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ديناً قيماً وسمى الدين إسلاماً، فمن لم يؤد الزكاة فقد ترك من الدين القيم الذي أخبر الله أنه عنده الدين وهو الإسلام بعضاً) ا.هـ[(٤)].

وقال رحمه الله: (والعبادات التي شرعها الله كلها تتضمن إخلاص الدين كله لله، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾ فالصلاة لله وحده والصدقة لله وحده، والصيام لله وحده، والحج لله وحده، وإلى بيت الله وحده، فالمقصود من الحج: عبادة الله وحده في البقاع التي أمر بعبادته فيها، ولهذا كان الحج شعار الحنيفية حتى قال طائفة من

(١) مجموع الفتاوى (٢٦/ ٣١ ـ ٣٢).
(٢) شرح العمدة ـ الحج (١/ ٥٨٢).
(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٩٥ ـ ٤٩٦).
(٤) مجموع الفتاوى (٧/ ٣٧٦ ـ ٣٧٧).

السلف[١]: «حنفاء لله أي حجاجاً» فإن اليهود والنصارى لا يحجون البيت) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (وقصد المعبود هو الأصل الذي دل عليه قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ وإخلاص الدين له هو إرادته وحده بالعبادة) ا.هـ[٤].

وقال راداً على الرافضة:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧﴾.

(أن يقال: قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عام في كل من اتصف بذلك فما الذي أوجب تخصيصه بالشيعة؟

فإن قيل: لأن من سواهم كافر.

قيل: إن ثبت كفر من سواهم بدليل، كان ذلك مغنياً لكم عن هذا التطويل، وإن لم يثبت لم ينفعكم هذا الدليل فإنه من جهة النقل لا يثبت، فإن أمكن إثباته بدليل منفصل، فذاك هو الذي يعتمد عليه لا هذه الآية.

الوجه الخامس: أن يُقال: من المعلوم المتواتر أن ابن عباس كان يوالي غير شيعة علي أكثر مما يوالي كثيراً من الشيعة، حتى الخوارج كان يجالسهم ويفتيهم ويناظرهم. فلو اعتقد أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم الشيعة فقط، وأن من سواهم كفار، لم يعمل مثل هذا. وكذلك بنو أمية كانت معاملة ابن عباس وغيره لهم من أظهر الأشياء دليلاً على أنهم مؤمنون عنده لا كفار.

فإن قيل: نحن لا نكفر من سوى الشيعة لكن نقول: هم خير البرية.

قيل: الآية تدل على أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم خير البرية، فإن قلتم: إن من سواهم لا يدخل في ذلك فإما أن تقولوا: هو كافر أو تقولوا: فاسق، بحيث لا

---

(١) ابن جرير (٣٠/ ٢٦٣).
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٨٣٠).
(٣) مجموع الفتاوى (٢٦/ ٢٣).
(٤) جامع الرسائل (٢/ ١٢١).

يكون من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وإن دخل اسمهم في الإيمان، وإلا فمن كان مؤمناً ليس بفاسق فهو داخل في الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

فإن قلتم: هو فاسق.

قيل لكم: إن ثبت فسقهم كفاكم ذلك في الحجة. وإن لم يثبت لم ينفعكم ذلك في الاستدلال، وما تذكرون به فسق طائفة من الطوائف إلا وتلك الطائفة تبين لكم أنكم أولى بالفسق منهم من وجوه كثيرة، وليس لكم حجة صحيحة تدفعون بها هذا.

والفسق غالب عليكم لكثرة الكذب فيكم والفواحش والظلم، فإن ذلك أكثر فيكم منه في الخوارج وغيرهم من خصومكم، وأتباع بني أمية كانوا أقل ظلماً وكذباً وفواحش ممن دخل في الشيعة بكثير وإن كان في بعض الشيعة صدق ودين وزهد، فهذا في سائر الطوائف أكثر منهم ولو لم يكن إلا الخوارج الذين قيل فيهم: «يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم»[١].

الوجه السادس: أنه قال قبل ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾﴾ وهذا يبين أن هؤلاء من سوى المشركين وأهل الكتاب. وفي القرآن مواضع كثيرة ذكر فيها الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وكلها عامة فما الموجب لتخصيص هذه الآية دون نظائرها؟

وإنما دعوى الرافضة أو غيرهم من أهل الأهواء الكفر في كثير ممن سواهم، كالخوارج وكثير من المعتزلة والجهمية [و] أنهم هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات دون من سواهم، كقول اليهود والنصارى: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة]. وهذا عام في كل من عمل لله بما أمره الله فالعمل الصالح هو المأمور به وإسلام وجهه لله إخلاص قصده لله) ا.هـ[٢].

---

(١) هذا في حديث الخوارج المعروف.
(٢) منهاج السنة (٧/ ٢٦١ ـ ٢٦٤).

فصل

قال شيخ الإسلام رحمه الله:

في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١﴾.

فإن هذه السورة سورة جليلة القدر وقد ورد فيها فضائل، وقد ثبت في الصحيح أن الله أمر نبيه أن يقرأها على أبي بن كعب، ففي الصحيحين عن أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ قال لأبي: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن» قال: آلله سماني لك؟ قال: «الله سماك لي» قال: فجعل أبي يبكي، وفي رواية أخرى: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قال: سماني لك؟ قال: «نعم» فبكى، وفي رواية للبخاري: وذكرت عند رب العالمين؟ قال: «نعم» فذرفت عيناه قال قتادة: أنبئت أنه قرأ عليه: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾[(١)] وتخصيص هذه السورة بقراءتها على أبي يقتضي اختصاصها وامتيازها بما اقتضى ذلك.

وقوله: «أن أقرأ عليك» أي قراءة تبليغ وإسماع وتلقين، ليس هي قراءة تلقين وتصحيح كما يقرأ المتعلم على المعلم، فإن هذا قد ظنه بعضهم، وجعلوا هذا من باب التواضع، وجعل أبو حامد هذا مما يستدل به على تواضع المتعلم، وليس هذا بشيء، فإن هذه القراءة كان يقرؤها على جبريل يعرض عليه القرآن كل عام، فإنه هو الذي نزل عليه القرآن.

أما الناس فمنه تعلموه، فكيف يصحح قراءته على أحد منهم، أو يقرأ كما يقرأ المتعلم؟ ولكن قراءته على أبي بن كعب كما كان يقرأ القرآن على الإنس والجن، فقد قرأ على الجن القرآن، وكان إذا خرج إلى الناس يدعوهم إلى الإسلام، ويقرأ عليهم القرآن، ويقرؤه على الناس في الصلاة وغير الصلاة.

قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢١﴾ [الانشقاق] وقال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾

---

(١) البخاري (٦/ ٢١٦)، ومسلم (٧/ ١٥٠ ـ النووي).

[آل عمران: ١٦٤] وذكر مثل هذا في غير موضع فهو يتلو على المؤمنين آيات الله.

وأُبيّ بن كعب أمر بتخصيصه بالتلاوة عليه لفضيلة أبي واختصاصه بعلم القرآن كما ثبت في الصحاح عن عمر أنه قال: «أبي أقرؤنا وعلي أقضانا»[١].

وفي الصحيح أنه قال لابن مسعود: «اقرأ علي القرآن» قال: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «إني أحب أن أسمعه من غيري»[٢]. فقراءة ابن مسعود عليه في هذا الموضع لإسماعه إياه لا لأجل التصحيح والتلقين.

وفي معنى قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنْ﴾ هؤلاء وهؤلاء ﴿مُنفَكِّينَ﴾ ثلاثة أقوال ذكرها غير واحد من المفسرين.

هل المراد لم يكونوا منفكين عن الكفر؟

أو هل لم يكونوا مكذبين بمحمد حتى بعث، فلم يكونوا منفكين عن محمد والتصديق بنبوته حتى بعث؟

أو المراد أنهم لم يكونوا متروكين حتى يُرسَل إليهم رسول؟

وممن ذكر هذا أبو الفرج بن الجوزي قال: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ وهم عبدة الأوثان ﴿مُنفَكِّينَ﴾ أي منفصلين وزائلين. يقال: فككت الشيء فانفك، أي انفصل. والمعنى: لم يكونوا زائلين عن كفرهم وشركهم حتى أتتهم البينة، لفظه لفظ المستقبل ومعناه الماضي، والبينة الرسول، وهو محمد ﷺ بين[٣] لهم ضلالهم وجهلهم، وهذا بيان عن نعمة الله على مَنْ آمن مِنَ الفريقين إذ أنقذهم به.

ولفظ البغوي نحو هذا قال: لم يكونوا منتهين عن كفرهم وشركهم وقال أهل اللغة: ﴿مُنفَكِّينَ﴾ منفصلين زائلين يقال: فككت الشيء فانفك، أي انفصل ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ لفظه مستقبل ومعناه الماضي أي حتى أتتهم البينة الحجة الواضحة يعني محمداً أتاهم بالقرآن، فبين لهم ضلالتهم وجهالتهم، ودعاهم إلى الإيمان[٤]، فأنقذهم الله به

---

(١) البخاري (٤٤٨١).
(٢) البخاري (٤٥٨٢)، ومسلم (٨٠٠).
(٣) في الأصل (بين الله لهم) (عبد الصمد).
(٤) في المطبوع (الإيمان) فقط.

من الجهل والضلالة[١]. ولم يذكر غير هذا.

قال أبو الفرج: وذهب بعض المفسرين إلى أن معنى الآية: لم يختلفوا أن الله يبعث إليهم نبياً حتى بعث[٢]، فافترقوا.

وقال بعضهم: لم يكونوا منفكين عن حجج الله حتى أقيمت عليهم البينة. قال: والوجه هو الأول[٣].

وذكر الثلاثة أبو محمد بن عطية، لكن الثالث وجهه وقواه ولم يحكه عن غيره، فقال: قوله: ﴿مُنفَكِّينَ﴾ أي منفصلين متفرقين. تقول: انفك الشيء عن الشيء إذا انفصل عنه.

قال: و«ما انفك» التي هي من أخوات «كان» لا مدخل لها في هذه الآية، فبين في هذه أن تكون هذه الصفة منفكة. قال: واختلف الناس عماذا؟ فقال مجاهد وغيره: لم يكونوا منفكين عن الكفر والضلال حتى جاءتهم البنية. وأوقع المستقبل موقع الماضي في ﴿تَأْتِيَهُمُ﴾ لأن بأس الشريعة وعظمها لم يجيء[٤] بعد.

وقال الفراء وغيره: لم يكونوا منفكين عن معرفة[٥] نبوة محمد ﷺ والتأكد[٦] لأمره حتى جاءتهم البنية فتفرقوا عند ذلك. قال: وذهب بعض النحويين إلى أن هذا المنفي المتقدم مع ﴿مُنفَكِّينَ﴾ يجعلهم تلك هي مع «كان» ويروي التقدير في خبرها «عارفين أمر محمد» أو نحو هذا.

قال: وفي معنى الآية قول ثالث بارع المعنى. وذلك أن يكون المراد: لم يكونوا هؤلاء[٧] منفكين من أمر الله وقدرته ونظره لهم حتى يبعث إليهم رسولاً منذراً تقوم عليهم به الحجة وتتم على من آمن النعمة فكأنه قال: ما كانوا يتركون سدى. قال: ولهذا المعنى نظائر في كتاب الله[٨].

وقد ذكر الثعلبي ثلاثة أقوال. لكن الثالث حكاه عمن جعل مقصوده إهلاكهم بإقامة الحجة وجعل ﴿مُنفَكِّينَ﴾ بمعنى هالكين.

---

(١) البغوي (٤/ ٤٨١).
(٢) في الأصل (لم يبعث) (عبد الصمد).
(٣) زاد المسير (٩/ ١٩٦).
(٤) في المطبوع (برده).
(٥) في المطبوع (عن معرفة صحة).
(٦) في المطبوع (والتوكف).
(٧) في المطبوع (هؤلاء القوم).
(٨) ابن عطية (١٦/ ٣٤٣ ـ ٣٤٤).

فقال: لم يكونوا منفكين ومنتهين عن كفرهم وشركهم، وقال أهل اللغة: زائلين. تقول العرب: ما انفك فلان يفعل كذا، أي ما زال. وأصل الفك: الفتح، ومنه فك الكتاب، وفك الخلخال ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ الحجة الواضحة، وهو محمد أتاهم بالقرآن، فبين ضلالتهم وجهالتهم، ودعاهم إلى الإيمان.

قال: وقال ابن كيسان: معناه لم يكن هؤلاء الكفار تاركين صفة محمد في كتابهم حتى بعث، فلما بعث تفرقوا فيه.

وقال: قال العلماء في أول السورة إلى قوله: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾: حكمها فيمن آمن من أهل الكتاب والمشركين ﴿وَمَا تَفَرَّقَ﴾ حكمه فيمن لم يؤمن من أهل الكتاب بعد قيام الحجة عليهم.

قال: وقال بعض أئمة اللغة: قوله: ﴿مُنفَكِّينَ﴾ أي هالكين، من قولهم: انفك صلا المرأة عند الولادة، وهو أن ينفصل ولا يلتئم فتهلك. ومعنى الآية: لم يكونوا هالكين مكذبين إلا بعد إقامة الحجة عليهم بإرسال الرسول وإنزال الكتاب.

وقد ذكر البغوي[١] هذا والأول: قال: والأول أصح. قلت: القول الثاني الذي حكاه عن ابن كيسان هو قول الفراء. وقد قدمه المهدوي على الأول فقال: ﴿مُنفَكِّينَ﴾ من انفك الشيء من الشيء إذا فارقه والمعنى لم يكونوا متفرقين إلا إذا جاءهم الرسول لمفارقتهم ما كان عندهم من خبره وصفته وكفرهم بعد البينات، قال: ولا يحتاج ﴿مُنفَكِّينَ﴾ على هذا التأويل إلى خبر. ويدل على ذلك قوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤﴾.

قال: وقال مجاهد[٢]: المعنى لم يكونوا منتهين عما هم عليه. وعن مجاهد أيضاً: لم يكونوا ليؤمنوا حتى تأتيهم البينة.

قال، وقال الفراء: لم يكونوا تاركين ذكر ما عندهم من ذكر النبي حتى ظهر، فلما ظهر تفرقوا واختلفوا[٣].

---

(١) كما مرّ.

(٢) في ابن جرير (٣٠/ ٢٦٢) لم يكونوا لينتهوا حتى يتبين لهم الحق.

(٣) معاني القرآن للفراء (٣/ ٢٨١) بلفظ فيه خلاف بسيط.

قلت: هذا المعنى هو الذي قدمه، لكن الفراء وابن كيسان جعلا الانفكاك مفارقتهم وتركهم لذكره وخبره والبشارة به أي لم يكونوا مفارقين تاركين لما علموه من خبره حتى ظهر، فانفكوا حينئذ. وذاك يقول: لم يكونوا منفكين، أي متفرقين، إلا إذا جاء الرسول، لمفارقتهم ما كان عندهم من خبره، وهو معنى ما حكاه أبو الفرج: لم يختلفوا أن الله يبعث إليهم نبياً حتى بعث فافترقوا.

فالانفكاك انفكاك بعضهم عن بعض، أو انفكاكهم عما كان عندهم من علمه وخبره، وهذا القول ضعيف لم يرد بهذه الآية قطعاً، فإن الله لم يذكر أهل الكتاب بل ذكر الكفار من المشركين وأهل الكتاب، ومعلوم أن المشركين لم يكونوا يعرفونه ويذكرونه ويجدونه في كتبهم، كما كان ذلك عند أهل الكتاب، ولا كانوا قبل مبعثه[(١)] على دين واحد متفقين عليه فلما جاء تفرقوا.

فيمتنع أن يقال: لم يكن المشركون تاركين لمعرفة محمد وذكره والإيمان به، ولم يكونوا مختلفين في ذلك، ولا متفرقين فيه حتى بعث، فهذا معنى باطل في المشركين.

ولا يستقيم هذا أيضاً في أهل الكتاب، فإن الله إنما ذكر الكفار منهم فقال: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ومعلوم أن الذين كانوا يعرفون نبوته ويقرون به ويذكرونه قبل أن يبعث لم يكونوا كلهم كفاراً، بل كان الإيمان أغلب عليهم.

يبين هذا أنه إذا ذكر تفرق الذين أوتوا الكتاب من بعد ما جاءتهم البينة، فإنه يعمهم فيقول: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾. وأنه لا يقول: كان الكفار من أهل الكتاب متفقين على الحق حتى جاءتهم البينة.

وأيضاً فاستعمال لفظ «الانفكاك» في هذا غير معروف، لا يعرف في اللغة له شاهد، فتسمية الافتراق والاختلاف «انفكاكاً» غير معروف.

وأيضاً فهو لم يذكر [لـ][(٢)] ﴿مُنفَكِّينَ﴾ خبراً كما يقال: ما انفكوا يذكرون محمداً، وما زالوا يؤمنون به، ونحو ذلك وهذه التي هي من أخوات «كان» لا يقال فيها «ما كنت منفكاً» بل يقال: «ما انفككت أفعل كذا» فهو يلي حرف «ما».

---

(١) في الأصل (مبعثهم) (عبد الصمد).

(٢) سقطت من الأصل (عبد الصمد).

وأيضاً فليس في اللفظ ما يدل على أن الانفكاك عن أمر محمد خاصة، وأيضاً فهذا المعنى مذكور في قوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾ فلو أريد بهذه لكان تكريراً محضاً.

والقول الأول أشهر عند المفسرين، ومنهم من يذكر غيره، كالبغوي وغيره، فإنه معروف عن مجاهد، والربيع بن أنس، كما في التفسير المعروف عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿مُنفَكِّينَ﴾ قال: منافقين[1] لم يكونوا ليؤمنوا حتى تبين لهم الحق، وقال الربيع بن أنس: لم يزالوا مقيمين على الشك والريبة حتى جاءتهم البينة والرسل[2] وهذا القول يتضمن مدحهم والثناء عليهم، بعد مجيء البينة ولهذا احتاج من قاله إلى أن يقول: هذا فيمن آمن من الفريقين في أنه بيان لنعمة الله عليهم وجعلوا قوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ فيمن لم يؤمن منهم بمحمد ﷺ.

وهذا أيضاً ضعيف، فإن أهل الكتاب تفرقوا واختلفوا قبل إرسال محمد إليهم، كما أخبر الله بذلك في غير موضع، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُم بَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الجاثية] وقال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية] وقال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ [البقرة: ٢١٣] ثم قال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

فأخبر أن الله هدى المؤمنين لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه فكان الاختلاف قبل وجود أمة محمد ﷺ.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ

---

(١) كذا بالإصل وفي تفسير ابن جرير (قال: لم يكونوا لينتهوا حتى يتبين لهم الحق) بغير لفظ منافقين وليس له وجه (عبد الصمد).

(٢) قول مجاهد مرّ ذكره لكن قول الربيع لم أجده ولعله عند ابن أبي حاتم.

ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [النحل] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [يونس] ثم قال تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [يونس].

وقال تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [النحل] فقد أخبر تعالى أنه أرسل إلى أمم من قبل محمد، وأن الشيطان زين لهم أعمالهم، وهو ـ حين يبعث محمد ـ وليهم، وأنه أنزل إليهم الكتاب ليبين لهم الذي اختلفوا فيه.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [النمل] وقال لأمة محمد: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران]. فهذا بين أنهم تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات قبل محمد، وقد نهى الله أمته أن يكونوا مثلهم.

وقد قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ﴾ [المائدة: ١٤] وقال عن اليهود ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ﴾ [المائدة: ٦٤] وقال: ﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ﴾ [الأعراف: ١٦٨]. وقد جاءت الأحاديث في السنن والمسند من وجوه عن النبي ﷺ أنه قال: «تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة»(١) وإن كان بعض الناس كابن حزم يضعف هذه الأحاديث فأكثر أهل العلم قبلوها وصدقوها.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا

(١) مرّ تخريجه.

أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»[(١)].

وفي الصحيحين عنه أنه قال: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتيناه من بعدهم، فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه، فهدانا الله له. الناس لنا فيه تبع غداً لليهود، وبعد غد للنصارى»[(٢)].

وهذا معلوم بالتواتر أن أهل الكتاب اختلفوا وتفرقوا قبل إرسال محمد ﷺ، بل اليهود افترقوا قبل مجيء المسيح ثم لما جاء المسيح اختلفوا فيه، ثم اختلف النصارى اختلافاً آخر فكيف يقال: إن قوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾ هو فيمن لم يؤمن بمحمد منهم؟

وأيضاً فالذين كفروا بمحمد كفار، وهم المذكورون في قوله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾﴾ وهم تفرقوا واختلفوا فيما جاءت به الأنبياء قبل محمد، وكفر من كفر منهم قبل إرسال محمد.

وكان منهم من لم يكفر، بل كان مؤمناً بالأنبياء كما قال تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف] ﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ﴾ [الأعراف: ١٦٨] وقال تعالى: ﴿۞ لَيْسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة].

وفي صحيح مسلم وغيره عن عياض بن حمار عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب، وإن ربي قال لي: قم في قريش فأنذرهم فقلت: أي رب إذاً يثلغوا رأسي حتى يدعوه خبزة، فقال: إني مبتليك ومبتلٍ بك، ومنزل عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرؤه نائماً ويقظان، فابعث جنداً نبعث مثليهم، وقاتل بمن أطاعك من عصاك»[(٣)] والحديث أطول من هذا.

---

(١) مرّ تخريجه. (٢) مرّ تخريجه.

(٣) مسلم (٢٨٦٥).

والمقصود هنا الكلام على الآية فنقول: القول الثالث وهو أصح الأقوال لفظاً ومعنى.

أما من جهة اللفظ ودلالته وبيانه، فإن هذا اللفظ هو مستعمل فيما يلزم به الإنسان يعني اختياره ويقهر عليه إذا تخلص منه، يقال: انفك منه، كالأسير والرقيق المقهور بالرق والأسر، يقال: فككت الأسير فانفك، وفككت الرقبة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣﴾ [البلد].

وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري: «عودوا المريض، وأطعموا الجائع، وفكوا العاني»[1]. وفي الصحيح أيضاً أن علياً لما سئل عما في الصحيفة فقال: فيها العقل، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر.

ففكه: فصله عمن يقهره ويستولي عليه بغير اختياره والتفريق بينهما.

ويقال: فلان ما يفك فلاناً حتى يوقعه في كذا وكذا، والمتولي لا يفك هذا حتى يفعل كذا، يقال لمن لزم غيره واستولى عليه إما بقدرة وقهر، وإما بتحسين وتزيين وأسباب، حتى يصير بها مطيعاً له.

ويقال للمستولي عليه: هو ما ينفك من هذا، كما لا ينفك الأسير والرقيق من المستولي عليه.

فقوله: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾، أي لم يكونوا متروكين باختيار أنفسهم يفعلون ما يهوونه لا حجر عليهم كما أن المنفك لا حجر عليه، وهو لم يقل «مفكوكين» بل قال: ﴿مُنفَكِّينَ﴾. وهذا أحسن، فإنه نفي لفعلهم، ولو قال: «مفكوكين» كان التقدير: لم يكونوا مسيبين مخلين، فهو نفي لفعل غيرهم، والمقصود أنهم لم يكونوا متروكين لا يؤمرون ولا ينهون، ولا ترسل إليهم رسل، بل يفعلون ما شاؤوا مما تهواه الأنفس.

والمعنى أن الله ما يخليهم ولا يتركهم، فهو لا يفكهم حتى يبعث إليهم رسولاً، وهذا كقوله: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾ [القيامة] لا يؤمر ولا ينهى. أي أيظن أن

(١) البخاري (٣٠٤٦).

هذا يكون؟ هذا ما لا يكون البتة، بل لا بد أن يؤمر وينهى.

وقريب من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥﴾ [الزخرف] وهذا استفهام إنكار، أي لأجل إسرافكم نترك الذكر ونعرض عن إرسال الرسل، ومن كره إرسالهم؟ فإن الأول تكذيب بوجودهم، والثاني يتضمن بغضهم وكراهة ما جاؤوا به. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٩﴾ [محمد] وقال عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ۝٣٤﴾ [غافر]. وأما من كذب بهم بعد الإرسال فكفره ظاهر، ولكن من ظن أن الله لا يرسل إليه رسولاً، وأنه يترك سدى مهملاً لا يؤمر ولا ينهى، فهذا أيضاً مما ذمه الله، إذا[1] كان لا بد من إرسال الرسل وإنزال الكتب، كما أنه أيضاً لا بد من الجزاء على الأعمال بالثواب والعقاب وقيام القيامة.

ولهذا ينكر سبحانه على من ظن أن ذلك لا يكون، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ۝٢٧ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ۝٢٨﴾ [ص] وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥﴾ [المؤمنون] وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ۝٨٥ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨٦﴾ [الحجر] وقال: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٢٢﴾ [الجاثية] وقال عن أولي الألباب: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٩١﴾ [آل عمران] ونحوه في القرآن مما يبين أن الأمر والنهي، والثواب والعقاب، والمعاد مما لا بد منه، وينكر على من ظن أو حسب أن ذلك لا يكون، وهو يقتضي وجوب[2] وقوع ذلك، وأنه يمتنع أن لا يقع. وهذا متفق عليه بين أهل الملل المصدقين للرسل من المسلمين وغيرهم من جهة تصديق الخبر. فإن الله أخبر بذلك، وخبره صدق، فلا بد من وقوع

---

(١) كذا في الأصل، ولعل الصواب: إذ. (٢) في الأصل (وجود) عبد الصمد.

مخبره، وهو واجب بحكم وعده وخبره، فإنه إذا علم[١] أن ذلك سيكون، وأخبر أنه سيكون، فلا بد أن يكون، فيمتنع أن يكون شيء على خلاف ما علمه وأخبر به، وكتبه وقدره.

وأيضاً فإنه قد شاء ذلك، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا بد أن يقع كل ما شاءه.

والمقصود هنا أن هذه السورة دلت على ما تدل عليه مواضع أخر من القرآن، من أن الله يرسل الرسل إلى الناس تأمرهم وتنهاهم يرسلهم مبشرين ومنذرين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام: ٤٨] ينذرون الذين أساؤوا عقوبات أعمالهم، ويبشرون الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالنعيم المقيم، و﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣﴾ [الكهف].

فقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١﴾ بيان منه أن الكفار لم يكن الله ليدعهم ويتركهم على ما هم عليه من الكفر، بل لا يفكهم حتى يرسل إليهم الرسول بشيراً ونذيراً ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

ومما يبين ذلك أن «حتى» حرف غاية، وما بعد الغاية يخالف ما قبلها، كما في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧] وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٠] ونظائر ذلك.

فلو أريد أنهم لم يكونوا منتهين ويؤمنون حتى يتبين لهم الحق لزم أن يكونوا كلهم بعد مجيء البينة قد انتهوا وآمنوا فإن اللفظ عام فيهم. وكذلك لو كان المراد أنهم كانوا متفقين على تصديق الرسول حتى بعث لزم أن يكونوا كلهم كانوا يعرفونه قبل إرساله إليهم، وأنهم كلهم بعد إرساله تفرقوا واختلفوا، وكلاهما باطل، فكثير منهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني، ولم يكونوا يعرفون ما في الكتب من بعثه ومن أمور أخر، ولما بعث فقد آمن به خلق كثير منهم، ولم يتفرقوا كلهم عن الإيمان به.

---

(١) في الأصل (إذا علم من ذلك) عبد الصمد.

وحينئذ فالآية لم تتضمن مدحهم مطلقاً، كما ظن من ظن أن معناها أنهم لم ينتهوا ولم يؤمنوا حتى يتبين لهم الحق ولا تتضمن ذمهم مطلقاً، كما ظن من ظن أنهم لما جاءهم الرسول تفرقوا واختلفوا بعد ما كانوا متفقين على التصديق، بل تضمنت[1] مدح من آمن منهم بالرسول، وذم من لم يؤمن، والإخبار أنه لا بد من إرسال الرسول إليهم فيؤمن به بعضهم ويكفر بعض.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة].

ثم إن الذين آمنوا بالرسل لا بد أن يمتحنهم ليميز بين الصادق والكاذب كما قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت].

ثم قال: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾ [العنكبوت].

فالناس إذا أرسل إليهم أحد رجلين: إما رجل آمن بهم في الظاهر، فلا بد أن يمتحن حتى يتبين الصادق من الكاذب وإما رجل عمل السيئات ولم يؤمن، فلا يفوت الله، بل هو آخذه ﷻ.

ولهذا انقسم الناس في الرسل إلى ثلاثة أقسام مؤمن باطن وظاهر، وكافر مظهر للكفر، ومنافق مظهر للإيمان مبطن للكفر، ومن حين هاجر النبي ﷺ إلى المدينة حصل هذا الانقسام، وأنزل الله تعالى في أول البقرة أربع آيات في صفة المؤمنين، وآيتين في صفة الكافرين، وبضع عشرة آية في صفة المنافقين.

وأما حين كان بمكة وكان المؤمنون مستضعفين، فلم يكن أحد يحتاج إلى النفاق، بل كان من المؤمنين من يكتم إيمانه من كثير من الناس. ومنهم من يتكلم بالكفر مكرهاً

---

(١) في الأصل «تضمن» (عبد الصمد).

مع طمأنينة قلبه بالإيمان، وهذا مؤمن باطناً وظاهراً، فإنه وإن أظهر الكفر لبعض الناس لما أكره عليه، أو كتم عنه إيمانه، فهو يتكلم بالإيمان في خلوته ومع من يأمنه، ويعمل بما يمكنه، وما عجز عنه فقد سقط عنه.

ولهذا قال العلماء، منهم أحمد بن حنبل: لم يكن يمكنهم نفاق، إنما كان النفاق بالمدينة.

ولكن كان بمكة من في قلبه مرض، كما قال في السورة المكية ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ﴾ [المدثر: ٣١] وهو سبحانه قد ذكر أن المظهرين للإيمان ما كان ليدعهم حتى يميز الخبيث من الطيب ويمتحنهم، كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ﴾ [آل عمران: ١٧٩] وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التوبة]. وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة] وأمثال ذلك.

فكذلك الذين كفروا لم يكن ليتركهم حتى يبعث إليهم الرسول بالآيات البينات، فهذا معنى قوله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾﴾. وهم إذا جاءتهم البينة منهم من يؤمن ومنهم من يكفر.

وإذا قيل: إن الآية تتضمن بعد ذلك المعنى الآخر، وهو أنهم لم يكونوا ليهتدوا ويعرفوا الحق ويؤمنوا حتى تأتيهم البينة، إذ لا طريق لهم إلى معرفة الحق إلا برسول يأتي من الله أيضاً، أو لم يكونوا منتهين متعظين وإن عرفوا الحق حتى يأتيهم من الله من يذكرهم، فهذا المعنى لا يناقض ذاك.

بخلاف قول من قال: لم يكن المشركون وأهل الكتاب تاركين لمعرفة محمد ولذكره، ولم يكونوا متفرقين فيه بل متفقين على الإيمان به، حتى جاءتهم البينة، فتركوا الإيمان به وتفرقوا، فإن هذا غير مراد قطعاً.

ومما يبين ذلك قوله: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ ولم يقل «حتى أتتهم» وأولئك لما لم

يفهموا معنى الآية ظنوا أن الموضع موضع الماضي، وأن المراد: ما انفكوا عما كانوا عليه إما من كفر، وإما من إيمان ـ حتى أتتهم البينة ـ فلما قيل: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ أشكل عليهم وقال بعضهم : لما تأتهم كلها.

وأما على المعنى الصحيح فالموضع موضع المضارع كقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩] فإن المراد: ما كانوا مفكوكين متروكين حتى تأتيهم البينة.

وهو سبحانه قال: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ و﴿لَمْ﴾ وإن كانت تقلب المضارع ماضياً فذاك إذا تجرد، فقيل «لم يأت» و«لم يذهب» فمعناه «ما أتى» و«ما ذهب».

وأما إذا قيل «لم يكن يفعل هذا» و﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا﴾ [النساء: ١٣٧] فالمقصود معنى الفعل الدائم مطلقاً، وإذا قيل لم يكن فلان آتياً حتى يذهب إليه فلان «بخلاف ما إذا قلت: لم يكن فلان قد أتى حتى ذهب إليه فلان» ولو قيل ما كان فلان فاعلاً لهذا حتى يكون كذا كان نحو ذاك بخلاف ما إذا قيل «ما كان فلان قد فعل حتى أتى فلان».

فنفىٰ المضارع الذي خبره اسم فاعل وهو الدائم، والمراد: لم يكونوا في الحال والاستقبال متروكين حتى تأتيهم البينة، ولو قيل هنا (حتى أتتهم البينة) لم يكن موضعه.

وكذلك لو أراد الانتهاء عن الكفر والإيمان لقيل ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾[(١)] أي لم يكونوا يعرفون الحق حتى يأتيهم نبي يعرفهم، أو لم يكونوا متعظين عاملين حتى يأتي من يعظهم ويذكرهم، فليس هذا موضع الماضي، بخلاف ما لو قيل (ما زالوا كافرين حتى أتاهم).

فالآية تتضمن الإخبار عن وجوب إثبات البينة، وامتناع الانفكاك بدونها، لم يقصد بها مجرد الخبر عن عدم الانفكاك ثم ثبوته في الماضي، وهو كما لو قيل «لم يكونوا ينفكون حتى تأتيهم البينة» لكن هنا ذكر اسم الفاعلين، فقيل: ﴿مُنفَكِّينَ﴾.

---

(١) كذا في الأصل، ولعل مراد الشيخ تذكير الفعل بدل تأنيثه.

وهو سبحانه لما ذكر أنه لا بد من إرسال الرسل إلى الذين كفروا من المشركين وأهل الكتاب لتقوم عليهم الحجة بذلك [ذكر] بعد هذا أن أهل الكتاب الذين آمنوا بالرسل ما تفرقوا إلا من بعد ما جاءتهم البينة، وقامت عليهم الحجة، فبينات الله وحجته قامت على هؤلاء وهؤلاء.

وهو لم يعذب واحداً من الحزبين إلا بعد أن جاءتهم البينة وقامت عليهم الحجة، كما في قصة موسى ومن أرسل إليه، فإن الله لم يدع فرعون وقومه حتى أرسل إليهم موسى، ولم يعذبهم إلا بعد إقامة الحجة، ثم لما آمن بنو إسرائيل بالكتب والرسل لم يتفرقوا ويختلفوا إلا من بعد ما جاءتهم البينة، فلم يكونوا معذورين في ذلك.

ولهذا نهيت أمة محمد عن التشبه بهم، فقيل: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

والناس الذين بعث إليهم محمد هم كذلك، فمن كان كافراً لم يكن منفكاً حتى تأتيه البينة، ومن آمن بمحمد من الأمم ثم تفرقوا واختلفوا فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءتهم البينة.

وما أمر الجميع ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾.

والآية تضمنت مدح الرب وذكر حكمته وعدله وحجته في أنه لا يدعهم حتى يرسل إليهم رسولاً، كما قال لأهل الكتاب: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ الآية [المائدة: ١٩]، لم تتضمن مدحهم على بقائهم على الكفر حتى يأتي الرسول فإن هذا غايته أن لا يعاقبوا عليه حتى يأتي الرسول، لا أن يحمدوا عليه حتى يأتي الرسول، فإن هذا لا يقوله عاقل، ولم يقله أحد، لا سيما وأهل الكتاب قد قامت عليهم الحجة بأنبياء قبله.

ونظير هذا في اللفظ قوله: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ [النحل: ٧]. ليس المراد: ما كنتم بالغيه في الماضي، بل هذه حالهم دائماً.

فقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ﴾ يقتضي أن هذه حالهم دائماً.

وتضمنت السورة ذكر أصناف الخلق، وما أمر الله به جميع العباد، وأن ذلك أمر لا بد منه، لا بد من إرسال الرسل وإنزال الكتب وبيان السعداء أهل الجنة، والأشقياء أهل النار.

فقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢﴾ جملة فيه بيان إرسال [الرسول] إلى الجميع وقوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤﴾ فيه إقامة الحجة على أهل الشرائع، وذم تفرقهم واختلافهم، وأن ذلك بعد أن جاءتهم البينة. وهاتان الجملتان نظيرهما قوله: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ ثم قال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢١٣].

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ۝١٣﴾ [الشورى] ثم قال: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ۝١٤﴾ [الشورى] وقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ۝١١٠﴾ [هود].

ثم ذكر ما أمر به الجميع بقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾. ثم ذكر عاقبة الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، وعاقبة الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

فصل

وقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١﴾ قال طائفة من المفسرين: هو تفرقهم في محمد بعد أن كانوا مجتمعين على الإيمان به.

ثم من هؤلاء من جعل تفرقهم إيمان بعضهم وكفر بعض. قال البغوي: ثم ذكر

من لم يؤمن من أهل الكتاب فقال: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾ أي البيان في كتبهم أنه نبي مرسل. قال المفسرون: لم يزل أهل الكتاب مجتمعين في تصديق محمد حتى بعثه الله فلما بعث تفرقوا في أمره واختلفوا فآمن به بعضهم وكفر به بعضهم.

وهكذا ذكر طائفة في قوله: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ [يونس: ٩٣] قال أبو الفرج: قال ابن عباس: ما اختلفوا في أمر محمد، لم يزالوا به مصدقين حتى جاءهم العلم، يعني القرآن، وروي عنه: حتى جاءهم العلم، يعني محمداً. فعلى هذا يكون العلم هنا عبارة عن المعلوم، وبيان هذا أنه لما جاءهم اختلفوا في تصديقه، فكفر به أكثرهم بغياً وحسداً بعد أن كانوا مجتمعين على تصديقه، بغياً وحسداً[١].

ومنهم من جعل المتفرقين كلهم كفاراً، قال ابن عطية: ثم ذكر تعالى مذمة من لم يؤمن من أهل الكتاب من بني إسرائيل من أنهم لم يتفرقوا في أمر محمد إلا من بعد أن رأوا الآيات الواضحة، وكانوا من قبل متفقين على نبوته وصفته فلما جاء من العرب حسدوه[٢]. وكذلك قال الثعلبي: ما تفرق الذين أوتوا الكتاب في أمر محمد فكذبوه إلا من بعد ما جاءتهم البينة ـ البيان في كتبهم أنه نبي مرسل. قال العلماء: من أول هذه السورة إلى قوله: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾﴾ حكمها فيمن آمن من أهل الكتاب والمشركين، ﴿وَمَا تَفَرَّقَ﴾ حكمه فيمن لم يؤمن من أهل الكتاب بعد قيام الحجة عليه.

وكذلك قال أبو الفرج قال: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ يعني من لم يؤمن ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ وفيها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه محمد والمعنى لم يزالوا مجتمعين على الإيمان به حتى بعث قاله الأكثرون.

والثاني: القرآن، قاله أبو العالية.

والثالث: ما في كتبهم من بيان نبوته، ذكره الماوردي[٣].

---

(١) قوله: (بغياً وحسداً) في المطبوع (قبل ظهوره) وهو أصوب.

(٢) ابن عطية (١٦/ ٣٤٤).

(٣) زاد المسير (٩/ ١٩٧).

قلت: هذا هو الذي قطع به أكثر المفسرين، ولم يذكر الثعلبي، والبغوي وغيرهما سواه.

وأبو العالية إنما قال: الكتاب، لم يقل: القرآن هكذا رواه ابن أبي حاتم بالإسناد المعروف عن الربيع بن أنس: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ قال: قال أبو العالية: الكتاب، ومراد أبي العالية جنس الكتاب فيتناول الكتاب الأول كما قال: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ﴾ [هود: ١١٠] في موضعين من القرآن وقال تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾ [البقرة: ٢١٣] ثم قال: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وهذا التفسير معروف عن أبي العالية ورواه عن أبي بن كعب. ورواه ابن أبي حاتم وغيره عن الربيع عن أبي العالية، عن أبي بن كعب أنه كان يقرؤها: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فاختلَفوا فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشّرين ومُنذِرينَ﴾ وأن الله إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب عند الاختلاف، ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ قال: أنزل الكتاب عند الاختلاف ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ يعني بني إسرائيل أوتوا الكتاب والعلم ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ﴾ يقول بغياً على الدنيا وطلب ملكها وزخرفها وزينتها أيهم يكون له الملك والمهابة في الناس فبغى بعضهم على بعض، وضرب بعضهم رقاب بعض ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ﴾، يقول: فهداهم الله عند الاختلاف أنهم أقاموا على ما جاءت به الرسل قبل الاختلاف أقاموا على الإخلاص لله وحده، وعبادته لا شريك له، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأقاموا على الأمر الأول الذي كان قبل الاختلاف، واعتزلوا الاختلاف، فكانوا شهداء على الناس يوم القيامة كانوا شهداء على قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم شعيب، وآل فرعون أن رسلهم قد بلغتهم وأنهم كذبوا رسلهم. قلت: الاختلاف في كتاب الله نوعان: أحدهما يذم فيه المختلفين كلهم، كقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۢ بَعِيدٖ﴾ [البقرة: ١٧٦] وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ﴾ [هود]. والثاني يمدح المؤمنين ويذم الكافرين، كقوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ

﴿ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣] وقوله: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الحج: ١٩ ـ ٢٣] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحج] وإذا كان كذلك فالذي ذمه من تفرق أهل الكتاب واختلافهم ذم فيه الجميع ونهى عن التشبه بهم، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ﴾ [آل عمران: ١٠٥]. وقال: ﴿ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا﴾ [البقرة: ٢١٣].

وذلك بأن تؤمن طائفة ببعض حق وتكفر بما عند الأخرى من الحق، وتزيد في الحق باطلاً، كما اختلف اليهود والنصارى في المسيح وغير ذلك.

وحينئذ نقول: من قال إن أهل الكتاب ما تفرقوا في محمد إلا من بعد ما بعث، إرادة إيمان بعضهم وكفر بعضهم كما قاله طائفة فالمذموم هنا من كفر، لا من آمن، فلا يذم كل المختلفين، ولكن يذم من كان يعرف أنه رسول، فلما جاء كفر به حسداً أو بغياً، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة].

وإن أريد بالتفرق فيه أنهم كلهم كفروا به وتفرقت أقوالهم فيه فليس الأمر كذلك، وقد بين القرآن في غير موضع أنهم تفرقوا واختلفوا قبل إرسال محمد ﷺ، فاختلاف هؤلاء وتفرقهم في محمد ﷺ هو من جملة ما تفرقوا واختلفوا فيه. والله أعلم(١).

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٤٨٠ ـ ٥١٦).

سورة الزلزلة

وقال في فضل السورة:

(وأما حديث (الزلزلة) و(قل يا أيها الكافرون) فروى الترمذي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ إذا زلزلت عدلت له نصف القرآن ومن قرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ①﴾ [الكافرون] عدلت له ربع القرآن» وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا زلزلت تعدل نصف القرآن وقل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن[١]» رواهما الترمذي وقال عن كل منهما: غريب) ا.هـ[٢].

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ④ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ⑤﴾.

(وهذا بخلاف قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ④ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ⑤﴾ فإنها أمور مشهودة يعرفها الناس لكن العجب كون الأرض تخبر بذلك فالعجب في المخبر لا في الخبر كشهادة الأعضاء) ا.هـ[٣].

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ⑦ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ⑧﴾.

(قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ⑦ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ⑧﴾ فمن كان مؤمناً وعمل عملاً صالحاً لوجه الله تعالى فإن الله لا يظلمه بل يثيبه عليه) ا.هـ[٤].

وقال رحمه الله: (لقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ⑦ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ⑧﴾ والعبد إذا اجتمع له سيئات وحسنات فإنه وإن

---

(١) حديث أنس بن مالك رواه الترمذي (٢٨٩٣) والحديث وحسن، وحديث ابن عباس رواه الترمذي (٢٨٩٤) وسنده صحيح.

(٢) مجموع الفتاوى (١٧/٨). (٣) النبوات (٢٢٢).

(٤) مجموع الفتاوى (١١/ ٦٦١).

استحق العقاب على سيئاته فإن الله يثيبه على حسناته ولا يحبط حسنات المؤمن لأجل ما صدر منه، وإنما يقول بحبوط الحسنات كلها بالكبيرة الخوارج والمعتزلة الذين يقولون بتخليد أهل الكبائر، وأنهم لا يخرجون منها بشفاعة ولا غيرها وأن صاحب الكبيرة لا يبقى معه من الإيمان شيء وهذه أقوال فاسدة، مخالفة للكتاب، والسنة المتواترة، وإجماع الصحابة) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (لا يحاسب العباد إلا هو وحده، وهو الذي يجازيهم بأعمالهم ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾) ا.هـ[٢].

(١) مجموع الفتاوى (٣٥/٦٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٥/٣٧).

سورة العاديات

وفي نزول السورة وتفسير العاديات فقال:

(وسورة ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾ فيها قولان: أحدهما: أنها نزلت بمكة، وهذا يروى عن ابن مسعود وعكرمة وعطاء وغيرهم، فعلى هذا يظهر كذب هذا القول. والثاني: أنها نزلت بالمدينة[١] وهو مروي عن ابن عباس وقتادة. وهذا القول يناسب قول من فسر ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾ بخيل المجاهدين، لكن المشهور عن علي المنقول عنه في كتب التفسير أنه كان يفسر ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾ بإبل الحجاج وَعَدْوِها من مزدلفة إلى منى. وهذا يوافق القول الأول، فيكون على ماقاله علي يكذب هذا القول. وكان ابن عباس والأكثرون يفسرونها بالخيل العاديات في سبيل الله[٢]) ا.هـ[٣].

(١) القولان في زاد المسير (٩/ ٢٠٦).
(٢) الأقوال كلها في زاد المسير (٩/ ٢٠٦).
(٣) منهاج السنة (٨/ ١١٧).

سورة القارعة

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾﴾.

(فإن المقصود أنه نطق الكتاب والسنة وأقوال السلف بوزن الحسنات والسيئات: دل على قول من قال: بذهاب بعض الحسنات بالسيئات كما يذهب بعض السيئات بالحسنات، وعن ابن عباس توزن الحسنات والسيئات في ميزان له كفتان فأما المؤمن فيؤتى بعمله في أحسن صورة فيوضع في كفة الميزان، ـ وهو الحق ـ فتثقل حسناته على سيئاته، فيوضع عمله في الجنة فيعرفها بعمله فذلك قوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [المؤمنون] أي الناجحون وهم أعرف بمنازلهم في الجنة إذا انصرفوا إليها من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم، وأما الكفار فيؤتى بأعمالهم في أقبح صورة فتوضع في كفة الميزان وهي الباطل فيخف وزنه حتى يقع في النار ثم يقال له: الحق بعملك[(١)].

وهو سبحانه ذكر من ثقلت موازينه فدخل الجنة، ومن خفت موازينه فدخل [النار] على طريقة القرآن في ذكر أهل الوعد المحض، وأهل الوعيد المحض، كما قال أبو بكر الصديق: إن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق وثقله عليهم، وحُق لميزان يوضع فيه الحق أن يكون ثقيلاً، وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم، وحُق لميزان يوضع فيه الباطل أن يكون خفيفاً[(٢)].

وأما من كان داخلاً في الوعد والوعيد: فمذهب الصحابة والتابعين وأهل السنة

---

(١) القرطبي في تفسيره (٧/ ١٦٦).

(٢) ابن أبي شيبة في المصنف (١٤/ ٥٧٢) وابن جرير في تهذيب الآثار (٢/ ٩٢٥) وابن سعد في الطبقات (٣/ ٢٧٤) وأخرج هذه الوصية ابن زبر الربعي في وصايا العلماء (٣٢ ـ ٣٥).

والجماعة: أنه يستحق الثواب والعقاب جميعاً، فإذا عذبه الله بذنبه ما شاء أن يعذبه، أخرج بعد ذلك من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

ومذهب الخوارج والمعتزلة: يأثم إلا مستحق للوعد فقط، منعم لا يعذب أو مستحق للوعيد فقط معذب لا ينعم. وقد بسطنا القول عليهم في غير هذا الموضع[١].

ولهذا قالوا بالإحباط المطلق الذي لا يبقى معه حسنة. وإذا كانت النصوص وإجماع السلف دل على أن من الناس من ينعم ويعذب، وأن فيه بعض الإيمان فهذا إذا كانت له حسنات كثيرة وسيئات كثيرة، يكون سيئاته أبطلت بقدرها من حسناته، وإذا ترجحت سيئاته دخل النار، ولا يلزم من رجحان السيئات أن تكون الحسنات قد بطلت حتى يصير لا حسنة له بحال الكفار، فإن الموزون هي الأعمال المصورة، وصحفها تدل على أن له حسنات وسيئات، وأما من لا حسنة له بحال فذاك ميزانه خفيفة، خفة مطلقة ليس فيها شيء من الحسنات التي تثقل بها، فإن الخفة والثقل إنما هو في الحسنات، والتي يفلح صاحبها إذا ثقلت كفتها، ويخسر إذا خفت، فإذا قدر حسنات محضة ليس بإزائها سيئات فهذه في غاية الثقل، وإذا قدر سيئات محضة ليس بإزائها حسنات فهذه في غاية الخفة. وقال أبو بكر الصديق في وصيته لعمر رضي الله عنهما: واعلم أنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم باتباعهم الحق، وثقل ذلك عليهم، وحق لميزان يوضع فيه الحق غداً أن يكون ثقيلاً، وإنما خفت موازين من خفت موازينه باتباعهم الباطل، وخفِّه[٢] عليهم، وحق لميزان يوضع فيه الباطل أن يكون خفيفاً.

والوزن على وجهين: أحدهما: أن يوضع بإزاء الحسنات والسيئات ما يعرف مقدارها، وثقلها وخفتها، كما توزن الأموال، ثم ينظر بعد هذا في مقادير الموزونات وتعادلها وتفاضلها.

والثاني: أن يوزن أحدهما بالآخر كما يوزن دراهم زيد بدراهم عمرو، وإذا بيع أحدهما بالآخر مثلاً بمثل، فهذا الوزن الذي يدل عليه حديث البطاقة حيث قيل فيه، فتوضع البطاقة في كفة، والسجلات في كفة فثقلت البطاقة وطاشت السجلات، ووصف

---

(١) ذكر ذلك في كتابه القيم «الإيمان» فليراجع.

(٢) مصدر خفَّ يَخِفُّ.

الميزان بالثقل والخفة مطلقاً من غير وصف بالثقل بأنه الحسنات ولا وصف رجحان هذا الموزون على هذا الموزون دل على أن الحسنات لها ثقل.

وأما السيئات فلا ثقل لها أصلاً، فإذا لم يوضع في الميزان إلا السيئات لم يكن لها ثقل بل تكون خفيفة خفة مطلقة، وإنما يكون ثقل إذا كان فيها حسنات، والحسنات نور مصور، والسيئات ظلمة، ولهذا قال الصديق: وحق لميزان يوضع فيه الباطل أن يكون خفيفاً، فالكافر الذي ليس له إلا السيئات يكون ميزانه خفيفاً خفة مطلقة. وأما المسلم الذي له حسنات وسيئات، وسيئاته أكثر فيخف ميزانه لما يوزن فيه من السيئات الزائدة، وهذا هو الذي يعذب ثم يخرج من النار.

والميزان يوصف تارة بالثقل والخفة، وتارة برجحان أحد الجانبين على الآخر، وهذا إنما يكون فيما إذا اشترك المتقابلان في الثقل واختص أحدهما بمزيد الثقل، كالموزونات بميزان الكفتين فإنه يكون في أحدهما مَاْ لَهُ ثقل وفي الأخرى مَاْ لَهُ ثقل. فإما أن يتساويا، أو يرجح أحدهما على الآخر. وهذا كما في الحديث «رأيت كأني جُعلت في كفة والأمة في كفة فرجحت بالأمة، ثم جُعل أبو بكر في كفة والأمة في كفة فرجح أبو بكر، ثم ذكر مثل ذلك في عمر»[(١)].

فإذا وزن حسنات شخصين، قيل حسنات أحدهما أرجح، كذلك لو وزن ثواب عملين قيل ثواب هذا العمل أرجح، والله تعالى لم يصف الموازين بالرجحان وإنما وصفها بالخفة والثقل، فالحسنات لها ثقل، وأما السيئات فلا ثقل لها أصلاً، فإذا وزنت الحسنات بالسيئات لم يكن أن يثقل جانب السيئات على ما في الميزان، لأنه كان يكون الثقيل مذموماً، والقرآن لم يجعل الثقل إلا محموداً. ولم يقل في القرآن فمن رجحت حسناته ومن رجحت سيئاته بل قال: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [المؤمنون: ١٠٢]، ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [المؤمنون: ١٠٣]) ا.هـ[(٢)].

---

(١) أبو داود (٤٦٣٤) بلفظ «من رأى منكم رؤيا فقال رجل أنا رأيت كأن ميزاناً نزل من السماء فوزنت أنت وأبو بكر، فرجحت أنت بأبي بكر. والترمذي (٢٢٨٨) وأحمد (٢/٧٦، ٥/٤٤) والنسائي في فضائل الصحابة (ح٣٣).

(٢) رسالة تزكية النفس (٧٠ ـ ٧٥) تحقيق: محمّد بن سعيد القحطاني.

سورة التكاثر

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾.

(وقد ذكر طائفة من العلماء في قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ أنهم كانوا يتكاثرون بقبور الموتى وممن ذكره ابن عطية[1] في تفسيره قال: وهذا تأنيب على الإكثار من زيارة القبور أي حتى جعلتم أشغالكم القاطعة لكم عن العبادة والعلم زيارة القبور تكثراً بمن سلف وإشادة بذكره ثم قال النبي ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ولا تقولوا هجراً»[2] فكان نهيه في معنى الآية ثم أباح الزيارة بعد لمعنى الاتعاظ لا لمعنى المباهاة والتفاخر وتسنيمها بالحجارة الرخام وتلوينها سرفاً وبنيان النواويس عليها هذا لفظ ابن عطية) ا.هـ[3].

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾.

(سئل شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية رحمه الله عن قوله تعالى: ﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥] و﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ و﴿عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ فما معنى كل مقام منها؟ وأي مقام أعلى؟

فأجاب: الحمد لله رب العالمين. للناس في هذه الأسماء مقالات معروفة.

(منها): أن يقال: ﴿عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ ما علمه بالسماع والخبر والقياس والنظر و﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ ما شاهده وعاينه بالبصر و﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ ما باشره ووجده وذاقه وعرفه بالاعتبار.

فالأول: مثل من أخبر أن هناك عسلاً وصدق المخبر أو رأى آثار العسل فاستدل على وجوده.

---

(١) ابن عطية (١٦/٣٥٨ ـ ٣٥٩).
(٢) النسائي (٨/ ٣١١) ابن ماجه (١٥٧١) والبيهقي (٤/ ٧٦) والحديث الصحيح.
(٣) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٣٧٥ ـ ٣٧٦).

والثاني: مثل من رأى العسل وشاهده وعاينه وهذا أعلى كما قال النبي ﷺ: «ليس المخبر كالمعاين»(١).

والثالث: مثل من ذاق العسل ووجد طعمه وحلاوته ومعلوم أن هذا أعلى مما قبله؛ ولهذا يشير أهل المعرفة إلى ما عندهم من الذوق والوجد كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ومن كان يكره أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»(٢) وقال ﷺ: «ذاق طعم الإيمان: من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً»(٣) فالناس فيما يجده أهل الإيمان ويذوقونه من حلاوة الإيمان وطعمه على ثلاث درجات:

الأولى: من علم ذلك مثل من يخبره به شيخ له يصدقه أو يبلغه ما أخبر به العارفون عن أنفسهم أو يجد من آثار أحوالهم ما يدل على ذلك.

والثانية: من شاهد ذلك وعاينه مثل أن يعاين من أحوال أهل المعرفة والصدق واليقين ما يعرف به مواجيدهم وأذواقهم وإن كان هذا في الحقيقة لم يشاهد ما ذاقوه ووجدوه ولكن شاهد ما دل عليه لكن هو أبلغ من المخبر والمستدل بآثارهم.

والثالثة: أن يحصل له من الذوق والوجد في نفسه ما كان سمعه كما قال بعض الشيوخ: لقد كنت في حال أقول فيها إن كان أهل الجنة في الجنة في مثل هذا الحال إنهم لفي عيش طيب، وقال آخر: إنه ليمر على القلب أوقات يرقص منها طرباً، وقال الآخر: لَأَهْلُ الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم.

والناس فيما أخبروا به من أمر الآخرة على ثلاث درجات:

«إحداهما»: العلم بذلك لما أخبرتهم الرسل وما قام من الأدلة على وجود ذلك.

و«الثانية»: إذا عاينوا ما وعدوا به من الثواب والعقاب والجنة والنار.

و«الثالثة»: إذا باشروا ذلك: فدخل أهل الجنة الجنة، وذاقوا ما كانوا يوعدون

---

(١) مرّ تخريجه. (٢) مرّ تخريجه.
(٣) مرّ تخريجه.

ودخل أهل النار النار وذاقوا ما كانوا يوعدون فالناس فيما يوجد في القلوب وفيما يوجد خارج القلوب على هذه الدرجات الثلاث.

وكذلك في أمور الدنيا: فإن من أخبر بالعشق أو النكاح ولم يره ولم يذقه كان له علم به فإن شاهده ولم يذقه كان له معاينة له فإن ذاقه بنفسه كان له ذوق وخبرة به، ومن لم يذق الشيء لم يعرف حقيقته؛ فإن العبارة إنما تفيد التمثيل والتقريب، وأما معرفة الحقيقة فلا تحصل بمجرد العبارة إلا لمن يكون قد ذاق ذلك الشيء المعبر عنه وعرفه وخبره؛ وبهذا يسمون أهل المعرفة لأنهم عرفوا بالخبرة والذوق ما يعلمه غيرهم بالخبر والنظر وفي الحديث الصحيح: «إن هرقل ملك الروم سأل أبا سفيان بن حرب فيما سأله عنه من أمور النبي ﷺ قال: فهل يرجع أحد منهم عن دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه؟ قال: لا قال: وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته لا يسخطه أحد»[1].

فالإيمان إذا باشر القلب وخالطته بشاشته لا يسخطه القلب بل يحبه ويرضاه فإن له من الحلاوة في القلب واللذة والسرور والبهجة ما لا يمكن التعبير عنه لمن لم يذقه والناس متفاوتون في ذوقه والفرح والسرور الذي في القلب له من البشاشة ما هو بحسبه وإذا خالطت القلب لم يسخطه قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس] وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ [الرعد: ٣٦] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة] فأخبر سبحانه أنهم يستبشرون بما أنزل من القرآن والاستبشار هو الفرح والسرور وذلك لما يجدونه في قلوبهم من الحلاوة واللذة والبهجة بما أنزل الله.

و(اللذة) أبداً تتبع المحبة فمن أحب شيئاً ونال ما أحبه وجد اللذة به فالذوق هو إدراك المحبوب اللذة الظاهرة كالأكل مثلاً: حال الإنسان فيها أنه يشتهي الطعام ويحبه ثم يذوقه ويتناوله فيجد حينئذ لذته وحلاوته وكذلك النكاح وأمثال ذلك.

وليس للخلق محبة أعظم ولا أكمل ولا أتم من محبة المؤمنين لربهم وليس في الوجود ما يستحق أن يحب لذاته من كل وجه إلا الله تعالى، وكل ما يُحَبُّ سواه

---

(١) حديث هرقل وكلامه مع أبي سفيان في البخاري معروف.

فمحبته تبع لحبه؛ فإن الرسول عليه الصلاة والسلام إنما يُحَبُّ لأجل الله ويطاع لأجل الله ويتبع لأجل الله كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] وفي الحديث «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبوني لحب الله وأحبوا أهل بيتي لحبي»[١] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤] وقال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»[٢] وفي حديث الترمذي وغيره: «من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان»[٣] وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] فالذين آمنوا أشد حباً لله من كل محب لمحبوبه وقد بسطنا الكلام على هذا في مواضع متعددة.

و(المقصود هنا) أن أهل الإيمان يجدون بسبب محبتهم لله ولرسوله من حلاوة الإيمان ما يناسب هذه المحبة؛ ولهذا علق النبي ﷺ ما يجدونه بالمحبة فقال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»[٤].

ومن ذلك ما يجدونه من ثمرة التوحيد والإخلاص والتوكل والدعاء لله وحده فإن الناس في هذا الباب على ثلاث درجات:

«منهم» من علم ذلك سماعاً واستدلالاً.

و«منهم» من شاهد وعاين ما يحصل لهم.

و«منهم» من وجد حقيقة الإخلاص والتوكل على الله والالتجاء إليه والاستعانة به وقطع التعلق بما سواه وجرب من نفسه أنه إذا تعلق بالمخلوقين ورجاهم وطمع فيهم أن يجلبوا له منفعة أو يدفعوا عنه مضرة فإنه يخذل من جهتهم؛ ولا يحصل مقصوده بل قد يبذل لهم من الخدمة والأموال وغير ذلك ما يرجو أن ينفعوه وقت حاجته إليهم فلا

---

(١) الترمذي (٣٧٨٩)، الحاكم (٣/ ١٥٠) وهو حديث ضعيف.

(٢) مرّ تخريجه. (٣) مرّ تخريجه.

(٤) مرّ تخريجه.

ينفعونه: إما لعجزهم وإما لانصراف قلوبهم عنه وإذا توجه إلى الله بصدق الافتقار إليه واستغاث به مخلصاً له الدين أجاب دعاءه، وأزال ضرره وفتح له أبواب الرحمة فمثل هذا قد ذاق [مِنْ] حقيقة التوكل والدعاء لله ما لم يذق غيره وكذلك من ذاق طعم إخلاص الدين لله وإرادة وجهه دون ما سواه؛ يجد من الأحوال والنتائج والفوائد ما لا يجده من لم يكن كذلك.

بل من اتبع هواه في مثل طلب الرئاسة والعلو وتعلقه بالصور الجميلة أو جمعه للمال يجد في أثناء ذلك من الهموم والغموم والأحزان والآلام وضيق الصدر ما لا يعبر عنه وربما لا يطاوعه قلبه على ترك الهوى ولا يحصل له ما يسره؛ بل هو في خوف وحزن دائماً إن كان طالباً لما يهواه فهو قبل إدراكه حزين متألم حيث لم يحصل فإذا أدركه كان خائفاً من زواله وفراقه.

وأولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؛ فإذا ذاق هذا أو غيره حلاوة الإخلاص لله والعبادة له وحلاوة ذكره ومناجاته. وفهم كتابه وأسلم وجهه لله وهو محسن بحيث يكون عمله صالحاً ويكون لوجه الله خالصاً؛ فإنه يجد من السرور واللذة والفرح ما هو أعظم مما يجده الداعي المتوكل الذي نال بدعائه وتوكله ما ينفعه من الدنيا أو اندفع عنه ما يضره، فإن حلاوة ذلك هي بحسب ما حصل له من المنفعة أو اندفع عنه من المضرة ولا أنفع للقلب من التوحيد وإخلاص الدين لله ولا أضر عليه من الإشراك.

فإذا وجد حقيقة الإخلاص التي هي حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] مع حقيقة التوكل التي هي حقيقة ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] كان هذا فوق ما يجده كل أحد لم يجد مثل هٰذا، والله أعلم) ا.هـ(١).

﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾.

(وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ أي عن شكر النعيم فيطالب العبد بأداء شكر نعمة الله على النعيم؛ فإن الله سبحانه لا يعاقب على ما أباح وإنما

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٤٥ ـ ٦٥٢) وهذه تشمل ثلاث مواضع في القرآن ذكر فيها الصبر الجميل والهجر الجميل والصفح الجميل في الواقعة والحاقة والتكاثر.

يعاقب على ترك مأمور وفعل محذور) ا.هـ[(١)].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ أي عن شكره والكافر لم يشكر على النعيم الذي أنعم الله عليه به فيعاقبه على ذلك؛ والله إنما أباحها للمؤمنين وأمرهم معها بالشكر كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٢]) ا.هـ[(٢)].

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ ولما ضاف النبي ﷺ أبا الهيثم بن التيهان وجلسوا في الظل وأطعمهم فاكهة ولحماً وسقاهم ماءً بارداً قال: «هذا من النعيم الذي تسألون عنه»[(٣)] والسؤال عنه لطلب شكره لا لإثم فيه) ا.هـ[(٤)].

وقال رحمه الله: (قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ أي شكر النعيم وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر»[(٥)] وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «أن الله ليرضى عن العبد بأن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها»[(٦)] وكذلك (الإسراف في الأكل) مذموم، وهو مجاوزة الحد) ا.هـ[(٧)].

وقال رحمه الله: (وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها» وفي حديث آخر: «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر» وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ أي عن شكره فإنه لا يبيح شيئاً ويعاقب من فعله ولكن يسأله عن الواجب الذي أوجبه معه وعما حرمه عليه: هل فرط بترك مأمور أو فعل محظور كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٨٧﴾ [المائدة] فنهاهم عن تحريم الطيبات كما كان طائفة من الصحابة قد عزموا على الترهب فأنزل الله هذه الآية) ا.هـ[(٨)].

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/ ١٣٧).
(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٤٤) (١٠/ ١٤٠).
(٣) النسائي (٦/ ٢٤٦) أحمد (٣/ ٣٥١) والحديث صحيح.
(٤) جامع الرسائل (٢/ ٣٥٠).
(٥) مرّ تخريجه.
(٦) مرّ تخريجه.
(٧) مجموع الفتاوى (٣٢/ ٢١٢).
(٨) مجموع الفتاوى (١٧/ ١٨٠ ـ ١٨١).

وقال رحمه الله: (﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ أي عن الشكر عليه) ا.هـ[١].

فصل

قال شيخ الإسلام رحمه الله:

«سورة التكاثر» قيل فيها: ﴿زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ تنبيهاً على أن الزائر لا بد أن ينتقل عن مزاره فهو تنبيه على البعث.

ثم قال: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ فهذا خبر عن علمهم في المستقبل، ولهذا روي عن علي: أنه في عذاب القبر، ثم قال: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥﴾ فهذا إشارة إلى علمهم في الحال والخبر محذوف: أي لكان الأمر فوق الوصف ولعلمتم أمراً عظيماً ولألهاكم عما ألهاكم فإن الالتهاء بالتكاثر إنما وقع من الغفلة وعدم اليقين كما قال: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٦] ومثل قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرا[٢]» وحذف جواب لو كثير في القرآن تعظيماً له وتفخيماً فإنه أعظم من أن يوصف أو يتصور بسماع لفظ إذ المخبر ليس كالمعاين ولهذا أتبع ذلك بالقسم على الرؤية التي هي عَيْنُ الْيَقِينِ التي هي فوق الخبر الذي هو عِلْمُ الْيَقِينِ فقال: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾ وهذا الكلام جواب قسم محذوف مستقبل مع كون جواب لو محذوفاً كما تقدم في أحد القولين وفي الآخر هو متعلق بلو لكن يقال جواب لو إنما يكون ماضياً فيقال: لرأيتم الجحيم كقول النبي ﷺ: «لو تكونون على الحال التي تكونون عندي لصافحتكم الملائكة في طرقكم وعلى فرشكم»[٣] ولو كان ماضياً فليس مما يؤكد بل يقال: لو يجيء لأجي وجواب هذا أنه جواب قسم محذوف سد مسد جواب لو كقوله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١] وله نظائر في القرآن وكلام العرب فإن الكلام إذا اشتمل على قسم وشرط وكل منهما يقتضي جوابه أجيب الأول منهما وهو هنا القسم وهو المقصود.

وعلى هذا القول يكون المعنى: والله لو تعلمون عِلْمَ الْيَقِينِ لترون الجحيم

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ١٩١).
(٢) البخاري (١٠٤٤)، ومسلم (٩٠١).
(٣) مسلم (٢٧٥٠).

بقلوبكم والأول هو المشهور. ومن المفسرين من لم يذكر سواه، وهو الذي أثروه عن متقدميهم ويدل على صحته وأنه الحق أن قوله: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ﴾ معطوف على ما قبله فيكون داخلاً في حيزه فلو كان الأول معلقاً بالشرط لكان المعطوف عليه كذلك وهو باطل لأن رؤيتها عَيْنَ الْيَقِينِ والمسألة عن النعيم ليس معلقاً بأن يعلموها في الدنيا عِلْمَ الْيَقِينِ.

وأيضاً فتفسير الرؤية المطلقة برؤية القلب ليس هو المعروف من كلام العرب.

وأيضاً فيكون الشرط هو الجواب فإن المعنى حينئذ لو علمتم عِلْمَ الْيَقِينِ لرأيتم بقلوبكم وذلك هو العلم، فالمعنى لو علمتم، وهذا لا يفيد ولو أريد بمشاهدة القلب قدر زائد على مجرد العلم فهذا معلوم أن من علم الشيء أمكنه أن يجعل مشاهداً له بقلبِهِ، وأيضاً فهذا المعنى لو كان مفيداً لم يكن مما يستحق القسم عليه فإنه ليس بطائل.

وأيضاً فقوله: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ لم يذكر المعلوم حتى يستلزم العلم به العلم بالجحيم فإن أريد معلوم خاص فلا دليل في الشرط عليه حتى يصح الارتباط وإن أريد المعلوم العام وهو ما بعد الموت فذاك يستلزم العلم بالجحيم وغيرها، وهذا فيه نظر فقد يسأل ويقال قوله: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ لم يذكر فيه المعلوم بل أطلق.

ومعلوم أن كل أحد سوف يعلم شيئاً لم يكن علمه، وجوابه: أن سياق الكلام يقتضي الوعيد والتهديد حيث افتتحه بقوله: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾.

وأيضاً فمثل هذا الكلام قد صار في العرف يستعمل في الوعيد غالباً أو في الوعد، وإذا كان العلم مقيداً بالسياق اللفظي وبالوضع العرفي فقوله: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ هو ذاك العلم أخبر بوقوعه مستقبلاً ثم علق بوقوعه حاضراً وقيد المعلق به بعِلْم الْيَقِينِ فإنهم قد يعلمون ما بعد الموت لكن ليس علماً هو يقين)[1].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/٥١٧ ـ ٥٢٠).

سورة العصر

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾.

(قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ وروي عن الشافعي ﷺ أنه قال: لو فكر الناس كلهم في سورة (والعصر) لكفتهم، وهو كما قال؛ فإن الله تعالى أخبر أن جميع الناس خاسرون إلا من كان في نفسه مؤمناً صالحاً ومع غيره موصياً بالحق موصياً الصبر وإذا عظمت المحنة كان ذلك للمؤمن الصالح سبباً لعلو الدرجة وعظيم الأجر؛ كما سئل النبي ﷺ: أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه؛ فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه، ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على وجه الأرض، وليس عليه خطيئة»[1] وحينئذ فيحتاج من الصبر ما لا يحتاج إليه غيره؛ وذلك هو سبب الإمامة في الدين؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٤﴾ [السجدة]) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾.

فلا بد من التواصي بالحق والصبر، إذ أهل الفساد والباطل لا يقوم باطلهم إلا بصبر عليه أيضاً لكن المؤمنون يتواصون بالحق والصبر وأولئك يتواصون على باطلهم كما قال قائلهم: ﴿أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦].

فالتواصي بالحق بدون الصبر، كما يفعله الذين يقولون آمنا بالله فإذا أوذي أحدهم

---

(١) مرّ تخريجه.
(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ١٥٢ ـ ١٥٣).

في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله، والذين يعبدون الله على حرف، فإن أصاب أحدهم خير اطمأن به وإن أصابته فتنه انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة.

والتواصي بالصبر بدون الحق، كقول الذين قالوا: (أن امشوا واصبروا على آلهتكم) كلاهما موجب للخسران وإنما نجا من الخسران الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، وهذا موجود في كل من خرج عن هؤلاء من أهل الشهوات الفاسدة، وأهل الشبهات الفاسدة أهل الفجور وأهل البدع) ا.هـ[١].

(١) جامع الرسائل (٢/٣٩٣ ـ ٣٩٤).

سورة الهمزة

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ①﴾.

(قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ①﴾ والهمز: العيب والطعن بشدة وعنف، ومنه همز الأرض بعقبه، ومنه الهمزة وهي نبرة من الصدر) ا.هـ[١].

فصل

قال شيخ الإسلام رحمه الله:

قوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ①﴾ هو الطعان العياب كما قال: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِ بِنَمِيمٍ ⑪﴾ [القلم] وقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ٥٨] وقال: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٧٩] والهمزة أشد، لأن الهمز الدفع بشدة، ومنه الهمزة من الحروف، وهي نقرة في الحلق ومنه: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ⑰﴾ [المؤمنون] ومنه قول النبي ﷺ: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، من همزه، ونفخه، ونفثه»[٢] وقال: «الهمزة الموتة» وهي الصرع فالهمز مثل الطعن لفظاً ومعنى.

واللمز كالذم والعيب، وإنما ذم من يكثر الهمز، واللمز ـ فإن الهمزة واللمزة هو الذي يفعل ذلك كثيراً ـ و«الهمزة» و«اللمزة» الذي يفعل ذلك به كما في نظائره مثل الضحكة والضحكة، واللعبة واللعبة وقوله: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ②﴾ وصفه بالطعن في الناس، والعيب لهم، وبجمع المال وتعديده، وهذا نظير قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ㉓ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ [الحديد] في (النساء) و(الحديد) فإن الهمزة

---

(١) منهاج السنة (٥/ ٢٣٥).

(٢) أبو داود (٧٦٤، ٧٧٥) الترمذي (٢٤٢) وابن ماجه (٨٠٧) والبيهقي (٢/ ٣٥ ـ ٣٦) والحديث صحيح.

اللمزة يشبه المختال الفخور، والجماع المحصى نظير البخيل، وكذلك نظيرهما قوله: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣﴾ [القلم] وصفه بالكبر والبخل، وكذلك قوله: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨﴾ [الليل] فهذه خمس مواضع، وذلك ناشئ عن حب الشرف والمال، فإن محبة الشرف تحمل على انتقاص غيره بالهمز واللمز والفخر والخيلاء، ومحبة المال تحمل على البخل وضد ذلك من أعطى فلم يبخل، واتقى فلم يهمز، ولم يلمز، وأيضاً فإن المعطي نفع الناس والمتقي لم يضرهم فنفع ولم يضر وأما المختال الفخور البخيل فإنه ببخله منعهم الخير، وبفخره سامهم الضر فضرهم ولم ينفعهم، وكذلك (الهمزة) ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا﴾ ونظيره قارون الذي جمع مالاً، وكان من قوم موسى فبغى عليهم.

ومن تدبر القرآن وجد بعضه يفسر بعضاً فإنه كما قال ابن عباس في رواية الوالبي: مشتمل على الأقسام والأمثال وهو تفسير: ﴿مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ [الزمر: ٢٣].

ولهذا جاء كتاب الله جامعاً، كما قال ﷺ: «أعطيت جوامع الكلم»[(١)].

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٢١ ـ ٥٢٣).

سورة الفيل

وفي سبب نزول سورة الفيل قال:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾.

(وقد ذكر العلماء من أهل التفسير والسير وغيرهم أن أبرهة ملك الحبشة الذي ساق الفيل إلى مكة ليهدمها حين استولت الحبشة على اليمن وقهروا العرب ثم بعد هذا وفد سيف بن ذي يزن فاستنجد كسرى ملك الفرس فأنجده بجيش حتى أخرج الحبشة عنها، وهو ممن بشر بالنبي ﷺ، وكانت آية الفيل التي أظهر الله تعالى بها حرمة الكعبة لما أرسل عليهم الطير الأبابيل ترميهم بحجارة من سجيل، أي جماعات متفرقة، والحجارة من سجيل طين قد استحجر، وكان عام مولد النبي ﷺ وهو من دلائل نبوته، وأعلام رسالته، ودلائل شريعته. والبيت الذي لا يحج ولا يصلي إليه إلا هو وأمته.

قالوا: كان أبرهة قد بنى كنيسة بأرض اليمن، وأراد أن يصرف حج العرب إليها، فدخل رجل من العرب فأحدث في الكنيسة، فغضب لذلك أبرهة، وسافر إلى الكعبة ليهدمها حتى جرى ما جرى قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ وهذا معروف عند عامة العلماء من أهل التفسير والسير وغيرهم أنه بنى كنيسة أراد أن يصرف حج العرب إليها) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (قال ابن إسحاق: بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن حذافة بن قيس السهمي إلى كسرى بن هرمز ملك الفرس وكتب: «بسم الله الرحمٰن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى. آمِنْ بالله

(١) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٣٥٥ ـ ٣٥٦).

ورسوله، واشهد أن لا إله إلا الله ـ وحده لا شريك له ـ، وأن محمداً عبده ورسوله، فإني أدعوك بدعاية الله، فإني رسول الله إلى الناس كافة؛ لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم وإن أبيت، فإن أثم المجوس عليك»، فلما قرأ كتاب رسول الله ﷺ شققه وقال: يكتب إليّ بهذا الكتاب وهو عبدي؟[١].

قلت: وسبب قول كسرى هذا واستعلائه: أن الحبشة كانوا قد ملكوا اليمن، وملكهم سار إلى مكة بالفيل ليخرب البيت وكانوا نصارى، فأرسل الله عليهم من ناحية البحر طيراً أبابيل ـ وهي جماعات في تفرقة ـ تحمل حجارة من طين، فألقتها على الحبشة النصارى فأهلكتهم، وكان هذا آية عظيمة خضعت بها الأمم للبيت وجيران البيت.

وعلم العقلاء أن هذا لم يكن نصراً من الله لمشركي العرب فإن دين النصارى خير من دينهم، وإنما كان نصراً للبيت وللأمة المسلمة التي تعظمه وللنبي المبعوث من البيت، وكان ذلك عام مولد النبي ﷺ، فأنزل الله في ذلك: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴿٥﴾﴾) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (ومن آيات محمد ﷺ ودلائل نبوته التي في القرآن، قصة الفيل، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴿٥﴾﴾.

وقد تواترت قصة أصحاب الفيل، وأن أهل الحبشة النصارى ساروا بجيش عظيم، معهم فيل، ليهدموا الكعبة، لما أهان بعض العرب كنيستهم التي باليمن، فقصدوا إهانة الكعبة، وتعظيم كنايسهم. فأرسل الله عليهم طيراً أهلكهم وكان ذلك عام مولد النبي ﷺ وكان جيران البيت مشركين يعبدون الأوثان، ودين النصارى خير من دينهم.

فعلم بذلك أن هذه الآية لم تكن لأجل جيران البيت حينئذ، بل كانت لأجل البيت، أو لأجل النبي ﷺ، الذي ولد به في ذلك العام عند البيت، أو لمجموعهما، أي ذلك كان فهو من دلائل نبوته.

---

(١) هذا النص من ابن جرير (٢/ ٦٥٤ ـ ٦٥٥) وتمزيق الكتاب ثبت في البخاري (١/ ٢٤) وغيره.

(٢) الجواب الصحيح (١/ ٣١٦ ـ ٣١٨).

فإنه إذا قيل: إنما كانت آية للبيت وحفظاً له، وذباً عنه لأنه بيت الله الذي بناه إبراهيم الخليل، فقد علم أنه ليس من أهل الملل من يحج إلى هذا البيت ويصلي إليه، إلا أمة محمد ﷺ، ومحمد هو الذي فرض حجه والصلاة إليه. فإذا كان هذا البيت عند الله خيراً من الكنائس التي للنصارى، حتى إن الله أهلك النصارى أهل الكنائس لما أرادوا تعظيم الكنائس وإهانة البيت، علم أن دين أهل هذا البيت خير من دين النصارى، والمشركون ليسوا خيراً من النصارى. فتعين أن أمة محمد ﷺ خير من النصارى، وذلك يستلزم أن نبيهم صادق، وإلا فمن كانوا متبعين لنبي كاذب، فليسوا خيراً من النصارى، بل هم شرار الخلق، كأتباع مسيلمة الكذاب، والأسود العنسي وغيرهما، وقال في القرآن: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾.

والأبابيل جماعات في تفرقة، فوج بعد فوج، ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤﴾ أي من طين مستحجر، ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ كالتبن الذي أكل، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ استفهام في معنى التقرير، وهذا يقتضي أن هذا قد وقع وعلم به الناس، ورأوه وقد قررهم على ذلك، لما فيه من الدلالة والبيان والإنعام على الخلق) ا.هـ[١].

(١) الجواب الصحيح (٦/ ٥٥ ـ ٥٧).

سورة قريش

وقال رحمه الله في نزول سورة قريش:

(ودعا قريشاً إلى الله وأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له وأنزل تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾ [قريش]) ا.هـ[1].

(قوله في قريش: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾ لا يمنع أن يكون غير قريش مأمورين بعبادة رب هذا البيت، بل أمر الله جميع الثقلين: الجن والإنس أن يعبدوا رب هذا البيت) ا.هـ[2].

﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾.

(فإنه قنت مستنصراً كما استسقى حين الجدب، فاستنصاره عند الحاجة كاسترزاقه عند الحاجة إذ بالنصر والرزق قوام أمر الناس كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾ وكما قال النبي ﷺ: «وهل تُنصرون وتُرزقون إلا بضعفائكم بدعائهم وصلاتهم واستغفارهم»[3] وكما قال في صفة الأبدال: «بهم ترزقون وبهم تنصرون»[4].

وكما ذكر الله هذين النوعين في سورة الملك وبين أنهما بيده سبحانه في قوله: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ۝٢٠ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل﴾ [الملك]) ا.هـ[5].

---

(١) الجواب الصحيح (١/ ٣٨٧). (٢) الجواب الصحيح (٣/ ١٥٢).

(٣) مرّ تخريجه.

(٤) حديث الأبدال لا يصح، وقد ضعفه شيخ الإسلام إلا أنه يعني أن معناه ينساق ضمن هذا السياق.

(٥) مجموع الفتاوى (٢٣/ ١٠٢).

وقال رحمه الله: (وفضيلة السخاء والجود التي هي كمال القوة الطلبية الحبية فإن السخاء يصدر عن اللين والسهولة ورطوبة الخلق كما تصدر الشجاعة عن القوة والصعوبة ويبس الخلق فالقوة الغضبية هي قوة النصر والقوة الشهوية قوة الرزق وهما المذكوران في قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾ والرزق والنصر مقترنان في الكتاب والسنة وكلام الناس كثيراً) ا.هـ[1].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٤٣٢ ـ ٤٣٣).

سورة الماعون

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾.

(قال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ وقال تعالى: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝٥٩﴾ [مريم] فقد ذم الله تعالى في كتابه الذين يصلون إذا سهوا عن الصلاة وذلك على وجهين:

أحدهما: أن يؤخرها عن وقتها.

الثاني: أن لا يكمل واجباتها: من الطهارة، والطمأنينة، والخشوع، وغير ذلك، كما ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق ـ ثلاث مرار ـ يترقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني شيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيه إلا قليلاً»(١)) ا.هـ(٢).

وقال رحمه الله: (بل قد قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ قال طائفة من السلف: هم الذين يؤخرونها عن وقتها، وقال بعضهم: هم الذين لا يؤدونها على الوجه المأمور به، وإن صلاها في الوقت، فتأخيرها عن الوقت حرام باتفاق العلماء، فإن العلماء متفقون على أن تأخير صلاة الليل إلى النهار وتأخير صلاة النهار إلى الليل بمنزلة تأخير صيام شهر رمضان إلى شوال) ا.هـ(٣).

وقال رحمه الله: (فإنه قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ فأثبت لهم صلاة وجعلهم ساهين عنها، فعلم أنهم كانوا يصلون مع السهو عنها، وقد قال طائفة من السلف: بل هو السهو عما يجب فيها مثل ترك الطمأنينة، وكلا المعنيين

---

(١) مسلم (٦٢٢).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٢٣ ـ ٢٤).
(٣) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٢٩).

حق، والآية تتناول هذا وهذا، كما في صحيح مسلم عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني شيطان قام فنقرها أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً») ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ ذمهم مع أنهم يصلون؛ لأنهم سهوا عن حقوقها الواجبة من فعلها في الوقت وإتمام أفعالها المفروضة، كما ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني شيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً» فجعل هذه صلاة المنافقين لكونه أخرها عن الوقت ونقرها) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (وأيضاً فإن الله تعالى يقول: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ فتوعد بالويل لمن يسهو عن الصلاة حتى يخرج وقتها وإن صلاها بعد ذلك) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ وتأخيرها عن وقتها من السهو عنها باتفاق العلماء) ا.هـ[٤].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ وهم الذين يؤخرونها حتى يخرج الوقت) ا.هـ[٥].

وقال رحمه الله: (قال ابن مسعود: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ أخروها حتى يخرج وقتها، ولو تركوها لكانوا كفاراً) ا.هـ[٦].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ وقد فسر السلف (السهو عنها) بتأخيرها عن وقتها، وبترك ما يؤمر به فيها، كما بين النبي ﷺ أن صلاة المنافق تشتمل على التأخير والتطفيف: قال سلمان الفارسي: إن الصلاة مكيال، فمن وفى وفي له، ومن طفف فقد علمتم ما قال الله في

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥).
(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٦١٤ ـ ٦١٥).
(٣) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٥٤ ـ ٥٥).
(٤) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٣٩).
(٥) مجموع الفتاوى (٣/ ٤٢٨).
(٦) شرح العمدة ـ الصلاة (٩٣).

المطففين[١]) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (وروى من حديث سعيد بن أبي مريم: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ بتضييع ميقاتها) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦﴾ قال العلماء: «الساهون عنها» الذي يؤخرونها عن وقتها، والذين يفرطون في واجباتها. فإذا كان هؤلاء المصلون الويل لهم، فكيف بمن لا يصلي؟!) ا.هـ[٤].

وقال رحمه الله: (قال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ وفي السنن[٥] عن ابن مسعود قال: كنا نعد (الماعون) عارية الدلو والقدر والفأس) ا.هـ[٦].

---

(١) عزاه صاحب الدر (٦/ ٣٢٤) لابن أبي شيبة وسعيد بن منصور.
(٢) مجموع الفتاوى (٣٢/ ٢١٧).
(٣) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٥٧٢) القواعد النورانية (٧٧) وأثر أبي مريم مرّ تخريجه.
(٤) مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٠٦) وقد مر الكلام عما قالوه في هذه الآية.
(٥) ابن جرير (٣٠/ ٣١٥ ـ ٣١٦).
(٦) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٩٨) (٢٩/ ١٨٧).

سورة الكوثر

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾.

(ولما قدم الله الصلاة على النحر في قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢﴾ وقدّم التزكي على الصلاة في قوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾ [الأعلى].

كانت السنة أن الصدقة قبل الصلاة في عيد الفطر وأن الذبح بعد الصلاة في عيد النحر) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾ فمن شنأ شيئاً مما جاء به الرسول ﷺ فله من ذلك نصيب؛ ولهذا قال أبو بكر بن عياش لما قيل له: إن بالمسجد أقواماً يجلسون ويجلس الناس إليهم فقال: من جلس للناس جلس الناس إليه، لكن أهل السنة يبقون ويبقى ذكرهم وأهل البدعة يموتون ويموت ذكرهم.

وذلك أن أهل البدعة شنأوا بعض ما جاء به الرسول ﷺ فأبترهم بقدر ذلك، والذين أعلنوا ما جاء به النبي ﷺ فصار لهم نصيب من قوله تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ۝٤﴾ [الانشراح] فإن ما أكرم الله به نبيه من سعادة الدنيا والآخرة فللمؤمنين المتابعين نصيب بقدر إيمانهم، فما كان من خصائص النبوة والرسالة فلم يشارك فيه أحد من أمته وما كان من ثواب الإيمان والأعمال الصالحة فلكل مؤمن نصيب بقدر ذلك) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢﴾ أي انحر لربك وكما

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٢٠٠).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٨)، الاستغاثة (٧٥).

قال الخليل: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام]) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ فلا يوجد من شنأ الرسول إلا بتره الله حتى أهل البدع المخالفون لسنته. قيل لأبي بكر بن عياش: إن بالمسجد قوماً يجلسون للناس ويتكلمون بالبدعة، فقال: من جلس للناس جلس الناس إليه، ولكن أهل السنة يبقون ويبقى ذكرهم، وأهل البدعة يموتون ويموت ذكرهم) ا.هـ[٢].

وقال في تفسير الآية (٣):

(وقد كتب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر وكلاهما لم يسلم، لكن قيصر أكرم كتاب النبي ﷺ وأكرم رسوله فثبت ملكه فيقال: إن الملك باق في ذريته إلى اليوم، وكسرى مزق كتاب رسول الله ﷺ واستهزأ برسول الله ﷺ فقتله الله بعد قليل ومزق ملكه كل ممزق ولم يبق للأكاسرة ملك، وهذا والله أعلم تحقيق لقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ فكل من شنأه وأبغضه وعاداه فإن الله يقطع دابره ويمحق عينه وأثره. وقد قيل[٣]: إنها نزلت في العاص بن وائل أو في عقبة بن أبي معيط أو في كعب بن الأشرف، وقد رأيت صنيع الله بهم) ا.هـ[٤].

وقال رحمه الله: (فروى الإمام أحمد قال: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن داود، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت قريش: ألا ترى إلى هذا الصنبور المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة وأهل السقاية قال: أنتم خير قال: فنزلت فيهم: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾) ا.هـ[٥].

وقال رحمه الله: (قال: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ فأخبر سبحانه أن شانئه هو الأبتر، والبتر: القطع يقال: بتر يبتر بتراً وسيف بتار إذا كان قاطعاً ماضياً، ومنه في الاشتقاق الأكبر تبره تتبيراً إذا أهلكه، والتبار: الهلاك والخسران، وبين سبحانه أنه هو الأبتر بصيغة الحصر والتوكيد لأنهم قالوا: إن محمداً ينقطع ذكره لأنه لا ولد له؛

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ٤٨٥).
(٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ١٧٢).
(٣) زاد المسير (٩/ ٢٥٠).
(٤) الصارم المسلول (١٧٢).
(٥) الصارم المسلول (٨٠).

فبين الله أن الذي يشنأه هو الأبتر لا هو ﷺ والشنآن منه ما هو باطن في القلب لم يظهر ومنه ما يظهر على اللسان وهو أعظم الشنآن وأشده، وكل جرم استحق فاعله عقوبة من الله إذا أظهر ذلك الجرم عندنا وجب أن نعاقبه ونقيم عليه حد الله.

فيجب أن نبتر من أظهر شنآنه وأبدى عداوته، وإذا كان ذلك واجباً وجب قتله وإن أظهر التوبة بعد القدرة وإلا لما انبتر له شانئ بأيدينا في غالب الأمر؛ لأنه لا يشاء شانئ أن يظهر شنآنه ثم يُظهر المَتَاب بعد رؤية السيف إلا فعل فإن ذلك سهل على من يخاف السيف

تحقيق ذلك أنه سبحانه رتب الانبتار على شنآنه، والاسم المشتق المناسب إذا علق به حكم كان ذلك دليلاً على أن المشتق منه علة لذلك الحكم؛ فيجب أن يكون شنآنه هو الموجب لانبتاره، وذلك أخص مما تضمنه الشنآن من الكفر المحض أو نقض العهد، والانبتار يقتضي وجوب قتله، بل يقتضي انقطاع العين والأثر، فلو جاز استحياؤه بعد إظهار الشنآن لكان في ذلك إبقاء لعينه وأثره وإذا اقتضى الشنآن قطع عينه وأثره كان كسائر الأسباب الموجبة لقتل الشخص) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (ومن المعروف المشهور المجرب عند عساكر المسلمين بالشام إذا حاصروا بعض حصون أهل الكتاب أنه يتعسر عليهم فتح الحصن ويطول الحصار إلى أن يسب العدو الرسول ﷺ فحينئذ يستبشر المسلمون بفتح الحصن وانتقام الله من العدو فإنه يكون ذلك قريباً كما قد جربه المسلمون غير مرة تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ ولما مزق كسرى كتابه مزق الله ملك الأكاسرة كل ممزق، ولما أكرم هرقل والمقوقس كتابه بقي لهم ملكهم) ا.هـ[2].

وقال شيخ الإسلام رحمه الله:

«سورة الكوثر» ما أجلها من سورة؟ وأغزر فوائدها على اختصارها، وحقيقة معناها تعلم من آخرها، فإنه ﷻ بتر شانئ رسوله من كل خير، فبتر ذكره وأهله وماله فيخسر ذلك في الآخرة، وبتر حياته فلا ينتفع بها، ولا يتزود فيها صالحاً لمعاده، ويبتر قلبه فلا يعي الخير، ولا يؤهله لمعرفته ومحبته، والإيمان برسله، ويبتر أعماله فلا

---

(١) الصارم المسلول (٤٦٠ ـ ٤٦١). (٢) الجواب الصحيح (٦/٢٩٦).

يستعمله في طاعة، ويبتره من الأنصار فلا يجد له ناصراً، ولا عوناً، ويبتره من جميع القرب والأعمال الصالحة فلا يذوق لها طعماً، ولا يجد لها حلاوة، وإن باشرها بظاهره، فقلبه شارد عنها، وهذا جزاء من شنأ بعض ما جاء به الرسول ﷺ ورده لأجل هواه، أو متبوعه، أو شيخه، أو أميره، أو كبيره، كمن شنأ آيات الصفات، وأحاديث الصفات وتأولها على غير مراد الله ورسوله منها، أو حملها على ما يوافق مذهبه، ومذهب طائفته، أو تمنى أن لا تكون آيات الصفات أنزلت، ولا أحاديث الصفات قالها رسول الله ﷺ.

ومن أقوى علامات شناءته لها، وكراهته لها أنه إذا سمعها حين يستدل بها أهل السنة على ما دلت عليه من الحق اشمأز من ذلك، وحاد ونفر عن ذلك، لما في قلبه من البغض لها والنفرة عنها، فأي شانئ للرسول أعظم من هذا، وكذلك أهل السماع الذين يرقصون على سماع الغنا والقصائد والدفوف والشبابات إذا سمعوا القرآن يتلى ويقرأ في مجالسهم استطالوا ذلك واستثقلوه، فأي شنآن أعظم من هذا، وقس على هذا سائر الطوائف في هذا الباب.

وكذلك من آثر كلام الناس وعلومهم على القرآن والسنة فلولا أنه شانئ لما جاء به الرسول ما فعل ذلك، حتى إن بعضهم لينسى القرآن بعد أن حفظه، ويشتغل بقول فلان وفلان، ولكن أعظم من شنأه ورده: من كفر به وجحده وجعله أساطير الأولين، وسحراً يؤثر، فهذا أعظم وأطمّ انبتاراً، وكل من شنأه له نصيب من الانبتار، على قدر شناءته له، فهؤلاء لما شنؤوه وعادوه جازاهم الله بأن جعل الخير كله معادياً لهم، فبترهم منه، وخص نبيه ﷺ بضد ذلك، وهو أنه أعطاه الكوثر، وهو من الخير الكثير الذي آتاه الله في الدنيا والآخرة. فمما أعطاه في الدنيا الهدى والنصر والتأييد وقرة العين والنفس وشرح الصدر، ونعم قلبه بذكره وحبه بحيث لا يشبه نعيمَهُ نعيمٌ في الدنيا البتة، وأعطاه في الآخرة الوسيلة والمقام المحمود، وجعله أول من يفتح له ولأمته باب الجنة، وأعطاه في الآخرة لواء الحمد، والحوض العظيم، في موقف القيامة إلى غير ذلك، وجعل المؤمنين كلهم أولاده وهو أب لهم، وهذا ضد حال الأبتر الذي يشنؤه ويشنأ ما جاء به.

وقوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾، أي مبغضك، والأبتر المقطوع النسل، الذي لا يولد

له خير، ولا عمل صالح فلا يتولد عنه خير، ولا عمل صالح، قيل لأبي بكر بن عياش: إن بالمسجد قوماً يجلسون ويُجْلَس إليهم، فقال: من جلس للناس، جلس الناس إليه، ولكن أهل السنة يموتون، ويحيى ذكرهم، وأهل البدعة يموتون ويموت ذكرهم، لأن أهل السنة أحيوا ما جاء به الرسول ﷺ فكان لهم نصيب من قوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح]، وأهل البدعة شنأوا ما جاء به الرسول ﷺ فكان لهم نصيب من قوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

فالحذر الحذر أيها الرجل من أن تكره شيئاً مما جاء به رسول الله ﷺ، أو ترده لأجل هواك، أو انتصاراً لمذهبك، أو لشيخك، أو لأجل اشتغالك بالشهوات، أو بالدنيا، فإن الله لم يوجب على أحد طاعة أحد إلا طاعة رسوله، والأخذ بما جاء به، بحيث لو خالف العبد جميع الخلق، واتبع الرسول ما سأله الله عن مخالفة أحد؛ فإن من يطيع أو يطاع إنما يطاع تبعاً للرسول، وإلا لو أمر بخلاف ما أمر به الرسول ما أطيع، فاعلم ذلك واسمع، وأطع واتبع، ولا تبتدع، تكن أبتر مردوداً عليك عملك، بل لا خير في عمل أبتر من الاتباع ولا خير في عامله والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١﴾ تدل هذه الآية على عطية كثيرة صادرة عن معط كبير غني واسع، وأنه تعالى وملائكته وجنده معه: صدَّر الآية بـ(إن) الدالة على التأكيد، وتحقيق الخبر، وجاء الفعل بلفظ الماضي الدال على التحقيق، وأنه أمر ثابت واقع، ولا يدفعه ما فيه من الإيذان بأن إعطاء الكوثر سابق في القدر الأول حيث قدرت مقادير الخلائق، قبل أن يخلقهم بخمسين ألف سنة، وحذف موصوف الكوثر ليكون أبلغ في العموم، لما فيه من عدم التعيين، وأتى بالصفة أي إنه ﷺ قال: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١﴾ فوصفه بالكوثر، والكوثر المعروف إنما هو نهر في الجنة، كما قد وردت به الأحاديث الصحيحة الصريحة، وقال ابن عباس: الكوثر[1] إنما هو الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه، وإذا كان أقل أهل الجنة من له فيها مثل الدنيا عشر مرات، فما الظن بما لرسول الله ﷺ مما أعده الله له فيها، فالكوثر علامة وأمارة على تعدد ما أعده الله له من الخيرات، واتصالها وزيادتها، وسمو المنزلة وارتفاعها، وأن ذلك النهر وهو الكوثر أعظم أنهار الجنة وأطيبها ماء، وأعذبها وأحلاها وأعلاها.

---

(١) ابن جرير (٣٠/ ٣٢٢).

وذلك أنه أتى فيه بلام التعريف الدالة على كمال المسمى وتمامه، كقوله: زيد العالم، زيد الشجاع، أي لا أعلم منه ولا أشجع منه، وكذلك قوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾. دل على أنه أعطاه الخير كله كاملاً موفراً، وإن نال منه بعض أمته شيئاً كان ذلك الذي ناله ببركة اتباعه، والاقتداء به، مع أن له ﷺ مثل أجره من غير أن ينقص من أجر المتبع له شيء، ففيه الإشارة إلى أن الله تعالى يعطيه في الجنة بقدر أجور أمته كلهم من غير أن ينتقص من أجورهم، فإنه هو السبب في هدايتهم، ونجاتهم، فينبغي بل يجب على العبد اتباعه والاقتداء به، وأن يمتثل ما أمره به ويكثر من العمل الصالح صوماً وصلاة وصدقة وطهارة، ليكون له مثل أجره، فإنه إذا فعل المحظورات مع ترك المأمور قوي وزره، وصعبت نجاته لارتكابه المحظور وتركه المأمور، وإن فعل المأمور وارتكب المحظور دخل فيمن يشفع فيه الرسول ﷺ لكونه نال مثل أجر ما فعله من المأمور، وإلى الله إياب الخلق، وعليه حسابهم، وهو أعلم بحالهم، أي بأحوال عباده، فإن شفاعته لأهل الكبائر من أمته، والمحسن إنما أحسن بتوفيق الله له، والمسيء لا حجة له ولا عذر.

والمقصود أن الكوثر نهر في الجنة وهو من الخير الكثير الذي أعطاه الله رسوله ﷺ في الدنيا والآخرة، وهذا غير ما يعطيه الله من الأجر الذي هو مثل أجور أمته إلى يوم القيامة، فكل من قرأ أو علم أو عمل صالحاً أو علم غيره أو تصدق أو حج أو جاهد أو رابط أو تاب أو صبر أو توكل أو نال مقاماً من المقامات القلبية من خشية أو خوف ومعرفة وغير ذلك، فله مثل أجره من غير أن ينقص من أجر ذلك العامل، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ أمره الله أن يجمع بين هاتين العبادتين العظيمتين، وهما الصلاة والنسك الدالتان على القرب والتواضع والافتقار وحسن الظن، وقوة اليقين، وطمأنينة القلب إلى الله، وإلى عدته وأمره، وفضله وخلفه، عكس حال أهل الكبر والنفرة، وأهل الغنى عن الله الذين لا حاجة في صلاتهم إلى ربهم يسألونه إياها، والذين لا ينحرون له خوفاً من الفقر، وتركاً لإعانة الفقراء وإعطائهم، وسوء الظن منهم بربهم، ولهذا جمع الله بينهما، وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢﴾ [الأنعام]، والنسك هي الذبيحة ابتغاء وجهه.

والمقصود: أن الصلاة والنسك هما أجل ما يتقرب به إلى الله فإنه أتى فيهما

بالفاء الدالة على السبب، لأن فعل ذلك وهو الصلاة والنحر سبب للقيام بشكر ما أعطاه الله إياه من الكوثر، والخير الكثير، فشكر المنعم عليه وعبادته أعظمها هاتان العبادتان، بل الصلاة نهاية العبادات، وغاية الغايات.

كأنه يقول: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾ الخير الكثير، وأنعمنا عليك بذلك لأجل قيامك لنا بهاتين العبادتين، شكراً لإنعامنا عليك. وهما السبب لإنعامنا عليك بذلك، فقم لنا بهما، فإن الصلاة والنحر محفوفان بإنعام قبلهما، وإنعام بعدهما، وأجل العبادات المالية النحر، وأجل العبادات البدنية الصلاة، وما يجتمع للعبد في الصلاة لا يجتمع له في غيرها من سائر العبادات، كما عرفه أرباب القلوب الحية، وأصحاب الهمم العالية، وما يجتمع له في نحره من إيثار الله، وحسن الظن به وقوة اليقين، والوثوق بما في يد الله أمر عجيب، إذا قارن ذلك الإيمان والإخلاص، وقد امتثل النبي ﷺ أمر ربه فكان كثير الصلاة لربه كثير النحر، حتى نحر بيده في حجة الوداع ثلاثاً وستين بدنة، وكان ينحر في الأعياد وغيرها.

وفي قوله: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢﴾ إشارة إلى أنك لا تتأسف على شيء من الدنيا، كما ذكر ذلك في آخر «طه» و«الحجر» وغيرهما، وفيه الإشارة إلى ترك الالتفات إلى الناس وما ينالك منهم، بل صل لربك وانحر، وفيها التعريض بحال الأبتر الشانئ، الذي صلاته ونسكه لغير الله.

وفي قوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾ أنواع من التأكيد.

«أحدها» تصدير الجملة بـ﴿إِنَّ﴾.

«الثاني» الإيتان بضمير الفصل الدال على قوة الإسناد والاختصاص.

«الثالث» مجيء الخبر على أفعل التفضيل، دون اسم المفعول.

«الرابع» تعريفه باللام الدالة على حصول هذا الموصوف له بتمامه، وأنه أحق به من غيره، ونظير هذا في التأكيد قوله: ﴿لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [طه: ٦٨].

ومن فوائدها اللطيفة الالتفات في قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢﴾.

الدالة على أن ربك مستحق لذلك، وأنت جدير بأن تعبده، وتنحر له. والله أعلم[1].

(١) مجموع الفتاوى (١٦/٥٢٦ ـ ٥٣٣).

سورة الكافرون

وفي فضل السورة قال:

(وأما حديث الزلزلة و﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١﴾ فروى الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ إذا زلزلت عدلت له نصف القرآن، ومن قرأ قل يا أيها الكافرون عدلت له ربع القرآن) وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ [الزلزلة: ١] تعدل نصف القرآن، و﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١﴾ تعدل ربع القرآن» رواهما الترمذي وقال عن كل منهما: غريب) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (وكان النبي ﷺ يقرأ في ركعتي الفجر تارة (سورة الإخلاص) و﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١﴾ ففي ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١﴾ عبادة الله وحده وهو دين الإسلام، وفي ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص] صفة الرحمن، وأن يقال فيه ويخبر عنه بما يستحقه وهو الإيمان. هذا هو التوحيد القولي وذلك هو التوحيد العملي) ا.هـ[٢].

وفي عموم معناها قال:

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾.

(وسورة: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١﴾ فيها التوحيد القصدي العملي، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ وبهذا يتميز من يعبد الله ممن يعبد غيره، وإن كان كلاهما يقر بأن الله رب كل شيء ويتميز عباد الله المخلصون الذين لم يعبدوا إلا إياه، ممن عبد غيره، وأشرك به أو نظر إلى القدر الشامل لكل شيء، فسوى بين المؤمنين والكفار، كما كان يفعل المشركون من العرب. ولهذا قال ﷺ:

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/١٧) وقد مرّ تخريج الحديثين الذين في المقطع.

(٢) مجموع الفتاوى (١٩/ ١٧١).

«إنها براءة من الشرك») ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (والتوحيد العملي الإرادي أن لا يعبد إلا إياه، فلا يدعو إلا إياه ولا يتوكل إلا عليه، ولا يخاف إلا إياه، ولا يرجو إلا إياه، ويكون الدين كله لله قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (والتوحيد القصدي العملي المذكور في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ وما يتصل بذلك، فإن هذا بيان لأصل الدعوة إلى الله وحقيقتها ومقصودها) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (فأما ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ فهي متضمنة للتوحيد العملي الإرادي وهو إخلاص الدين لله بالقصد والإرادة وهو الذي يتكلم به مشائخ التصوف غالباً) ا.هـ[٤].

وقال رحمه الله: (حتى إن وزيرهم[٥] هذا الخبيث الملحد المنافق صنف مصنفاً، مضمونه أن النبي ﷺ رضي بدين اليهود والنصارى، وأنه لا ينكر عليهم، ولا يذمون ولا ينهون عن دينهم، ولا يؤمرون بالانتقال إلى الإسلام. واستدل الخبيث الجاهل بقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾، وزعم أن هذه الآية تقتضي أنه يرضى دينهم، قال: وهذه الآية محكمة؛ ليست منسوخة. وجرت بسبب ذلك أمور.

ومن المعلوم أن هذا جهل منه. فإن قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ ليس فيه ما يقتضي أن يكون دين الكفار حقاً ولا مرضياً له؛ وإنما يدل على تبرئه من دينهم؛ ولهذا قال ﷺ في هذه السورة: «إنها براءة من الشرك» كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٤١﴾ [يونس]

---

(١) اقتضاء الصراط (٢/ ٨٥٢).
(٢) الصفدية (٢/ ٢٢٨ ـ ص٢٢٩).
(٣) مجموع الفتاوى (١٥/ ١٦٤).
(٤) مجموع الفتاوى (١٠/ ٥٤).
(٥) أي ابن العلقمي.

فقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ كقوله: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ [القصص: ٥٥] وقد اتبع ذلك بموجبه ومقتضاه حيث قال: ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ولو قدر أن في هذه السورة ما يقتضي أنهم لم يؤمروا بترك دينهم، فقد علم بالاضطرار من دين الإسلام بالنصوص المتواترة وبإجماع الأمة أنه أمر المشركين وأهل الكتاب بالإيمان به، وأنه جاءهم[١] على ذلك، وأخبر أنهم كافرون يخلدون في النار) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (والتوحيد في الإرادة والعمل، وهو عبادته وحده لا شريك له وقد أنزل الله سورتي الإخلاص ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص] الواحدة في توحيد العمل، ولهذا كان القول فيها ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ وهي جملة انشائية فعلية، والأخرى في توحيد العلم، وهي قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ وبهذا كان القول جملة خبرية اسمية. والكلام: إما إنشاء، وإما إخبار فالإخبار يكون عن العلم، والإنشاء يكون عن الإرادة؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦٣﴾ [البقرة]) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ وهذه كلمة تقتضي براءته من دينهم ولا تقتضي رضاه بذلك كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٤١﴾ [يونس].

ومن ظن من الملاحدة أن هذا رضا منه بدين الكفار فهو من أكذب الناس وأكفرهم، كمن ظن أن قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ [الإسراء: ٢٣] بمعنى قدر، وأن الله سبحانه ما قضى بشيء إلا وقع، وجعل عباد الأصنام ما عبدوا إلا الله؛ فإن هذا من أعظم الناس كفراً بالكتب) ا.هـ[٤].

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ

---

(١) كذا في الأصل، والصواب: جاهدهم.
(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/٥٢٦ ـ ٥٢٧).
(٣) بيان تلبيس الجهمية (١/٤٧٩ ـ ٤٨٠).
(٤) مجموع الفتاوى (١١/٢٦٨ ـ ٢٦٩).

دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ فإن هذه الكلمة كقوله: ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

وهي كلمة توجب براءته من عملهم وبراءتهم من عمله، فإن حرف «اللام» في لغة العرب يدل على الاختصاص، فقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾.

يدل على أنكم مختصون بدينكم، لا أشرككم فيه، وأنا مختص بديني، لا تشركوني فيه كما قال: ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

ولهذا قال النبي ﷺ في ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾﴾ هي «براءة من الشرك»، وليس في هذه الآية أنه رضي بدين المشركين، ولا أهل الكتاب، كما يظنه بعض الملحدين، ولا أنه نهى عن جهادهم كما ظنه بعض الغالطين، وجعلوها منسوخة، بل فيها براءته من دينهم وبراءتهم من دينه، وأنه لا تضره أعمالهم، ولا يجزون بعمله ولا ينفعهم.

وهذا أمر محكم لا يقبل النسخ ولم يرض الرسول بدين المشركين، ولا أهل الكتاب طرفة عين قط، ومن زعم أنه رضي بدين الكفار، واحتج بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾.

فظن هذا الملحد أن قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ معناه أنه رضي بدين الكفار، ثم قال: هذه الآية منسوخة، فيكون قد رضي بدين الكفار، من أبين الكذب والافتراء على محمد ﷺ، فإنه لم يرض قط إلّا بدين الله الذي أرسل به رسله، وأنزل به كتبه ما رضي بدين الكفار، لا من المشركين، ولا من أهل الكتاب.

وقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ لا يدل على رضاه بدينهم، بل ولا على إقرارهم عليه، بل يدل على براءته من دينهم، ولهذا قال النبي ﷺ: «إن هذه السورة براءة من الشرك».

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ وكذلك قوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ [الشورى: ١٥].

وقد يظن بعض الناس أيضاً أن قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ أني لا آمر بالقتال، ولا أنهى عنه، ولا أتعرض له بنفي ولا إثبات، وإنما فيها أن دينكم لكم، أنتم مختصون به، وأنا بريء منه، وديني لي وأنا مختص به، وأنتم براء منه.

وهذا أمر محكم لا يمكن نسخه بحال، كما قال تعالى عن الخليل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧﴾ [الزخرف].

وقد قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣] وهو ما طار عنه من خير وشر، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وقال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]، بل قال تعالى لنبيه: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢١٥ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢١٦﴾ [الشعراء]، فإذا كان قد برَّأه الله من معصية من عصاه من أتباعه المؤمنين، فكيف لا يبرئه من كفر الكافرين الذين هم أشد له معصية ومخالفة؟!) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (وأما قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾.

فهو أمر بالقول لجميع الكافرين من المشركين وأهل الكتاب، فإن أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بما أنزل إليه من ربه كافرون، قد شهد عليهم بالكفر، وأمر بجهادهم وكفر من لم يجعلهم كافرين، ويوجب جهادهم، قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١﴾ [البينة]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ۝٢٩﴾ [التوبة].

(١) الجواب الصحيح (٣/٥٨ ـ ٦٢).

وحرف (من) في هذه المواضع لبيان الجنس، فتبين جنس المتقدم، وإن كان ما قبلها يدخل في جميع الجنس الذي بعدها بخلاف ما إذا كان للتبعيض، كقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: ١]، فإنه يدخل في الذين كفروا بعد مبعث النبي ﷺ جميع المشركين وأهل الكتاب.

وكذلك دخل في الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق جميع أهل الكتاب الذي بلغتهم دعوته، ولم يؤمنوا به، وكذلك قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [النور: ٥٥].

وإن كان جميعهم آمنوا وعملوا الصالحات، وهذا إذا كان الجنس يتناول المذكورين وغيرهم، ولكن لم يبق في الجنس إلا المذكورون، كما يقول: هنا رجل من بني عبد المطلب، وإن لم يكن بقي منهم غيره.

ووصفهم بالشرك وبأنهم يعبدون غير الله، كما قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة].

فأخبر أنهم اتخذوا من دون الله أرباباً، واتخذوا المسيح رباً، وما أمروا إلا ليعبدون إلهاً واحداً، وهؤلاء باتخاذهم غيره أرباباً عبدوهم فأشركوا بالله ﷻ عما يشركون.

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران].

فقد أخبر أيضاً أنه من اتخذ الملائكة والنبيين أرباباً فإنه كافر، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ

يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾ [المائدة].

فقد وبَّخ أهل التثليث على أنهم يعبدون ما لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً، والله هو السميع العليم فدخلوا في قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾﴾.

كما دخل في ذلك غيرهم من الكفار، لا سيما وقد دخل في ذلك اليهود، وهم أولى بالدخول من غيرهم، فإن قوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ يتناول صفات المعبود، والإله الذي يعبده المؤمنون هو الإله الذي أنزل التوراة والإنجيل والقرآن، وأرسل موسى وعيسى ومحمداً صلوات الله عليهم وسلامه.

والإله المتصف بهذه الصفات لا يعبده اليهود والنصارى، وهذا كقوله: ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

فهذا الإله الذي يعبده محمد ﷺ وأمته، ليس هو إله المشركين الذي يعبدونه وإن كان هو المستحق لأن يعبدوه فإنهم يشركون بعبادته ويصفونه بما هو بريء منه فلا يخلصون له الدين فيعبدوا معه آلهة أخرى إن لم يستكبروا عن عبادته، وإله العبد الذي يعبده بالفعل ليس حاله معه كحاله مع الذي يستحق أن يعبده، وهو لا يعبده، بل يشرك به أو يستكبر عن عبادته، فهذا هو الذي قال فيه: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾، والشرك غالب على النصارى، والكبر غالب على اليهود) ا.هـ[(١)].

وقال رحمه الله: (وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ وهي كلمة تقتضي براءته من دينهم، وأن ديني لي وأنتم بريئون منه، ودينكم لكم وأنا بريء منه.

كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس].

(١) الجواب الصحيح (٣/ ٦٣ ـ ٦٧).

فقوله: ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ [يونس: ٤١] هو نظير قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ وقرنه بمقتضاه وموجبه فقال: ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

ولهذا قال النبي ﷺ في هذه السورة هي براءة من الشرك ولهذا كان يقرأها كثيراً مع ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص] في ركعتي الفجر وركعتي الطواف وغيرهما، لأن فيهما التوحيد: هذه فيها توحيد العمل والإرادة، وتلك فيها توحيد القول والعلم. وإذا قال في تلك: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ فأمره أن يقول ما هو خبر عن الله بأنه الأحد الصمد، وقال في هذه: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ فأمره أن يقول إنه لا يعبد ما يعبدون من دون الله، إذ لا يعبد إلا الله وحده.

ومثل هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ﴾ [الشورى: ١٥] أي لا خصومة. والحجة هي ما يحتج به الخصم وإن كان باطلاً. فليس من شرط لفظ «الحجة» أن تكون حقاً، بل إذا كان حقاً سميت بيِّنةً وبرهاناً ودليلاً ولهذا قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ﴾ [النساء: ١٦٥] ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠]، وهم المشركون يحتجون عليكم بحجة باطلة، فيقولون: قد رجع إلى قبلتنا فيوشك أن يرجع إلى ديننا، وبهذا فسر الآية علماء الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ومن قال من المتأخرين إن «إلا» بمعنى الواو وقالوا: إن المراد: لئلا يكون للناس عليكم حجة والذين ظلموا منهم، قولهم من الباطل الذي يظهر فساده من وجوه كثيرة.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۝١٦﴾ [الشورى].

وقال في الحق: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ﴾ [الأنعام: ٨٣].

وقد قال ﷺ في الحديث المتفق على صحته: «إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له بنحو مما أسمع، فمن قضيت له من حق

أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعاً من النار»[١].

وقد قال طائفة من المفسرين إن هذه السورة منسوخة، أي فيما ظنوها دلت عليه من ترك القتال، فإنهم ظنوا أن قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ يتضمن ترك القتال، ومعلوم أن الله لم يأمر نبيه بمكة بالقتال بل إنما أمره بالقتال بالمدينة، وأول آية نزلت في القتال قوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩﴾ [الحج] فأذن الله لهم أولاً فيه ثم كتب عليهم ثانياً فقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وكتب عليهم قتال من لم يسالمهم، فأما من سالمهم فلم يؤمروا بقتاله، كما قال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [الأنفال: ٦١] وقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ۝٩٠﴾ [النساء].

ولهذا كان بين النبي ﷺ وبين كثير من المشركين عهود مطلقة ومؤقتة، فالمؤقتة كانت لازمة، والمطلقة لم تكن لازمة بل لكل منهما فسخها، فلما فتح الله مكة وغزا النبي ﷺ تبوك سنة تسع من الهجرة، وهي آخر غزواته أمر فيها بغزو أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون بقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ۝٢٩﴾ [التوبة].

ولما رجع من غزوة تبوك أنزل الله سورة براءة وذكر أحوال المنافقين بقوله: (ومنهم)، (ومنهم) ولهذا تسمى الكاشفة والمبعثرة والفاضحة[٢]، وأمر بنبذ العهود المطلقة وتحريم الحرم على الكفار، فأرسل النبي ﷺ أبا بكر أميراً على الموسم، وأمره أن ينهى عن طواف العراة بالبيت، وأن ينهى المشركين عن الحج، ولهذا كان ينادي في الموسم: «ولا يحجن بعد العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان» وأتبعه بعلي بن أبي

(١) البخاري (٣/ ١٨٠)، ومسلم (٣/ ١٣٣٧).
(٢) زاد المسير (٣/ ٣٨٩) وقد مرّ الإشارة إلى بقية الأسامي.

طالب لأجل نبذ العهود إلى المشركين الذين كانت لهم عهود مطلقة، وكان أبو بكر هو الأمير على الموسم، وعلي معه يصلي خلفه ويأتمر بأمره، لكن أرسله النبي ﷺ لأنه كان من عادة العرب أن العهود لا يعقدها ولا يحلها إلا المطاع أو رجل من أهل بيته، فخاف إن لم يبعث واحداً من أهل بيته أن لا يقبلوا نبذ العهود ولم يرجع أبو بكر إلى المدينة ولا عزله عن شيء كان ولاه وما روى من ذلك فهو من الكذب المعلوم أنه كذب.

وكان تأميره عَلَى عليّ بعد قوله لعلي في غزوة تبوك: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى»[1] كما قد بسط في موضعه، فقال الله تعالى في براءة: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١﴾ [التوبة] ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٤] إلى قوله: ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

وقد ظن طائفة من الفقهاء أنه لا يجوز أن يعاهد الكفار إلا إلى أجل مسمى، ثم اضطربوا فقال بعضهم: يجوز نقضه ولا يكون لازماً. وقال بعضهم: بل يكون لازماً ينقضي. واضطربوا في نبذ النبي ﷺ العهد، والصحيح أنه يجوز العهد مطلقاً ومؤجلاً، فإن كان مؤجلاً كان لازماً لا يجوز نقضه لقوله: ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ﴾ وإن كان مطلقاً لم يكن لازماً، فإن العقود اللازمة لا تكون مؤبدة كالشركة والوكالة وغير ذلك، وقد بسط هذا في غير هذا الموضع وسمى من قال كل قول.

والمقصود أن الله لما أنزل براءة وقال فيها: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥] وهي الأربعة التي قال الله فيها: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ٢] ليست الحرم التي هي ذو القعدة وذوا الحجة والمحرم ورجب، وقد قال بعضهم هي هذه وغلط في ذلك[2] قال: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ﴾ [التوبة: ٥] وهذه تسمى آية السيف، فأمر الله فيها بقتال المشركين وأهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

ولهذا قال في آية الفتح: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ﴾

---

(١) مرّ تخريجه.
(٢) مرّ الكلام عليه.

[الفتح: ١٦]، وهم الروم وفارس: كانوا أشد بأساً من العرب، ولا بد من مقاتلتهم أو إسلامهم، وإذا قوتلوا فإنهم يقاتلون حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، بخلاف ما كان قبل آية الجزية، فإنهم[1] كانوا تارة يقاتلون وتارة يعاهدون بلا جزية، كما عاهد النبي ﷺ اليهود والمشركين بلا جزية وكانوا قد دعوا عام الحديبية إلى قتال من يقاتل أو يعاهد، وبعد ذلك يدعون إلى قتال من يقاتلون أو يسلمون، ولم يقل: أو يسلموا فإنه كان يكون المعنى: حتى يسلموا. وقتالهم لا يجب إلى هذه الغاية، بل إذا أعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون فقد قوتلوا القتال المأمور به.

ثم العلماء مختلفون بعد نزول آية الجزية: هل تؤخذ من أهل الكتاب ومن له شبهة كتاب دون غيره، أو تؤخذ من كل كافر جازت معاهدته، والنبي ﷺ إنما لم يأخذها من العرب، لأن قتالهم كان قبل نزول آية الجزية، أو يستثنى مشركو العرب؟ فيها ثلاثة أقوال للعلماء مشهورة، والجمهور يجوِّزون أخذها من مشركي الهند والترك وغيرهم من أصناف العجم، كما يجوِّز الجميع معاهدة هؤلاء عند الحاجة أو المصلحة. وهل يجوز أن يُعَاهَدوا عهد مطلقاً أو لا يكون إلا مؤقتاً؟ على قولين: فلهذا يوجد كثير من المفسرين يقول في آيات يظن معناها النهي عن القتال: إنها منسوخة بآية السيف، فالذين قالوا: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١﴾ منسوخة هذا مأخذهم. والصواب أن هذه الآية لم تتعرض للقتال لا بأمر ولا بنهي بل مضمونها البراءة من دين الكفار وهذا أمر محكم لا ينسخ أبداً، وأما أن يقال فيها أو في غيرها رضي الرسول بدين كافر، فهذا لم يقله أحد من علماء المسلمين أصلاً، ولا أحد من سلف الأمة، ولا من الأولين ولا من الآخرين ولا يقول ذلك إلا من هو مفتر على الله ورسوله. لم يرض الله بغير دين الإسلام، وهو الذي بعث الله به محمداً ﷺ، لم يرض الله ولا رسوله، من أحد من الخلق بغير هذا الدين قط، وإن كان لم يأمر بجهادهم في أول الأمر لعجز المسلمين وقلتهم.

ولهذا لما استأذن الأنصار النبي ﷺ ليلة العقبة لمّا بايعوه في الجهاد، قال: إني لم أومر بذلك بعد، ثم لما كتب القتال كرهه بعضهم فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ

---

(١) في الأصل فإنه.

﴿كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [النساء]، وهذه الآية لبسطها موضع آخر) ا.هـ[1].

وقال ابن كثير رحمه الله:

(والقول الذي نصره أبو العباس بن تيمية في بعض كتبه، وهو أن المراد بقوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾ نفي الفعل لأنها جملة فعلية ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾﴾ نفي قبوله لذلك بالكلية لأن النفي بالجملة الاسمية آكد، فكأنه نفى الفعل وكونه قابلاً لذلك، ومعناه نفي الوقوع ونفي الإمكان الشرعي أيضاً، وهو قول حسن أيضاً، والله أعلم) ا.هـ[2].

قال الشيخ رحمه الله:

فصل
في سورة ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾﴾

للناس في وجه تكرير البراءة من الجانبين طرق حيث قال: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾﴾ ثم قال: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾﴾، منها قولان مشهوران ذكرهما كثير من المفسرين، هل كرر الكلام للتوكيد، أو لنفي الحال والاستقبال؟

قال أبو الفرج: في تكرار الكلام قولان: أحدهما أنه لتأكيد الأمر وحسم أطماعهم فيه، قاله الفراء. وقد أفعمنا[3] هذا في سورة الرحمن[4]، قال ابن قتيبة: التكرير في سورة الرحمن للتوكيد. قال: وهذه مذاهب العرب أن التكرير للتوكيد والإفهام، كما أن مذاهبهم الاختصار للتخفيف والإيجاز، لأن افتنان المعلم[5] والخطيب في الفنون أحسن من اقتصاده[6] في المقام على فن واحد، يقول القائل: والله

---

(١) الصفدية (٢/ ٣١٥ ـ ٣٢٣).
(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٩٧).
(٣) في زاد المسير «أنعمنا شرح» بمعنى زدنا. ولعله الأنسب.
(٤) زاد المسير (٩/ ٢٥٢).
(٥) في المطبوع (المتعلم).
(٦) في المطبوع (اقتضاءه)، ولعل الصواب: اقتصاره.

لا أفعله، ثم والله لا أفعله، إذا أراد التوكيد وحسم الأطماع من أن يفعله، كما يقول: والله أفعله؟ بإضمار ﴿لَآ﴾ إذا أراد الاختصار ويقول للمرسل، المستعجل: اعجل اعجل! والرامي: ارم، ارم، قال الشاعر:

كم نعمة كانت لكم، وكم وكم؟

وقال الآخر:

هل سألت جموع كنـ ... دة يوم ولوا أين أينا[١]؟

وربما جاءت الصفة فأرادوا توكيدها، واستوحشوا من إعادتها ثانية، لأنها كلمة واحدة فغيروا منها حرفاً[٢].

قال ابن قتيبة[٣]: فلما عدد الله في هذه السورة إنعامه[٤]، وذكر عباده آلاءه ونبههم على قدرته، جعل كل كلمة فاصلة بين نعمتين لتفهيمهم[٥] النعم وتقريرهم[٦] بها، كقولك للرجل، ألم أنزلك[٧] منزلاً وكنت طريداً؟ أفتنكر هذا؟ ألم أحج بك وكنت صروراً؟[٨] أفتنكر هذا؟[٩].

«قلت»: قال ابن قتيبة: تكرار الكلام في ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١﴾ لتكرار الوقت، وذلك أنهم قالوا: إن سرك أن ندخل في دينك عاماً، فادخل في ديننا عاماً، فنزلت هذه السورة.

قلت: هذا الكلام الذي ذكره بإعادة اللفظ وإن كان كلام العرب وغير العرب، فإن جميع الأمم يؤكدون إما في الطلب، وإما في الخبر، بتكرار الكلام، ومنه قول النبي ﷺ: «والله! لأغزون قريشاً، ثم والله! لأغزون قريشاً، ثم والله! لأغزون قريشاً، ثم قال: إن شاء الله. ثم لم يغزهم»[١٠].

---

(١) البيت لعبيد بن الأبرص (١٤٢). (٢) زاد المسير (٨/ ١١١).
(٣) هذا تكملة الكلام السابق ولكنه حذف منه شيء فكأنه قال ثم قال.
(٤) في المطبوع نعماءَه. (٥) في المطبوع ليفهمهم.
(٦) في المطبوع وتقريرهم. (٧) في المطبوع أبو ئك.
(٨) في المطبوع صرورة وهو الرجل الذي لم يحج قط.
(٩) زاد المسير (٨/ ١١٢).
(١٠) أبو داود (٣٢٨٦) أبو يعلى (٢٦٧٥)، الطبراني (١١٧٤٢) البيهقي (١٠/ ٤٧) الطحاوي (٢/ ٣٧٩) والحديث ضعيف.

وروي عنه أنه في غزوة تبوك كان يقود به حذيفة، ويسوق به عمار، فخرج بضعة عشر رجلاً حتى صعدوا العقبة ركباناً متلثمين وكانوا قد أرادوا الفتك برسول الله ﷺ، فقال لحذيفة: قد، قد، ولعمار: سق، سق.

فهذا أكثر، لكن ليس في القرآن من هذا شيء، فإن القرآن له شأن اختص به، لا يشبهه كلام البشر لا كلام نبي، ولا غيره، وإن كان نزل بلغة العرب، فلا يقدر مخلوق أن يأتي بسورة، ولا ببعض سورة مثله.

فليس في القرآن تكرار للفظ بعينه عقب الأول قط، وإنما في سورة الرحمن خطابه بذلك بعد كل آية، لم يذكر متوالياً، وهذا النمط أرفع من الأول.

وكذلك قصص القرآن ليس فيها تكراراً(١) كما ظنه بعضهم.

و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ ليس فيها لفظ تكرار إلا قوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ وهو مع الفصل بينهما بجملة.

وقد شبهوا ما في سورة الرحمن بقول القائل لمن أحسن إليه وتابع عليه بالأيادي وهو ينكرها ويكفرها: ألم تك فقيراً فأغنيتك؟ أفتنكر هذا؟ ألم تك عرياناً فكسوتك؟ أفتنكر هذا، ألم تك خاملاً فعرفتك؟ ونحو ذلك، وهذا أقرب من التكرار المتوالي، كما في اليمين المكررة.

وكذلك ما يقوله بعضهم إنه قد يعطف الشيء لمجرد تغاير اللفظ، كقوله:

فألفى قولها كذباً وميناً.

فليس في القرآن من هذا شيء، ولا يذكر فيه لفظ زائد إلا لمعنى زائد وإن كان في ضمن ذلك التوكيد، وما يجيء من زيادة اللفظ في مثل قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٠] وقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣] فالمعنى مع هذا أزيد من المعنى بدونه، فزيادة اللفظ لزيادة المعنى وقوة اللفظ لقوة المعنى، والضم أقوى من الكسر، والكسر أقوى من الفتح، ولهذا يقطع على الضم لما هو أقوى مثل «الكره» و«الكُره» فالكُره هو الشيء

(١) كذا في الأصل.

المكروه كقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] والكره المصدر، كقوله: ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت: ١١] والشيء الذي في نفسه مكروه أقوى من نفس كراهة الكاره.

وكذلك «الذبح» و«الذبح» فالذبح: المذبوح، كقوله: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۝١٠٧﴾ [الصافات]، والذبح: الفعل، والذبح: مذبوح، وهو جسد يذبح، فهو أكمل من نفس الفعل.

قال أبو الفرج[١]: والقول الثاني أن المعنى: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ في حالي هذه، ﴿وَلَآ أَنتُمْ﴾ في حالكم هذه ﴿عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤﴾ في ما أستقبل، وكذلك ﴿أَنتُمْ﴾ فنفى عنهم[٢] في الحال والاستقبال، وهذا في قوم بأعيانهم أعلمه الله أنهم لا يؤمنون، كما ذكرناه عن مقاتل، فلا يكون حينئذ تكرار، قال: وهذا قول ثعلب، والزجاج[٣].

قلت: قد ذكر القولين جماعة، لكن منهم من جعل القول الأول قول أكثر أهل المعاني، فقالوا واللفظ للبغوي: معنى الآية: لا أعبد ما تعبدون في الحال، ولا أنا عابد ما عبدتم في الاستقبال، ولا أنتم عابدون ما أعبد في الاستقبال، وهذا خطاب لمن سبق في علم الله أنهم لا يؤمنون.

قال: وقال أكثر أهل المعاني: نزل بلسان العرب على مجاري[٤] خطابهم ومن مذاهبهم التكرار إرادة للتوكيد والإفهام، كما أن من مذاهبهم الاختصار للتخفيف والإيجاز[٥].

قلت: ومن المفسرين من لم يذكر غير الثاني منهم المهدوي وابن عطية قال ابن عطية: لما كان قوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ﴾ محتملاً أن يراد به الآن، ويبقى المستأنف منتظراً ما يكون فيه من عبادته جاء البيان بقوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤﴾ أي أبداً ما حييت، ثم جاء قوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥﴾ الثاني حتماً عليهم أنهم لا يؤمنون أبداً،

---

(١) عودة لقول أبي الفرج في زاد المسير (٩/ ٢٥٤).
(٢) في المطبوع (عنه وعنهم) ذلك في الحال.
(٣) انتهى كلام ابن الجوزي.
(٤) في المطبوع مجازي.
(٥) البغوي (٤/ ٥٠٥).

كالذين كشف الغيب عنهم، كما قيل لنوح: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦] إما أن هذا فخطاب لمعنيين، وقوم نوح قد عموا بذلك.

قال: فهذا معنى الترديد الذي في السورة، وهو بارع الفصاحة، وليس هو بتكرار فقط، بل فيه ما ذكرته، مع الإبلاغ والتوكيد، وزيادة الأمر بياناً وتبرياً منهم(١).

قلت: هذا القول أجود من الذي قبله من جهة بيانهم لمعنى زائد على التكرير، لكن فيه نقص من جهة أخرى وهو جعلهم هذا خطاباً لمعينين، فنقصوا معنى السورة من هذا الوجه.

وهذا غلط، فإن قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ خطاب لكل كافر، وكان يقرأ بها في المدينة بعد موت أولئك المعينين، ويأمر بها ويقول هي براءة من الشرك، فلو كانت خطاباً لأولئك المعينين، أو لمن علم منهم أنه يموت كافراً، لم يخاطب بها من لم يعلم ذلك منه. وأيضاً فأولئك المعينون إن صح أنه إنما خاطبهم فلم يكن إذا ذاك علم أنهم يموتون على الكفر.

والقول بأنه إنما خاطب بها معينين قول لم يقله من يعتمد عليه، ولكن قد قال مقاتل بن سليمان(٢): إنها نزلت في أبي جهل والمستهزئين، ولم يؤمن من الذين نزلت فيهم أحد، ونقل مقاتل وحده مما لا يعتمد عليه باتفاق أهل الحديث، كنقل الكلبي.

ولهذا كان المصنفون في التفسير من أهل النقل لا يذكرون عن واحد منهما شيئاً، كمحمد بن جرير، وعبد الرحمن بن أبي حاتم، وأبي بكر بن المنذر، فضلاً عن مثل أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه. وقد ذكر غيره هذا عن قريش مطلقاً، كما رواه عبد بن حميد عن وهب بن منبه قال: قالت قريش للنبي ﷺ: «إن سرك أن ندخل في دينك عاماً، وتدخل في ديننا عاماً فنزلت: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ حتى ختمها»(٣) وعن ابن عباس(٤)، قالت قريش: «يا محمد! لو استلمت آلهتنا لعبدنا إلهك، فنزلت

---

(١) المحرر الوجيز (١٦/ ٣٧٥).

(٢) ذكره عن مقاتل في زاد المسير (٩/ ٢٥٣).

(٣) عزاه صاحب الدر لعبد الرزاق وابن المنذر (٦/ ٤٠٤) وهو في عبد الرزاق (٢/ ٤٠٣)، والطبري (١٥/ ٣٣١).

(٤) عزاه صاحب الدر لعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه (٦/ ٤٠٤).

السورة». وعن قتادة قال: أمره الله أن ينادي الكفار فناداهم بقوله: ﴿يَتَأَيُّهَا﴾.

وروى ابن أبي حاتم عن وهب بن منبه: قال كفار قريش، فذكره وقال عكرمة: برأه الله بهذه السورة من عبدة جميع الأوثان ودين جميع الكفار، وقال قتادة: أمر الله نبيه أن يتبرأ من المشركين فتبرأ منهم.

وروى قتادة عن زرارة بن أوفى: كانت تسمى «المقشقشة»[١] يقال قشقش فلان، إذا برئ من مرضه، فهي تبرئ صاحبها من الشرك. وبهذا بعثها النبي ﷺ في الحديث المعروف في المسند والترمذي من حديث إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن فروة بن نوفل عن أبيه عن النبي ﷺ قال له: «مجيء ما جاء بك؟ قال: جئت يا رسول الله لتعلمني شيئاً أقوله عند منامي. قال: «إذا أخذت مضجعك فاقرأ: ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ ثم نم على خاتمتها فإنها براءة من الشرك»[٢].

رواه غير واحد عن أبي إسحاق، وكان تارة يسنده، وتارة يرسله، رواه عنه زهير، وإسرائيل مسنداً، ورواه عنه شعبة ولم يذكر عن أبيه وقال عن أبي إسحاق، . عن رجل، عن فروة بن نوفل، ولم يقل «عن أبيه» قال الترمذي: وحديث زهير أشبه وأصح من حديث شعبة قال: وقد روي هذا الحديث من غير هذا الوجه، فرواه عبد الرحمن بن نوفل، عن أبيه عن النبي ﷺ وعبد الرحمن بن نوفل هو أخو فروة بن نوفل.

قلت: وقد رواه عن أبي إسحاق إسماعيل بن أبي خالد قال: جاء رجل من أشجع إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله علمني كلاماً أقوله عند منامي قال: «إنك لنا ظئر، اقرأ: ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ عند منامك، فإنها براءة من الشرك»[٣].

فقد أمر رسول الله ﷺ واحداً من المسلمين أن يقرأها وأخبره أنها براءة من الشرك، فلو كان الخطاب لمن يموت على الشرك كانت براءة من دين أولئك فقط، لم تكن براءة من الشرك الذي يسلم صاحبه فيما بعد، ومعلوم أن المقصود منها أن تكون براءة من كل شرك اعتقادي وعملي.

---

(١) ابن أبي حاتم كما في الدر (٦/ ٤٠٤).

(٢) الترمذي (٣٤٠٣) وأحمد (٥/ ٤٥٦) وفي العلل (٢/ ٢٢٤) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٨٠١) أبو داود (٥٠٥٥) والحاكم (٢/ ٥٣٨) وهو صحيح.

(٣) أحمد (٥/ ٤٥٦) والحديث صحيح.

وقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ خطاب لكل كافر وإن أسلم فيما بعد فدينه قبل الإسلام له كان والمؤمنون بريئون منه، وإن غفره الله له بالتوبة منه، كما قال لنبيه: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢١٦﴾ [الشعراء] فإنه بريء من معاصي أصحابه وإن تابوا منها، وهذا كقوله: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٤١﴾ [يونس].

وروى ابن أبي حاتم، حدثنا أبي ثنا محمد بن موسى الحرشي[1]، ثنا أبو خلف عبد الله بن عيسى، ثنا داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس أن قريشاً دعوا رسول الله ﷺ إلى أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل فيهم، ويزوجوه ما شاء من النساء، ويطأوا عقبه أي يسودوه فقالوا: هذا لك عندنا، يا محمد! وكف عن شتم آلهتنا، فلا تذكرها بسوء، فإن لم تفعل فإنا نعرض عليك خصلة واحدة، وهي لك ولنا فيها صلاح. قال: «ما هي؟» قالوا نعبد آلهتنا سنة اللات والعزى ونعبد إلهك سنة قال: «حتى أنظر ما يأتيني من ربي» فجاءه الوحي من الله من اللوح المحفوظ[2]:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ إلى آخرها، وأنزل الله عليه: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ۝٦٤ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٦﴾ [الزمر].

وقوله: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ خطاب لكل من عبد غير الله وإن كان قد قدر له أن يتوب فيما بعد، وكذلك كل مؤمن يخاطب بهذا من عبد غير الله.

وقوله في هذا الحديث: «حتى أنظر ما يأتيني من ربي» قد يقول هذا من يقصد به دفع الظالمين بالتي هي أحسن ليجعل حجته أن الذي عليه طاعته قد منع من ذلك، فيؤخر الجواب حتى يستأمره، وإن كان هو يعلم أن هذا القول الذي قالوا لا سبيل إليه.

وقد تخطب إلى الرجل ابنته فيقول: حتى أشاور أمها، وهو يريد أن لا يزوجها بذلك، ويعلم أن أمها لا تشير به، وكذلك قد يقول النائب: حتى أشاور السلطان.

فليس في مثل هذا الجواب تردد ولا تجويز منه أن الله يبيح له ذلك. وقد كان

---

(١) في المجموع الجرشي والصحيح «الحرشي» كما في تهذيب التهذيب (٩/ ٤٢٥).
(٢) الطبري (١٥/ ٣٣١).

جماعة من قريش من الذين يأمرونه وأصحابه أن يعبدوا غير الله، ويقاتلونهم ويعادونهم عداوة عظيمة على ذلك، ثم تابوا وأسلموا وقرأوا هذه السورة.

ومن النقلة من يعين ناساً غير الذين عينهم غيره، منهم من يذكر أبا جهل وطائفة، ومنهم من يذكر عتبة بن ربيعة وطائفة، ومنهم من يذكر الوليد بن مغيرة وطائفة، ومنهم من يقول: طلبوا أن يعبدوا الله معه عاماً ويعبد آلهتهم معهم عاماً، ومنهم من يقول: طلبوا أن يستلم آلهتهم.

ومنهم من يقول: طلبوا الاشتراك، كما روى ابن أبي حاتم وغيره عن ابن إسحاق قال: حدثني سعيد بن ميناء مولى أبي البختري قال: لقي الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، وأمية بن خلف، رسول الله ﷺ، فقالوا: هلم فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبد، ولنشترك نحن وأنت في أمرنا كله، فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا كنا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما بيدك كنت قد شركتنا في أمرنا وأخذت بحظك منه. فأنزل الله السورة[١].

وهذا منقول عن عبيد بن عمير، وفيه أن القائل له عتبة، وأمية. فهذه الروايات متطابقة على معنى واحد، وهو أنهم طلبوا منه أن يدخل في شيء من دينهم، ويدخلوا في شيء من دينه، ثم إن كانت كلها صحيحة فقد طلب منه تارة هذا وتارة هذا، وقوم هذا وقوم هذا.

وعلى كل تقدير فالخطاب للمشركين كلهم من مضى، ومن يأتي إلى يوم القيامة.

وقد أمره الله بالبراءة من كل معبود سواه، وهذه ملة إبراهيم الخليل، وهو مبعوث بملته. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ [الزخرف].

وقال الخليل أيضاً: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام] وقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ

(١) زاد المسير (٩/٢٥٣).

﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤] وقال لنبيه: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس].

فقد أمره الله أن يتبرأ من عمل كل من كذبه، وتبريه هذا يتناول المشركين وأهل الكتاب.

وقد ذكر المهدوي هذا القول، وذكر معه قولين آخرين، فقال: الألف واللام ترجع إلى معهود وإن كانت للجنس حيث كانت صفة، لأن لامها مخاطبة لمن سبق في علم الله أن يموت كافراً، فهي من الخصوص الذي جاء بلفظ العموم.

وتكرير ما كرر فيها ليس بتكرير في المعنى، ولا في اللفظ، سوى موضع واحد منها، فإنه تكرير في اللفظ دون المعنى، بل معنى ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾ في الحال ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾﴾ في الحال ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾﴾ في الاستقبال ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾﴾ في الاستقبال.

قال: فقد اختلف اللفظ والمعنى في قوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ﴾، وما بعده ﴿وَلَآ أَنَا۠﴾، وتكرر ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾﴾ في اللفظ دون المعنى.

قال: وقيل إن معنى الأول: ولا أنتم عابدون ما عبدت. ومعنى الثاني: ولا أنتم عابدون ما أعبد، فعدل عن لفظ عبدت للإشعار بأن ما عبد في الماضي هو الذي يعبد في المستقبل قد يقع أحدهما موقع الآخر، وأكثر ما يأتي ذلك في إخبار الله تعالى، ويجوز أن تكون ﴿مَآ﴾ والفعل مصدراً، وقيل إن معنى الآيات وتقديرها ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾﴾ لا أعبد الأصنام الذي تعبدون، ولا أنتم عابدون الذي أعبده، لإشراككم به، واتخاذكم معه الأصنام، فإن زعمتم أنكم تعبدونه فأنتم كاذبون، لأنكم تعبدونه مشركين به، فأنا لا أعبد ما عبدتم، أي مثل عبادتكم فهو في الثاني مصدر، وكذلك: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾﴾ هو في الثاني مصدر أيضاً، معناه: ولا أنتم عابدون مثل عبادتي التي هي توحيد. قلت: القول الثالث هو في معنى الثاني، لكن جعل قوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾﴾ معنيين: أحدهما بمعنى ما عبدت والآخر بمعنى ﴿مَآ أَعْبُدُ﴾ ليطابق قوله لهم ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾ ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾﴾.

فلما تبرأ من أن يعبد في الحال والاستقبال ما يعبدونه في الماضي والحال، كذلك برأهم من عبادة ما يعبد في الحال والاستقبال، لكن العبارة عنهم وقعت بلفظ الماضي، قال هؤلاء: وإنما لم يقل في حقه: «ما عبدت» للإشعار بأن ما أعبده في الماضي هو الذي أعبده في المستقبل.

قلت: أصحاب هذا القول أرادوا المطابقة كما تقدم. لكن إذا أريد بقوله: ﴿مَّا عَبَدتُّمْ﴾ [ما أريد] بقوله: ﴿مَآ أَعْبُدُ﴾ ـ في أحد الموضعين الماضي ـ كان التقدير على ما ذكروه: لا أنا عابد في المستقبل ما عبدتم في الماضي، فيكون قد نفى عن نفسه في المستقبل عبادة ما عبدوه في الماضي دون ما يعبدونه في المستقبل. وكذلك إذا قيل: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾، أي في الماضي، فسواء أريد بما يعبدون الحال أو الاستقبال إنما نفى عبادة ما عبدوه في الماضي، وهذا أنقص لمعنى الآية، وكيف يتبرأ في المستقبل من عبادة ما عبدوه في الماضي فقط؟ وكذلك هم؟

وإن قيل: في المستقبل قد يعبدون الله بالانتقال عن الكفر، فهو في الحال والاستقبال لا يعبد ما عبدوه، قيل: فعلى هذا لا يقال لهؤلاء: ولا أنتم عابدون في المستقبل ما عبدت في الماضي، بل قد يعبدون في المستقبل ـ إذا انتقلوا ـ ربه الذي عبده فيما مضى. وإن قيل: قول هؤلاء هو القول الثاني لا أعبد في الحال ما تعبدون في الحال، ولا أعبد في المستقبل ما تعبدون في المستقبل قيل ولفظ الآية: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤﴾، ليس لفظها «ولا أنا عابد ما تعبدون» فقوله: ﴿مَّا عَبَدتُّمْ﴾ إن أريد به الماضي الذي أراده هؤلاء فسد المعنى، وإن أريد به المستقبل بطل ما ذكروه من أن المضارع بمعنى الماضي في قوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾. فإن الماضي هنا بمعنى المضارع، فإذا كان المضارع مطابقاً له بقي مضارعاً لم ينقل إلى الماضي فيكون عكس المقصود.

والقول الرابع الذي ذكره قول من جعل ﴿مَآ﴾ مصدرية، في الجملة الثانية دون الأخرى وهذا أيضاً ليس في الكلام ما يدل على الفرق بينهما، وإذا جعلت في الجمل كلها مصدرية كان أقرب إلى الصواب مع أن هذا المعنى الذي تدل عليه ما المصدرية حاصل بقوله: ﴿مَآ﴾، فإنه لم يقل: «ولا أنتم عابدون من أعبد»، بل قال: ﴿مَآ أَعْبُدُ﴾ ولفظ ﴿مَآ﴾ يدل على الصفة بخلاف «من» فإنه يدل على العين، كقوله: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ

لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣] أي الطيب ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾﴾ [الشمس] أي وبانيها، ونظيره قوله: ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ﴾ [البقرة: ١٣٣] ولم يقل: «من تعبدون من بعدي».

وهذا نظير قوله] ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾﴾ سواء، فالمعنى: لا أعبد معبودكم، ولا أنتم عابدون معبودي.

فقوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾﴾ يتناول شركهم، فإنه ليس بعبادة لله، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه، فإذا أشركوا به لم يكونوا عابدين له وإن دعوه وصلوا له.

وأيضاً فما عبدوا ما يعبده وهو الموصوف بأنه معبود له على جهة الاختصاص، بل هذا يتناول عبادته وحده، ويتناول الرب الذي أخبر به بما له من الأسماء والصفات، فمن كذب به في بعض ما أخبر به عنه فما عبد ما يعبده من كل وجه.

وأيضاً فالشرائع قد تتنوع في العبادات، فيكون المعبود واحداً وإن لم تكن العبادة مثل العبادة وهؤلاء لا يتبرأ منهم، فكل من عبد الله مخلصاً له الدين فهو مسلم في كل وقت، ولكن عبادته لا تكون إلا بما شرعه، فلو قال: لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتي، فقد يظن أنه تدخل فيه البراءة من كل عبادة تخالف صورتها صورة عبادته، وإنما البراءة من المعبود وعبادته.

فصل

إذا تبين هذا فنقول: القرآن تنزيل من حكيم حميد، وهو كتاب أحكمت آياته ثم فصلت.

ولو أن رجلاً من بني آدم له علم، أو حكمة، أو خطبة، أو قصيدة، أو مصنف، فهذب ألفاظ ذلك وأتى فيه بمثل هذا التغاير لعلم أنه قصد في ذلك حكمة، وأنه لم يخالف بين الألفاظ مع اتحاد المعنى سدى، فكيف بكلام رب العالمين، وأحكم الحاكمين، لا سيما وقد قال فيه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء].

فنقول: الفعل المضارع هو في اللغة يتناول الزمن الدائم سوى الماضي، فيعم

الحاضر والمستقبل، كما قال سيبويه: وبنوه لما مضى من الزمان، ولما هو دائم لم ينقطع، ولما لم يأت بمعنى الماضي، والمضارع، وفعل الأمر، فجعل المضارع لما هو من الزمان دائماً لم ينقطع، وقد يتناول الحاضر والمستقبل.

فقوله: ﴿لَآ أَعۡبُدُ﴾ يتناول نفي عبادته لمعبودهم في الزمان الحاضر والزمان المستقبل، وقوله: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ﴾ يتناول ما يعبدونه في الحاضر والمستقبل، كلاهما مضارع.

وقال في الجملة الثانية عن نفسه: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤﴾، فلم يقل «لا أعبد» بل قال: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ﴾ ولم يقل «ما تعبدون» بل قال: ﴿مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ فاللفظ في فعله وفعلهم مغاير للفظ في الجملة الأولى.

والنفي بهذه الجملة الثانية أعم من النفي بالأولى، فإنه قال: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤﴾ بصيغة الماضي، فهو يتناول ما عبدوه في الزمن الماضي، لأن المشركين يعبدون آلهة شتى، وليس معبودهم في كل وقت هو المعبود في الوقت الآخر، كما أن كل طائفة لها معبود سوى معبود الطائفة الأخرى.

فقوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤﴾ براءة من كل ما عبدوه في الأزمنة الماضية، كما تبرأ أولاً مما عبدوه في الحال والاستقبال، فتضمنت الجملتان البراءة من كل ما يعبده المشركون والكافرون في كل زمان ماض، وحاضر، ومستقبل، وقوله أولاً: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢﴾ لا يتناول هذا كله.

وقوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ﴾ اسم فاعل قد عمل عمل الفعل، ليس مضافاً، فهو يتناول الحال والاستقبال أيضاً، لكنه جملة اسمية، والنفي بما بعد الفعل فيه زيادة معنى، كما تقول: ما أفعل هذا وما أنا بفاعله. وقولك: «ما هو بفاعل هذا أبداً» أبلغ من قولك «ما يفعله أبداً» فإنه نفى عن الذات صدور هذا الفعل عنها، بخلاف قولك (ما يفعل هذا)، فإنه لا ينفي إمكانه وجوازه منه، ولا يدل على أنه لا يصلح له ولا ينبغي له! بخلاف قوله: «ما هو فاعلاً، وما هو بفاعل» كما في قوله: ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ [النحل: ٧١] وقوله: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾ [إبراهيم: ٢٢] وقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥] ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ﴾

[النمل: ٨١] ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢] ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ١٠٢].

ولا يقال: الجملة الاسمية ترك الثبوت، ونفي ذلك لا يقتضي نفي العارض، فإن هذه الجملة في معنى الفعلية نفي لكونها عملت عمل الفعل، لكنه دلت على اتصاف الذات بهذا، فنفت عن الذات أن يعرض لها هذا الفعل تنزيهاً للذات ونفياً لقبولها لذلك، فالأول نفي الفعل في الماضي والمستقبل، والثاني نفي قبوله في الماضي مع الحاضر والمستقبل.

فقوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤﴾ أي نفسي لا تقبل، ولا يصلح لها أن تعبد ما عبدتموه قط ولو كنتم عبدتموه في الماضي فقط، فأي معبود عبدتموه في وقت، فأنا لا أقبل أن أعبده في وقت من الأوقات.

ففي هذا من عموم عبادتهم في الماضي والمستقبل، ومن قوة براءته وامتناعه وعدم قبوله لهذه العبادة في جميع الأزمان ما ليس في الجملة الأولى، تلك تضمنت نفي الفعل في الزمان غير الماضي، وهذه تضمنت نفي إمكانه وقبوله لما كان معبوداً لهم ولو في بعض الزمان الماضي فقط.

والتقدير: ما عبدتموه ولو في بعض الأزمان الماضية فأنا لا يمكنني ولا يسوغ لي أن أعبده أبداً.

ولكن لم ينف إلا ما يكون منه في الحاضر والمستقبل لأن المقصود براءته هو في الحال والاستقبال، وهذه السورة يؤمر بها كل مسلم وإن كان قد أشرك بالله قبل قراءتها.

فهو يتبرأ في الحاضر والمستقبل مما يعبده المشركون في أي زمان كان، وينفي جواز عبادته لمعبودهم، ويبين أن مثل هذا لا يكون ولا يصلح ولا يسوغ، فهو ينفي جوازه شرعاً ووقوعاً، فإن مثل هذا الكلام لا يقال إلا فيما يستقبح من الأفعال، كمن دعي إلى ظلم أو فاحشة فقال: أنا أفعل هذا؟؟ ما أنا بفاعل هذا أبداً وهذا كقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ﴾ [البقرة: ١٤٥].

فهو يتضمن نفي الفعل بغضاً فيه وكراهة له، بخلاف قوله: «لا أفعل» فقد يتركه الإنسان وهو يحبه لغرض آخر، فإذا قال: «ما أنا عابد ما عبدتم» دل على البغض والكراهية لمعبودهم ولعبادتهم إياه وهذه هي البراءة.

ولهذا تستعمل في ضد الولاية فيقال: تول فلاناً، وتبرأ من فلان، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية [الممتحنة: ٤].

وأما قوله عن الكفار: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾﴾ فهو خطاب بجنس الكفار وإن أسلموا فيما بعد، فهو خطاب لهم ما داموا كفاراً، فإذا أسلموا لم يتناولهم ذلك، فإنهم حينئذ مؤمنون، لا كافرون، وإن كانوا منافقين فهم كافرون في الباطن فيتناولهم الخطاب.

وهذا كما يقال: قل يا أيها المحاربون، والمخاصمون، والمقاتلون، والمعادون، فهو خطاب لهم ما داموا متصفين بهذه الصفة. وما دام الكافر كافراً فإنه لا يعبد الله، وإنما يعبد الشيطان، سواء كان متظاهراً، أو غير متظاهر به كاليهود.

فإن اليهود لا يعبدون الله، وإنما يعبدون الشيطان، لأن عبادة الله إنما تكون بما شرع وأمر، وهم وإن زعموا أنهم يعبدونه فتلك الأعمال المبدلة والمنهي عنها هو يكرهها ويبغضها، وينهى عنها، فليست عبادة.

فكل كافر بمحمد لا يعبد ما يعبده محمّد ما دام كافراً. والفعل المضارع يتناول ما هو دائم لا ينقطع، فهو ما دام كافراً لا يعبد معبود محمّد ﷺ لا في الحاضر ولا في المستقبل.

ولم يقل عنهم «ولا تعبدون ما أعبد» بل ذكر الجملة الاسمية ليبين أن نفس نفوسكم الخبيثة الكافرة بريئة من عبادة إله محمّد، لا يمكن أن تعبده ما دامت كافرة، إذ لا تكون عابدته إلا بأن تعبده وحده بما أمر به على لسان محمّد. ومن كان كافراً بمحمد لا يكون عمله عبادة لله قط.

وتبرئتهم من عبادة الله جاءت بلفظ واحد بجملة اسمية تقتضي براءة ذواتهم من عبادة الله، لم تقتصر على نفي الفعل.

ولم يحتج أن يقول فيهم: «ولا أنتم عابدون ما عبدت» كما قال في نفسه: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾﴾ لوجهين:

أحدهما: أن كل مؤمن فهو مأمور بقراءة هذه السورة، ومنهم من كان معبوده غير الله، فلو قال: «ولا أنتم عابدون ما عبدت» لقالوا: بل نحن نعبد ما كنت تعبد لما كنت مشركاً، بخلاف ما إذا قال: «ولا أنتم عابدون ما أعبده في هذا الوقت»، ولم يقل «ما أنا عابد له» إذ نفسه قد لا تكون عابدة له مطلقاً، وقد يجوز أن يعبد الواحد من الناس غير الله في المستقبل، فلا يكون من لم يعبد ما يعبده في المستقبل مذموماً، بخلاف المؤمن الذي يخاطب بهذه السورة غيره، فإنه حين يقولها ما يعبد إلا الله، فهو يقول للكفار: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ الآن وذكر النفي عن الكفار في جملتين لتقارب كل جملة جملة، فلما قال: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ فنفى الفعل، قال: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾.

ثم لما زاد النفي بنفي جواز ذلك وبراءة النفس منه ذكر ما يدل على كراهته له وقبحه، ونفى أن يعبد شيئاً مما عبدوه ولو في بعض الزمان قال: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ بل أنتم بريئون من عبادة ما أعبده، فليس لبرائتي، وكمال برائتي وبعدي من معبودكم وكمال قربي إلى الله في عبادتي له وحده لا شريك له، يكون لكم نصيب من هذه العبادة، بل أنتم أيضاً في هذه الحال لا تعبدون ما أعبد لا في الحال الأولى، ولا في الثانية.

ولو اقتصر في تبريهم من عبادة الله على الجملة الأولى لم يكن فيها تبرئة لهم في هذه الحال الثانية، فبرأهم من معبوده حين البراءة الأولى الخاصة، وحين البراءة الثانية العامة القاطعة.

وهم لم يختلف حالهم في الحالين، بل هم فيهما لا يعبدون ما يعبد، فلم يكن في تغيير العبارة فائدة وإنما غيرت العبارة في حقه وحق المؤمنين لتغيير المعنيين.

والإنسان يقوى يقينه وإخلاصه، وتوحيده، وبراءته من الشرك وأهله، وبغضه لما يعبدون ولعبادتهم، فرفع درجته في ذلك، وهو في ذلك يقول للكفار «لا تعبدون ما أعبد» في هذه الحال سواء كانوا هم قد زاد كفرهم وبغضهم له أو لم يزد.

فالمقصود بالسورة أن المؤمن يتبرأ منهم، ويخبرهم أنهم برآء منه، وتبريه منهم إنشاء ينشئه، كما ينشئ المتكلم بالشهادتين، وهذا يزيد وينقص، ويقوى ويضعف.

وأما هم فهو يخبر ببراءتهم منه في هذه الحال، لا ينشئ شيئاً لم يكن فيهم فخطاب المؤمن عن حالهم خبر عن حالهم، والخبر مطابق للمخبر عنه، فلم يتغير لفظ خبره عنهم، إذا[1] كانوا في كل وقت من أوقات عبادته لله لا يعبدون ما يعبد، فهذا اللفظ الخبري مطابق لحالهم في جميع الأوقات زادوا أو نقصوا.

ولا يجوز للمؤمن أن ينشئ زيادة في كفرهم، فإن ذلك محرم، بل هو مأمور بدعائهم إلى الإيمان، وليس له أن ينقصهم في خبره عما هم متصفون به، فلم يكن في الإخبار عن حالهم زيادة فيما هم عليه ولا نقص، فلم يغير لفظ الخبر في الحالين بلفظ واحد، وأما المؤمن نفسه فهو مأمور بأن ينشئ قوة الإخلاص لله وحده، وعبادته وحده، والبراءة من كل معبود سواه وعبادته، وبراءته منه ومن عابديه، وقوله: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢﴾ وإن كان لفظها خبراً ففيها معنى الإنشاء كسائر ألفاظ الإنشاءات، كقوله (أشهد أن لا إله إلا الله)، وقوله: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [الزخرف] وقوله: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨] فكل هذه الأقوال فيها معنى الإنشاء لها ينشئه المؤمن في نفسه من زيادة البراءة من الشرك وهي المقشقشة التي تقشقش من الشرك، كما يقشقش المريض من المرض، فإن الشرك والكفر أعظم أمراض القلوب، فأمر المؤمن بقول يوجب في قلبه من البراءة من الشرك ما لم يكن في قلبه قبل ذلك، وكلما قاله ازداد براءة من الشرك، وقلبه شفاء من المرض، وإن كان الكفرة المخاطبون لا يزدادون بالإخبار عنهم إلا كفراً، فالجملة الخبرية تطابق المخبر عنه، والإنشاء يوجب إحداث ما لم يكن. فقيل: ﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢﴾ أي أنا ممتنع من هذا، تارك له، ثم قال: ﴿وَلَآ أَنَآ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤﴾ أي أنا بريء من هذا، متنزه عنه، مزكٍ لنفسي منه، فإن الشرك أعظم ما تنجس به النفس، وأعظم تزكية النفس وتطهيرها تزكيتها منه وتطهيرها منه، فما أنا عابد قط ما عبدتم في وقت من الأوقات.

وأنتم مع ذلك ما أنتم عابدون ما أعبد، بل أنتم بريئون مما أعبد، وأنا بريء مما تعبدون، مأمور بالبراءة منه، وطالب زيادة البراءة منه، ومجتهد في ذلك.

---

(١) كذا في الأصل، ولعلها: إذ.

وأنا أخبر عنكم بأنكم بريئون مما أعبد، إما لكونكم تأمرون بذلك وإما لكونكم تعبدونه، فلا أخبر به، فإنه كذب، وإما لكونكم تجتهدون في البراءة وتبالغون فيها فبها تختلف فيه أحوالكم.

وأنا لا يسوغ لي أن أذكر ما يزيل[١] براءتكم، ولا أكذب عليكم فإنكم[٢] تنقصون منها إذا تبرأت، بل التبري منها داع وباعث لمن له عقل أن ينظر في سبب هذه البراءة، لا سيما في حق الرسول الذي خوطب أولاً بقوله: ﴿قُلْ﴾.

فلينظر العاقل في سبب براءتي من الشرك وما أنتم عليه، واختياري به عداوتكم، والصبر على أذاكم، واحتمالي هذه المكاره العظيمة، بعد ما كنتم تعظمونني غاية التعظيم، وتصفونني بالأمانة، وتسمونني «الأمين» وتفضلونني على غيري، ونسبي فيكم أفضل نسب وتعرفون ما جعل الله فيَّ من العقل والمعرفة ومكارم الأخلاق وحسن المقاصد وطلب العدل والإحسان وأني لا أختار لأحد منكم سوءاً، ولا أريد أن أصيب أحداً بشر، فاختياري للبراءة مما تعبدون، وإظهاري لسبهم وشتمهم، أهو سدى ليس له موجب أو وجه؟ فانظروا في ذلك. ففي السورة دعاء وبعث للكفار إلى طلب الحق ومعرفته، مع ما فيها من كمال البراءة منهم.

ومعانيها كثيرة شريفة يطول وصفها.

وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ يتناول كل كافر، فهو لا يعبد ما يعبده أحد من الكفار ولا مشركي العرب، ولا غيرهم من المشركين والكفار أهل الكتاب لا اليهود ولا النصارى، ولا غيرهم من أصناف الكفار، وذلك أنه قال: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾. فذكر لفظ (ما) ولم يقل: (من تعبدون) و(ما) تدل على الصفة كما تقدم، وما ذكره المهدوي وغيره من أنه قال: ﴿مَآ أَعْبُدُ﴾ ولم يقل «من أعبد» يقابل به «ولا أنا عابد [ما عبدتم] الذي يراد به الأصنام، فضعيف جداً يغير اللغة ويخص عموم القرآن ـ وهو عموم مقصود ـ ويزيل المعنى الذي به تعلقت هذه البراءة.

فإن (ما) في اللغة إما لما لا يعلم، أو لصفات ما يعلم، كما في قوله: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا

---

(١) كتب عبد الصمد (يزيد)، قلت: ولعلها الصواب.

(٢) كذا في الأصل، ولعل الصواب: بأنكم.

طَابَ﴾ [النساء: ٣] ﴿وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧] ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣﴾ [الليل]، وفي التسبيح المأثور أنه يقال عند سماع الرعد: «سبحان ما سبحت له»(١) ومثله كثير فقوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ جار على أصل اللغة، وأيضاً فقوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ خطاب للكفار مطلقاً، فهو لا يعبد الملائكة ولا غير ذلك مما عبد من دون الله وإن كان ما عبد أهل العلم والعقل فعبر عن ذواتهم بـ«من» فتخصيص البراءة من الشرك بشرك مشركي العرب غلط عظيم، وإنما هي براءة من كل شرك.

وكون الرب يتصف بما تتصف به الأصنام من عدم العلم ما لا يجوز عليه، ولا تصح المقابلة في مثل ذلك، بل المقصود ذكر الصفات والإخبار بمعبود الرسول والمؤمنين ليتبرأ من معبودهم ويبرئهم من معبوده. وإذا قال اليهود: نحن نقصد عبادة الله. كانوا كاذبين، سواء عرفوا أنهم كاذبون أم لم يعرفوا، كما يقول النصارى: إنا نعبد الله وحده وما نحن بمشركين، وهم كاذبون، لأنهم لو أرادوا عبادته لعبدوه بما أمر به، وهو الشرع لا بالمنسوخ المبدل.

وأيضاً فالرب الذي يزعمون أنهم يقصدون عبادته هو عندهم رب لم يُنْزِلْ الإنجيل ولا القرآن، ولا أرسل المسيح ولا محمداً، بل هو عند بعضهم فقير وعند بعضهم بخيل، وعند بعضهم عاجز، وعند بعضهم لا يقدر أن يغير ما شرعه، وعند جميعهم أنه أيد الكاذبين المفترين عليه الذين يزعمون أنهم رسله وليسوا رسله، بل هم كاذبون سحرة، قد أيدهم ونصرهم، ونصر أتباعهم على أوليائه المؤمنين، لأنهم عند أنفسهم أولياؤه دون الناس، فالرب الذي يعبدونه هو دائماً ينصر أعداءه. فهم يعبدون هذا الرب. والرسول والمؤمنون لا يعبدون هذا المعبود الذي تعبده اليهود، فهو منزه عما وصفت به اليهود معبودها من جهة كونه مبعوداً لهم منزه عن هذه الإضافة، فليس هو معبوداً لليهود، وإنما في جبلاتهم صفات ليست هي صفاته زينها لهم الشيطان، فهم يقصدون عبادة المتصف بتلك الصفات، وإنما هو الشيطان.

فالرسول والمؤمنون لا يعبدون شيئاً تعبده اليهود وإن كانوا يعبدون من يعبدونه، وهذا مما يظهر به فائدة ما ذكرنا.

---

(١) هذا الأثر رواه الطبري (٣٠/٢١٨) عن أبي عمرو يقول: وأهل مكة يقولون للرعد فذكره.

وعلى هذا فقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ خطاب لجميع الكفار كما دلت عليه الآية. وبهذا يظهر خطأ من قال إنه خطاب للمشركين والنصارى دون اليهود، كما في قول ابن زيد: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ قال للمشركين والنصارى، واليهود لا يعبدون إلا الله، ولا يشركون إلا أنهم يكفرون ببعض الأنبياء بما جاؤوا به من عند الله، ويكفرون برسول الله ﷺ وبما جاء به، وقتلوا طوائف الأنبياء ظلماً وعدواناً. قال: إلا العصابة التي تقول حيث خرج بختنصر، وقيل: من سموا عزيراً (ابن الله) ولم يعبدوه[١]، ولم يفعلوا كما فعلت النصارى قالت: المسيح ابن الله، وعبدته.

فهذا الذي ذكره من أن اليهود لا تشرك كما أشركت العرب والنصارى صحيح، لكنهم مع هذا لا يعبدون الله، بل يستكبرون عن عبادته، ويعبدون الشيطان، لا يعبدون الله. ومن قال إن اليهود تعبد الله فقد غلط غلطاً قبيحاً، فكل من عبد الله كان سعيداً من أهل الجنة، وكان من عباد الله الصالحين. قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١﴾ [يس].

وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمين: «إنك تأتي قوماً أهل كتاب، فأول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وفي رواية: (فادعهم إلى عبادة الله فإذا عرفوا الله فأعلمهم...)»[٢].

فلا يُعْبَدُ إلا الله بعد أن أَرْسَلَ محمداً وعُرِفَت رسالتُه وبُلِّغَتْ. ولهذا اتفق العلماء على أن أعمالهم حابطة، ولو عبدوا الله لم تحبط أعمالهم، فإن الله لا يظلم أحداً.

وقبل إرسال محمد إنما كان يعبد الله من عبده بما أمر به، فأما من ترك عبادته بما أمر به واتبع هواه فهو لا يعبد الله، إنما يعبد الشيطان، ويعبد الطاغوت، وقد أخبر الله عن اليهود بأنهم عبدوا الطاغوت، وأنه لعنهم وغضب عليهم وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت.

وهو اسم جنس يدخل فيه الشيطان، والوثن، والكهان، والدرهم والدينار، وغير

---

(١) في تفسير ابن حرير هكذا (إلا العصابة التي بقوا حتى خرج بختنصر وقالوا عزير ابن الله دعى الله ولم يعبدوه) (عبد الصمد).

(٢) مرّ تخريجه.

ذلك وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١] وقال: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ [البقرة].

وهم أشد عداوة للمؤمنين من النصارى، وكفرهم أغلظ، وهم مغضوب عليهم، ولهذا قيل: إنهم تحت النصارى في النار، واليهود إن لم يعبدوا المسيح فقد افتروا عليه وعلى أمه بما هو أعظم من كفر النصارى، ولهذا جعل الله النصارى فوقهم إلى يوم القيامة.

فالنصارى مشركون يعبدون الله ويشركون به، وأما اليهود فلا يعبدون الله، بل هم معطلون لعبادته، مستكبرون عنها كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم استكبروا ففريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون، بل هم متبعون أهواءهم عابدون للشيطان.

فالنبي والمؤمنون لا يعبدون ما تعبده اليهود، وهم وإن وصفوا الله ببعض ما يستحقه فهم يصفونه بما هو منزه عنه وليس في قلوبهم عبادة له وحده، فإن ذلك لا يكون إلا لمن عبده بما أمره به. والسورة لم يقل فيها: (يا أيها المشركون) حتى يقال فيها إنها إنما تناولت من أشرك بل قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فتناولت كل كافر سواء كان ممن يظهر الشرك، أو كان فيه تعطيل لما يستحقه الله واستكبار عن عبادته، والتعطيل شر من الشرك، وكل معطل فلا بد أن يكون مشركاً.

والنصارى مع شركهم لهم عبادات كثيرة، واليهود من أقل الأمم عبادة وأبعدهم عن العبادة لله وحده، لكن قد يعرفون ما لا تعرفه النصارى، لكن بلا عبادة وعمل بالعلم، فهم مغضوب عليهم، وأولئك ضالون، وكلاهما قد برأ الله منهم رسوله والمؤمنين.

وفي هذه الأمة من يعرف ما لا تعرفه اليهود والنصارى بلا عمل بالعلم، ففيهم شبه، كما قال سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى، بل قد قال أبو هريرة: ما أقرب الليلة من البارحة، أنتم أشبه الناس ببني إسرائيل، بل في الحديث الصحيح: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» قالوا: اليهود

والنصارى؟ قال: فمن؟ وفي رواية: فارس والروم؟ قال: «ومن الناس إلا أولئك؟»[(١)].

وقال: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة. وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة»[(٢)].

وقد بسط هذا في غير هذا الموضع، وبين فيه حال الفرقة الناجية الذين هم على مثل ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه.

ومما يوضح ما تقدم أن قوله: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣﴾ معناه المعبود، ولكن هو لفظ مطلق يتناول الواحد والكثير، والمذكر والمؤنث، فهو يتناول كل معبود لهم.

والمعبود هو الإله فكأنه قال: لا أعبد إلهكم ولا تعبدون إلهي، كما ذكر الله في قصة يعقوب قال تعالى: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ۝١٣٣﴾ [البقرة]، واسم الإله والمعبود يتضمن إضافة إلى العابد، وقال: ﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾، هو الذي يعبده هؤلاء صلوات الله وسلامه عليهم ويألهونه.

وإنما يعبده من كان على ملتهم، كما قال يوسف: ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٣٧ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ إلى قوله ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٣٧ ـ ٤٠].

فتبين أن ملة آبائه هي عبادة الله، وهي ملة إبراهيم، وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ﴾ إلى قوله ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠ ـ ١٣٢].

وإذا كان كذلك فاليهود والنصارى ليسوا على ملة إبراهيم، وإذا لم يكونوا على

---

(١) مرّ تخريجه.

(٢) مرّ تخريجه.

ملته لم يكونوا يعبدون إله إبراهيم فإن من عبد إله إبراهيم كان على ملته. قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ إلى قوله ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٥ ـ ١٣٧].

فقوله: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ يبين أن ما عليه اليهود والنصارى ينافي ملة إبراهيم.

وهذا بعد مبعث محمد لا ريب فيه، فإنه هو الذي بعث بملة إبراهيم، والطائفتان كانتا خارجتين عنها بما وقع منهم من التبديل، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [آل عمران: ٦٨] وقال: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنعام: ١٦١] وقال: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣].

فصل

وهذا النزاع في قوله: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾﴾ هل هو خطاب لجنس الكفار كما قاله الأكثرون، أو لمن علم أنه يموت كافراً كما قاله بعضهم، يتعلق بمسمى «الكافر» ومسمى «المؤمن».

فطائفة تقول: هذا إنما يتناول من وافى القيامة بالإيمان، فاسم المؤمن عندهم إنما هو لمن مات مؤمناً، فأما من آمن ثم ارتد فذاك ليس عندهم بإيمان.

وهذا اختيار الأشعري وطائفة من أصحاب أحمد، وغيرهم، وهكذا يقال: الكافر [من] مات كافراً.

وهؤلاء يقولون: إن حب الله وبغضه، ورضاه، وسخطه، وولايته وعداوته، إنما يتعلق بالموافاة فقط فالله يحب من علم أنه يموت مؤمناً. ويرضى عنه ويواليه بحب قديم وموالاة قديمة ويقولون: إن عمر حال كفره كان ولياً لله.

وهذا القول معروف عن ابن كلاب ومن تبعه، كالأشعري وغيره. وأكثر الطوائف يخالفونه في ذلك فيقولون: بل قد يكون الرجل عدواً لله ثم يصير ولياً لله، ويكون الله يبغضه ثم يحبه، وهذا مذهب الفقهاء والعامة، وهو قول المعتزلة، والكرامية والحنفية قاطبة، وقدماء المالكية، والشافعية، والحنبلية.

وعلى هذا يدل القرآن، كقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧] وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ [النساء: ١٣٧] فوصفهم بكفر بعد إيمان، وإيمان بعد كفر، وأخبر عن الذين كفروا، وأنهم إن انتهوا يغفر لهم ما قد سلف. وقال: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥] وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [محمد].

وفي الصحيحين في حديث الشفاعة: تقول الأنبياء: «إن ربي قد غضب غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله»(١).

وفي دعاء الحجاج عند الملتزم عن ابن عباس وغيره: «فإن كنت رضيت عني فازدد عني رضى، وإلا فمن الآن فارض عني» وبعضهم حذف «فارض عني» فظن بعض الفقهاء أنه «فمن الآن» أنه من «المن» وهو تصحيف، وإنما هو من حروف الجر كما في تمام الكلام وإلا فمن الآن فارض عني.

فبين أنه يزداد رضى، وأنه يرضى في وقت محدود، وشواهد هذا كثيرة، وهو مبسوط في مواضع.

فصل

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾ جاء الخطاب فيها بـ﴿مَا﴾ ولم يجئ بـ«من» فقال: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾ لم يقل (لا أعبد من تعبدون)، لأن (من) لمن يعلم، والأصنام لا تعلم.

[وهذا القول ضعيف جداً] فإن معبود المشركين يدخل فيه من يعلم كالملائكة والأنبياء والجن والإنس، ومن لم يعلم، وعند الاجتماع تغلب صيغة أولي العلم، كما في قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ﴾ [النور: ٤٥].

فإذا أخبر عنهم بحال من يعلم عبر عنهم بعبادته، كما في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ

(١) مرّ تخريجه.

تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآۖ﴾ الآية [الأعراف] فعبر عنهم بضمير الجمع المذكر، وهو لأولي العلم.

وأما ما لا يعلم فجمعه مؤنث، كما تقول: الأموال جمعتها والحجارة قذفتها. فـ(ما) هي لما لا يعلم، ولصفات من يعلم، ولهذا تكون للجنس العام، لأن شمول الجنس لما تحته هو باعتبار صفاته، كما قال: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣] أي الذي طاب والطيب من النساء، فلما قصد الإخبار عن الموصوف بالطيب، وقصد هذه الصفة دون مجرد العين، عبر بـ﴿مَا﴾.

ولو عبر بـ«من» كان المقصود مجرد العين والصفة للتعريف حتى لو فقدت لكانت غير مقصودة، كما إذا قلت: جاءني من يعرف، ومن كان أمس في المسجد، ومن فعل كذا، ونحو ذلك، فالمقصود الإخبار عن عينه والصلة للتعريف وإن كان تلك الصفة قد ذهبت. ومنه قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾﴾ [الشمس] على القول الصحيح إنها اسم موصول، والمعنى: وبانيها، وطاحيها، ومسويها [و] لما قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس] أخبر بـ«من» لأن المقصود الإخبار عن فلاح عينه وإن كان فعله للتزكية والتدسية قد ذهب في الدنيا.

فالقسم هناك بالموصوف بحيث إنه إنما أقسم بهذا الموصوف والصفة لازمة، فإنه لا توجد مبنية إلا ببانيها ولا مطحية إلا بطاحيها، ولا مسواة إلا بمسويها، وأما المرء المزكي نفسه والمدسيها فقد انقضى عمله في الدنيا، وفلاحه وخيبته في الآخرة ليس مستلزماً لذلك العمل. ونحو هذا قوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾﴾ [الليل].

ولهذا يستفهم بها عن صفات من يعلم في قوله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] كما يستفهم ـ على وجه ـ بها في قوله: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: ٨٥] وأما قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان: ٢٥] فالاستفهام عن عين الخالق للتمييز بينه وبين الآلهة التي تعبد فإن المستفهمين بها كانوا مقرين بصفة الخالق، وإنما طلب بالاستفهام تعيينه وتمييزه، ولتقام عليهم الحجة باستحقاقه وحده العبادة.

وأما فرعون فكان منكراً للموصوف المسمى، فاستفهم بصيغة ﴿وَمَا﴾ لأنه لم يكن مقراً به طالباً لتعيينه، ولهذا كان الجواب في هذا الاستفهام بقول موسى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٦] و[الإسراء: ١٠٢]، وبقوله: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [الشعراء] و[الصافات: ١٢٦] فأجاب أيضاً بالصفة، وهناك قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، فكان الجواب بالاسم المميز للمسمى من غيره، وكذلك قوله: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ﴾ [المؤمنون: ٨٤] إلى تمام الآيات.

فقوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾﴾ يقتضي تنزيهه عن كل موصوف بأنه معبودهم، لأن كل ما عبده الكافر وجبت البراءة منه، لأن كل من كان كافراً لا يكون معبوده الإله الذي يعبده المؤمن إذ لو كان هو معبوده لكان مؤمناً، لا كافراً، وذلك يتضمن أموراً:

أحدها: أن ذلك يستلزم براءته من أعيان من يعبدونهم من دون الله.

الثاني: أنهم إذا عبدوا الله وغيره فمعبودهم المجموع، وهو لا يعبد المجموع ـ لا يعبد إلا الله وحده، فيعبده على وجه إخلاص الدين له، لا على وجه الشرك بينه وبين غيره.

وبهذا يظهر الفرق بين هذا وبين قول الخليل: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [الزخرف] وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء] بأن يقال: هنا نفى عبادة المجموع، وذلك لا ينفي عبادة الواحد الذي هو الله، والخليل تبرأ من المجموع، وذلك يقتضي البراءة من كل واحد، فاستثنى، أو يقال: الخليل تبرأ من كل المعبودين ـ من الجميع ـ فوجب أن يستثني رب العالمين ولهذا لما وقع مستثنى في أول الكلام في قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الممتحنة: ٤] لم يحتج إلى استثناء آخر.

وأما هذه السورة فإن فيها التبري من عبادة ما يعبدون، لا من نفس ما يعبدون، وهو بريء منهم، ومن عبادتهم ومما يعبدون فإن ذلك كله باطل، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ يقول الله: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه غيري

فأنا منه بريء وهو كله للذي أشرك»[(١)].

فعبادة المشرك كلها باطلة، لا يقال: نصيب الله منها حق، والباقي باطل، بخلاف معبودهم، فإن الله إله حق، وما سواه آلهة باطلة، فلما تبرأ الخليل من المعبودين احتاج إلى استثناء رب العالمين، ولما كان في هذه تبرؤه من أن يعبد ما يعبدون، فكان المنفي هو العبادة، تبرأ من عبادة المجموع الذين يعبدهم الكافرون.

الثالث: إن كان النفي عن الموصوف بأنه معبودهم، لا عن عينه، فهو لا يعبد شيئاً من حيث هو معبودهم؛ لأنه من حيث هو معبودهم هم مشركون به، فوجبت البراءة من عبادته على ذلك الوجه، ولو قال «من تعبدون» لكان يقال: إلا رب العالمين؛ لأن النفي واقع على عين المعبود، وليس إذا لم يعبد ما يعبدون متبرئاً منه ومعادياً له حتى يحتاج إلى الاستثناء، بل هو تارك لعبادة ما يعبدون.

وهذا يتبين **بالوجه الرابع**: وهو قوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ نفى عنهم ما أعبد عبادة معبوده فهم إذا عبدوا الله مشركين به لم يكونوا عابدين معبوده وكذلك هو إذا عبده مخلصاً له الدين لم يكن عابداً معبودهم.

الوجه الخامس: أنهم لو عينوا الله بما ليس هو الله، وقصدوا عبادة الله معتقدين أن هذا هو الله، كالذين عبدوا العجل، والذين عبدوا المسيح، والذين يعبدون الدجال، والذين يعبدون ما يعبدون من دنياهم وهواهم، ومن عبد من هذه الأمة [غير الله][(٢)]، فهم عند نفوسهم إنما يعبدون الله، لكن هذا المعبود الذي لهم ليس هو الله. فإذا قال: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ كان متبرئاً من هؤلاء المعبودين، وإن كان مقصود العابدين هو الله.

الوجه السادس: أنهم إذا وصفوا الله بما هو بريء منه، كالصاحبة، والولد، والشريك، وأنه فقير أو بخيل، أو غير ذلك، وعبدوه كذلك فهو بريء من المعبود الذي لهؤلاء، فإن هذا ليس هو الله كما قال النبي ﷺ: «ألا ترون كيف يصرف الله عني سب

---

(١) مرّ تخريجه.

(٢) هذه الزيادة من مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب (٩/٥٧) فقد نقل النص بشيء من التلخيص.

قريش؟ يسبون مذمماً وأنا محمد» فهم وإن قصدوا عينه لكن لما وصفوه بأنه مذمم كان سبهم واقعاً على من هو مذمم، وهو محمد ﷺ. وذاك ليس هو الله. فالمؤمنون براء مما يعبد هؤلاء.

الوجه السابع: أن كل من لم يؤمن بما وصف به الرسول ربه فهو في الحقيقة لم يعبد ما عبده الرسول من تلك الجهة.

وقس على هذا فلتتأمل هذه المعاني، وتخلص وتهذب، والله تعالى أعلم)[1].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٣٤ ـ ٦٠١).

سورة النصر

وقال رحمه الله عن وقت نزول السورة: (وأنزل عليه في آخر عمره سورة النصر: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [النصر] وكان يتأول ذلك في ركوعه وسجوده. أي يمتثل ما أمره ربه) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (وقد قيل: إن آخر سورة نزلت قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [النصر] فأمره تعالى أن يختم عمله بالتسبيح والاستغفار وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي ـ يتأول القرآن»[٢] وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه كان يقول: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني. اللهم اغفر لي هزلي وجدي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وأسررت وما أعلنت، لا إله إلا أنت»[٣]) ا.هـ[٤].

وفي تفسير السورة قال:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾.

(وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه وسجوده سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي ـ يتأول القرآن» فكان هذا الكلام تأويل قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ قال ابن عيينة: السنة تأويل الأمر والنهي. وقال أبو عبيد لما ذكر اختلاف الفقهاء وأهل اللغة في نهي النبي ﷺ عن اشتمال

---

(١) مختصر الفتاوى المصرية (٢٥٩).
(٢) البخاري (٦/ ٢٢٠) مسلم (٤٨٤).
(٣) البخاري (٦٣٩٩).
(٤) مجموع الفتاوى (١١/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥).

الصماء قال: والفقهاء أعلم بالتأويل. يقول: هم أعلم بتأويل ما أمر الله به؛ وما نهى عنه، فيعرفون أعيان الأفعال الموجودة التي أمر بها، وأعيان الأفعال المحظورة التي نهى عنها) ا.هـ[(١)].

وقال رحمه الله: (حتى خاتم الرسل أمره الله في أواخر ما أنزل عليه من القرآن ما أمره به بقوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾.

ولهذا كان الذي سلف الأمة وأئمتها أن الأنبياء إنما هم معصومون من الإقرار على الذنوب، وأن الله يستدركهم بالتوبة التي يحبها الله ـ ﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] ـ وإن كانت حسنات الأبرار سيئات المقربين) ا.هـ[(٢)].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ والذين رآهم النبي ﷺ يدخلون في دين الله أفواجا هم الذين كانوا على عصره) ا.هـ[(٣)].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾.

فدخل الناس في دين الله أفواجاً بعد الفتح، فما مات ﷺ وفي بلاد العرب كلها موضع لم يدخله الإسلام) ا.هـ[(٤)].

وقال رحمه الله: (وقد كان عمر يسأل ويسأل عن معاني الآيات الدقيقة، وقد سأل أصحابه عن قوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾، فذكروا ظاهر لفظها. ولما فسرها ابن عباس بأنها إعلام النبي ﷺ بقرب وفاته قال: ما أعلم منها إلا ما تعلم[(٥)].

وهذا باطن الآية الموافق لظاهرها. فإنه لما أمر بالاستغفار عند ظهور الدين، والاستغفار يؤمر به عند ختام الأعمال، وبظهور الدين حصل مقصود الرسالة، علموا أنه إعلام بقرب الأجل مع أمور أخر، وفوق كل ذي علم عليم) ا.هـ[(٦)].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧/٣٦٨ ـ ٣٦٩).
(٢) مجموع الفتاوى (١١/٤١٤ ـ ٤١٥).
(٣) منهاج السنة (٢/٣٣).
(٤) الجواب الصحيح (٦/٧٨).
(٥) ابن جرير (٣٠/٣٣٣).
(٦) مجموع الفتاوى (١٦/٤١٧ ـ ٤١٨).

وقال رحمه الله: (لأن المغفرة نهاية الخير، ولهذا أمر الله رسول الله ﷺ بالاستغفار بقوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ [النصر]، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر) ا.هـ[١].

(١) شرح العمدة ـ الصلاة (١٣٧).

سورة المسد

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾.

(وفي الصحيحين[1]: من حديث ابن عباس قال: «لما نزلت هذه الآية خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف: يا صباحاه فقالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد فاجتمعوا إليه فجعل ينادي: يا بني فلان يا بني عبد مناف يا بني عبد المطلب وفي رواية: يا بني فهر يا بني عدي يا بني فلان لبطون قريش فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً ينظر ما هو فاجتمعوا فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد قال: فقال أبو لهب: تباً لك أما جمعتنا إلا لهذا؟ فقام فنزلت هذه السورة: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ وفي رواية: أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يصبحكم ويمسيكم أكنتم تصدقوني؟ قالوا: بلى») ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (وقال ابن إسحاق: لما نزلت هذه الآية جعل النبي ﷺ ينادي: «يا بني عبد المطلب يا بني عبد مناف يا بني زهرة حتى عدد الأفخاذ من قريش ثم قال: إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين وإني لا أملك لكم من الله شيئاً إلا أن تقولوا: لا إله إلا الله» فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا؟

تباً لك سائر اليوم، فأنزل الله:

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾) ا.هـ[3].

---

(١) البخاري (٦/ ٢٢١)، ومسلم (٢٠٨).
(٢) منهاج السنة (٧/ ٣٠٩ ـ ٣١٠).
(٣) الجواب الصحيح (١/ ٣٨٦ ـ ٣٨٧).

وفي تفسيرها قال:

(﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾ وقد فسر ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ بالولد) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله:

(إن الخبر عما كان ويكون لا يدخله نسخ كقوله في أبي لهب: ﴿سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣﴾) ا.هـ[2].

قال شيخ الإسلام قدس الله روحه:

(سورة تبت نزلت في هذا وامرأته وهما من أشرف بطنين في قريش وهو عم علي وهي عمة معاوية واللذان تداولا الخلافة في الأمة هذان البطنان بنو أمية وبنو هاشم وأما أبو بكر وعمر فمن قبيلتين أبعد عنه ﷺ واتفق في عهدهما ما لم يتفق بعدهما.

وليس في القرآن ذم من كفر به ﷺ باسمه إلا هذا وامرأته ففيه أن الأنساب لا عبرة بها بل صاحب الشرف يكون ذمه على تخلفه عن الواجب أعظم كما قال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ﴾ [الأحزاب: ٣٠]، قال النحاس: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ﴾ دعاء عليه بالخسر وفي قراءة عبد الله[3]، (وقد تب).

وقوله: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ أي ولده فإن قوله: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ يتناوله كما في الحديث ولده من كسبه واستدل بها على جواز الأكل من مال الولد.

ثم أخبر أنه: ﴿سَيَصۡلَىٰ نَارٗا﴾، أخبر بزوال الخير وحصول الشر، و«الصلي» الدخول والاحتراق جميعاً.

وقوله: ﴿حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ إن كان مثلاً للنميمة لأنها تضرم الشر فيكون حطب القلوب، وقد يقال: ذنبها أعظم، وحمل النميمة لا يوصف بالحبل في الجيد وإن كان وصفاً لحالها في الآخرة كما وصف بعلها وهو يصلى وهي تحمل الحطب عليه، كما

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٤/٦٩ ـ ١٠٦). (٢) مجموع الفتاوى (٤/٣٢٦).

(٣) البحر المحيط (١٠/٥٩٩).

أعانته على الكفر، فيكون من حشر الأزواج، وفيه عبرة لكل متعاونين على الإثم أو على إثم ما، أو عدوان ما.

ويكون القرآن قد عمم الأقسام الممكنة في الزوجين وهي أربعة: إما كإبراهيم وامرأته وإما هذا وامرأته وإما فرعون وامرأته وإما نوح وامرأته ولوط، ويستقيم أن يفسر حمل الحطب بالنميمة بحمل الوقود في الآخرة كقوله: «من كان له لسانان»[١] إلخ... والله تعالى أعلم)[٢].

---

(١) أبو داود (٤٨٢٢)، والدارمي (٢٧٦٤)، والحديث صحيح.

(٢) مجموع الفتاوى (١٦/٦٠٢ ـ ٦٠٣).

سورة الإخلاص

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.

سئل شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية ﷺ عما ورد في سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، أنها تعدل ثلث القرآن: وكذلك ورد في سورة الزلزلة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون] والفاتحة، هل ما ورد في هذه المعادلة ثابت في المجموع، أم في البعض؟

ومن روى ذلك؟

وما ثبت من ذلك؟

وما معنى هذه المعادلة، وكلام الله واحد بالنسبة إليه ﷻ؟

وهل هذه المفاضلة بتقدير ثبوتها ـ متعدية إلى الأسماء والصفات، أم لا؟

والصفات القديمة، والأسماء القديمة هل يجوز المفاضلة بينها مع أنها قديمة؟

ومن القائل بذلك، وفي أي كتبه قال ذلك؟ ووجه الترجيح في ذلك بما يمكن من دليل عقلي، ونقلي؟

فأجاب ﷺ:

الحمد لله، أما الذي أخرجه أصحاب الصحيح ـ كالبخاري ومسلم ـ فأخرجوا فضل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ وروي عن الدارقطني أنه قال: لم يصح في فضل سورة أكثر مما صح في فضلها.

وكذلك أخرجوا فضل «فاتحة الكتاب» قال ﷺ فيها: «إنه لم ينزل في التوراة ولا

في الإنجيل ولا في القرآن مثلها»[١] لم يذكر فيها أنه تعدل جزءاً من القرآن كما قال في ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾: «إنها تعدل ثلث القرآن».

ففي صحيح البخاري عن الضحاك المشرقي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: أيعجز أحدكم أن يقرأ بثلث القرآن في ليلة؟ فشق ذلك عليهم وقالوا: «أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟ قال: «الله الواحد الصمد ثلث القرآن»، وفي صحيح مسلم عن معدان بن أبي طلحة عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: أيعجز أحدكم أن يقرأ في ليلة ثلث القرآن؟ قالوا: وكيف يقرأ ثلث القرآن؟ قال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ تعدل ثلث القرآن[٢] وروى مسلم[٣] أيضاً عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: إن الله جزأ القرآن ثلاثة أجزاء فجعل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ جزءاً من أجزاء القرآن، وفي صحيح البخاري عن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي صعصعة عن أبي سعيد أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ يرددها، فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ فذكر ذلك له، وكان الرجل يتقالها، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده: إنها لتعدل ثلث القرآن» وأخرج عن أبي سعيد قال: أخبرني أخي قتادة بن النعمان أن رجلاً قام في زمن رسول الله ﷺ يقرأ من السحر: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ لا يزيد عليها الحديث» بنحوه[٤] وفي صحيح مسلم[٥] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: احشدوا فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن، قال: فحشد من حشد، ثم خرج نبي الله ﷺ فقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ﴾ ثم دخل فقال بعضنا لبعض: إني أرى هذا خبراً جاءه من السماء فذاك الذي أدخله، ثم خرج نبي الله ﷺ فقال: إني قلت لكم سأقرأ عليكم ثلث القرآن، ألا إنها تعدل ثلث القرآن. وفي لفظ له قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: أقرأ عليكم ثلث القرآن، فقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ حتى ختمها. وأما حديث الزلزلة، و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون] فروى الترمذي[٦] عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: من قرأ إذا زلزلت عدلت له نصف القرآن، ومن قرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ عدلت له ربع القرآن، وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ [الزلزلة: ١] تعدل نصف القرآن و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾

---

(١) مرّ تخريجه.
(٢) البخاري (٥٠١٥)، ومسلم (٨١١).
(٣) مسلم (٨١١).
(٤) البخاري (٥٠١٤) وهو من أفراد البخاري.
(٥) مسلم (٨١٢).
(٦) مرّ تخريجه.

[الكافرون] تعدل ربع القرآن. رواهما الترمذي، وقال عن كل منهما: غريب[١]. وأما حديث «الفاتحة»[٢] فروى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد بن المعلى قال: كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه فقلت: يا رسول الله إني كنت أصلي، قال: ألم يقل الله ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] ثم قال: لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة] هي السبع المثاني والقرآن العظيم.

وفي السنن والمسانيد من حديث العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال لأبي كعب: «ألا أعلمك سورة ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها ـ قال ـ فإني أرجو أن لا تخرج من هذا الباب حتى تعلمها» وقال فيه: كيف تقرأ في الصلاة؟ فقرأت عليه أم القرآن، فقال والذي نفسي بيده، ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في القرآن مثلها، إنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته»[٣].

ورواه مالك في الموطأ عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبي سعيد مولى عامر بن كريز مرسلاً وفي صحيح مسلم عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ [الفلق] و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ [الناس].

وفي لفظ قال لي رسول الله ﷺ: أنزل علي آيات لم ير مثلهن قط، المعوذتان[٤] فقد أخبر في هذا الحديث الصحيح أنه لم ير مثل المعوذتين، كما أخبر أنه لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور، ولا في القرآن مثل الفاتحة، وهذا مما يبين لنا فضل القرآن على بعض.

فصل
عن التفاضل بين كلام الله تعالى

وأما السؤال عن معنى هذه المعادلة مع الاشتراك في كون الجميع كلام الله فهذا السؤال يتضمن شيئين:

---

(١) مرّ تخريجه.
(٢) مرّ تخريجه.
(٣) مرّ الكلام عليه.
(٤) مسلم (٨١٤).

أحدهما: أن كلام الله هل بعضه أفضل من بعض، أم لا؟

والثاني: ما معنى كون ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ تعدل ثلث القرآن؟ وما سبب ذلك؟ فنقول:

أما الأول فهو مسألة كبيرة، والناس متنازعون فيها نزاعاً منتشراً، فطوائف يقولون: بعض كلام الله أفضل من بعض، كما نطقت به النصوص النبوية حيث أخبر عن الفاتحة أنه لم ينزل في الكتب الثلاثة مثلها.

وأخبر عن سورة الإخلاص أنها تعدل ثلث القرآن وعدلها لثلثه يمنع مساواتها لمقدارها في الحروف وجعل آية الكرسي أعظم آية في القرآن، كما ثبت ذلك في الصحيح أيضاً.

وكما ثبت ذلك في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال لأبي بن كعب: يا أبا المنذر أتدري أي آية في كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله أعظم قال: فقلت: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] قال: فضرب في صدري وقال: ليهنك العلم أبا المنذر»[١] ورواه ابن أبي شيبة في مسنده بإسناد مسلم، وزاد فيه «والذي نفسي بيده إن لهذه الآية لساناً وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش»[٢].

وروى أنها سيدة آي القرآن.

وقال في المعوذتين: لم ير مثلهن قط.

وقد قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦].

فأخبر أنه يأتي بخير منها أو مثلها، وهذا بيان من الله لكون تلك الآية قد يأتي بمثلها تارة أو خير منها أخرى فدل ذلك على أن الآيات تتماثل تارة وتتفاضل أخرى، وأيضاً فالتوراة والإنجيل والقرآن جميعاً كلام الله، مع علم المسلمين بأن القرآن أفضل الكتب الثلاثة، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾

---

(١) مرّ تخريجه.

(٢) مرّ تخريجه.

[الحجر]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: ٢٣]، فأخبر أنه أحسن الحديث، فدل على أنه أحسن من سائر الأحاديث المنزلة من عند الله وغير المنزلة وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر].

وسواء كان المراد بذلك الفاتحة أو القرآن كله فإنه يدل على أن القرآن العظيم له اختصاص بهذا الوصف على ما ليس كذلك.

وقد سمى الله القرآن كله مجيداً وكريماً وعزيزاً. وقد تحدى الخلق بأن يأتوا بمثله، أو بمثل عشر سور منه، أو بمثل سورة منه فقال: ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور]، وقال: ﴿فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾ [هود: ١٣]، وقال: ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣].

وخصه بأنه لا يقرأ في الصلاة إلا هو، فليس لأحد أن يقرأ غيره مع قراءته، ولا بدون قراءته، ولا يصلي بلا قرآن، فلا يقوم غيره مقامه مع القدرة عليه وكذلك لا يقوم غير الفاتحة مقامها من كل وجه باتفاق المسلمين، سواء قيل بأنها فرض تعاد الصلاة بتركها، أو قيل بأنها واجبة يأثم تاركها ولا إعادة عليه أو قيل: إنها سنة، فلم يقل أحد إن قراءة غيرها مساوٍ لقراءتها من كل وجه.

وخص القرآن بأنه لا يمس مصحفه إلا طاهر، كما ثبت ذلك عن الصحابة ـ مثل سعد وسلمان وابن عمر ـ وجماهير السلف والخلف الفقهاء الأربعة وغيرهم، ومضت به سنة رسول الله ﷺ في كتابه الذي كتبه لعمرو بن حزم، الذي لا ريب في أنه كتبه له، ودل على ذلك كتاب الله، وكذلك لا يقرأ الجنب القرآن عند جماهير العلماء الفقهاء الأربعة وغيرهم كما دلت على ذلك السنة.

وتفضيل أحد الكلامين بأحكام توجب تشريفه يدل على أنه أفضل في نفسه، وإن كان ذلك ترجيحاً لأحد المتماثلين بلا مرجح.

وهذا خلاف ما علم من سنّة الرب تعالى في شرعه بل وفي خلقه، وخلاف ما تدل عليه الدلائل العقلية مع الشرعية.

وأيضاً فقد قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر].

وقال تعالى: ﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾ [الأعراف: ١٤٥]، فدل على أن فيما أنزل حسن وأحسن سواء كان الأحسن هو الناسخ الذي يجب الأخذ به دون المنسوخ، إذ كان لا ينسخ آية إلا يأتي بخير منها أو مثلها، أو كان غير ذلك.

والقول بأن كلام الله بعضه أفضل من بعض هو القول المأثور عن السلف، وهو الذي عليه أئمة الفقهاء من الطوائف الأربعة وغيرهم، وكلام القائلين بذلك كثير منتشر في كتب كثيرة، مثل ما سيأتي ذكره عن أبي العباس ابن سريج[(١)] في تفسيره لهذا الحديث بأن الله أنزل القرآن على ثلاث أقسام: ثلث منه أحكام وثلث منه وعد ووعيد، وثلث منه الأسماء والصفات وهذه السورة جمعت الأسماء والصفات.

ومثل ما ذكره أصحاب الشافعي وأحمد في مسألة تعيين الفاتحة في الصلاة.

قال أبو المظفر منصور بن محمد السمعاني[(٢)] الشافعي في كتابه «الاصطلام».

وأما قولهم: إن سائر الأحكام المتعلقة بالقرآن لا تختص بالفاتحة.

قلت: سائر الأحكام قد تعلقت بالقرآن على العموم وهذا على الخصوص، بدليل أن عندنا قراءة الفاتحة على التعيين مشروعة على الوجوب وعندكم على السنة قال: وقد قال أصحابنا: إن قراءة الفاتحة لما وجبت في الصلاة وجب أن تتعين الفاتحة، لأن القرآن امتاز عن غيره بالإعجاز، وأقل ما يحصل به الإعجاز سورة، وهذه السورة أشرف السور لأنها السبع المثاني، ولأنها تصلح عوضاً عن جميع السور ولا تصلح

---

(١) هو أحمد بن عمر بن سريج البغدادي أبو العباس، فقيه الشافعية في عصره، مولده عام (٢٤٩هـ) ووفاته في بغداد عام (٣٠٦هـ) له نحو (٤٠٠) مصنف منها الأقسام والخصال، وولي القضاء بشيراز، وقام بنصرة المذهب الشافعي، فنشره في أكثر الآفاق حتى قيل: بعث الله عمر بن عبد العزيز على رأس المئة من الهجرة فأظهر السنة، وأمات البدعة ومنَّ الله في المئة الثانية بالإمام الشافعي، فأحيى السنة، وأخفى البدعة، ومنَّ بابن سريج في المئة الثالثة فنصر السنن وخذل البدع، وكان حاضر الجواب، له مناظرات ومساجلات مع محمّد بن داود الظاهري، وله نظم حسن.

(٢) مرّت ترجمته.

جميع السور عوضاً عنها، ولأنها تشتمل على ما لا تشتمل سورة ما على قدرها من الآيات وذلك من الثناء والتحميد للرب، والاستعانة والاستعاذة والدعاء من العبد، فإذا صارت هذه السورة أشرف السور، وكانت الصلاة أشرف الحالات، فتعينت أشرف السور في أشرف الحالات وبينوا من شرفها على غيرها ما ذكروه.

وكذلك ذكر ذلك من ذكره أصحاب أحمد كالقاضي أبي يعلى ابن القاضي أبي حازم، ابن القاضي أبي يعلى، ابن الفراء، قال في تعليقه ـ ومن خطه نقلت ـ قال في مسألة كون قراءة الفاتحة ركناً في الصلاة أما الطريق المعتمد في المسألة فهو أنا نقول: الصلاة أشرف العبادات وجبت فيها القراءة، فوجب أن يتعين لها أشرف السور، والفاتحة أشرف السور، فوجب أن تتعين.

قال: واعلم أنا نحتاج في تمهيد هذه الطريقة إلى شيئين:

أحدهما: أن الصلاة أشرف العبادات.

والثاني: أن الحمد أشرف السور.

واستدل على ذلك بما ذكره قال: وأما الدليل على أن فاتحة الكتاب أشرف، فالنص والمعنى، والحكم أما النص فما تقدم من أنها عوض من غيرها.

وعن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: فاتحة الكتاب شفاء من السم(١).

وقال الحسن البصري: أنزل الله مائة كتاب وأربعة كتب من السماء أودع علومها أربعة منها:

التوراة والإنجيل والزبور، والفرقان(٢).

ثم أودع علوم هذه الأربعة الفرقان، ثم أودع علوم القرآن المفصل، ثم أودع علوم المفصل فاتحة الكتاب، فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع كتب الله المنزلة، ومن قرأها فكأنما قرأ التوراة والإنجيل والزبور والقرآن.

وأما المعنى فهو أن الله قابلها بجميع القرآن فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر] وهذه حقيقة لا يدانيها غيرها فيها.

---

(١) مرّ تخريجه. (٢) مرّ تخريجه.

قلت: هذا على قول من جعلها هي السبع المثاني، وجعل القرآن العظيم جميع القرآن، قال: ولأنها تسمى أم القرآن وأم الشيء أصله ومادته، ولهذا سمى الله مكة أم القرى لشرفها عليهن؛ ولأنها السبع المثاني ولأنها تشتمل على ما لا تشتمل عليه سورة من الثناء والتحميد للرب تعالى والاستعانة به، والاستعاذة والدعاء من العبد، على ما قال النبي ﷺ يقول الله تعالى: «قَسَمْتُ الصلاة بيني وبين عبدي»[1] الحديث المشهور.

قال: ولأنه لم ينزل مثلها في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور، ولا في شيء من الكتب يدل عليها أنها تيسر قراءتها على كل أحد ما لا يتيسر غيرها من القرآن وتضرب بها الأمثال.

ولهذا يقال: فلان يحفظ الشيء مثل الفاتحة وإذا كانت بهذه المثابة فغيرها لا يساويها في هذا فاختصت بالشرف، ولأنها السبع المثاني.

قال أهل التفسير: معنى ذلك أنها تثنى قراءتها في كل ركعة، قال بعضهم: ثنى نزولها على النبي ﷺ قلت: وفيه أقوال أخر.

قال: وأما الحكم فلأنه تستحب قراءتها في كل ركعة ويكره الإخلال بها، ولولا أنها أشرف لما اختصت بهذا المعنى يدل عليه أن عند المنازعين ـ يعني أصحاب أبي حنيفة ـ أن من أخل بقراءتها وجب عليه سجود السهو فنقول: لا يخلو إما أن تكون ركناً أو ليست بركن. فإن كانت ركناً وجب أن لا تجبر بالسجود، وإن لم تكن ركناً وجب أن لا يجب عليه سجود.

قلت: يعني بذلك: أن السجود لا يجب إلا بترك واجب في حال العمد، فإذا سهى عنه وجب له السجود، وما كان واجباً فإذا تعمد تركه وجب أن تبطل صلاته؛ لأنه لم يفعل ما أمر به، بخلاف من سهى عن بعض الواجبات، فإن هذا يمكن أن يجبر ما تركه بسجود السهو.

ومذهب مالك وأحمد وأبي حنيفة أن سجود السهو واجب، لأن من الواجبات ما إذا تركه سهواً لم تبطل الصلاة، كما لا تبطل بالزيادة سهواً باتفاق العلماء، ولو زاد

---

(١) مرّ تخريجه.

عمداً لبطلت الصلاة، لكن مالكاً وأحمد في المشهور عنهما يقولان: ما كان واجباً إذا تركه عمداً بطلت صلاته وإذا تركه سهواً فمنه ما يبطل الصلاة، ومنه ما ينجبر بسجود السهو، فترك الركوع والسجود والقراءة يبطل الصلاة مطلقاً، وترك التشهد الأول عندهما يبطل الصلاة عهده، ويجب السجود لسهوه.

وأما أبو حنيفة فيقول: الواجب الذي ليس بفرض كالفاتحة ـ إذا تركه كان مسيئاً ولا يبطل الصلاة. والشافعي لا يفرق في الصلاة بين الركن والواجب، ولكن فرق بينهما في الحج هو وسائر الأئمة.

والمقصود هنا ذكر بعض من قال: إن الفاتحة أشرف من غيرها.

وقال أبو عمر بن عبد البر، وأما قول النبي ﷺ لأبي: هل تعلم سورة ما أنزل الله لا في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور، ولا في القرآن مثلها، فمعناه مثلها في جمعها لمعاني الخير، لأن فيها الثناء على الله ﷻ بما هو أهله وما يستحق من الحمد الذي هو له حقيقة لا لغيره؛ لأن كل نعمة وخير منه لا من سواه، فهو الخالق الرازق لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، وهو محمود على ذلك، وإن حمد غيره فإليه يعود الحمد، وفيها التعظيم له وأنه رب العالم أجمع ومالك الدنيا والآخرة وهو المعبود والمستعان، وفيها تعليم الدعاء والهدى، ومجانبة طريق من ضل وغوى، والدعاء لباب العبادة، فهي أجمع سورة للخير ليس في الكتب مثلها على هذه الوجوه قال: وقد قيل: إن معنى ذلك أنها لا تجزئ الصلاة إلَّا بها دون غيرها ولا يجزئ غيرها عنها(١)، وليس هذا بتأويل مجمع عليه(٢).

قلت: يعني بذلك أن في هذا نزاعاً بين العلماء، وهو كون الصلاة لا تجزئ إلا بها وهذا يدل على أن الوصف الأول متفق عليه بين العلماء وهو أنها أفضل السور.

ومن هذا الباب ما في الكتاب والسنة من تفضيل القرآن على غيره من كلام الله

(١) في المطبوع منها.
(٢) انتهى كلام ابن عبد البر في الاستذكار (٤/١٨٦ ـ ١٨٧).

التوراة والإنجيل وسائر الكتب وأن السلف كلهم كانوا مقرين بذلك، ليس فيهم من يقول: الجميع كلام الله فلا يفضل القرآن على غيره. قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣] فأخبر أنه أحسن الحديث.

وقال تعالى: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣﴾ [يوسف].

فصل

وبالجملة فدلالة النصوص النبوية والآثار السلفية والأحكام الشرعية، والحجج العقلية على أن كلام الله بعضه أفضل من بعض هو من الدلالات الظاهرة المشهورة، وأيضاً فإن القرآن، وإن كان كله كلام الله، وكذلك التوراة والإنجيل والأحاديث الإلهية التي يحكيها الرسول عن الله تبارك وتعالى كقوله: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»[(١)] الحديث.

وكقوله: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي»[(٢)] وأمثال ذلك، هي وإن اشتركت في كونها كلام الله، فمعلوم أن الكلام له نسبتان، نسبة إلى المتكلم به، ونسبة إلى المتكلم فيه، فهو يتفاضل باعتبار النسبتين، وباعتبار نفسه أيضاً مثل الكلام الخبري له نسبتان، نسبة إلى المتكلم المخبر، ونسبة إلى المخبر عنه المتكلم فيه ع﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾ و﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: ١] كلاهما كلام الله، وهما مشتركان من هذه الجهة، لكنهما متفاضلان من جهة المتكلم فيه، المخبر عنه، فهذه كلام الله وخبره الذي يخبر به عن نفسه، وصفته التي يصف بها نفسه، وكلامه الذي يتكلم به عن نفسه، وهذا كلام الله الذي يتكلم به عن بعض خلقه، ويخبر به عنه ويصف به حاله، وهما في هذه الجهة متفاضلان بحسب تفاضل المعنى المقصود بالكلامين.

فصل

وإذا علم ما دل عليه الشرع مع العقل، واتفاق السلف من أن بعض القرآن أفضل من بعض، وكذلك بعض صفاته أفضل من بعض، بقي الكلام في كون ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾ تعدل ثلث القرآن، ما وجه ذلك؟

---

(١) مرّ تخريجه.

(٢) مرّ تخريجه.

وهل ثوابها بقدر ثواب ثلث القرآن، وإذا قدر أن الأمر كذلك فما وجه قراءة سائر القرآن؟

فيقال: أما الأول فقد قيل فيه وجوه أحسنها ـ والله أعلم ـ الجواب المنقول عن الإمام أبي العباس بن سريج، فعن أبي الوليد القرشي أنه سأل أبا العباس بن سريج عن معنى قول النبي ﷺ: «﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ تعدل ثلث القرآن».

فقال: معناه أنزل القرآن على ثلاثة أقسام: ثلث منها الأحكام، وثلث منها وعد ووعيد وثلث منها الأسماء والصفات، وهذه السورة جمعت الأسماء والصفات.

وقد ذكر أبو الفرج بن الجوزي[1] في هذا الحديث ثلاثة أوجه بدأ بهذا الوجه.

فروى قول ابن سريج هذا بإسناده عن زاهد عن الصابوني والبيهقي عن الحاكم أبي عبد الله الحافظ قال: سمعت أبا الوليد حسان بن محمّد الفقيه يقول: سألت أبا العباس بن سريج قلت: ما معنى قول النبي ﷺ «﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ تعدل ثلث القرآن»؟، قال: إن القرآن أُنزل على ثلاثة أقسام، فثلث أحكام، وثلث وعد ووعيد، وثلث أسماء وصفات، وقد جمع في قل هو الله أحد الأثلاث وهو الصفات، فقيل: إنها تعدل ثلث القرآن.

الوجه الثاني ـ من الوجوه الثلاثة التي ذكرها أبو الفرج بن الجوزي ـ أن معرفة الله هي معرفة ذاته ومعرفة أسمائه وصفاته، ومعرفة أفعاله.

فهذه السورة تشتمل على معرفة ذاته، إذ لا يوجد شيء إلا وجد من شيء ما خلا الله فلأنه ليس له كفء، ولا له مثل.

قال أبو الفرج ذكره بعض فقهاء السلف.

قال: والوجه الثالث: أن المعنى من عمل ما تضمنته من الإقرار بالتوحيد والإذعان للخالق كان كمن قرأ القرآن ولم يعمل بما تضمنته.

---

(١) هذا ليس في «زاد المسير» فلعله في «فنون الأفنان في علوم القرآن» أو غير ذلك وابن الجوزي لم يترك فناً أو علماً إلا وله فيه مصنف، وبعد بحثي في عدة كتب في علوم القرآن لم أجده لا في الفنون ولا في «المصعد» ولعله في كتاب له مختص بشرح الحديث والله أعلم.

ذكره ابن عقيل، قال ابن عقيل: ولا يجوز أن يكون المعنى: من قرأها فله أجر ثلث القرآن لقول رسول الله ﷺ: «من قرأ فله بكل حرف عشر حسنات»(١).

قلت: كلا الوجهين ضعيف.

أما الأول فيدل على ضعفه وجوه:

الأول: أن نقول: القرآن ليس كله هو المعرفة المذكورة، بل فيه أمر بالأعمال الواجبة، ونهي عن المحرمات، والمطلوب من العباد المعرفة الواجبة والعمل الواجب، والأمة كلها متفقة على وجوب الأعمال التي فرضها الله، لم يقل أحد: بأنها ليست من الواجبات، وإن كان طائفة من الناس نازعوا في كون الأعمال من الإيمان، فلم ينازعوا في أن الله فرض الصلوات الخمس، وغيرها من شرائع الإسلام وحرم الفواحش: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]. وإذا كان كذلك وقدر أن سورة من السور تضمنت ثلث المعرفة لم يكن هذا ثلث القرآن.

الثاني: أن يقال: قول القائل: معرفة ذاته معرفة أسمائه وصفاته، ومعرفة أفعاله إن أراد بذلك أن ذاته تعرف بدون معرفة شيء من أسمائه وصفاته الثبوتية والسلبية فهذا ممتنع، ولو قدر إمكان ذلك أو فرض العبد في نفسه ذات مجردة عن جميع القيود السلبية والثبوتية فليس ذاك معرفته بالله البتة، ولا هو رب العالمين ذات مجردة عن كل أمر سلبي أو ثبوتي ولهذا لم يقل أحد من العقلاء هذا إلا القرامطة الباطنية يقولون: يسلب عنه كل أمر ثبوتي وعدمي، فلا يقال: موجود ولا معدوم، ولا عالم وليس بعالم، ولا قادر ولا ليس بقادر، ولا نحو ذلك، وهؤلاء مع أن قولهم معلوم الفساد بضرورة العقل فإنهم متناقضون أما الأول: فلأن سلب النقيضين ممتنع، كما أن جمعهما ممتنع فيمتنع أن يكون شيء من الأشياء لا موجوداً ولا معدوماً. وأما تناقضهم لا بد أن يذكروا أنه يسلب عنه النقيضان ببعض الأمور التي يتميز بها ليخبر عنها بهذا السلب، وأي شيء قالوه فلا بد أن يتضمن نفياً أو إثباتاً، بل لا بد أن يتضمن إثباتاً، وقد بسطنا الرد عليهم في غير هذا الموضع. ولهذا كان كثير من الملاحدة لا يصلون إلى هذا

---

(١) مرّ تخريجه.

الحد، بل يقولون كما قال أبو يعقوب السجستاني وغيره من الملاحدة نحن لا ننفي النقيضين، بل نسكت عن إضافة واحد منهم إليه، فلا نقول: هو موجود ولا معدوم، ولا حي ولا ميت، ولا عالم ولا جاهل، فيقال لهم: إعراض قلوبكم عن العلم به، وكف ألسنتكم عن ذكره لا يوجب أن يكون هو في نفسه مجرداً عن النقيضين، بل يفيد هذا كفركم بالله وكراهتكم لمعرفته، وذكره وعبادته، وهذا حقيقة مذهبكم ومن قال من الملاحدة المنتسبين إلى التصوف والتحقيق كابن سبعين[1] والصدر القونوي[2] وغيرهما: إنه وجود مطلق بشرط الإطلاق عن كل وصف ثبوتي وسلبي فهو من جنس هؤلاء. لكن هؤلاء يقولون هو وجود مطلق فيخصونه بالوجود دون العدم، ثم يقولون هو مطلق، والمطلق بشرط الإطلاق عن كل قيد سلبي وثبوتي إنما يكون في الأذهان لا في الأعيان.

وهؤلاء يقولون: الوجود الكلي المقسوم إلى واجب وممكن الذي يجعله الفلاسفة موضوع العلم الإلهي ويسمونه «الحكمة العليا» و«الفلسفة الأولى» إنما يكون كلياً في الأذهان لا في الأعيان، فليس في الخارج قط وجود هو بعينه واجب، وهو بعينه ممكن ولا وجود هو نفسه يتصف به الواجب، وهو بنفسه يتصف به الممكن، بل صفة الواجب تختص به، وصفة الممكن تختص به، ووجود الواجب يخصه لا يشركه فيه غيره، ووجود الممكن يخصه لا يشركه فيه غيره، ولهذا كان كل ما وصف به الرب نفسه من صفاته فهي صفات مختصة به يمتنع أن يكون لها فيها مشارك أو مماثل، فإن ذاته المقدسة لا تماثل شيئاً من الذوات، وصفاته مختصة به فلا تماثل شيئاً من الصفات، بل هو سبحانه أحد صمد لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

فاسمه «الأحد» دل على نفي المشاركة والمماثلة.

واسمه «الصمد» دل على أنه مستحق لجميع صفات الكمال كما بسط الكلام على ذلك في الشرح الكبير المصنف في تفسير هذه السورة، وصفات التنزيه كلها، بل وصفات الإثبات يجمعها هذا المعنيان.

---

(١) هو عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر، ابن سبعين الإشبيلي، المرسي القرطبي، توفي عام (٦٦٩هـ) وسبق الترجمة له.

(٢) هو محمّد بن إسحاق بن محمّد بن يوسف بن علي القونوي الرومي توفي عام ٦٧٣هـ وسبق الترجمة له.

وقد بسط الكلام في التوحيد وأنه نوعان: علمي قولي وعملي قصدي فـ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون] اشتملت على التوحيد العملي نصاً، وهي دالة على العلمي لزوماً.

و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ اشتملت على التوحيد العلمي القولي نصاً وهي دالة على التوحيد العملي لزوماً.

ولهذا كان النبي ﷺ يقرأ بهما في ركعتي الفجر وركعتي الطواف وغير ذلك.

وقد ثبت أنه كان يقرأ أيضاً في ركعتي الفجر بآية الإيمان التي في البقرة ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٦]، في الركعة الأولى وآية الإسلام التي في آل عمران: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝٦٤﴾ [آل عمران].

والمقصود هنا أن صفات التنزيه يجمعها هذان المعنيان المذكوران في هذه السورة.

أحدهما: نفي النقائص عنه، وذلك من لوازم إثبات صفات الكمال، فمن ثبت له الكمال التام انتفى النقصان المضاد له، والكمال من مدلول اسمه الصمد.

والثاني: أنه ليس كمثله شيء في صفات الكمال الثابتة وهذا من مدلول اسمه الأحد، فهذان الاسمان العظيمان ـ الأحد، الصمد ـ يتضمنان تنزيهه من كل نقص وعيب وتنزيهه في صفات الكمال أن لا يكون له مماثل في شيء منها واسمه الصمد يتضمن إثبات جميع صفات الكمال، فتضمن ذلك إثبات جميع صفات الكمال ونفي جميع صفات النقص فالسورة تضمنت كل ما يجب نفيه عن الله، وتضمنت أيضاً كل ما يجب إثباته من وجهين، من اسمه الصمد ومن جهة أن ما نفى عنه من الأصول والفروع والنظراء مستلزم ثبوت صفات الكمال أيضاً، فإن كل ما يمدح به الرب من النفي فلا بد أن يتضمن ثبوتاً، بل وكذلك كل ما يمدح به شيء من الموجودات من النفي، فلا بد أن يتضمن ثبوتاً، وإلا فالنفي المحض معناه عدم محض والعدم المحض ليس بشيء فضلاً عن أن يكون صفة كمال.

والمقصود هنا: الكلام على معنى كون ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ تعدل ثلث القرآن، وبيان أن الصواب القول الأول.

الوجه الثالث الذي يدل على فساد القول الثاني أن يقال: قول القائل: معرفة أفعاله «إن أراد بذلك معرفة آياته الدالة عليه فهذه من تمام معرفته، ويبقى معرفة وعده ووعيده، وقصص الأمم المؤمنة والكافرة لم يذكره وهو القسم الثاني من أقسام معاني القرآن، كما لم يذكر أمره ونهيه، وإن جعل هذه من مفعولاته فمعلوم أن معرفة الوعد والوعيد والقصص المطلوب فيها الإيمان باليوم الآخر، وجزاء الأعمال، كما أن المطلوب بالأمر والنهي طاعته، فإنه لا بد من الإيمان بالله واليوم الآخر، ومن العمل الصالح لكل أمة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة].

الوجه الرابع: أن يقال: ما ذكره من نفي المثل عنه ومن نفي الولادة مذكور في غير هذه السورة فلم يختص بهذا المعنى.

الوجه الخامس: أن يقال: هب أنها تضمنت التنزيه كما ذكره الله، فمعرفة الله ليست بمعرفة صفات السلب. بل الأصل فيها صفات الإثبات، والسلب تابع ومقصوده تكميل الإثبات، كما أشرنا إليه من أن كل تنزيه مدح به الرب ففيه إثبات.

ولهذا كان قول «سبحان الله» متضمناً تنزيه الرب وتعظيمه، ففيها تنزيهه من العيوب والنقائص، وفيها تعظيمه ﷻ كما قد بسط الكلام على ذلك في مواضع وأما القول الثالث وهو المراد به أن من عمل بما تضمنته كان كمن قرأ ثلث القرآن ولم يعمل بما تضمنته، فهذا أيضاً ضعيف، وما نفاه من المعادلة فهو مبني على قول من اعتبر في مقدار الأجر كثرة الحروف وهو قول باطل، كما قد بين في موضعه، وذلك أن العمل بها إن أراد به العمل الواجب من التصديق بمضمونها، وتوحيد الله فهذا أجره أعظم من أجر من قرأ القرآن جملة ولم يعمل بذلك، فإنه إن خلا عن الإيمان بمضمون القرآن فهو منافق، وإن خلا عما يجب عليه من العمل فهو فاسق، ومعلوم أن هذا لو قرأ القرآن عشر مرات لم يكن أجره مثل أجر المؤمن المتقي.

وأيضاً فإن هذا الأجر على الإيمان بمضمونها سواء قرأها أو لم يقرأها، والأجر المذكور في الحديث هو لمن قرأها فلا بد أن يكون قد قرأها مع الإيمان بما تضمنته وأيضاً فالنبي ﷺ جعل قراءتها تعدل ثلث القرآن، وقرأها على أصحابه، وأخبرهم أنه

قرأ عليهم ثلث القرآن، فكانت قراءته لها تعدل قراءته هو للثلث وكذلك الرجل الذي جعل يرددها.

وكذلك إخباره لهم بأنها تعدل ثلث القرآن، وإنما يراد به ثلثه إذا قرأوه هم، لم يرد به الثلث إذا قرأها منافق لا يؤمن بمعنى ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾.

ثم إن كون المراد بذلك من قرأ الثلث بلا إيمان بها معنى ليس في اللفظ ما يدل عليه، وإنما يدل اللفظ على نقيضه.

وهذا التأويل وأمثاله هو من تحريف الكلم عن مواضعه الذي ذم الله عليه من فعل ذلك من أهل الكتاب وهو نوع من الإلحاد في كلام الله ورسوله.

وقد ذكر أبو حامد الغزالي وجهاً آخر غير هذه الثلاثة فقال في كتابه «جواهر القرآن ودرره» أما قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ تعدل ثلث القرآن، ما أراك تفهم وجه ذلك، فتارة تقول؛ ذكر هذا للترغيب في التلاوة، وليس المعنى به التقدير، وحاشا منصب النبوة عن ذلك.

وتارة تقول: هذا بعيد عن الفهم والتأويل، فإن آيات القرآن تزيد على ستة آلاف آية، فهذا القدر كيف يكون ثلثها؟ وهذا لقلة معرفتك بحقائق القرآن، ونظرك إلى ظاهر ألفاظه، فتظن أنها تعظم وتكثر بطول الألفاظ، وتقصر بقصرها، وذلك كظن من يؤثر الدراهم الكثيرة على الجوهرة الواحدة نظراً إلى كثرتها.

فاعلم أن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن قطعاً، وترجع إلى الأقسام الثلاثة التي ذكرناها في مهمات القرآن وهي: معرفة الله، ومعرفة الآخرة، ومعرفة الصراط المستقيم، فهذه المعارف الثلاثة هي المهمة والباقي توابع، وسورة الإخلاص تشتمل على واحدة من الثلاث، وهي معرفة الله وتقديسه وتوحيده عن مشارك في الجنس والنوع، وهو المراد بنفي الأصل والفرع والكفء، والوصف بالصمد يشعر بأنه السيد الذي لا يقصد في الوجود للحوائج سواه.

نعم ليس فيها حديث الآخرة والصراط المستقيم فلذلك تعدل ثلث القرآن، أي ثلث الأصول من القرآن، كما قال «الحج عرفة» أي هو الأصل، والباقي تبع.

قلت: آيات القرآن نوعان: علمية وعملية وفي الآيات ما يجمع الأمرين.

وأبو حامد جمع العلميات المتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله، دون ما يتعلق باليوم الآخر والقصص، وسماها «جواهر القرآن» وجمع العمليات وسماها «درر القرآن» وجعل الشطر الأول من «الفاتحة» من الجواهر والثاني من الدر، والآيات التي تجمع المعنيين يذكرها في أغلب النوعين عليها، ومجموع ما ذكره من القسمين ربع آيات القرآن نحو ألف وخمسمائة آية، وجعل معاني القرآن ستة أصناف: ثلاثة أصول، وثلاثة توابع فذكر أن القرآن هو البحر المحيط، ومنه يتشعب علم الأولين والآخرين.

وقال: سر القرآن ولبابه الأصفى، ومقصده الأقصى دعوة العباد إلى الجبار الأعلى، رب الآخرة والأولى وخالق السموات العلى والأرضين السفلى.

فالثلاثة المهمة: تعريف المدعو إليه، وتعريف الصراط المستقيم الذي تجب ملازمته في السلوك إليه، وتعريف الحال عند الوصول إليه.

وأما الثلاثة المعنية[1] فأحدها: أحوال المجيبين للدعوة ولطائف صنع الله فيهم، وسره ومقصوده التشويق والترغيب، وتعريف أحوال الناكبين والناكلين عن الإجابة، وكيفية قمع الله لهم، وتنكيله بهم، وسره ومقصوده الاعتبار والترهيب.

وثانيها: حكاية أقوال الجاحدين، وكشف فضائحهم وجهلهم بالمجادلة والمحاجة على الحق. ومقصوده وسره في جنبة الباطل الإفصاح والتحذير والتنفير وفي جنبة الحق الإيضاح والتثبيت والتقرير.

وثالثها: تعريف عمارة منازل الطريق، وكيفية أخذ الزاد والراحلة، والأهبة للاستعداد. قلت: ما ذكره من أن أصول الإيمان ثلاثة فهو حق كما ذكره، ولا بد من الثلاثة في كل ملة ودين كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة].

ونحو ذلك في سورة المائدة، فذكر هذه الأصول الثلاثة: الإيمان بالله، واليوم الآخر، والعمل الصالح وأما الثلاثة الأخرى التابعة فهي داخلة في هذه الثلاثة، فإن ما

---

(١) كذا في الأصل، ولعلها: المعينة.

في القرآن من ذكر أحوال السعداء والأشقياء في الآخرة فهو من تفصيل الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من عمارة الطريق فهو من العمل الصالح، وما فيه من المجادلة والمحاجة فذاك من تمام الإخبار بالثلاثة، فإنه إذا أخبر بالثلاثة ذكر الآيات والأدلة المثبتة لذلك وذكر شبه الجاحدين وبين فسادها.

وقد ذكر أبو حامد ذلك فقال: القسم الجائي لمحاجة الكفار ومجادلتهم وإيضاح مخازيهم بالبرهان الواضح، وكشف أباطيلهم وتخابيلهم، وأباطيلهم ثلاثة أنواع:

الأول: ذكر الله بما لا يليق به من أن الملائكة بناته، وأن له ولداً شريكاً، وأنه ثالث ثلاثة.

الثاني: ذكر رسول الله ﷺ بأنه ساحر وكاهن وشاعر، وإنكار نبوته.

وثالثها: إنكار اليوم الآخر وجحد البعث والنشور والجنة والنار، وإنكار عاقبة الطاعة والمعصية.

وأما ما فيه من الإخبار بأحوال المؤمنين والكفار في الدنيا ـ وهو الذي أراده أبو حامد بذكر أحوال المستجيبين والناكبين ـ فهذا من تمام الأدلة والآيات، فإن هذا أمر شوهد في الدنيا ورئيت آثاره، وتواترت أخباره، ليس هو مما بعد الموت الذي هو غيب عن العباد.

ولهذا يذكر سبحانه هذا في معرض الاحتجاج والاستدلال، مع ما في ذلك من الموعظة كقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١] ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران] ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر]. وقوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام]. وقوله: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا

تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج]. وقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾ الآية [الروم: ٩]. وقوله تعالى لما ذكر قصة قوم لوط ﴿فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الحجر]. والمتوسم: المستدل بالسمة والسيما، وهي العلامة قال تعالى: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ [محمد: ٣٠].

فمعرفة المنافقين في لحن القول ثابتة مقسم عليها، لكن هذا يكون إذا تكلموا، وأما معرفتهم بالسيما فموقوف على مشيئة الله، فإن ذلك أخفى.

وفي الحديث الذي رواه الترمذي وحسنه عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر]»، قال مجاهد وابن قتيبة: للمتفرسين.

قال ابن قتيبة: يقال: توسمت في فلان الخير أي تبينته.

وقال الزجاج: المتوسمون في اللغة النظار المثبتون في نظرهم حتى يعرفوا حقيقة سمة الشيء يقال: توسمت في فلان كذا أي عرفت.

وقوله: المثبتون في نظرهم، أي في نظر أعينهم حتى يعرفوا السيما، بخلاف الذين قيل فيهم: ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف].

وقال الضحاك: الناظرون.

وقال ابن زيد: المنتقدون.

وقال قتادة: المعتبرون: وكل هذا صحيح، فإن المتوسم يجمع هذا كله(١).

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الحجر].

---

(١) هذه الآثار في زاد المسير مرّ تخريجها.

ثم ذكر قصة أصحاب الأيكة، ثم قال: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٩] أي بطريق متبين للناس واضح وكذلك في موضع آخر لما قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾ [الذاريات] وقال في سفينة نوح: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾ [القمر].

فأخبر أنه أبقى آيات، وهي العلامات والدلالات فدل ذلك على أن ما يخصه من أخبار المؤمنين وحسن عاقبتهم في الدنيا، وأخبار الكفار وسوء عاقبتهم في الدنيا هو من باب الآيات والدلالات التي يستدل بها ويعتبر بها علماً ووعظاً، فيفيد معرفة صحة ما أخبرت به الرسل، ويفيد الترغيب والترهيب.

ويدل ذلك على أن الله يرضى عن أهل طاعته ويكرمهم، ويغضب على أهل معصيته ويعاقبهم كما يستدل بمخلوقاته العامة على قدرته، فإن الفعل يستلزم قدرة الفاعل، ويستدل بأحكام الأفعال على علمه، لأن الفعل المحكم يستلزم علم الفاعل وبالتخصيص على مشيئته، لأن التخصيص مستلزم لإرادته، فكذلك يستدل بالتخصيص بما هو أحمد عاقبة على حكمته، لأن تخصيص الفعل بما هو محمود في العاقبة مستلزم للحكمة.

ويستدل بتخصيص الأنبياء وأتباعهم بالنصر وحسن العاقبة، وتخصيص مكذبيهم بالخزي وسوء العاقبة على أنه يأمر ويحب ويرضى ما جاءت به الأنبياء ويكره ويسخط ما كان عليه مكذبوهم، لأن تخصيص أحد النوعين بالإكرام والنجاة والذكر الحسن والدعاء وتخصيص الآخر بالعذاب والهلاك وقبح الذكر واللعنة: يستلزم محبة ما فعله الصنف الأول، وبغض ما فعله الصنف الثاني، وأما الإرادة التي يقال فيها: إنها تخص أحد المثلين عن الآخر بلا سبب، فتلك هل يوصف الله بها؟ فيه نزاع.

فإن قيل: إنه لا يوصف بها فلا كلام.

وإن قيل: إنه يوصف بها فمعلوم أن تخصيص الأنبياء عليهم السلام بهذا، وتخصيص أعدائهم بهذا لم يصدر عن تخصيص بلا مخصص، بل يعلم أنه قصد تخصيص هؤلاء بالإكرام، وهؤلاء بالعقاب وأن إيمان هؤلاء سبب تخصيصهم بهذا، وكفر هؤلاء سبب تخصيصهم بهذا.

ولبسط هذه الأمور موضع آخر.

لكن المقصود هنا أن هذه الثلاثة داخلة في الثلاثة الأول، ولكن أبو حامد يجعل الحجاج صنعة الكلام ويجعل عمارة الطريق علم الفقه، ويجعل أخبار الأنبياء علم القصص.

ويقول: إن الكلام والجدل ليس فيه بيان حق بدليل بل إنما فيه دفع البدع ببيان تناقضها، ويجعل أهله من جنس خفراء[(١)] الحجيج، ويجعل علم الفقه ليس غايته إلا مصلحة الدنيا، وهذا مما نازعه فيه أكثر الناس وتكلموا فيه بكلام ليس هذا موضعه، كما تكلموا على ما ذكره في هذا الكتاب «جواهر القرآن» وغيره من كتبه من معاني الفلسفة، وجعل ذلك هو باطن القرآن، وكلام علماء المسلمين على رد هذا أكثر من كلامهم على رد ذلك، فإن هذا فيه مما يناقض مقصود الرسول أمور عظيمة، كما تكلموا على ما ذكره في النبوة بما يشبه كلام الفلاسفة فيها، والمقصود أن هذا الذي ذكره في ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ ۝١﴾ أحسن من قول كثير من الناس فيها، وهو أقرب إلى القول الذي ذكرناه عن ابن سريج ونصرناه، لكن ذلك القول هو الصواب بلا ريب، فإن النبي ﷺ أخبر بأن الله جزأ القرآن ثلاثة أجزاء، فجعل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ ۝١﴾ جزءاً من أجزاء القرآن، وهذا يقتضي أن مجموع القرآن ثلاثة أجزاء، ليس هو ستة: ثلاثة أصول، وثلاثة فروع.

وكذلك أخبر أن ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ ۝١﴾ تعدل ثلث القرآن، لم يقل ثلث المهم منه، ولا ثلث أكثره، ولا أصوله، فوجب أن يكون القرآن كله ثلاثة أصناف، وعلى ما ذكره أبو حامد هو ستة: ثلاثة مهمة، وثلاثة توابع، والسورة أحد الثلاثة المهمة وهذا خلاف الحديث.

وأيضاً: فإن تقسيم القرآن إلى ثلاثة أقسام تقسيم بالدليل فإن القرآن كلام، والكلام إما إخبار وإما إنشاء والإخبار إما عن الخالق وإما عن المخلوق، فهذا تقسيم بين، وأما جعل علم الفقه خارجاً عن الصراط المستقيم والعمل الصالح، وجعل علم الأدلة والحجج خارجاً عن الإيمان والمعرفة بالله واليوم الآخر، فهذا مردود عند

(١) جمع خفير وهو الحارس.

جماهير السلف والخلف. وأبو حامد إنما ذكر هذا لأنه يقول: إنما يعرف معاني ذلك بطريق التصفية فقط، لا بطريق الخبر النبوي، ولا بطريق النظر الاستدلالي، فلا يعرف ذلك بالسمع ولا بالعقل.

وهذا مما أنكره عليه الناس وصنفوا كتباً في رد ذلك كما فعل جماعات من العلماء، ولكن عذر أبي حامد أنه لم يجد فيما علمه من طريق الفلاسفة وأهل الكلام ما يبين الحق في ذلك، ولم يعلم طرقاً عقلية غير ذلك، فنفى أن يعلم بطريق النظر فيه.

وأما الطرق الخبرية الثبوتية فلم يكن له خبرة بما صح من ألفاظ الرسول، وبطريق دلالة ألفاظه على مقاصده، وظن ـ بما شارك به بعض أهل الكلام والفلسفة ـ أن الرسول لم يبين مراده بألفاظه فتركب من هذا وهذا سد باب الطريق العقلي والسمعي، وظن أن المطلوب يحصل له بطريق التصفية والعمل، فسلك ذلك، فلم يحصل له المقصود أيضاً، فرجع في آخره عمره إلى قراءة البخاري ومسلم.

وقد ذكر القاضي عياض أقوالاً في كون ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ تعدل ثلث القرآن.

وكذلك المازري قبله. قال: قال الإمام ـ يعني أبا عبد الله المازري ـ قيل معنى ذلك: إن القرآن على ثلاثة أنحاء: قصص وأحكام، وأوصاف الله جلت قدرته.

و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ تشتمل على ذكر الصفات فكانت ثلثاً من هذه الجهة، قال: وربما أسعد هذا التأويل ظاهر الحديث الذي ذكر أن الله جزأ القرآن(١).

قلت: هذا هو قول ابن سريج ـ وهو الذي نصرناه، ذكره المازري في كلام ابن بطال كما سيأتي.

قال: وقيل: معنى ثلث القرآن لشخص بعينه قصده رسول الله ﷺ(٢) وذكره ابن بطال أيضاً.

قال: وقيل: معناه إن الله يتفضل بتضعيف الثواب لقرائها، ويكون منتهى التضعيف

---

(١) المعلم بفوائد مسلم للمازري (١/ ٤٦١).
(٢) المعلم (١/ ٤٦١).

إلى مقدار ثلث ما يستحق من[1] الأجر على قراءة القرآن من دون تضعيف أجر. قال: وفي بعض روايات هذا الحديث أن رسول الله ﷺ حشد الناس وقال: سأقرأ عليكم ثلث القرآن فقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ قال المازري: وهذه الرواية تقدح في تأويل من جعل ذلك لشخص بعينه[2] قال القاضي عياض: قال بعضهم قال الله تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود]، فهذا فصل الألوهية، ثم قال: ﴿إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود: ٢] وهذا فصل النبوة، ثم قال: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣]. فهذا فصل التكليف، وما وراءه من الوعد والوعيد وعامة أجزاء القرآن مما فيه من القصص فمن فصل النبوة لأنها من أدلتها وفهمها أيضاً.

وهذا يدل على أن ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ جمعت الفصل الأول.

قلت: مضمون هذا القول أن معاني القرآن ثلاثة أصناف: الإلهيات، والنبوات، والشرائع.

وأن هذه السورة منها الإلهيات، وجعل صاحب هذا القول الوعد والوعيد والقصص من قسم النبوة، لأن ذلك مما أخبر به النبي ﷺ أو مما يدل على نبوته.

وهذا القول ضعيف أيضاً، فإنه يقال: والأمر والنهي أيضاً مما جاء به النبي، كما جاء بالوعد والوعيد، ويقال أيضاً: القصص تدل على الأمر والنهي كما تدل على النبوة، فإنها تدل على إكرامه لمن أطاعه، وعقوبته لمن عصاه، وهذا تقرير للأمر والنهي كما تقدم. وأيضاً: فإن مقصود النبوة هو الإخبار بما أمر الله به وبما أخبر به، وما دل على إثبات النبوة من القصص يدل على إثبات ما جاء به النبي، وما دل على إثبات ما جاء به النبي يدل على الأمر والنهي الذي جاء به النبي فهما متلازمان.

ثم الإلهيات أيضاً هي مما جاء به النبي ﷺ فبين الدلائل العقلية على ما يمكن أن يعرف بالعقل، وأخبر عن الغيب المطلق الذي تعجز العقول عن معرفته فلا معنى لجعل القصص داخلة في النبوة دون الإلهيات فإنه إن عنى أن القصص تدل على نبوته فهي تدل من جهة إخباره بها كإخباره بغيرها من الغيب، وفيما أخبر به من الإلهيات والأمور المستقبلات ما هو كالقصص في ذلك وأبلغ.

(١) (من غير) في المطبوع.
(٢) المعلم (١/ ٤٦١).

وإن عنى أن تعذيب المكذبين يدل على النبوة فهي تدل على جنس النبوة، وعلى نبوة من عذب قومه لا تدل على نبوة المتأخر، إلا أن يكون ما أخبر به من جنس ما أخبر به الأول.

وهذه الأمور كلها موجودة في الإلهيات وزيادة، فإنه قد أخبر فيها بمثل ما أخبرت به الأنبياء قبله.

قد ذكر الله ذلك في غير موضع كقوله: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف]، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقد أخبر الله عن الأنبياء الذين قص أخبارهم كنوح وهود وصالح وشعيب صلوات الله عليهم أجمعين أن كلاً منهم يقول لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥]. بل يفتتح دعوته بذلك.

وذكر تعالى عن الأنبياء وأممهم من نوح إلى الحواريين أنهم كانوا مسلمين، كما قد بسط في غير موضع وأيضاً فالإلهيات التي تعلم منها قدرة الرب، وإرادته وحكمته، وأفعاله: منها يعلم النبي من المتنبئ، ومنها يعلم صدق النبي فهي أدل على صدق النبي من مجرد القصص، وما في القصص من الدلالة على صدقه إنما يدل مع الإلهيات وإلا فلو تجرد لم يدل على شيء، فالنبوة مرتبطة بالإلهيات أعظم من ارتباطها بغيرها، والأنبياء إنما بعثوا بالدعوة إلى الله وحده، وقد يذكرون المعاد مجملاً ومفصلاً، والقصص قد يذكر بعضهم بعضها مجملاً، وأما الإلهيات فهي الأصل، ولا بد من تفصيل الأمر بعبادة الله وحده دون ما سواه، فلا بد لكل نبي من الأصول الثلاثة، الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، والأصول الكلية التي يشترك فيها الأنبياء يذكرها الله في السور المكية مثل: الأنعام والأعراف وذوات ﴿الٓر﴾ و﴿طسٓمٓ ﴿١﴾﴾ و﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ وأكثر المفصل، ونحو ذلك، والمدنيات تتضمن خطاب من آمن بجنس الرسل من أهل الكتاب من المؤمنين بالشرائع التي بعث بها خاتم الرسل.

وأما قول من قال: إن هذا في شخص بعينه، ففي غاية الفساد لفظاً ومعنى.

ثم إن الله إنما يخص الشيء المعين بحكم يخصه لمعنى يختص به كما قال لأبي بردة بن نيار(١) ـ وكان قد ذبح في العيد قبل الصلاة ـ قبل أن يشرع لهم النبي ﷺ أن الذبح يكون بعد الصلاة، فلما قال النبي ﷺ إن الذبح يكون بعد الصلاة، فلما قال النبي ﷺ: «أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلي، ثم نذبح، فمن ذبح قبل الصلاة فليعد، فإنما هي شاة لحم قدمها لأهله»(٢).

ذكر له أبو بردة أنه ذبح قبل الصلاة ولم يكن يعرف أن ذلك لا يجوز، . وذكر له أن عنده عناقاً خيراً من جذعة فقال: «تجزي عنك ولا تجزي عن أحد بعدك»(٣).

فخصه بهذا الحكم لأنه كان معذوراً في ذبحه قبل الصلاة، إذ فعل قبل شرع الحكم فلم يكن ذلك الذبح منهياً عنه بعد، مع أنه لم يكن عنده إلا هذا السن، وأما أمره لامرأة أبي حذيفة بن عتبة أن ترضع سالماً مولاه خمس رضعات ليصير لها محرماً فهذا مما تنازع فيه السلف: هل هو مختص أو مشترك؟

وإذا قيل: هذا لمن يحتاج إلى ذلك ـ كما احتاجت هي إليه كان في ذلك جمع بين الأدلة.

وبالجملة فالشارع حكيم، لا يفرق بين متماثلين إلا لاختصاص أحدهما بما يوجب الاختصاص ولا يسوي بين مختلفين غير متساويين، بل قد أنكر سبحانه على من نسبه إلى ذلك وقبح من يحكم بذلك.

فقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية]، وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم]، وقال تعالى:

---

(١) هو ابن عمرو بن عبيد بن عمرو بن كلاب بن دهمان، واسم أبي بردة، هانئ وله عقب، وهو خال البراء بن عازب صاحب رسول الله ﷺ، وقد شهد العقبة مع السبعين من الأنصار في رواية موسى بن عقبة، ومحمد بن إسحاق، وأبي معشر، ومحمد بن عمر، وشهد أبو بردة غزوة بدر، وأحد والخندق، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ مات أبو بردة في خلافة معاوية، راجع طبقات ابن سعد (٣/ ٤٥١ ـ ٤٥٢).

(٢) البخاري (٩٥٥). (٣) البخاري (٩٥٥).

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾ [القمر]، وقال تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢].

وإنما يكون الاعتبار إذا سوى بين المتماثلين وأما إذا قيل: ليس الواقع كذلك فلا اعتبار. وقد تنازع الناس في هذا الأصل، وهو أنه هل يختص بالأمر والنهي ما يخصه لا لسبب ولا لحكمة قط، بل مجرد تخصيص أحد المتماثلين على الآخر.

فقال بذلك جهم بن صفوان ومن وافقه من الجبرية، ووافقهم كثير من المتكلمين المثبتين للقدر.

وأما السلف وأئمة الفقه والحديث والتصوف وأكثر طوائف الكلام المثبتين للقدر كالكرامية وغيرهم ونفاته كالمعتزلة وغيرهم فلا يقولون بهذا الأصل بل يقولون: هو سبحانه يخص ما يخص من خلقه وأمره لأسباب ولحكمة له في التخصيص. كما بسط الكلام على هذا الأصل في مواضع وكذلك قول من قال: يضعف لقارئها مقدار ما يعطاه قارئ ثلث القرآن بلا تضعيف: قول لا يدل عليه الحديث، ولا في العقل ما يدل عليه، وليس فيه مناسبة ولا حكمة فإن النص أخبر أن قراءتها تعدل ثلث القرآن وأن من قرأها فكأنما قرأ ثلث القرآن، فإن كان في هذا تضعيف ففي هذا تضعيف وإن لم يكن في هذا تضعيف لم يكن في الآخر فتخصيص أحدهما بالتضعيف تحكم.

ثم جعل التضعيف بقدر ثلث القرآن إنما هو لما اختصت به السورة من الفضل، وحينئذ ففضلها هو سبب هذا التقدير من غير حاجة إلى نقص ثواب سائر القرآن، وأيضاً فهذا تحكم محض لا دليل عليه ولا سبب يقتضيه، ولا حكمة فيه، والناس كثيراً ما يغلطون من جهة نقص عملهم وإيمانهم بكلام الله ورسوله وقدر ذلك وما اشتمل عليه ذلك من العلم الذي يفوق علم الأولين والآخرين.

ومن علم أن الرسول أعلم الخلق بالحق وأفصح الخلق في البيان، وأنصح الخلق للخلق علم أنه قد اجتمع في حقه كمال العلم بالحق، وكمال القدرة على بيانه وكمال الإرادة له، ومع كمال العلم والقدرة والإرادة يجب وجود المطلوب على أكمل وجه، فيعلم أن كلامه أبلغ ما يكون وأتم ما يكون، وأعظم ما يكون بياناً لما بينه في الدين من أمور الإلهية وغير ذلك.

فمن وقر هذا في قلبه لم يقدر على تحريف النصوص بمثل هذه التأويلات التي إذا تدبرت وجد من أرادها بذلك القول من أبعد الناس عما يجب اتصاف الرسول به، وعلم أن من سلك هذا المسلك فإنما هو لنقص ما أوتيه من العلم والإيمان، وقد قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

فنسأل الله أن يجعلنا وإخواننا ممن رفع درجاته من أهل العلم والإيمان.

وإذ قد تبين ضعف هذه الأقوال ـ غير القول الأول الذي نصرناه وهو قول ابن سريج وغيره كالمهلب والأصيلي وغيرهما ـ فنقول: قد علم أن تفاضل القرآن وغيره من كلام الله ليس باعتبار نسبته إلى المتكلم، فإنه سبحانه واحد، ولكن باعتبار معانيه التي يتكلم بها، وباعتبار ألفاظه المبينة لمعانيه.

والذي قد صح عن النبي ﷺ أنه فضل من السور سورة الفاتحة وقال: «إنه لم ينزل في التوراة والإنجيل ولا في القرآن مثلها»[1] والأحكام الشرعية تدل على ذلك، وقد بسط الكلام على معانيها في غير هذا الموضع، وفضل من الآيات آية الكرسي.

وقال في الحديث الصحيح لأبي بن كعب: «أتدري أي آية في كتاب الله معك أعظم؟. قال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فضرب بيده في صدره وقال: ليهنك العلم أبا المنذر»[2].

وليس في القرآن آية واحدة تضمنت ما تضمنته آية الكرسي.

وإنما ذكر الله في أول سورة الحديد وآخر سورة الحشر عدة آيات لا آية واحدة.

وسنبين إن شاء الله أنه إذا كانت ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ تعدل ثلث القرآن لم يلزم من ذلك أنها أفضل من الفاتحة، ولا أنها يكتفى بتلاوتها ثلاث مرات عن تلاوة القرآن، بل قد كره السلف أن تقرأ إذا قرئ القرآن كله إلا مرة واحدة كما كتبت في المصحف، فإن القرآن يقرأ كما كتب في المصحف لا يزاد على ذلك ولا ينقص منه والتكبير المأثور عن ابن كثير[3] ليس هو مسنداً عن النبي ﷺ، ولم يسنده أحد إلى

---

(١) مرّ تخريجه. (٢) مرّ تخريجه.

(٣) هو عبد الله بن كثير المكيّ أحد القراء السبعة.

النبي ﷺ إلا البزي وخالف بذلك سائر من نقله، فإنهم إنما نقلوه اختباراً ممن هو دون النبي، وانفرد هو برفعه، وضعفه نقلة أهل العلم بالحديث والرجال من علماء القراءة وعلماء الحديث، كما ذكر ذلك غير واحد من العلماء فالمقصود أن من السنة في القرآن أن يقرأ كما في المصاحف، ولكن إذا قرئت ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ مفردة تقرأ ثلاث مرات وأكثر من ذلك، ومن قرأها فله من الأجر ما يعدل ثلث أجر القرآن، لكن عدل الشيء ـ بالفتح ـ يكون من غير جنسه، كما سنذكره إن شاء الله والثواب أجناس مختلفة، كما أن الأموال أجناس مختلفة من مطعوم ومشروب وملبوس ومسكون ونقد وغير ذلك وإذا ملك الرجل من أحد أجناس المال ما يعدل ألف دينار مثلاً لم يلزم من ذلك أن يستغني عن سائر أجناس المال بل إذا كان عنده مال وهو طعام فهو محتاج إلى لباس ومسكن وغير ذلك، وكذلك إن كان من جنس غير النقد فهو محتاج إلى غيره، وإن لم يكن معه إلا النقد فهو محتاج إلى جميع الأنواع التي يحتاج إلى أنواعها ومنافعها.

والفاتحة فيها من المنافع ثناء ودعاء مما يحتاج الناس إليه ما لا تقوم ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ مقامه في ذلك، وإن كان أجرها عظيماً فذلك الأجر العظيم إنما ينتفع به صاحبه مع أجر فاتحة الكتاب ولهذا لو صلى بها وحدها بدون الفاتحة لم تصح صلاته ولو قدر أنه قرأ القرآن كله إلا الفاتحة لم تصح لأن معاني الفاتحة فيها الحوائج الأصلية التي لا بد للعبادة منها وقد بسط الكلام عليها في غير هذا الموضع وبين أن ما في الفاتحة من الثناء والدعاء وهو قول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة].

هو أفضل دعاء دعا به العبد ربه، وهو أجوب دعاء دعا به العبد ربه، وأنفع دعاء دعا به العبد ربه، فإنه يجمع مصالح الدين والدنيا والآخرة، والعبد دائماً محتاج إليه لا يقوم غيره مقامه، فلو حصل له أجر تسعة أعشار القرآن ـ دع ثلثه ـ ولم يحصل له مقصود هذ الدعاء لم يقم مقامه ولم يسد مسده وهذا كما لو قدر أن الرجل تصدق بصدقات عظيمة وجاهد جهاداً عظيماً يكون أفضل من قراءة القرآن مرات وهو لم يصل ذلك اليوم الصلوات الخمس لم يقم ثواب هذه الأعمال مقام هذه، كما لو كان عند الرجل من الذهب والفضة والرقيق والحيوان والعقار أموال عظيمة، وليس عنده ما

يتغذى به ويتعشى من الطعام فإنه يكون جائعاً متألماً فاسد الحال ولا يقوم مقام الطعام الذي يحتاج إليه تلك الأموال العظيمة.

ولهذا قال الشيخ أبو مدين[١] رحمه الله: أشرف العلوم علم التوحيد، وأنفع العلم أحكام العبيد فليس الأفضل الأشرف هو الذي ينفع في وقت بل الأنفع في كل وقت ما يحتاج إليه العبد في ذلك الوقت، وهو فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه ولهذا يقال: المفضول في مكانه وزمانه أفضل من الفاضل، إذ دل الشرع على أن الصلاة أفضل من القراءة والقراءة أفضل من الذكر والذكر أفضل من الدعاء، فهذا أمر مطلق وقد تحرم الصلاة في أوقات فتكون القراءة أفضل منها في ذلك الوقت.

والتسبيح في الركوع والسجود هو المأمور به، والقراءة منهي عنها ونظائر هذا كثير.

فهكذا يعلم الأمر في فضل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ وغيرها، فقراءة الفاتحة في أول الصلاة أفضل من قراءتها بل هو الواجب، والاجتزاء بها وحدها لا يمكن، بل تبطل معه الصلاة.

ولهذا وجب التقرب بالفرائض قبل النوافل، والتقرب بالنوافل إنما يكون تقرباً إذا فعلت الفرائض، لا كما ظنه بعض الاتحادية كصاحب «الفتوحات المكية» ونحوه، من أن قرب الفرائض تكون بعد قرب النوافل، والنوافل تجعل الحق غطاءه وتلك تجعل الحق عينه، فهذا بناء على أصله الفاسد من الاتحاد، كما بين.

وبين أن الحديث يناقض مذهبه من وجوه، كما رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «يقول الله. من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني

---

(١) هو شعيب بن الحسن الأندلسي التلمساني أبو مدين: صوفي من مشاهيرهم، أصله من الأندلس، أقام بفاس، وسكن بجاية، وكثر أتباعه حتى خافه السلطان يعقوب المنصور وتوفي بتلمسان عام (٥٩٤هـ) وقد قارب الثمانين أو تجاوزها له «مفاتيح الغيب» و«ستر العيب».

لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت، وأكره مساءته ولا بد له منه»[١] وقد بين في هذا الحديث أن المتقرب ليس هو المتقرب إليه، بل هو غيره. وأنه ما تقرب إليه عبده بمثل أداء المفروض، وأنه لا يزال بعد ذلك يتقرب بالنوافل حتى يصير محبوباً لله، فيسمع به ويبصر به ويبطش به ويمشي به، ثم قال: «ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه».

ففرق بين السائل والمسؤول، والمستعيذ والمستعاذ به وجعل العبد سائلاً لربه مستعيذاً به.

وهذا حديث شريف جامع لمقاصد عظيمة ليس هذا موضعها، بل المقصود هنا الكلام على ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ وقد بينا أن أحسن الوجوه أن معاني القرآن ثلاثة أنواع: توحيد، وقصص، وأحكام. وهذه السورة صفة الرحمن فيها التوحيد وحده وذلك لأن القرآن كلام الله. والكلام نوعان: أما إنشاء، وإما إخبار.

والإخبار إما خبر عن الخالق وإما خبر عن المخلوق. فالإنشاء هو الأحكام كالأمر والنهي، والخبر عن المخلوق هو القصص.

والخبر عن الخالق هو ذكر أسمائه وصفاته، وليس في القرآن سورة هي وصف الرحمن محضاً إلا هذه السورة.

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً على سرية فكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾.

فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: سلوه لأي شيء يصنع ذلك: «فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، فأنا أحب أن أقرأ بها، فقال رسول الله ﷺ: أخبروه أن الله يحبه»[٢].

وقال البخاري في باب الجمع بين السورتين في ركعة: وقال عبيد الله عن ثابت عن أنس كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، فكان كلما افتتح سورة يقرأ لهم

---

(١) مرّ تخريجه.

(٢) مرّ الكلام عليه.

بها في الصلاة مما يقرأ به افتتح بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ حتى يفرغ منها ثم يقرأ بسورة أخرى معها، فكان يصنع ذلك في كل ركعة، فكلمه أصحابه وقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة ثم لا ترى أنها تجزيك حتى تقرأ بأخرى، فإما أن تقرأ بها، وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى. فقال: ما أنا بتاركها، إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت، وإن كرهتم ذلك تركتكم وكانوا يرون أنه من أفضلهم، وكرهوا أن يؤمهم غيره فلما أتاهم النبي ﷺ أخبره الخبر، فقال: يا فلان ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك، ومايحملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة قال: إني أحبها، قال «حبك إياها أدخلك الجنة». وقول النبي ﷺ: «إنها تعدل ثلث القرآن» حق كما أخبر به، فإنه ﷺ الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى لم يخرج من بين شفتيه إلا الحق.

والذين أشكل عليهم هذا القول لهم مأخذان: أحدهما: منع تفاضل كلام الله بعضه على بعض وقد تبين ضعفه.

الثاني: اعتقادهم أن الأجر يتبع كثرة الحروف، فما كثرت حروفه من الكلام يكون أجره أعظم.

قالوا: لأن النبي ﷺ قال: «من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات، أما إني لا أقول ﴿الٓمٓ﴾ حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف وميم حرف».

قال الترمذي: حديث صحيح[1].

قالوا: ومعلوم أن ثلث القرآن حروفه أكثر بكثير فتكون حسناته أكثر.

فيقال لهم: هذا حق كما أخبر به النبي ﷺ ولكن الحسنات فيها كبار وصغار والنبي ﷺ مقصوده أن الله يعطي العبد بكل حسنة عشر أمثالها، كما قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

فإذا قرأ حرفاً كان ذلك حسنة فيعطيه بقدر تلك الحسنة عشر مرات، لكن لم يقل: إن الحسنات في الحروف متماثلة، كما أن من تصدق بدينار يعطى بتلك الحسنة عشر أمثالها.

---

(١) مرّ تخريجه.

والواحد من بعد السابقين الأولين لو أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه. كما ثبت ذلك في الصحيحين، عن النبي ﷺ فهو إذا أنفق مداً كان له بهذه الحسنة عشر أمثالها.

ولكن لا تكون تلك الحسنة بقدر حسنة من أنفق مداً من الصحابة السابقين. ونظائر هذا كثيرة.

فكذلك حروف القرآن تتفاضل لتفاضل المعاني وغير ذلك فحروف الفاتحة له بكل حرف منها حسنة أعظم من حسنات حروف من ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾.

وإذا كان الشيء يعدل غيره فعدل الشيء ـ بالفتح ـ هو مساويه، وإن كان من غير جنسه، كما قال تعالى: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة: ٩٥].

والصيام ليس من جنس الطعام، والجزاء، ولكنه يعادله في القدر، وكذلك قوله ﷺ: «لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً». وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ١٢٣]، أي فدية، والفدية ما يعدل بالمفدي وإن كان من غير جنسه ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

أي يجعلون له عدلاً، أي نداً في الإلهية، وإن كانوا يعلمون أنه ليس من جنس الرب سبحانه ولو كان لرجل أموال من أصناف متنوعة، ولآخر ذهب بقدر ذلك لكان مال هذا يعدل مال هذا، وإن لم يكن من جنسه، ولهذا قد يكون عند الرجل من الذهب وغيره من الأموال ما يعدل شيئاً عظيماً، وإذا احتاج إلى دواء أو مركب أو مسكن، أو نحو ذلك ولم يكن قادراً على اشترائه لم تنفعه تلك الأموال العظيمة فالقرآن يحتاج الناس إلى ما فيه من الأمر والنهي والقصص وإن كان التوحيد أعظم من ذلك، وإذا احتاج الإنسان إلى معرفة ما أمر به وما نهي عنه من الأفعال، أو احتاج إلي ما يؤمر به، ويعتبر به من القصص والوعد والوعيد لم يسد غيره مسده، فلا يسد التوحيد مسد هذا ولا تسد القصص مسد الأمر والنهي، ولا الأمر والنهي مسد القصص، بل كل ما أنزل الله ينتفع به الناس ويحتاجون إليه.

فإذا قرأ الإنسان ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ حصل له ثواب بقدر ثواب ثلث القرآن، لكن لا يجب أن يكون الثواب من جنس الثواب الحاصل ببقية القرآن، بل قد

يحتاج إلى جنس الثواب الحاصل بالأمر والنهي والقصص، فلا تسد ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ مسدّ ذلك ولا تقوم مقامه فلهذا لو لم يقرأ[1] ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ فإنه وإن حصل له أجر عظيم لكن جنس الأجر الذي يحصل بقراءة غيرها لا يحصل له بقراءتها، بل يبقى فقيراً محتاجاً إلى ما يتم به إيمانه من معرفة الأمر والنهي والوعد والوعيد، ولو قام بالواجب عليه.

فالمعارف التي تحصل بقراءة سائر القرآن لا تحصل بمجرد قراءة هذه السورة، فيكون من قرأ القرآن كله أفضل ممن قرأها ثلاث مرات من هذه الجهة لتنوع الثواب وإن كان قارئ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ ثلاثاً يحصل له ثواب بقدر ذلك الثواب، لكنه جنس واحد ليس فيه الأنواع التي يحتاج إليها العبد، كمن معه ثلاثة آلاف دينار فإن هذا معه ما ينتفع به في جميع أموره، وذلك محتاج إلى ما مع هذا، وإن كان ما معه يعدل ما مع هذا. وكذلك لو كان معه طعام من أشرف الطعام يساوي ثلاثة آلاف دينار، فإنه محتاج إلى لباس ومساكن، وما يدفع به الضرر من السلاح والأدوية وغير ذلك مما لا يحصل بمجرد الطعام ومما ينبغي أن يعلم أن فضل القراءة بتدبر والذكر والدعاء والصلاة وغير ذلك قد يختلف باختلاف حال الرجل، فالقراءة أفضل من القراءة بلا تدبر، والصلاة بخشوع وحضور قلب أفضل من الصلاة بدون ذلك.

وفي الأثر: «إن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحداً وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض»[2].

وكان بعض الشيوخ يرقي بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ وكان لها بركة عظيمة فيرقي بها غيره فلا يحصل ذلك فيقول: ليس ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ من كل أحد تنفع كل أحد وإذا عرف ذلك فقد يكون تسبيح بعض الناس أفضل من قراءة غيره ويكون قراءة بعض السور من بعض الناس أفضل من قراءة غيره ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ وغيرها.

والإنسان الواحد يختلف أيضاً حاله. فقد يفعل العمل المفضول على وجه كامل

---

(١) كذا في الأصل، وصوابها زيادة «إلا» حتى يكون نفياً وإثباتاً.

(٢) عزاه بعضهم لحسان بن عطية رحمه الله من قوله.

فيكون به أفضل من سائر أعماله الفاضلة وقد غفر الله لبغي لسقيها الكلب، كما ثبت ذلك في الصحيحين وهذا لما حصل لها في ذلك العمل من الأعمال القلبية وغيرها. وقد ينفق الرجل أضعاف ذلك فلا يغفر له، لعدم الأسباب المزكية للعمل، فإن الله إنما يتقبل من المتقين.

وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مُد أحدهم ولا نصيفه»[١] يقوله عن أصحابه من السابقين الأولين ﷺ. فإذا قيل: إن ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ يعدل ثوابها ثواب ثلث القرآن، فلا بد من اعتبار التماثل في سائر الصفات، وإلا فإذا اعتبر قراءة غيرها مع التدبر والخشوع بقراءتها مع الغفلة والجهل لم يكن الأمر كذلك، بل قد يكون قول العبد: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر مع حضور القلب واتصافه بمعانيها أفضل من قراءة هذه السورة مع الجهل والغفلة.

والناس متفاضلون في فهم هذه السورة، وما اشتملت عليه، كما أنهم متفاضلون في فهم سائر القرآن.

فصل

وأصل هذه المسألة أن يعلم أن التفاضل والتماثل إنما يقع بين شيئين فصاعداً، إذ الواحد من كل وجه لا يعقل فيه شيء أفضل من شيء.

فالتفاضل في صفاته تعالى إنما يعقل إذا أثبت له صفات متعددة كالعلم، والقدرة، والإرادة، والمحبة والبغض، والرضا، والغضب.

وكإثبات أسماء له متعددة تدل على معانٍ متعددة، وأثبت له كلمات متعددة تقوم بذاته حتى يقال: هل بعضها أفضل من بعض أم لا؟.

وكل قول سوى قول السلف والأئمة في هذا الباب فهو خطأ متناقض، وأي شيء قاله في جواب هذه المسألة كان خطأ لا يمكنه أن يجيب فيه بجواب صحيح.

فمن قال: إنه ليس له صفة ثبوتية بل ليس له صفة إلا سلبية أو إضافية، كما يقول

---

(١) مرّ تخريجه.

ذلك الجهمية المحضة من المتفلسفة والمتكلمة أتباع جهم ابن صفوان ـ فهذا إذا قيل له: أيهما أفضل: نسبته التي هي الخلق إلى السماوات والأرض أم إلى بعوضة أم أيهما أفضل: نفي الجهل بكل شيء عنه والعجز عن كل شيء، أم نفي الجهل بالكليات؟

لم يمكنه أن يجيب بجواب صحيح على أصله الفاسد. فإنه إن قال: خلق السماوات مماثل خلق البعوضة كان هذا مكابرة للعقل والشرع.

قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وإن قال: بل ذلك أعظم وأكبر كما في القرآن، قيل له: ليس عندك أمران وجوديان يفضل أحدهما الآخر، إذ الخلق على قولك لا يزيد على المخلوق، فلم يبق إلا العدم المحض، فكيف يعقل في المعدومين من كل وجه أن يكون أحدهما أفضل من صاحبه إذا لم يكن هناك وجود يحصل فيه التفاضل؟ وكذلك إذا قيل: نفي الجهل والعجز عن بعض الأشياء مثل نفي ذلك عن بعض الأشياء كان هذا مكابرة وإن قال: بل نفي الجهل العام أكمل من نفي الجهل الخاص.

قيل له: إذا لم يلزم من نفي الجهل ثبوت علم بشيء من الأشياء، بل كان النفيان عدمين محضين فكيف يعقل التفاضل في الشيء الواحد من كل وجه فإنه لا يعقل في العدم المحض والنفي الصرف، فإن ذلك ليس بشيء أصلاً، ولا حقيقة له في الوجود ولا فيه كمال ولا مدح، وإنما يكون التفاضل بصفات الكمال، والكمال لا بد أن يكون موجوداً قائماً بنفسه أو صفة موجودة قائمة بغيرها، فأما العدم المحض فلا كمال فيه أصلاً.

ولهذا إنما يصف الله نفسه بصفات التنزيه لا السلبية العدمية لتضمنها أموراً وجودية تكون كمالاً يتمدح سبحانه بها، كما قد بسط في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فنفي ذلك يتضمن كمال الحياة والقيومية.

وكذلك قوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] يتضمن كمال الملك والربوبية وانفراده بذلك. ونفي انفراده بالملك والهداية والتعليم وسائر صفات الكمال هو من صفات الكمال.

ولهذا كانت السورة فيها الاسمان الأحد الصمد وكل منهما يدل على الكمال.

فقوله: ﴿أَحَدٌ﴾ يدل على نفي النظير.

وقوله: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ بالتعريف يدل على اختصاصه بالصمدية.

ولهذا جاء التعريف في اسمه الصمد دون الأحد لأن أحداً لا يوصف به في الإثبات غيره، بخلاف الصمد، فإن العرب تسمي السيد صمداً.

قال يحيى بن أبي كثير: الملائكة تسمى صمداً والآدمي أجوف، فقوله: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ بيان لاختصاصه بكمال الصمدية.

وقد ذكرنا تفسير الصمد، واشتماله على جميع صفات الكمال كما رواه العلماء من تفسير ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وقد ذكره ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي وغيرهم في قوله: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ يقول: السيد الذي قد كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته والحكيم الذي قد كمل في حكمته، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحليم الذي قد كمل في حلمه وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو سبحانه هذه صفته لا تنبعي إلّا له، ليس له كفء وليس كمثله شيء، سبحانه الواحد القهار، وكذلك قد ثبت من حديث الأعمش عن أبي وائل وقد ذكره البخاري في صحيحه(١).

ورواه كثير من أهل العلم في كتبهم قال: الصمد السيد الذي انتهى سؤدده.

وقد قال غير واحد من السلف كابن مسعود وابن عباس وغيرهما: الصمد الذي لا جوف له. وكلا القولين حق موافق للغة، كما قد بسط في موضعه.

أما كون الصمد هو السيد فهذا مشهور. وأما الآخر فهو أيضاً معروف في اللغة.

وقد ذكر الجوهري وغيره أن الصمد لغة في الصمت وليس هذا من إبدال الدال بالتاء كما ظنه بعضهم بل لفظ صمد يصمد صمداً يدل على ذلك.

والمقصود هنا أن صفات الكمال إنما هي في الأمور الموجودة، والصفات السلبية

---

(١) مرّ تخريجه.

إنما تكون كمالاً إذا تضمنت أموراً وجودية، ولهذا كان تسبيح الرب يتضمن تنزيهه وتعظيمه جميعاً: فقول العبد: سبحان الله، يتضمن تنزيه الله وبراءته من السوء وهذا المعنى يتضمن عظمته في نفسه، ليس هو عدماً محضاً لا يتضمن وجوداً، فإن هذا لا مدح فيه ولا تعظيم.

وكذلك سائر ما تنزه الرب عنه من الشركاء والأولاد وغير ذلك.

كقوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الإسراء]، إلى قوله: ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء]، وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات] وغير ذلك.

فنفي العيوب والنقائص يستلزم ثبوت الكمال ونفي الشركاء يقتضي الوحدانية، وهو من تمام الكمال، فإن ماله نظير قد انقسمت صفات الكمال وأفعال الكمال فيه وفي نظيره، فحصل له بعض صفات الكمال لا كلها، فالمنفرد بجميع صفات الكمال أكمل ممن له شريك يقاسمه إياها ولهذا كان أهل التوحيد والإخلاص أكمل حباً لله من المشركين الذي يحبون غيره، الذين اتخذوا من دونه أنداداً يحبونهم كحبه، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وهذا مبسوط في غير هذا الموضع، قد بين فيه أن هذا من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله تعالى.

وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: «قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك. قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك. قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني بحليلة جارك»[1].

(١) مرّ تخريجه.

وأنزل الله تعالى تصديق ذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ الآية [الفرقان: ٦٨].

فمن جعل لله نداً يحبه كحب الله فهو ممن دعا مع الله إلهاً آخر وهذا من الشرك الأكبر.

والمقصود هنا أن الشيء إذا انقسم ووقعت فيه الشركة نقص ما يحصل لكل واحد، فإذا كان جميعه لواحد كان أكمل فلهذا كان حب المؤمنين الموحدين المخلصين لله أكمل.

وكذلك سائر ما نهوا عنه من كبائر الإثم والفواحش يوجب كمال الأمور الوجودية في عبادتهم وطاعتهم ومعرفته ومحبتهم وذلك من زكاهم، كما أن الزرع كلما نقي عنه الدغل كان أزكى له وأكمل لصفات الكمال الوجودية فيه، قال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت]﴾، وأصل الزكاة التوحيد والإخلاص، كما فسرها بذلك أكابر السلف.

وقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ﴾ [النور: ٣٠]، وقال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، وهذا كله مبسوط في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا: أن من نفى عن الله النقائص كالموت والجهل والعجز والصمم والعمى والبكم، ولم يثبت له صفات وجودية كالحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام، بل زعم أن صفاته ليس إلا عدمية محضة، وأنه لا يوصف بأمر وجودي، فهذا لم يثبت له صفة كمال أصلاً، فضلاً عن أن يقال: أي الصفتين أفضل؟.

فإن التفضيل بين الشيئين فرع كون كل منهما له كمال ما، ثم ينظر أيهما أكمل، فأما إذا قدر أن كلاً منهما عدم محض فلا كمال ولا فضيلة هناك أصلاً.

وكذلك من أثبت له الأسماء دون الصفات فقال: إنه حي عليم قدير سميع بصير عزيز حكيم ـ ولكن هذه الأسماء لا تتضمن اتصافه بحياة ولا علم ولا قدرة ولا سمع ولا بصر ولا عزة ولا حكمة.

فإذا قيل له: أي الاسمين أفضل؟ لم يجب بجواب صحيح. فإنه إن قال: العليم

أعظم من السميع لعموم تعلقه مثلاً، أو قال: العزيز أكمل من القدير؛ لأنه مستلزم للقدرة من غير عكس.

قيل: إذا لم يكن للأسماء عندك معانٍ موجودة تقوم به لم يكن هناك لا علم ولا سمع ولا بصر ولا عزة ولا قدرة، ليس إلا ذات مجردة عن صفات ومخلوقات، والذات المجردة ليس فيها ما يمكن أن يقع فيه تفاضل ولا تماثل، والمخلوقات لم يكن السؤال عن تفضيل بعضها على بعض، فإن ذلك مما يعلمه كل واحد، ولا يشتبه على عاقل.

ولذلك من جعل بعض صفاته بعضاً، أو جعل الصفة هي الموصوف مثل من قال: العلم هو القدرة، والعلم والقدرة هما العالم القادر، كما يقول ذلك من يقوله من جهمية الفلاسفة ونحوهم.

أو قال: كلامه كله هو معنى واحد قائم بذاته، هو الأمر بكل مأمور، والخبر عن كل مخبر به، إن عبر عنه بالعربية كان قرآناً، وإن عبر عنه بالعبرية كان توراة، وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلاً، وإن معنى آية الكرسي، وآية الدين واحد، وإن الأمر والنهي صفات نسبية للكلام ليست أنواعاً، بل ذات الكلام الذي هو أمر هو ذات الكلام الذي هو نهي، وإنما تنوعت الإضافة.

فهذا الكلام الذي تقوله الكلابية، وإن كان جمهور العقلاء يقولون: إن مجرد تصوره كاف في العلم بفساده. فلا يمكن على هذا القول الجواب بتفضيل كلام الله بعضه على بعض ولا مماثلة بعضه لبعض، لأن الكلام على قولهم شيء واحد بالعين لا يتعدد ولا يتبعض فكيف يمكن أن يقال: هل بعضه أفضل من بعض أم بعضه مثل بعض ولا بعض له عندهم؟

وإن قالوا: التماثل والتفاضل يقع في العبارة الدالة عليه، قيل: تلك ليست كلاماً لله على أصله ولا عند أئمتهم، بل هي مخلوق من مخلوقاته، والتفاضل في المخلوقات لا إشكال فيه.

ومن قال من أتباعهم: إنها تسمى كلام الله حقيقة وإن اسم الكلام يقع عليها وعلى معنى ذلك المعنى القائم بالنفس بالإشتراك اللفظي، فإنه لم يعقل حقيقة قولهم،

بل قوله هذا يفسد أصلهم. لأن أصل قولهم: أن الكلام لا يقوم إلا بالمتكلم لا يقوم بغيره، إذ لو جاز قيام الكلام بغير المتكلم لجاز أن يكون كلام الله مخلوقاً قائماً بغيره مع كونه كلام الله.

وهذا أصل الجهمية والمعتزلة الذي خالفهم فيه الكلابية وسائر المثبتة.

وقالوا: إن المتكلم لا يكون متكلماً حتى يقوم به الكلام وكذلك في سائر الصفات قالوا: لا يكون العالم عالماً حتى يقوم به العلم، ولا يكون المريد مريداً حتى تقوم به الإرادة، فلو جوزوا أن يكون لله ما هو كلام له وهو مخلوق منفصل عنه بطل هذا الأصل.

وأصل النفاة المعطلة من الجهمية والمعتزلة: أنهم يصفون الله بما لم يقم به، بل بما قام بغيره، أو بما لم يوجد، ويقولون: هذه إضافات لا صفات فيقولون: هو رحيم ويرحم، والرحمة لا تقوم به بل هي مخلوقة، وهي نعمته.

ويقولون: هو يرضى ويغضب والرضا والغضب لا يقوم به، بل هو مخلوق، وهو ثوابه وعقابه.

ويقولون: هو متكلم ويتكلم، والكلام لا يقوم به بل هو مخلوق قائم بغيره، وقد يقولون: هو مريد ويريد، ثم قد يقولون: ليس الإرادة شيئاً موجوداً، وقد يقولون: إنها هي المخلوقات والأمر المخلوق، وقد يقولون: أحدث إرادة لا في محل هذا الأصل الباطل الذي أصله نفاة الصفات الجهمية المحضة من المعتزلة وغيرهم، وهو الذي فارقهم به جميع المثبتة للصفات من السلف والأئمة، وأهل الفقه والحديث والتصوف والتفسير، وأصناف نظار المثبتة كالكلابية ومن اتبعهم من الأشعرية وغيرهم، وكالهشامية والكرامية وغيرهما من طوائف النظار المثبتة للصفات.

وسئل:

عمن يقرأ القرآن هل يقرأ (سورة الإخلاص) مرة أو ثلاثاً؟ وما السنة في ذلك؟.

فأجاب: إذا قرأ القرآن كله ينبغي أن يقرأها كما في المصحف مرة واحدة، هكذا قال العلماء، لئلا يزاد على ما في المصحف، وأما إذا قرأها وحدها، أو مع بعض القرآن فإنه إذا قرأها ثلاث مرات عدلت القرآن، والله أعلم.

وقال شيخ الإسلام قدس الله روحه:

الحمد لله نحمده ونستعينه[١] ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمداً عبده، ورسوله ﷺ تسليماً.

فصل

في تفسير ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾، والاسم ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ فيه للسلف أقوال متعددة قد يظن أنها مختلفة، وليست كذلك، بل كلها صواب، والمشهور منها قولان:

أحدهما: أن الصمد: هو الذي لا جوف له.

والثاني: أنه السيد الذي يُصْمد إليه في الحوائج، والأول هو قول أكثر السلف من الصحابة والتابعين وطائفة من أهل اللغة.

والثاني: قول طائفة من السلف والخلف، وجمهور اللغويين، والآثار المنقولة عن السلف بأسانيدها في كتب التفسير المسندة، وفي كتب السنة وغير ذلك [تؤيد المعنيين] وقد كتبنا من الآثار في ذلك شيئاً كثيراً بإسناده فيما تقدم.

وتفسير ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ بأنه الذي لا جوف له، معروف عن ابن مسعود موقوفاً ومرفوعاً، وعن ابن عباس، والحسن البصري، ومجاهد وسعيد بن جبير، وعكرمة، والضحاك، والسدي، وقتادة، وبمعنى ذلك قال سعيد بن المسيب قال: «هو الذي لا حشو له».

وكذلك قال ابن مسعود: «هو الذي ليست له أحشاء».

وكذلك قال الشعبي: «هو الذي لا يأكل ولا يشرب».

وعن محمّد بن كعب القرظي، وعكرمة: «هو الذي لا يخرج منه شيء».

وعن ميسرة قال: «هو المُصْمَتُ».

---

(١) وفي النسختين المطبوعتين «الحمد لله، نستعينه...».

قال ابن قتيبة: «كأن الدال في هذا التفسير مبدلة من تاء، والصمت من هذا».

قلت: لا إبدال في هذا ولكن هذا من جهة الاشتقاق الأكبر وسنبين إن شاء الله وجه هذا القول من جهة الاشتقاق، واللغة.

وفي الحديث المأثور في سبب نزول هذه الآية [الذي] رواه أحمد في «المسند»[1] وغيره ـ من حديث أبي سعد الصغاني: حدثنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب: «أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: «انسب لنا ربك: فأنزل الله ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ إلى آخر السورة قال: الصمد: الذي لم يلد ولم يولد، لأنه ليس بشيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله لا يموت ولا يورث.

وأما تفسيره بأنه السيد الذي يصمد إليه في الحوائج فهذا أيضاً مروي عن ابن عباس موقوفاً ومرفوعاً[2]، فهو من تفسير الوالبي عن ابن عباس قال: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ السيد الذي كمل في سؤدده.

وهذا مشهور عن أبي وائل شقيق بن سلمة قال: «هو السيد الذي انتهى سؤدده».

وعن أبي إسحاق الكوفي، عن عكرمة: «الصمد: الذي ليس فوقه أحد» ويروى هذا عن علي.

وعن كعب الأحبار: «الذي لا يكافئه من خلقه أحد».

وعن السدي أيضاً: «هو المقصود إليه في الرغائب، والمستغاث به عند المصائب»[3].

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٤٥١) وأحمد (٥/ ١٣٤) ورجح إرساله وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (رقم ٩٨) بسند حسن.

(٢) وسيأتي قريباً موقوفاً، إما المرفوع فذكره ابن الجوزي في «تفسيره» أن ابن عباس رواه عن رسول الله ﷺ، ولم أجد من خرجه ـ وذكره الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» موقوفاً في قصة سؤال نافع بن الأزرق عبد الله بن عباس عن معاني كلمات القرآن واستشهاده بإشعار العرب، وقال: رواه الطبراني وفي إسناده جويبر وهو متروك (٦/ ٣٠٨).

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٠/ ٢٤٥).

وعن أبي هريرة ﷺ: «هو المستغني عن كل أحد، المحتاج إليه كل أحد»[١].

وعن سعيد بن جبير أيضاً: «الكامل في جميع صفاته وأفعاله» وعن الربيع: «الذي لا تعتريه الآفات».

وعن مقاتل بن حيان: «الذي لا عيب له».

وعن ابن كيسان: «هو الذي لا يوصف بصفته أحد».

قال أبو بكر الأنباري: لا خلاف بين أهل اللغة أن الصمد: السيد الذي ليس فوقه أحد، الذي يصمد إليه الناس في حوائجهم وأمورهم».

وقال الزجاج: «هو الذي ينتهي إليه السؤدد، فقد صمد له كل شيء أي قصد قصده»[٢] وقد أنشدوا في هذا بيتين مشهورين أحدهما:

ألا بَكَّر[٣] الناعي بخيري بني أسد بعمرو بن مسعود وبالسيّد الصمد

وقال الآخر[٤]:

عَلَوْتُه بحسامي ثم قلت له خذها حذيف! فأنت السيد الصمد

وقال بعض أهل اللغة: «الصمد: هو السيد المقصود في الحوائج» تقول العرب: صمدت فلاناً أصمده ـ بكسر الميم ـ وأصمُده ـ بضم الميم ـ صمْداً ـ بسكون الميم ـ إذا قصدته، المصمود صَمْد كالقبض بمعنى المقبوض، والنقض بمعنى المنقوض، ويقال بيت مصمود ومصمد إذا قصده الناس في حوائجهم قال طرفة[٥]:

وإنْ يَلْتقِ الحيُّ الجميعُ تُلاقِني إلى ذُرْوة البيت الرَّفيع المُصمَّد

---

(١) ذكره القرطبي أيضاً.

(٢) وفي النسختين المطبوعتين «قصد قصده، وتأويل صمود كل شيء له أن في كل شيء أثر صنعته»، قلت وقد أنشدو...

(٣) أورده ابن الجوزي في تفسيره وفيه «لقد بكر»، والبيت لسبرة بن عمرو الأسدي، وهو في «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢/٣١٦) و«سمط اللآلي» (ص٩٣٢) و«تفسير الطبري» (٣٠/٣٤٧) والقرطبي (٢٠/٢٤٥) واللسان «صمد».

(٤) راجع «اللسان»، والقرطبي (٢٠/٢٤٥)، والبيت لعمرو بن الأسلع العبسي.

(٥) ديوانه (٣٠) وفيه: (البيت الكريم).

وقال الجوهري: «صمده يصمده: إذا قصده» والصمد: ـ بالتحريك ـ السيد لأنه يصمد إليه[(١)] في الحوائج، ويقال بيت مصمد ـ بالتشديد ـ أي مقصود.

وقال الخطابي: «أصح الوجوه: أنه السيد الذي يصمد إليه في الحوائج لأن الإشتقاق يشهد له» فإن أصل الصمد: القصد، يقال: اصمد صمد فلان: أي اقصد قصده، فالصمد: السيد الذي يصمد إليه في الأمور، ويقصد في الحوائج.

وقال قتادة[(٢)]: «الصمد: الباقي بعد خلقه».

وقال مجاهد ومعمر: «هو الدائم».

وقد جعل الخطابي وأبو الفرج ابن الجوزي الأقوال فيه أربعة: هذين[(٣)] والذين تقدما، وسنبين إن شاء الله أن بقاءه ودوامه من تمام الصمدية.

وعن مرة الهمداني: «هو الذي لا يبلى ولا يغنىٰ».

وعنه أيضاً قال: «هو الذي يحكم ما يريد، ويفعل ما يشاء لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه»[(٤)].

وقال ابن عطاء[(٥)]: «هو المتعالي عن الكون والفساد».

وعنه أيضاً قال: «الصمد: الذي لم يتبين عليه أثر فيما أظهر» يريد قوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨].

---

(١) وفي الطبعة الحسينية «لأنه يقصد في الحوائج».

(٢) وسيأتي قريباً.

(٣) راجع «تفسير ابن الجوزي» (٩/٢٦٨)، وقال ابن كثير في «تفسيره» (٤/٥٧٠): وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني في «كتاب السنة» له بعد إيراده كثيراً من هذه الأقوال في تفسير «الصمد»، «وكل هذه صحيحة، وهي صفات ربنا ﷻ، وهو الذي يصمد إليه في الحوائج، وهو الذي قد انتهى سؤدده، وهو الصمد الذي لا جوف له، ولا يأكل ولا يشرب، وهو الباقي بعد خلقه» وقال البيهقي نحو ذلك.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» عن الحسين بن الفضل (٢٠/٢٤٥).

(٥) واصل بن عطاء المعتزلي، أبو حذيفة المعروف بالغزال، متكلم، أديب، بليغ، درس على الحسن البصري ثم اعتزل عنه، وعمل على نشر مذهب الاعتزال، وكون فرقة تسمى الواصلية، من آثاره «معاني القرآن» توفي سنة ١٣١هـ.

وقال الحسين بن الفضل[(١)]: «هو الأزلي بلا ابتلاء».

وقال محمّد بن علي الحكيم الترمذي[(٢)]: «هو الأول بلا عدد، والباقي بلا أمد، والقائم بلا عمد».

وقال أيضاً: «الصمد: الذي لا تدركه الأبصار، ولا تحويه الأفكار، ولا تبلغه الأقطار، وكل شيء عنده بمقدار».

وقيل: «هو الذي جلّ عن شبه المصوّرين».

وقيل: «هو بمعنى نفي التجزي والتأليف عن ذاته» وهذا قول كثير من أهل الكلام.

وقيل: «هو الذي أيست العقول من الاطلاع على كيفيته». وكذلك قيل: «هو الذي لا تدرك حقيقة نعوته وصفاته فلا يتسع له اللسان، ولا يشير إليه البنان».

وقيل: «هو الذي لم يُعط خَلقه من معرفته إلا الاسم والصفة».

وعن الجنيد قال: «الذي لم يجعل لأعدائه سبيلاً إلى معرفته»، ونحن نذكر ما حضرنا من ألفاظ السلف بأسانيدها.

فروى ابن أبي حاتم في تفسيره قال: «حدثنا أبي، حدثنا محمّد بن موسى بن نفيع الحرشي، حدثنا عبد بن عيسى يعنى أبا خلف الخزاز، حدثنا داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ قال: «﴿ٱلصَّمَدُ﴾ الذي يصمد إليه الناس والأشياء[(٣)] إذا نزل بهم كربة أو بلاء».

حدثنا أبو زرعة[(٤)]، حدثنا محمّد بن ثعلبة بن سواء السدوسي، حدثنا محمّد بن

---

(١) الحسين بن الفضل بن عمير البجلي، الكوفي، أبو علي النيسابوري، المفسر الأديب، إمام عصره في معاني القرآن توفي سنة (٢٨٢هـ).

(٢) أبو عبد الله محمّد بن علي بن الحسن بن بشر، الحكيم الترمذي، متصوف معروف، درس في شبابه التفسير، والحديث، والفقه، ثم مال إلى التصوف. وكان ذا رحلة ومعرفة وله مصنفات كثيرة من أشهرها «ختم الأولياء» و«نوادر الأصول في معرفة أخبار الرسول» عاش في القرن الثالث وبداية القرن الرابع.

(٣) وفي الفتاوى تصمد إليه الأشياء».

(٤) وفي النسختين «شريك بن عبد العزيز» بدل سويد بن عبد العزيز ولم نجده في كتب الرجال =

سواء، حدثنا سعيد بن أبي عروبة، عن أبي معشر، عن إبراهيم، قال: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ الذي يصمد العباد إليه في حوائجهم».

حدثنا أبي، حدثنا عبد الرحمن بن الضحاك، حدثنا سويد بن عبد العزيز حدثنا سفيان بن حسين، عن الحسن، قال: «﴿ٱلصَّمَدُ﴾: الحي القيوم الذي لا زوال له».

حدثنا أبي، حدثنا نصر بن علي، حدثنا يزيد بن زريع، عن سعيد، عن قتادة، عن الحسن، قال: «﴿ٱلصَّمَدُ﴾ الباقي بعد خلقه» وهو قول قتادة.

حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن نمير، عن الأعمش، عن شقيق في قوله: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ قال(١): «السيد الذي قد انتهى سؤدده».

حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح، حدثنا معاوية بن صالح، عن علي ابن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ قال؛ السيد الذي قد كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، هو الله ﷻ، هذه صفته لا تنبغي لأحد إلا له، ليس له كفؤ، وليس كمثله شيء، سبحان الله الواحد القهار(٢).

حدثنا كثير بن شهاب المذحجي القزويني، حدثنا محمّد بن سعيد ابن سابق، حدثنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس في قوله: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ قال: «الذي لم يلد ولم يولد».

= المتوفرة لدينا، وقد ورد اسم سويد بن عبد العزيز ضمن شيوخ عبد الرحمن بن الضحاك.

(١) ذكره البخاري في «صحيحه» من قول أبي وائل تعليقاً ـ وقال الحافظ ابن حجر: وصله الفريابي من طريق الأعمش عنه، وجاء أيضاً من طريق عاصم عن أبي وائل بذكر ابن مسعود فيه. (فتح الباري ٨/ ٧٤٠).

(قلت): كذا أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ٢٩٩) وقال الألباني: إسناده حسن، وأخرجه أيضاً من قول أبي وائل من رواية ابن نمير عن وكيع، وابن إدريس عن الأعمش عنه، ورجال إسناده رجال الصحيحين وأخرجه الطبري (٣٠/ ٣٤٦) البيهقي في «الأسماء والصفات» (٧٩) من وجه آخر عن الأعمش عنه ورجالهما أيضاً ثقات.

(٢) وأخرجه الطبري في «تفسيره» (٣٠/ ٣٤٦) عن علي بن داود القنطري، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٧٨) من طريق عثمان بن سعيد الدارمي كلاهما عن أبي صالح به، وسنده لا بأس به، وذكره ابن كثير في «تفسيره» بدون سند (٤/ ٥٧٠).

حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن علية، عن أبي رجاء، عن عكرمة في قوله: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ قال: «الذي لم يخرج منه شيء».

حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أحمد، حدثنا مندل بن علي عن أبي روق عطية بن الحارث، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن عبد الله بن مسعود قال: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ الذي ليس له أحشاء.

وروي عن سعيد بن المسيب مثله.

حدثنا أبي، حدثنا محمّد بن عمر بن عبد الله الرومي، حدثنا عبيد الله بن سعيد قائد الأعمش، عن صالح بن حيان عن عبد الله ابن بريده عن أبيه، قال لا أعلمه إلا قد رفعه قال: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ الذي لا جوف له.

وروي عن عبد الله[١] بن عباس وعبد الله بن مسعود في إحدى الروايات، والحسن وعكرمة وعطية وسعيد بن جبير، ومجاهد في إحدى الروايات، والحسن وعكرمة وعطية وسعيد بن جبير، ومجاهد في إحدى الروايات، والضحاك مثل ذلك.

حدثنا أبي، حدثنا قبيصة، حدثنا سفيان، عن منصور، عن مجاهد قال: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ المصمت الذي لا جوف له[٢].

حدثنا أبو عبد الله الطهراني، حدثنا حفص بن عمر العدني، حدثنا الحكم بن أبان، عن عكرمة في قوله: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ قال: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ الذي لا يطعم.

حدثنا أبي، حدثنا علي بن هاشم بن مرزوق، حدثنا هشيم، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي أنه قال: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ الذي لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب[٣].

حدثنا أبي وأبو زرعة قالا حدثنا أحمد بن منيع، حدثنا محمّد بن ميسر ـ يعني أبا سعد الصغاني ـ حدثنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن

---

(١) ستأتي رواياتهم قريباً. (٢) إسناده صحيح.

(٣) وأخرجه الطبري (٣٠/ ٣٤٥) وسيأتي وابن عاصم في «السنة» (١/ ٣٠٢) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٧٩).

كعب في قوله: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ قال: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ الذي لم يلد ولم يولد، لأنه ليس شيء يلد إلا يموت، وليس شيء يموت إلا يورث وأن الله لا يموت، ولا يورث، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ قال لم يكن له شبه ولا عدل، وليس كمثله شيء[١].

حدثنا علي بن الحسين[٢] حدثنا محمود بن خداش، حدثنا أبو سعد الصغاني، حدثنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية عن أبي بن كعب: «إن المشركين قالوا: انسب لنا ربك، فأنزل الله هذه السورة».

حدثنا أبو زرعة، حدثنا العباس بن الوليد، حدثنا يزيد بن زريع عن سعيد، عن قتادة ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾. قال: إن الله لا يكافئه من خلقه أحد.

حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبو عبد الله الجرشي، حدثنا أبو خلف عبد الله بن عيسى، حدثنا داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: «إن اليهود جاءت إلى النبي ﷺ منهم كعب بن الأشرف، وحيي بن أخطب، وجدي بن أخطب، فقالوا: يا محمد! صف لنا ربك الذي بعثك فأنزل الله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ﴾ فيخرج منه[٣] الولد ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ فيخرج من شيء».

وقال ابن جرير الطبري في تفسيره[٤]: حدثنا أحمد بن منيع المروزي، ومحمود بن خداش الطالقاني فذكر مثل إسناد ابن أبي حاتم عن أبي بن كعب سؤال المشركين للنبي ﷺ «انسب لنا ربك فأنزل الله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾».

حدثنا ابن حميد، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا الحسين عن يزيد، عن عكرمة أن المشركين قالوا: لرسول الله ﷺ: «أخبرنا عن صفة ربك ما هو؟ ومن أي شيء هو؟ فأنزل الله هذه السورة»[٥].

ورواه أيضاً عن أبي العالية[٦] وعن جابر بن عبد الله، حدثنا سريج، حدثنا

(١) وقد مر برواية أحمد، وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٨) وانظر تخريجه هناك.
(٢) وفي النسختين «علي بن الحصين» بالصاد. وهو خطأ.
(٣) وفي النسختين «فيخرج ابنه الولد» وما أثبتناه من الفتاوى أصح.
(٤) راجع «تفسير الطبري» (٣٠/ ٣٤٢).
(٥) راجع «الطبري» أيضاً (٣٠/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣).
(٦) الطبري أيضاً (٣٠/ ٣٤٣).

إسماعيل[١] بن مجالد عن مجالد: عن الشعبي، عن جابر فذكره قال: وقيل: هو من سؤال اليهود.

حدثنا ابن حميد، حدثنا سلمة، حدثنا ابن إسحاق، عن محمّد بن أبي محمد قال: «أتى رهط من اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: يا محمّد هذا الله خلق الخلق فمن خلقه؟ فغضب النبي ﷺ حتى انتقع لونه ثم ساورهم غضباً لربه فجاءه جبريل فسكنه، وقال اخفض عليك جناحك يا محمد، وجاءه من الله جواب ما سألوه عنه قال: يقول الله ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ إلى آخرها فلما تلاها عليهم النبي ﷺ قالوا له: صف لنا ربك كيف خلقه كيف عضده؟ كيف ساعده؟ وكيف ذراعه؟ فغضب النبي ﷺ أشد من غضبه الأول، وساورهم فأتاه جبريل فقال له: مثل مقالته الأولى وأتاه بجواب ما سألوه فأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾[٢] [الزمر: ٦٧].

وروى الحكم بن معبد في كتاب «الرد على الجهمية» قال حدثنا عبد الله بن محمّد بن النعمان، حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا يحيى بن عبد الله، حدثنا ضرار[٣]، عن أبان، عن أنس، قال: «أتت يهود خيبر إلى النبي ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم خلق الله الملائكة من نور الحجاب، وآدم من حمأ مسنون، وإبليس من لهب النار، والسماء من دخان، والأرض من زبد الماء، فأخبرنا عن ربك؟ قال: فلم يجبهم النبي ﷺ فأتاه جبريل فقال يا محمد: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣

(١) جاء في الأصل «حدثنا شريح، ثنا إسماعيل بن مجاهد عن الشعبي» والتصحيح من تفسير الطبري، فقد رواه عن محمّد بن عوف حدثني شريح قال ثنا إسماعيل بن مجالد عن مجالد عن الشعبي عن جابر به، وشريح تصحيف من سريح (بالمهملة وآخره جيم) وهو ابن يونس، ثقة، وإسماعيل بن مجالد صدوق، يخطئ، وأبوه مجالد بن سعيد ليس بالقوي، فالحديث ضعيف، وأخرجه أبو يعلى والطبراني في «الأوسط» راجع «مجمع الزوائد» (١٤٦/٧) كما أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣٣٥)، حدثنا محمّد بن عوف،. حدثنا سريج، ثنا إسماعيل بن مجالد عن مجالد عن الشعبي، عن جابر فذكره، قال وقيل هو من سؤال اليهود. . .

(٢) والحديث ضعيف ـ لضعف ابن حميد، وكون محمّد بن إسحاق مدلساً، وقد عنعن، وشيخه هو محمّد بن أبي محمّد مولى زيد بن ثابت مدني، قال الذهبي في لسان الميزان (٤/ ٢٦) لا يعرف وفي الأصل عن محمّد بن سعيد وصححناه من تفسير الطبري: راجع (٣٤٣/٣٠) ونسبه السيوطي في (الدر المنثور) (٨/ ٦٧١) إلى ابن المنذر أيضاً.

(٣) وفي النسختين «ثنى يحيى بن عبد الله، ثنى ضرار».

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ ليس له عروق يتشعب إليها، ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ ليس بأجوف ولا يأكل ولا يشرب[١] ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ ليس له ولد ولا والد ينسب إليه، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ ليس شيء من خلقه يعدل مكانه، يمسك السموات والأرض أن تزولا» الحديث[٢].

وقال ابن جرير: حدثنا عبد الرحمن بن الأسود، حدثنا محمّد بن ربيعة، عن سلمة بن سابور، عن عطية عن ابن عباس قال: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾: الذي ليس بأجوف[٣].

حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن منصور، عن مجاهد ﴿ٱلصَّمَدُ﴾: المُصمَت الذي لا جوف له[٤].

حدثنا أبو كريب، حدثنا وكيع، عن سفيان[٥] عن منصور مثله سواء.

حدثنا الحارث، حدثنا الحسن، حدثنا ورقاء، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد مثله.

حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا الربيع بن مسلم[٦] عن الحسن قال: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾: الذي لا جوف له[٧].

وبهذا الإسناد[٨] عن إبراهيم بن ميسرة قال: «أرسلني مجاهد إلى سعيد بن جبير أسأله عن ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ فقال: الذي لا جوف له»[٩].

---

(١) هناك سقط في النسختين بقدر سطر كامل بعد قوله «ولا يشرب» ففيهما «ولا يشرب ليس شيء يعتدل مكانه...».

(٢) والحديث نسبه السيوطي في «الدر المنثور» (٨/ ٦٧٠) إلى أبي الشيخ في العظمة وأبي بكر السمرقندي في فضائل «قل هو الله أحد». وهو في العظمة (٨٦).

(٣) راجع «تفسير الطبري» (٣٠/ ٣٤٤).

(٤) وأخرجه أيضاً ابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ٣٠١)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٧٨)، مر برواية ابن أبي حاتم وهو عند الطبري في «تفسيره» (٣٠/ ٣٤٤).

(٥) وفي النسختين «ثنا وكيع عن منصور سواء» وهو خطأ لأن وكيعاً لم يلق منصوراً.

(٦) وفي النسختين «الربيع بن مسلمة» وهو خطأ.

(٧) وهو في «تفسير الطبري» (٣٠/ ٣٤٥) وأخرجه ابن أبي عاصم بسند صحيح أيضاً (١/ ٣٠١).

(٨) وفي النسختين «وهذا الإسناد».

(٩) وراجع «الطبري» (٣٠/ ٣٤٥) وأخرجه ابن أبي عاصم عن إبراهيم بن ميسرة عن سعيد بن جبير، وقال الألباني: سنده ضعيف (١/ ٣٠٢).

حدثنا ابن بشار، حدثنا يحيى، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي قال: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾: الذي لا يطعم الطعام[١].

ورواه يعقوب عن هشيم، عن إسماعيل عنه قال: «لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب».

حدثنا ابن بشار[٢] وزيد بن أخزم قالا: حدثنا ابن داود، عن المستقيم بن عبد الملك، عن سعيد بن المسيب قال: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾: الذي لا حشو له[٣].

حدثنا الحسين، حدثنا أبو معاذ، حدثنا عبيد قال: سمعت الضحاك يقول: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ الذي لا جوف له[٤].

وروى عن ابن بريدة فيه حديثاً مرفوعاً[٥] لكنه ضعيف.

قال: وقال آخرون هو الذي لا يخرج منه شيء.

حدثنا يعقوب بن أبي علية، عن أبي رجاء، سمعت عكرمة قال في قوله: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ لم يخرج منه شيء: لم يلد ولم يولد[٦].

حدثنا ابن بشار، حدثنا محمّد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي رجاء محمّد بن يوسف[٧]، عن عكرمة قال: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾: الذي لا يخرج منه شيء.

وقال آخرون: لم يلد ولم يولد، وذكر حديث[٨] أبي بن كعب الذي رواه ابن أبي حاتم، والذي فيه: أنه سبحانه لا يموت ولا يورث.

قال: وقال آخرون: هو السيد الذي انتهى في سؤدده.

---

(١) وهو في «تفسير الطبري» (٣٠/ ٣٤٥) وقد مر برواية ابن أبي حاتم.
(٢) وفي النسختين (بشار).
(٣) والحديث عند الطبري (٣٠/ ٣٤٥) وأخرجه ابن أبي عاصم (١/ ٣٠١).
(٤) وأخرجه ابن أبي عاصم بإسناد جيد (١/ ٣٠٣).
(٥) راجع (الطبري) (٣٠/ ٣٤٥) وقد مر برواية ابن أبي حاتم.
(٦) راجع «الطبري» (٣٠/ ٣٤٥) وراجع «مسلم» (٣/ ٢٠١٦).
(٧) كذا في تفسير الطبري» وصحته «محمد بن سيف» وهكذا ورد اسمه في «تهذيب التهذيب» فيمن روى عنهم شعبة، وراجع «الكنى» للدولابي» (١/ ١٧٣).
(٨) انظر «تفسير الطبري» (٣٠/ ٣٤٦).

قال: وحدثنا أبو السائب، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن شقيق، قال: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ هو السيد الذي انتهى في سؤدده[١].

حدثنا أبو كريب وابن بشار وابن عبد الأعلى قالوا: حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن أبي وائل قال: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾: السيد الذي انتهى في سؤدده.

حدثنا ابن حميد، حدثنا مهران، عن سفيان، عن الأعمش، عن أبي وائل مثله.

حدثنا أبو صالح: حدثنا معاوية، عن علي على ابن عباس في قوله: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ قال: السيد الذي قد كمل في سؤدده، وذكر مثل الحديث الذي رواه ابن أبي حاتم كما تقدم.

قلت: الاشتقاق يشهد للقولين جميعاً: قول من قال: إن ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ الذي لا جوف له، وقول من قال أنه السيد، وهو على الأول أدل، فإن الأول أصل للثاني، ولفظ ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ يقال على ما لا جوف له في اللغة.

قال يحيى بن أبي كثير: الملائكة صمد، الآدميون جوف.

وفي حديث آدم[٢]: أن إبليس قال عنه: أنه أجوف ليس بصمد.

وقال الجوهري: «الصمد» لغة في المصمت[٣] هو الذي لا جوف له. وقال الصِّماد: عِفاصُ القارورة، وقال: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ المكان المرتفع الغليظ، قال أبو النجم[٤]:

يغادر شعر الصمد كظهر الأجزل.

وأصل هذه المادة: الجمع والقوة: ومنه يقال يَصمُد المال: أي يجمعه، وكذلك

---

(١) راجع المصدر المذكور (٣٠/٣٤٦) وقد مر برواية ابن أبي حاتم.

(٢) جاء في حديث طويل أخرجه ابن جرير الطبري (١/٢٠٣) والبيهقي في «الأسماء والصفات (٤٥٧) عن ابن مسعود وابن عباس ـ وسنده ضعيف.

(٣) راجع اللسان «صمد».

(٤) أبو النجم الراجز واسمه الفضل بن قدامة العجلي، من أكابر الرجاز، ومن أحسن الناس إنشاداً للشعر، توفى سنة ١٣٠هـ، انظر «الشعر والشعراء» لابن قتيبة (٤٠٠ ـ ٤٠٤)، وشطره في اللسان «صمد».

«السيد» أصله سَيْوِدٌ اجتمعت ياء وواو وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت، كما قيل ميت وأصله مَيْوتٌ والمادة في السواد والسؤدد تدل على الجمع، واللون الأسود هو الجامع للبصر. وقد قال تعالى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ [آل عمران: ٣٩].

قال أكثر السلف ﴿وَسَيِّدًا﴾ حليماً[١]، وكذلك يروى عن الحسن وسعيد بن جبير، وعكرمة، وعطاء، وأبي الشعثاء[٢] والربيع بن أنس، ومقاتل.

وقال: أبو روق عن الضحاك: أنه الحسن[٣] الخلق.

وروى سالم عن سعيد بن جبير أنه التَّقِيُّ[٤] ولا يسودُ الرجلُ الناس حتى يكون في نفسه مجتمع الخلق ثابتاً.

وقال عبد الله بن عمر: ما رأيت بعد رسول الله ﷺ أسود من معاوية! فقيل له: ولا أبو بكر، ولا عمر؟ قال: كان أبو بكر وعمر خيراً منه، وما رأيت بعد رسول الله ﷺ أسود من معاوية[٥]! قال أحمد بن حنبل: يعني به الحليم، أو قال: الكريم[٦] ولهذا قيل:

إذا شئت يوماً أن تسود قبيلة   فبالحلم سد لا بالتسرع والشتم

ولهذا فسر طائفة من السلف (السيد) بأنه سيد قومه في الدين.

---

(١) كذا جاء حليماً (باللام) وهو الصواب، وذكر ابن الجوزي (١/ ٣٨٣) ثمانية أقوال في معنى السيد منها: الحليم التقي، روى عن ابن عباس وقال به الضحاك، ومنها الحكيم (بالكاف) ونسبه للحسن، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وعطاء، وأبي الشعثاء، والربيع ومقاتل، ولم يذكر الطبري في تفسيره عن أحد أنه فسر السيد بالحكيم ولا نقل السيوطي ذلك عن أحد، راجع «الطبري» (٣/ ٢٥٤) و«الدر المنثور» (٢/ ١٨٩) وابن كثير (١/ ٣٦١) واللسان «سود».

(٢) وفي النسختين «أبي الشعثاء بن أنس» وهو خطأ.

(٣) ذكره ابن الجوزي في «تفسيره» (١/ ٣٨٣) وأخرجه أحمد في «الزهد» (٩٠) والخرائطي في «مكارم الأخلاق» قاله السيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ١٩٠)، وسنده لا بأس به. أبو روق هو عطية بن الحارث الهمذاني، الكوفي، قال الحافظ في «التقريب»: صدوق.

(٤) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٣/ ٢٥٤) بسند ضعيف.

(٥) ذكره ابن الأثير في «النهاية» (٢/ ٤١٨) وقال: قيل أراد: أسخى وأعطى للمال، وقيل أحلم منه والأثر عند ابن عساكر في ترجمة معاوية.

(٦) وفي النسختين «الحلم» أو قال: «الكرم».

وقال ابن زيد[(١)]: هو الشريف.

وقال الزجاج: الذي يفوق قومه في الخير.

وقال ابن الأنباري: السيد هنا الرئيس، والإمام في الخير.

وعن ابن عباس ومجاهد[(٢)]: هو الكريم على ربه.

وعن سعيد بن المسيب: هو الفقيه العالم[(٣)].

وقد تقدم أنهم يقولون لعفاص القارورة: صماد، قال الجوهري: العفاص: جلد يلبسه رأس القارورة، وأما الذي يدخل في فمه فهو الصمام وقد عفصت القارورة: شددت عليها العفاص.

(قلت): وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ في اللقطة: «ثم أعرف عِفاصهَا ووكاءهَا»[(٤)]. والمراد بالعفاص[(٥)]: ما يكون فيه الدراهم كالخرقة التي تربط فيها الدراهم، والوكاء[(٦)]: مثل الخيط الذي يربط به، وهذا من جنس عفاص القارورة، ولفظ العفص والسد والصمد والجمع والسؤدد معانيها متشابهة، فيها الجمع والقوة، ويقال طعام عفص، وفيه عفوصة: أي تقبُّضٌ، ومنه العفص الذي يتخذ منه الحبر.

وقد قال الجوهري: هو مُولَّد ليس من كلام أهل البادية، وهذا لا يضرُّ، لأنه لم يكن عندهم عفص يسمونه بهذا الاسم، لكن التسمية به جارية على أصول كلام العرب وكذلك تسميتهم لما يدخل في فمها صمام، فإن هذه المادية فيها معنى الجمع والسد.

قال الجوهري: صمام القارورة: سدادها، والحجر الأصمُّ: الصلب المصمت،

---

(١) نقل هذه الأقوال ابن الجوزي في «تفسيره» (١/ ٣٨٣) وراجع اللسان «سود».

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٣/ ٢٥٤).

(٣) أخرجه ابن جرير وفي ءسناده بقية وفيه كلام.

(٤) أخرجه البخاري (٣/ ٩٣ ـ ٩٥) وأخرجه مالك في «الموطأ» (٧٥٧) وأحمد في «مسنده» (٤/ ١١٦ ـ ١١٧).

(٥) قال ابن الأثير في «النهاية» العفاص: الوعاء الذي تكون فيه النفقة من جلد أو خرقة أو غير ذلك: من العفص: وهو الثنى والعطف، وبه سمي الجلد الذي يجعل على رأس القارورة عفاصاً، وراجع اللسان «عفص».

(٦) راجع اللسان «وكى».

والرجل الأصمّ: هو الذي لا يسمع، لانسداد سمعه، والرجل الصِّمَّة: الشجاع، والصِّمَّة: الذكَّر من الحيات، وصميم الشيء: خالصه، حيث لم يدخل إليه ما يفرقه ويضعفه، ويقال صميم الحر، وصميم البرد، وفلان من صميم قومه، والصمصام: الصارم القاطع، الذي لا ينثني، وصمّم في السير وغيره أي مضى، ورجل صِمْصِمْ[1]: أي غليظ.

ومنه في الاشتقاق الأكبر الصوم، فإن الصوم هو الإمساك.

قال أبو عبيدة: كل ممسك عن طعام أو كلام أو سير فهو صائم، لأن الإمساك فيه اجتماع، والصائم لا يدخل جوفه شيء، ويقال صامَ الفرس إذا قام في غير اعتلاف، قال النابغة[2]:

خَيلٌ صِيامُ وخَيلٌ غيرُ صائمة ... تحتَ العجاج، وأخرى تعلك اللجما

وكذلك السد والسداد. وكذلك لفظ الصمد فيه الجمع، والجمع فيه القوة، فإن الشيء كلما اجتمع بعضه إلى بعض، ولم يكن فيه خلل كان أقوى مما إذا كان فيه خلو، ولهذا يقال للمكان الغليظ المرتفع: صمد، لقوته وتماسكه، واجتماع أجزائه. والرجل الصمد هو السيد المصمود، أي المقصود، يقال قَصدتُه، وقصدتُ له، وقَصدتُ إليه، وكذلك هو مصمود، ومصمود له وإليه[3]، والناس إنما يقصدون في حوائجهم من يقوم بها، وإنما يقوم بها من يكون في نفسه مجتمعاً قوياً ثابتاً، وهو السيد الكريم، بخلاف من يكون هلوعاً جزوعاً يتفرق ويقلق[4] ويتمزّق من كثرة حوائجهم وثقلها، فإن هذا ليس بسيد صمد يصمدون إليه في حوائجهم.

فهم إنما سموا السيد من الناس صمداً، لما فيه من المعنى الذي لأجله يقصده الناس في حوائجهم، فليس معنى السيد في لغتهم معنى إضافياً فقط ـ كلفظ القرب

---

(١) كذا في النسختين، وهو الصواب، وفي الفتاوى: رجل صمّ، وفي اللسان: رجل صَمَم، وصِمصِم، وصِمصام، وصِمصَامة، وصمصِم، وصُماصِم، مُصَمِّم، قال أبو لبيد: الصمصم (بالكسر) الغليظ من الرجال، وكذا قال ابن الأثير في «النهاية». والصمم من أسماء الأسد والصمة: الرجل الشجاع.

(٢) ديوان النابغة (٢٤٠) «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٦٢) والبيت في «اللسان» أيضاً «صوم».

(٣) وفي النسختين «مقصود له وإليه».

(٤) وفي النسختين «يعلق».

والبعد ـ بل هو معنى قائم بالسيد، لأجله يقصده الناس، والسيد من السؤدد والسواد، وهذا من جنس السداد في الاشتقاق الأكبر فإن العرب تعاقب بين حرف العلة، والحرف المضاعف كما يقولون: تقضى البازي، وتقضض. والسادُّ[1] هو الذي سد غيره، فلا يبقى فيه خلو، ومنه سداد القارورة، وسداد الثغر ـ بالكسر فيهما ـ وهو ما يسد ذلك، ومنه السداد بالفتح: وهو الصواب ومنه القول السديد، قال الله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠].

قالوا: قصداً حقاً، وعن ابن عباس: صواباً، وعن قتادة ومقاتل: عدلاً، وعن السدي: مستقيماً، وكل هذه الأقوال[2] صحيح. فإن القول السديد هو المطابق الموافق، فإن كان خبراً كان صدقاً مطابقاً لمخبره، لا يزيد ولا ينقص. وإن كان أمراً كان أمراً بالعدل الذي لا يزيد ولا ينقص، ولهذا يفسرون السداد بالقصد والقصد بالعدل.

قال الجوهري: التسديد: التوفيق للسداد، وهو الصواب، والقصد في القول والعمل، ورجل مسدّد إذا كان يعمل بالسداد والقصد، والمُسدّد: المُقّوم، وسَدَّد رمحه: [قومه] وأمر سديد وأسد أي قاصد، وقد استدّ الشيء: استقام، قال الشاعر:

أُعَلِّمُه الرِّمَايَةَ كُلَّ يومٍ ... فلمّا اسْتَدَّ ساعِدُهُ رَمَانِي[3]

وقال الأصمعي: اشتد بالشين المعجمة ليس بشيء، وتعبيرهم عن السداد بالقصد يدلك على أن لفظ القصد فيه معنى الجمع والقوة، والقصد: العدل كما أنه السداد، والصواب، وهو المطابق الموافق الذي لا يزيد ولا ينقص، وهذا هو الجامع المطابق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩].

أي السبيل القصد، وهو السبيل العدل: أي إليه تنتهي السبيل العادلة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾ [الليل].

---

(١) راجع اللسان «سدد».

(٢) ذكر هذه الأقوال ابن الجوزي في «تفسيره» (٦/ ٤٢٧). وقول ابن عباس نسبه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٦٧) إلى الطستي في مسائله. وقول قتادة أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٣٣/ ٥٣) ونسبه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٦٨) إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم أيضاً.

(٣) الشعر لمعن بن أوس في ديوانه (٣٤)، لسان العرب (٣/ ٢٠٨) مادة (سدد).

أي الهدى إلينا هذا أصح الأقوال في الآيتين، وكذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۝٤١﴾ [الحجر].

ومنه في الاشتقاق الأوسط: الصدق. فإن حروفه حروف القصد، فمنه الصدق في الحديث لمطابقته مخبره، كما قيل في السداد(١) والصدق(٢) بالفتح: الصلب من الرماح، ويقال المستوى فهو معتدل صلب ليس فيه خلل ولا عوج، والصندوق واحد الصناديق فإنه يجمع ما يوضع فيه.

ومما ينبغي أن يعرف في باب الاشتقاق أنه إذا قيل هذا مشتق من هذا فله معنيان:

أحدهما: إن بين القولين تناسباً في اللفظ والمعنى، سواء كان أهل اللغة تكلموا بهذا بعد هذا أو بهذا بعد هذا، وعلى هذا فكل من القولين مشتق من الآخر، فإن المقصود أنه مناسب له لفظاً ومعنى كما يقال: هذا الماء من هذا الماء، وهذا الكلام من هذا الكلام، وعلى هذا فإذا قيل: إن الفعل مشتق من المصدر، أو المصدر مشتق من الفعل، كان كلا القولين صحيحاً، وهذا هو الاشتقاق الذي يقوم عليه دليل التصريف.

وأما المعنى الثاني في الاشتقاق وهو أن يكون أحدهما أصلاً للآخر، فهذا إذا عنى به أن أحدهما تُكُلّم به قبل الآخر لم يقم على هذا دليل في أكثر المواضع(٣)، وإن عنى به أن أحدهما متقدم على الآخر في العقل لكون هذا مفرداً وهذا مركباً فالفعل مشتق من المصدر.

والاشتقاق الأصغر اتفاق القولين في الحروف وترتيبها، والأوسط اتفاقهما في الحروف لا في الترتيب، والأكبر اتفاقهما في أعيان بعض الحروف، وفي الجنس في الباقي، كاتفاقهما في كونهما من حروف الحلق، فإذا قيل حزر وعزر وازر، فإن الجميع

---

(١) وفي النسختين «كما قيل في السديد».

(٢) راجع اللسان «صدق» وفيه «الصدق (بالفتح) الصلب من الرماح وغيرها ورمح صدق: مستو، وكذلك سيف صدق».

(٣) وفي النسختين «في الأكثر من المواضع».

فيه معنى القوة والشدة وقد اشتركت مع الراء والزاي، في أن الثلاثة حروف حلقية، وعلى هذا فإذا قيل: الصمد بمعنى المصمت، وأنه مشتق منه بهذا الاعتبار فهو صحيح، فإن الدال أخت التاء، فإن الصمت[١] السكوت، وهو إمساك، وإطباق للفم عن الكلام.

قال أبو عبيد: المصمت[٢]: الذي لا جوف له، وقد أصمتُّه أنا، وباب مصمت قد أبهم إغلاقه، والمصمت من الخيل، البهيم[٣]: أي لا يخالط لونه لون آخر، ومنه قول ابن عباس[٤]: إنما حُرِّم من الحرير المصمت، فالمصمد والمصمت متفقان في الاشتقاق الأكبر، وليست الدال منقلبة على التاء، بل الدال أقوى، والمصمد أكمل في معناه من المصمت، وكلما قَوِي الحرف كان معناه أقوى، فإن لغة العرب في غاية الإحكام والتناسب، ولهذا كان الصمت إمساكاً عن الكلام مع إمكانه، والإنسان أجوف يخرج الكلام من فيه لكنه قد يصمت بخلاف الصمد فإنه إنما استعمل فيما لا تفرّق فيه، كالصّمد والسّيد والصَّمد من الأرض وصماد القارورة، ونحو ذلك، فليس في هذه الألفاظ المتناسبة أكمل من لفظ الصمد، فإن فيه الصاد والميم والدال وكل من هذه الحروف الثلاثة لها مزية على ما يناسبها من الحروف، والمعاني المدلول عليها بمثل هذه الحروف أكمل.

والمقصود هنا: أن لفظ الأحد لم يوصف به شيء من الأعيان إلا الله وحده، وإنما يستعمل في غير الله في النفي، قال أهل اللغة: تقول: لا أحد في الدار، ولا تقول: فيها أحد، ولهذا لم يجيء في القرآن إلا في غير الموجب، كقوله تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ۝٤٧﴾ [المعارج]. وكقوله: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، وقوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ [التوبة: ٦]، وفي الإضافة كقوله: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم﴾ [الكهف: ١٩]، ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ [الكهف: ٣٢].

وأما اسم ﴿الصَّمَدُ﴾ فقد استعمله أهل اللغة في حق المخلوقين، كما تقدم، فلم يقل: الله صمد، بل قال: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢﴾ فبين أنه المستحق لأن يكون هو الصمد دون ما سواه، فإنه المستوجب لغايته على الكمال، والمخلوق وإن كان صمداً من بعض

---

(١) وفي النسختين «فإن الصمت السكوت». (٢) راجع اللسان «صمت».
(٣) وفي النسختين «البهم» وهو خطأ، راجع اللسان «صمت».
(٤) أخرجه أبو داود (٤/٣٢٩)، وأحمد في «المسند» (١/٢١٨، ٣١٣، ٣٢١).

الوجوه، فإن حقيقة الصمدية منتفية عنه، فإنه يقبل التفرق والتجزئة، وهو أيضاً محتاج إلى غيره، فإن كل ما سوى الله محتاج إليه من كل وجه، فليس أحد يصمد إليه كل شيء ولا يصمد هو إلى شيء إلا الله تبارك وتعالى، وليس في المخلوقات إلا ما يقبل أن يتجزأ، ويتفرق، ويتقسم، وينفصل بعضه من بعض، والله سبحانه هو الصمد الذي لا يجوز عليه شيء من ذلك، بل حقيقة الصمدية وكمالها له وحده واجبة لازمة لا يمكن عدم صمديته بوجه من الوجوه، كما لا يمكن تثنية أحديته بوجه من الوجوه، فهو أحد لا يماثله شي من الأشياء بوجه من الوجوه، كما قال في آخر السورة: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ④﴾.

استعملها هنا في النفي أي ليس شيء من الأشياء كفواً له في شيء من الأشياء لأنه أحد.

وقال رجل للنبي ﷺ: أنت سيدنا فقال[1]: «السيد الله».

ودل قوله: «الأحد، الصمد» على أنه لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، فإن الصمد هو الذي لا جوف له ولا أحشاء، فلا يدخل فيه شيء، فلا يأكل ولا يشرب سبحانه وتعالى كما قال: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤].

وفي قراءة[2] الأعمش وغيره ولا يطعم بالفتح.

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات].

ومن مخلوقاته الملائكة، وهم صمد لا يأكلون ولا يشربون، فالخالق لهم جل جلاله أحق بكل غنى وكمال جعله لبعض مخلوقاته. فلهذا فسر بعض السلف الصمد: بأنه الذي لا يأكل ولا يشرب.

والصمد: المصمد الذي لا جوف له، فلا يخرج منه عين من الأعيان فلا يلد.

---

(١) أبو داود (٥/ ١٥٤) وأحمد في «مسنده» (٤/ ٢٤ ـ ٢٥) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٣٩) وسنده صحيح.

(٢) راجع «تفسير ابن الجوزي» (٣/ ١١).

ولذلك قال من قال من السلف: هو الذي لا يخرج منه شيء. وليس مرادهم أنه لا يتكلم، وإن كان يقال في الكلام إنه خرج منه، كما قال في الحديث: «ما تقرب العباد إلى الله بشيء أفضل مما خرج منه»(١) يعني القرآن.

وقال أبو بكر الصديق لما سمع قرآن مسيلمة: إن هذا لم يخرج من إل(٢).

فخروج الكلام من المتكلم هو بمعنى أنه يتكلم به فيسمع منه، ويبلغ إلى غيره، ليس بمخلوق في غيره، كما يقول الجهمية(٣) ليس بمعنى أن شيئاً من الأشياء القائمة به يفارقه، وينتقل عنه إلى غيره، فإن هذا ممتنع في صفات المخلوقين أن تفارق الصفة محلها، وتنتقل إلى غير محلها، فكيف بصفات الخالق جل جلاله، وقد قال تعالى في كلام المخلوقين: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

وتلك الكلمة هي قائمة بالمتكلم وسمعت منه، ليس خروجها من فيه، أن ما قام بذاته من الكلام فارق ذاته وانتقل إلى غيره، فخروج كل شيء بحسبه، ومن شأن العلم والكلام إذا استفيد من العالم والمتكلم أن لا ينقص من محله، ولهذا شبه بالنور الذي يقتبس منه كلُّ أحد الضوء، وهو باق على حاله لم ينقص، فقول من قال من السلف: الصمد: هو الذي لم يخرج منه شيء كلام صحيح، بمعنى أنه لا يفارقه شيء منه.

---

(١) رواه الترمذي عن أبي أمامة مرفوعاً ولفظه: ما أذن الله لعبد في شيء أفضل من ركعتين يصليهما، وأن البر ليذر على رأس العبد ما دام في صلاته، وما تقرب العباد إلى الله بمثل ما خرج منه، يعني القرآن. وفي رواية أحمد «بأفضل مما خرج منه» «المسند» (٥/ ٢٦٨). وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وبكر بن خنيس قد تكلم فيه ابن المبارك وتركه في آخر أمره، وقد روى هذا الحديث عن زيد ابن أرطاة عن جبير بن نفير عن النبي ﷺ، وهو مرسل... ثم ذكروا لفظه: «أنكم لن ترجعوا إلى الله بأفضل مما خرج منه، يعني القرآن» (٥/ ١٧٦ ـ ١٧٧) وأخرجه أحمد في «الزهد» (٣٥). ووصله الحاكم فقال عن جبير بن نفير عن أبي ذر عن النبي ﷺ (١/ ٥٥٥) وصححه وأقره الذهبي، وذكر الألباني الحديثين في «ضعيف الجامع الصغير» (رقم ٢٠٤١، ٤٩٩٥).

(٢) ذكره أبو عبيد في «غريب الحديث» (٣/ ٢٢٩ ـ ٢٣٠) وراجع «النهاية» لابن الأثير (١/ ٦١).

(٣) أتباع جهم بن صفوان (١٢٨هـ): قال بالإجبار والاضطرار إلى الأعمال وأنكر الاستطاعات كلها، وزعم أن الجنة والنار تبيدان وتفنيان، وقال لا يجوز أن يوصف الباري تعالى بصفة يوصف بها خلقه لأن ذلك يقتضي تشبيهاً. راجع «الفرق بين الفرق» للبغدادي (١٩٩) «والملل والنحل» للشهرستاني (١/ ١٠٩).

ولهذا امتنع عليه أن يلد وأن يولد، وذلك أن الولادة والتولد وكل ما يكون من هذه الألفاظ لا يكون إلا من أصلين، وما كان من المتولد عيناً قائمة بنفسها فلا بد لها من مادة تخرج منها، وما كان عرضاً قائماً بنفسها فلا بد لها من مادة تخرج منها، وما كان عرضاً قائماً بغيره فلا بد له من محل يقول به، فالأول نفاه بقوله: ﴿أَحَدٌ﴾، فإن الأحد هو الذي لا كفو له ولا نظير، فيمتنع أن تكون له صاحبة، والتولد إنما يكون بين شيئين قال تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

فنفى سبحانه الولد بامتناع لازمه عليه، فإن انتفاء اللازم يدل على انتفاء الملزوم، وبأنه خالق كل شيء، وكل ما سواه مخلوق له، ليس فيه شيء مولود له.

والثاني: نفاه بكونه سبحانه الصمد، وهذا المتولد من أصلين يكون بجزئين ينفصلان من الأصلين، كتولد الحيوان من أبيه وأمه بالمني الذي ينفصل من أبيه وأمه، فهذا التولد يفتقر إلى أصل آخر، وإلى أن يخرج منهما شيء، وكل ذلك ممتنع في حق الله تعالى، فإنه ﴿أَحَدٌ﴾، فليس له كفؤ يكون صاحبة ونظيراً، وهو «صمد» لا يخرج منه شيء فكل واحد من كونه أحداً، ومن كونه صمداً يمنع أن يكون والداً، ويمنع أن يكون مولوداً بطريق الأولى والأحرى.

وكما أن التوالد في الحيوان لا يكون إلا من أصلين ـ سواء كان الأصلان من جنس الولد، وهو الحيوان المتوالد أو من غير جنسه، وهو المتولد ـ فكذلك في غير الحيوان كالنار المتولدة من الزندين، سواء كانا خشبتين، أو كان حجراً وحديداً، أو غير ذلك، قال الله تعالى: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾﴾ [العاديات].

وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الواقعة]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس].

قال غير واحد من المفسرين[١]: هما شجرتان يقال لإحداهما، المرخ، والأخرى: العفار، فمن أراد منهما النار قطع منهما غصنين مثل السواكين، وهما خضراوان يقطر منهما الماء، فيسحق المرخ ـ وهو ذكر ـ على العفار ـ وهو أنثى ـ فتخرج منهما النار بإذن الله تعالى، وتقول العرب: في كل شجر نار، واستمجد المرخ والعفار، وقال بعض الناس في كل شجرة نار إلا العناب، ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠] فذلك زنادهم.

وقد قال أهل اللغة[٢]: الجوهري وغيره: الزند العود الذي يقدح به النار، وهو الأعلى، والزندة السفلى فيها ثقب، وهي الأنثى، فإذا اجتمعا قيل زندان.

وقال أهل الخبرة بهذا: إنهم يسحقون الثقب الذي في الأنثى بالأعلى كما يفعل ذكر الحيوان في أنثاه، فبذلك السحق والحك يخرج منهما أجزاء ناعمة تنقدح منها النار فتتولد النار من مادة الذكر والأنثى كما يتولد الولد من مادة الرجل والمرأة، وسحق الأنثى بالذكر وقدحهما به يقتضي حرارة كل منهما، ويتحلل من كل منهما مادة تنقدح منها النار كما أن إيلاج ذكر الحيوان في أنثاه بقدح، وحك فرجها بفرجه، يقوي حرارة كل منهما، ويتحلل من كل منهما مادة تمتزج بالأخرى، ويتولد منهما الولد، ويقال: علقت النار في المحل الذي يقدح عليه، الذي هو كالرحم للولد، وهو الحراق والصوفان، ونحو ذلك مما يكون أسرع قبولاً للنار من غيره، كما علقت المرأة من الرجل، وقد لا تعلق النار كما قد لا تعلق المرأة، وقد لا تنقدح نار كما لا ينزل مني، والنار ليست من جنس الزنادين، بل تولد النار منهما كتولد حيوان من الماء والطين، فإن الحيوان نوعان متوالد كالإنسان وبهيمة الأنعام، وغير ذلك مما يخلق من أبوين، ومتولد كالذي يتولد من الفاكهة والخل، وكالقمل الذي يتولد من وسخ جلد الإنسان، وكالفار والبراغيث وغير ذلك مما يخلق من الماء والتراب.

فصل

والمقصود هنا: أن التولد لا بد له من أصلين، وإن ظن ظانٌّ أن نفس الهواء

---

(١) راجع ابن الجوزي (٧/ ٤٢) «تفسير غريب القرآن» لابن قتيبة (٣٦٨) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٥٨٢) القرطبي (١٥/ ٥٩ ـ ٦٠).

(٢) راجع اللسان «زند».

الذي بين الزنادين يستحيل ناراً بسخونته، من غير مادة تخرج منهما تنقلب ناراً فقد غلط، وذلك لأنه لا تخرج نار إن لم يخرج منهما مادة بالحك، ولا تخرج النار بمجرد الحك.

وأيضاً فإنهم يقدحون على شيء أسفل من الزنادين كالصوفان والحراق فتنزل النار عليه وإنما ينزل الثقيل، فلولا أن هناك جزءاً ثقيلاً من الزناد: الحديد والحجر لما نزلت النار، ولو كان الهواء وحده انقلب ناراً لم ينزل، لأن الهواء طبعه الصعود لا الهبوط، لكن بعد أن تنقلب المادة الخارجة ناراً قد ينقلب الهواء القريب منها ناراً، إما دخاناً وإما لهيباً.

والمقصود أن المتولدات خلقت من أصلين، كما خلق آدم من التراب الماء، وإلا فالتراب المحض الذي لم يخلط به ماء لا يخلق منه شيء، لا حيوان ولا نبات، والنبات جميعه إنما يتولد من أصلين أيضاً، والمسيح خلق من مريم ونفخة جبريل، كما قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]، وقال: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١]، وقال: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ [مريم].

وقد ذكر المفسرون أن جبريل نفخ في جيب درعها، والجيب هو الطوق الذي في العنق، ليس هو ما يسميه بعض العامة جيباً، وهو ما يكون في مقدم الثوب لوضع الدراهم ونحوها، وموسى لما أمره الله أن يدخل يده في جيبه: هو ذلك الجيب المعروف في اللغة.

وذكر أبو الفرج[1] وغيره قولين: هل كانت النفخة في جيب الدرع؟ أو في الفرج؟ فإن من قال بالأول، قال: في فرج درعها، وإن من قال هو مخرج الولد قال أنها كناية عن غير مذكور، لأنه إنما نفخ في درعها، لا في فرجها وهذا ليس بشيء، بل هو عدول عن صريح القرآن، وهذا النقل إن كان ثابتاً لم يناقض القرآن، وإن لم يكن ثابتاً لم يلتفت إليه، فإن من نقل أن جبريل نفخ في جيب الدرع، فمراده أنه ﷺ لم يكشف

(١) انظر تفسير (٥/ ٣٨٥) وانظر تفسير الطبري (٢٨/ ١٧٢).

بدنها، وكذلك جبريل كان إذا أتى النبي ﷺ وعائشة متجردة لم ينظر إليها متجردة، فنفخ في جيب الدرع فوصلت النفخة إلى فرجها.

والمقصود إنما هو النفخ في الفرج، كما أخبر الله به في آيتين، وإلا فالنفخ في الثوب فقط من غير وصول النفخ إلى الفرج مخالف للقرآن، مع أنه لا تأثير له في حصول الولد، ولم يقل ذلك أحد من أئمة المسلمين، ولا نقله أحد عن عالم معروف من السلف.

والمقصود هنا أن المسيح خلق من أصلين، من نفخ جبريل ومن أمه مريم، وهذا النفخ ليس هو النفخ الذي يكون بعد مضي أربعة أشهر والجنين مضغة، فإن ذلك نفخ في بدن قد خلق، وجبريل حين نفخ لم يكن المسيح خلق بعد، ولا كانت مريم حملت، وإنما حملت به بعد النفخ بدليل قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾ [مريم].

فلما نفخ فيها جبريل حملت به، ولهذا قيل في المسيح ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]، باعتبار هذا النفخ، وقد بين الله سبحانه أن الرسول الذي هو روحه، وهو جبريل، هو الروح الذي خاطبها، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩]، فقوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: ٩١]، أو ﴿فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢].

أي من هذا الروح الذي هو جبريل، وعيسى روح من هذا الروح، فهو روح من الله، بهذا الاعتبار، ومن لابتداء الغاية.

والمقصود هنا: أنه قد يكون الشيء من أصلين بانقلاب المادة التي بينهما إذا التقيا كان بينهما مادة فتنقلب، وذلك لقوة حك أحدهما بالآخر فلا بد من نقص أجزائها، وهذا مثل تولد النار بين الزنادين إذا قدح الحجر بالحديد، أو الشجر بالشجر، كالمرخ والعفار، فإنه بقوة الحركة الحاصلة من قدح أحدهما بالآخر يستحيل بعض أجزائهما، ويسخن الهواء الذي بينهما فيصير ناراً، والزندان كلما قدح أحدهما

بالآخر نقصت أجزاؤها بقوة الحك، فهذه النار استحالت عن الهواء وتلك الأجزاء بسبب قدح أحد الزندين بالآخر.

وكذلك النور الذي يحصل بسبب انعكاس الشعاع على ما يقابل المضيء، كالشمس والنار، فإن لفظ النور والضوء يقال تارة على الجسم القائم بنفسه، كالنار التي في رأس المصباح، وهذه لا تحصل إلا بمادة تنقلب ناراً كالحطب والدهن، ويستحيل الهواء أيضاً ناراً، ولا ينقلب الهواء أيضاً ناراً إلا بنقص المادة التي اشتعلت، أو نقص الزندين، وتارة يراد بلفظ النور والضوء والشعاع: الشعاع الذي يكون على الأرض والحيطان من الشمس، أو من النار، فهذا عرض ليس بجسم قائم بنفسه، لا بد له من محل يقوم به ويكون قابلاً له، فلا بد في الشعاع من جسم مضيء، ولا بد من شيء يقابله حتى ينعكس عليه الشعاع.

وكذلك النار الحاصلة في ذبالة المصباح إذا وضعت في النار، أو وضع فيها حطب، فإن النار تحيل أولاً المادة التي هي الدهن أو الحطب فيسخن الهواء المحيط بها فينقلب ناراً، وإنما ينقلب بعد نقص المادة، وكذلك الريح التي تحرك النار مثل ما تهب الريح فتشعل النار في الحطب، ومثل ما ينفخ في الكبر وغيره تبقى الريح المنفوخة تضرم النار لما في محل النار كالخشب والفحم من الاستعداد لانقلابه ناراً، وما في حركة الريح القوية من تحريك النار إلى المحل القابل له، وقد ينقلب أيضاً الهواء القريب من النار، فإن اللهب هو الهواء انقلب ناراً، مثل ما في ذبالة المصباح، ولهذا إذا طفئت صار دخاناً، وهو هواء مختلط بنار كالبخار، وهو هواء مختلط بماء، والغبار هواء مختلط بتراب، وقد يسمى البخار دخاناً، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١].

قال المفسرون: بخار الماء، كما جاءت الآثار: «إن الله خلق السموات من بخار الماء»(١).

وهو الدخان، فإن الدخان الهواء المختلط بشيء حار، ثم قد لا يكون فيه ماء،

---

(١) راجع «تفسير ابن الجوزي» (٧/ ٢٤٥) وأخرجه الطبري عن ابن إسحاق من قوله (١/ ١٩٣) وروي عن ابن عباس وابن مسعود موقوفاً بنحوه (١/ ١٩٤) وراجع «الأسماء والصفات» للبيهقي (٤٨٢).

وهو الدخان الصرف، وقد يكون فيه ماء، فهو دخان، وهو بخار كبخار القدر، وقد يسمى الدخان بخاراً، فيقال لمن استجمر بالطيب: تبخر، وإن كان لا رطوبة هنا، بل دخان الطيب سمي بخاراً.

قال الجوهري: بخار الماء[1]: ما يرتفع منه كالدخان، والبخور ـ بالفتح ـ ما يتبخر به، لكن إنما يصير الهواء ناراً بعد أن تذهب المادة التي انقلبت ناراً، كالحطب والدهن، فلم تتولد النار إلا من مادة، كما لم يتولد الحيوان إلا من مادة.

فصل

والمقصود أن كل ما يستعمل فيه لفظ «التولد» من الأعيان القائمة فلا بد أن يكون من أصلين، ومن انفصال جزء من الأصل، وإذا قيل في الشبع والري: أنه متولد، أو في زهوق الروح ونحو ذلك من الأعراض: أنه متولد، فلا بد في جميع ما يستعمل فيه هذا اللفظ من أصلين، لكن العرض يحتاج إلى محل، لا يحتاج إلى مادة تنقلب عرضاً، بخلاف الأجسام فإنها إنما تخلق من مواد تنقلب أجساماً، كما تنقلب إلى نوع آخر، كانقلاب المني علقة[2] ثم مضغة، وغير ذلك من خلق الحيوان والنبات.

وأما ما كان من أصل واحد: كخلق حواء من الضلع القصرى لآدم، وهو وإن كان مخلوقاً من مادة أخذت من آدم، فلا يسمى هذا تولداً، ولهذا لا يقال: أن آدم ولد حواء، ولا يقال أنه أبو حواء، بل خلق الله حواء من آدم، كما خلق آدم من الطين.

وأما المسيح فيقال: أنه ولدته مريم، ويقال: المسيح ابن مريم فكان المسيح جزءاً من مريم، وخلق بعد نفخ الروح في فرج مريم، كما قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم].

وفي الأخرى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

وأما حواء فخلقها الله من مادة أخذت من آدم، كما خلق آدم من المادة الأرضية،

---

(١) راجع اللسان «بخر».

(٢) وفي النسختين «كانقلاب الماء علقة».

وهي الماء والتراب والريح الذي أيبسه حتى صار صلصالاً، فلهذا لا يقال أن آدم ولد حواء، ولا آدم ولده التراب، ويقال في المسيح، ولدته مريم فإنه كان من أصلين من مريم ومن النفخ الذي نفخ فيها جبريل، وقال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾ [مريم] إلى آخر القصة.

فهي إنما حملت به بعد النفخ، لم تحمل به مدة بلا نفخ ثم نفخت فيه روح الحياة كسائر الآدميين، ففرق بين النفخ للحمل، وبين النفخ لروح الحياة.

فتبين أن ما يقال إنه متولد من غيره من الأعيان القائمة بنفسها فلا يكون إلا من مادة تخرج من ذلك الوالد، ولا يكون إلا من أصلين، والرب تعالى صمد، فيمتنع أن يخرج منه شيء، وهو سبحانه لم يكن له صاحبة، فيمتنع أن يكون له ولد.

وأما ما يستعمل من تولد الأعراض كما يقال: تولد الشعاع [عن الشمس]، وتولد العلم عن الفكر، وتولد الشبع عن الأكل، وتولدت الحرارة عن الحركة، ونحو ذلك، فهذا ليس من تولد الأعيان، مع أن هذا لا بُدّ له من محل، ولا بد له من أصلين، ولهذا كان قول النصارى أن المسيح ابن الله ـ تعالى عن ذلك ـ مستلزماً لأن يقولوا: أن مريم صاحبة الله، فيجعلون له زوجة وصاحبة، كما جعلوا له ولداً[(١)] وبأي معنى فسروا كونه ابنه، فإنه يفسر الزوجة بذلك المعنى، والأدلة الموجبة تنزيهه عن الصحابة، توجب تنزيهه عن الولد، فإذا كانوا يصفونه بما هو أبعد عن اتصافه به كان اتصافه بما هو أقل بعداً لازماً لهم، وقد بسط هذا في الرد على النصارى.

فصل[(٢)]

وهذا مما يبين أن ما نزه الله نفسه ونفاه عنه بقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾﴾، وبقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الصافات] وقوله:

---

(١) وفي النسختين «كما جعلوا له ولداً بأي معنى».

(٢) في الطبعة المنيرية «فصل في قول اليهود والنصارى في الرب جلّ وعزّ».

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٠٠ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝١٠١﴾ [الأنعام]. يعمّ جميع الأنواع التي تذكر في هذا الباب عن بعض الأمم، كما أن ما نفاه من اتخاذ الولد يعم أيضاً جميع أنواع الاتخاذات الاصطفائية[١] كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝١٨﴾ [المائدة].

وقال السدي: قالوا: إن الله أوحى إلى إسرائيل إن ولدك بكري من الولد فأدخلهم النار فيكونون فيها أربعين يوماً حتى تطهرهم وتأكل خطاياهم، ثم ينادي منادٍ أخرجوا كل مختون من بني إسرائيل[٢].

وقد قال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وقال: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾ [الإسراء: ١١١]، وقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [الفرقان]، وقال: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۝٢٧ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ۝٢٨ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ۝٢٩﴾ [الأنبياء]، وقال: ﴿۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ۝٥١ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ إلى قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا﴾ إلى قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ۝٥٧﴾ [النحل]، وقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ۝٣٩ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ۝٤٠ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝٤١ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي

---

(١) في النسختين «جميع أنواع الاتخاذات لا اصطفاؤه».
(٢) ذكره ابن الجوزي في «تفسيره (٢/٣١٨) والخبر في «القرطبي» (٦/١٢٠) وابن كثير (٢/٣٥) ونسبه لابن أبي حاتم وابن جرير وراجع «تفسير الطبري» (٦/١٦٤).

ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الإسراء]، وقال: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ [الصافات]، وقال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾﴾ [النجم]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ﴾ [الزخرف: ١٥].

قال بعض المفسرين: ﴿جُزْءًا ۚ﴾ أي نصيباً وبعضاً، وقال بعضهم: جعلوا لله نصيباً من الولد، وعن قتادة[(١)] ومقاتل: عدلاً، وكلا القولين صحيح، فإنهم يجعلون له ولداً، والولد يشبه أباه، ولهذا قال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ [الزخرف: ١٧]. أي البنات، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ﴾ [النحل: ٥٨]، فقد جعلوها للرحمن مثلاً، وجعلوا له من عباده جزءاً، فإن الولد جزء من الوالد، كما تقدم.

قال: «إنما فاطمة بضعة مني»[(٢)].

وقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ﴾ [الأنعام: ١٠٠]، قال الكلبي[(٣)]: نزلت في الزنادقة قالوا: إن الله وإبليس شريكان، فالله خالق النور والناس والدواب والأنعام، وإبليس خالق الظلمة والسباع والحيات والعقارب.

---

(١) راجع الطبري (٢٥/ ٥٦) وانظر «الدر المنثور» (٧/ ٣٦٩).
(٢) البخاري (٤/ ٢١٠، ٢١٢، ٢١٩)، ومسلم (٢/ ١٩٠٣).
(٣) راجع «أسباب النزول» للواحدي (٢١٦) وراجع ابن الجوزي (٣/ ٩٦) والقرطبي (٧/ ٥٣) والبغوي (٢/ ١٦٦).

وأما قوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨].

فقيل هو قولهم(١): الملائكة بنات الله، وسمي الملائكة جناً لاجتنانهم عن الأبصار، وهو قول مجاهد وقتادة.

وقيل(٢): قالوا لحى من الملائكة يقال لهم الجنة، ومنهم إبليس: هم بنات الله، وقال الكلبي(٣) قالوا ـ لعنهم الله ـ بل تزوج من الجن فخرج من بينهما الملائكة، وقوله: ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

قال بعض المفسرين ـ كالثعلبي: وهم كفار العرب قالوا: الملائكة والأصنام بنات الله، واليهود قالوا: عزير ابن الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله.

فصل(٤)

وأما الذين(٥) كانوا يقولون من العرب: أن الملائكة بنات الله، وما نقل عنهم من أنه صاهر الجنّ، فولدت له الملائكة فقد نفاه الله بامتناع الصاحبة، وبامتناع أن يكون منه جزء فإنه ﴿الصَّمَدُ﴾ وقوله: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

وهذا كما تقدم من أن الولادة لاتكون إلا من أصلين سواء في ذلك تولد الأعيان التي تسمى الجواهر، وتولد الأعراض والصفات، بل ولا يكون تولد الأعيان إلا بانفصال جزء من الوالد، فإذا امتنع أن يكون له صاحبة امتنع أن يكون له ولد، وقد علموا كلهم أن لا صاحبة له لا من الملائكة، ولا من الجن، ولا من الإنس، فلم يقل أحد منهم أن له صاحبة، فلهذا احتج بذلك عليهم، وما حكي عن بعض كفار العرب أنه صاهر الجن، فهذا فيه نظر، وذلك أن كان قد قيل: فهو مما يعلم انتفاؤه من وجوه كثيرة، وكذلك ما قالته النصارى: من أن المسيح ابن الله، وما قاله طائفة من اليهود أن العزير ابن الله، فإنه قد نفاه ـ سبحانه ـ بهذا وبهذا.

---

(١) راجع «تفسير ابن الجوزي» وانظر «تفسير الطبري» (١٠٨/٢٣).
(٢) راجع «تفسير ابن الجوزي» (٩١/٧).
(٣) نفس المرجع (٩٢/٧) رواه الطبري عن قتادة (١٠٨/٢٣) ونسبه ابن الجوزي لقتادة وللكلبي، وفي النسختين المطبوعتين «بل بذور تخرج منها الملائكة» وهو خطأ.
(٤) في المنيرية «فصل في عقائد العرب في الرب وتحقيق عقائد النصارى فيه جل وعز».
(٥) في النسختين «والذين كانوا يقولون من العرب».

فإن قيل: أما عوام النصارى فلا تنضبط أقوالهم، وأما الموجود في كلام علمائهم وكتبهم فإنهم يقولون: إن أقنوم الكلمة، ويسمونها الابن تدرَّع المسيح، أي اتخذه درعاً، كما يتدرع الإنسان قميصه، فاللاهوت تدرع الناسوت، ويقولون: باسم الأب والابن وروح القدس إله واحد.

قيل: قصدهم أن الرب موجود حي عليم، فالموجود هو الأب، والعلم هو الابن، والحياة هو روح القدس، هذا قول كثير منهم، ومنهم من يقول بل موجود عالم قادر، ويقول العلم هو الكلمة، وهو المتدرع، والقدرة هي روح القدس، فهم مشتركون في أن المتدرع هو أقنوم الكلمة وهي الابن.

ثم اختلفوا في التدرع واختلفوا هل هما جوهر أو جوهران؟ وهل لهما مشيئة أو مشيئتان[١]؟ ولهم في الحلول والاتحاد، كلام مضطرب ليس هذا موضع بسطه، فإن مقالة النصارى فيها من الاختلاف بينهم ما يتعذر ضبطه، فإن قولهم ليس مأخوذاً عن كتاب منزل، ولا نبي مرسل، ولا هو موافق لعقول العقلاء، فقالت اليعقوبية[٢]: صار جوهراً واحداً، وطبيعة واحدة، وأقنوماً واحداً، كالماء في اللبن.

وقالت النسطورية[٣]: بل هما جوهران، وطبيعتان، ومشيئتان، لكن حل اللاهوت في الناسوت حلول الماء في الظرف.

وقالت الملكية[٤]: بل هما جوهر واحد، له مشيئتان، وطبيعتان، أو فعلان، كالنار في الحديد.

وقد ذهب بعض الناس إلى أن قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢]. هم اليعقوبية، وفي قوله: ﴿وَقَالَتِ النَّصَـٰرَى الْمَسِيحُ

---

(١) في النسختين «هل هما نسبة أو نسبتان» بدل مشيئة أو مشيئتان.

(٢) فرقة من النصارى قالوا بالأقانيم الثلاثة ـ راجع فيهم الفصل لابن حزم (١/٤٩) و«الملل والنحل» للشهرستاني (٢/٦٦).

(٣) فرقة أخرى من النصارى، نسبة إلى نسطور الذي قال إن الله تعالى واحد ذو أقانيم ثلاثة: الوجود والعلم والحياة، راجع الفصل (١/٤٩) «الملل والنحل» (٢/٦٤).

(٤) فرقة ثالثة ويقال لهم الملكائية أيضاً قالوا: إن الكلمة اتحدت بجسد المسيح وتدرعت بناسوته، راجع الفصل (١/٤٨) و«الملل والنحل» (٢/٦٢).

﴿ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] هم الملكية، وقوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] هم النسطورية.

وليس بشيء، بل الفرق الثلاث تقول المقالات التي حكاها الله ﷻ عن النصارى، فكلهم يقولون: إنه الله، ويقولون: إنه ابن الله، وكذلك في أمانتهم التي هم متفقون عليها، يقولون إله حق من إله حق، وأما قوله: ﴿ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ فإنه قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦]. قال أبو الفرج الجوزي(١) في قوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾.

قال المفسرون: معنى الآية أن النصارى قالوا بأن الإلهية مشتركة بين الله وعيسى ومريم، كل واحد منهم إله.

وذكر عن الزجاج(٢): الغلو: مجاوزة القدر في الظلم، وغلو النصارى في عيسى قول بعضهم: هو الله، وقول بعضهم: هو ابن الله وقول بعضهم: هو ثالث ثلاثة، فعلماء النصارى الذين فسروا قولهم هو ابن الله بما ذكروه من أن الكلمة هي الابن، والفرق الثلاثة متفقة على ذلك، وفساد قولهم معلوم بصريح العقل من وجوه:

أحدها: أنه ليس في شيء من كلام الأنبياء تسمية صفة الله ابناً، لا كلامه ولا غيره، فتسميتهم صفة الله ابناً تحريف لكلام الأنبياء عن مواضعه، وما نقلوه عن المسيح من قوله: عمدوا الناس باسم الأب والابن وروح القدس، لم يرد بالابن صفة الله التي هي كلمته، ولا بروح القدس حياته، فإنه لا يوجد في كلام الأنبياء إرادة هذا المعنى، كما قد بسط هذا في الرد على النصارى.

الوجه الثاني: أن هذه الكلمة التي هي الابن أهي صفة لله قائمة به، أم هي جوهر قائم بنفسه؟ فإن كانت صفته بطل مذهبهم من وجوه:

---

(١) راجع تفسيره (٤٠٣).

(٢) نفس المرجع (٢/ ٢٦٠) وقال أبو عبيده في معنى الغلو: كل شيء زاد حتى يجاوز الحد من نبات أو عظم أو شباب. «مجاز القرآن» (١/ ١٤٣) وانظر الطبري (٦/ ٣٤ ـ ٣٥) ولسان العرب مادة «علا».

أحدها: أن الصفة لا تكون إلهاً يخلق ويرزق[١] ويحي ويميت، والمسيح عندهم إله يخلق ويرزق، ويحي ويميت، فإذا كان الذي تدرعه ليس بإله فهو أولى أن لا يكون إلهاً.

الثاني: أن الصفة لا تقوم بغير الموصوف فلا تفارقه، وإن قالوا: نزل عليه كلام الله أو قالوا: أنه الكلمة أو غير ذلك، فهذا قدر مشترك بينه وبين سائر الأنبياء.

الثالث: أن الصفة لا تتحد، وتتدرّع شيئاً إلا مع الموصوف، فيكون الأب نفسه هو المسيح، والنصارى متفقون على أنه ليس هو الأب، فإن قولهم متناقض، ينقض بعضه بعضاً، يجعلونه إلهاً يخلق ويرزق، ولا يجعلونه الأب الذي هو الإله، ويقولون: إله واحد، وقد شبه بعض متكلميهم ـ كيحي بن عدي[٢] ـ بالرجل الموصوف بأنه طبيب وحاسب وكاتب، وله بكل صفة حكم، فيقال: هذا حق، لكن قولهم ليس نظير هذا، فإذا قلتم إن الرب موجود حي عالم، وله بكل صفة حكم، فمعلوم أن المتحد إن كان هو الذات المتصفة فالصفات كلها قائمة به، وإن كان المتدرع صفة دون صفة عاد المحذور، وإن قالوا: المتدرع الذات بصفة دون صفة لزم افتراق الصفتين، وهذا ممتنع، فإن الصفات القائمة بموصوف واحد وهي لازمة له لا تفترق، وصفات المخلوقين قد يمكن عدم بعضها مع بقاء الباقي، بخلاف صفات الرب تبارك وتعالى.

الرابع: أن المسيح نفسه ليس هو كلمات الله، ولا شيئاً من صفاته، بل هو مخلوق بكلمة الله، وسمي كلمة لأنه خلق بكن من غير الحبل المعتاد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾ [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ۝٣٤ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٣٥﴾ [مريم].

ولو قدر أنه نفسه كلام الله كالتوراة والإنجيل وسائر كلام الله لم يكن كلام الله، ولا شيء من صفاته خالقاً ولا رباً ولا إلهاً، فالنصارى إذا قالوا: إن المسيح هو

---

(١) وفي النسختين «إلهاً يرزق ويخلق».

(٢) أبو زكريا يحيى بن عدي بن حميد بن زكريا فيلسوف حكيم، انتهت إليه الرياسة في علم المنطق في عصره، كان أوحد دهره ومذهبه من مذاهب النصارى اليعقوبية، ترجم عن السريانية كثيراً إلى العربية، توفي سنة (٣٦٤هـ).

الخالق، كانوا ضالين من جهة جعل الصفة خالقة، ومن جهة جعله هو نفس الصفة، وإنما هو مخلوق بالكلمة، ثم قولهم بالتثليث وإن الصفات ثلاث باطل، وقولهم أيضاً بالحلول والاتحاد باطل فقولهم يظهر بطلانه من هذه الوجوه وغيرها.

فلو قالوا: إن الرب له صفات قائمة به، ولم يذكروا اتحاداً ولا حلولاً، كان هذا قول جماهير المسلمين المثبتين للصفات، وإن قالوا: إن الصفات أعيان قائمة بنفسها، فهذا مكابرة، فهم يجمعون بين المتناقضين.

وأيضاً فجعلهم عدد الصفات ثلاثة باطل، فإن صفات الرب أكثر من ذلك فهو سبحانه موجود حي عليم قدير، والأقانيم عندهم التي جعلوها الصفات ليست إلا ثلاثة، ولهذا تارة يفسرونها بالوجود والحياة والعلم، وتارة يفسرونها بالوجود والحياة والعلم، وتارة يفسرونها بالوجود والقدرة والعلم، واضطرابهم كثير، فإن قولهم في نفسه باطل، ولا يضبطه عقل عاقل، ولهذا يقال: لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا على أحد عشر قولاً.

وأيضاً فكلمات الله كثيرة لا نهاية لها، كما قال ﷻ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف].

وهذا قول جماهير الناس من المسلمين، وغير المسلمين، وهذا مذهب سلف الأمة الذين يقولون لم يزل سبحانه متكلماً بمشيئته، وقول من قال: إنه لم يزل قادراً على الكلام لكن تكلم بمشيئته كلاماً قائماً بذاته حادثاً، وقول من قال كلامه مخلوق في غيره.

وأما من قال: كلامه[1] شيء واحد قديم العين، فهؤلاء منهم من يقول: أنه أمور لا نهاية لها مع ذلك، ومنهم من يقول: بل هو معنى واحد، ولكن العبارات عنه متعددة، وهؤلاء يمتنع عندهم أن يكون ذلك المعنى قائماً بغير الله، وإنما يقوم بغيره عندهم العبارات المخلوقة، ويمتنع أن يكون المسيح شيئاً من تلك العبارات، فإذا امتنع[2] أن يكون المسيح غير كلام الله على قول هؤلاء فعلى قول الجمهور أشد

(١) في النسختين «كلامه معناه شيء واحد».
(٢) في النسختين «فلا يمتنع أن يكون المسيح غير كلام الله».

امتناعاً، لأن كلمات الله كثيرة، والمسيح ليس هو جميعها، بل ولا مخلوقاً بجميعها، وإنما خلق بكلمة منها، وليس هو عين تلك الكلمة: فإن الكلمة صفة من الصفات، والمسيح عين قائم بنفسه.

ثم يقال لهم: تسميتكم العلم والكلمة ولداً وابناً تسمية باطلة باتفاق العلماء والعقلاء، ولم ينقل ذلك عن أحد من الأنبياء، قالوا لأن الذات يتولد عنها العلم والكلام كما يتولد ذلك عن نفس الرجل العالم منها، فيتولد من ذاته العلم والحكمة والكلام، فلهذا سميت الكلمة ابناً.

قيل: هذا باطل من وجوه:

أحدها: أن صفاتنا حادثة تحدث بسبب تعلمنا ونظرنا وفكرنا واستدلالنا، وأما كلمة الرب وعلمه فهو قديم لازم لذاته، فيمتنع أن يوصف بالتولد، إلا أن يدعي المدعي أن كل صفة لازمة لموصوفها متولدة عنه، وهي ابن له، ومعلوم أن هذا من أبطل الأمور في العقول واللغات، فإن حياة الإنسان ونطقه وغير ذلك من صفاته اللازمة له لا يقال أنها متولدة عنه، وأنها ابن له، وأيضاً فيلزم أن تكون حياة الرب أيضاً ابنه ومتولدة، وكذلك قدرته، وإلا فما الفرق بين تولد العلم وتولد الحياة والقدرة وغير ذلك من الصفات.

وثانيها: أنّ هذا إن كان من باب تولد الجواهر والأعيان القائمة بنفسها فلا بد له من أصلين، ولا بد أن يخرج من الأصل جزء، وأما علمنا وقولنا فليس عيناً قائماً بنفسه، وإن كان صفة قائمة بموصوف وعرضاً قائماً في محل كعلمنا وكلامنا فذاك أيضاً لا يتولد إلا عن أصلين، ولا بد له من محل يتولد فيه، والواحد منا لا يحدث له العلم والكلام إلا بمقدمات تتقدم على ذلك، وتكون أصلاً للفروع ويحصل العلم والكلام في محل لم يكن حاصلاً فيه قبل ذلك.

فإن قلتم: أن علم الرب كذلك لزم أن يصير عالماً بالأشياء بعد أن لم يكن عالماً بها، وأن تصير ذاته متكلمة بعد أن لم يكن متكلماً، وهذا مع أنه كفر عند جماهير الأمم من المسلمين والنصارى، وغيرهم فهو باطل في صريح العقل، فإن الذات التي لا تكون عالمة يمتنع أن تجعل نفسها عالمة بلا أحد يعلمها، والله تعالى يمتنع عليه أن

يكون متعلماً من خلقه، وكذلك الذات التي تكون عاجزة عن الكلام، يمتنع أن تصير قادرة عليه بلا أحد يجعلها قادرة، والواحد منا لا يولد جميع علومه، بل ثم علوم خلقت فيه لا يستطيع دفعها، فإذا نظر فيها حصلت له علوم أخرى، فلا يقول أحد من بني آدم: أن الإنسان يولد علومه كلها، فلا يقول أحد: أنه يجعل نفسه متكلمة بعد أن لم تكن متكلمة، بل الذي يقدره على النطق هو الذي أنطق كل شيء.

فإن قالوا: إن الرب يولد بعض عمله، وبعض كلامه دون بعض بطل تسمية العلم ـ الذي هو الكلمة مطلقاً ـ الابن، وصار لفظ الابن إنما يسمى به بعض علمه، أو بعض كلامه، وهم يدعون أن المسيح هو الكلمة، وهو أقنوم العلم مطلقاً، وذلك ليس متولداً عنه كله، ولا يسمى كله ابناً باتفاق العقلاء.

وثالثها: أن يقال: تسمية علم العالم وكلامه ولداً له لا يعرف في شيء من اللغات المشهورة، وهو باطل بالعقل، فإن علمه وكلامه كقدرته وعلمه، فإن جاز هذا جاز تسمية صفات الإنسان كلها الحادثة متولدات عنه له، وتسميتها أبناءه، ومن قال من أهل الكلام القدرية: أن العلم الحاصل بالنظر متولد عنه، فهو كقوله أن الشبع والري متولد عن الأكل والشرب، لا يقول أن العلم ابنه وولده، كما لا يقول أن الشبع والري ابنه ولا ولده، لأن هذا من باب تولد الأعراض والمعاني القائمة بالإنسان، وتلك لا يقال إنها أولاده وأبناؤه، ومن استعار فقال بنيات فكره، فهو كما يقال بنيات الطريق، ويقال ابن السبيل، ويقال لطير الماء: ابن ماء، وهذه تسمية مقيدة، قد عرف أنها ليس المراد بها ما هو المعقول من الأب والابن والوالد والولد، وأيضاً فكلام الأنبياء ليس في شيء منه تسمية شيء من صفات الله ابناً، فمن حمل شيئاً من كلام الأنبياء على ذلك فقد كذب عليهم، وهذا مما يقر به علماء النصارى، وما وجد عندهم من لفظ الابن في حق المسيح وإسرائيل وغيرهما، فهو اسم للمخلوق لا لشيء من صفات الخالق، والمراد به أنه مكرم معظم.

ورابعها: أن يقال فإذا قدر أن الأمر كذلك فالذي حصل للمسيح إن كان هو ما علمه الله إياه من علمه وكلامه فهذا موجود لسائر النبيين، فلا معنى لتخصيصه بكونه ابن الله، وإن كان هو أن العلم والكلام إله اتحد به فيكون العلم والكلام جوهراً قائماً بنفسه، فإن كان هو الأب فيكون المسيح هو الأب، وإن كان العلم والكلام جوهراً

آخر، فيكون إلهان قائمان بأنفسهما، فتبين فساد ما قالوه بكل وجه.

وخامسها: أن يقال: من المعلوم عند الخاصة والعامة أن المعنى الذي خص به المسيح إنما هو إن خلق من غير أب، فلما لم يكن له أب من البشر جعل النصارى الرب أباه، وبهذا ناظر نصارى[1] نجران النبي ﷺ وقالوا: إن لم يكن هو ابن الله فقل لنا من أبوه؟ فعلم النصارى إنما ادعوا فيه النبوة الحقيقية، وإن ما ذكر من كلام علمائهم هو تأويل منهم للمذهب، ليزيلوا به الشناعة التي لا يبلغها عاقل، وإلا فليس في جعله ابن الله وجه يختص به معقول، فعلم أن النصارى جعلوه ابن الله، وأن الله أحبل مريم، والله هو أبوه، وذلك لا يكون إلا بإنزال جزء منه فيها، وهو سبحانه الصَّمد، ويلزمهم أن تكون مريم صاحبة وزوجة له، ولهذا يتألهونها كما أخبر الله عنهم، وأي معنى ذكروه في بنوة عيسى غير هذا لم يكن فيه فرق بين عيسى وبين غيره، ولا صار فيه معنى البنوة، بل قالوا: كما قال: بعض مشركي العرب أنه صاهر الجن فولدت له الملائكة، وإذا قالوا: اتخذه ابناً على سبيل الاصطفاء، فهذا هو المعنى الفعلي، وسيأتي إن شاء الله تعالى إبطاله، وقوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

ليس فيه أن بعض الله صار في عيسى، بل من لابتداء الغاية كما قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، وقال: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وما أضيف إلى الله أو قيل هو منه فعلى وجهين: إن كان عيناً قائمة بنفسها فهو مملوك له، ومن لابتداء الغاية كما قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم: ١٧]، وقال في المسيح: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾.

وما كان صفة لا يقوم بنفسه كالعلم والكلام فهو صفة له، كما يقال كلام الله وعلم الله، وكما قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤].

وألفاظ المصادر يعبر بها عن المفعول فيسمى المأمور به أمراً، والمقدور قدرة، والمرحوم به رحمة، والمخلوق بالكلمة كلمة، فإذا قيل في المسيح أنه كلمة الله،

---

(١) انظر القصة في «تفسير ابن جرير الطبري» (٣/ ١٦٢ ـ ١٦٣) و«أسباب النزول» للواحدي (٩٠ ـ ٩١).

فالمراد به أنه خلق بكلمة قوله كن، ولم يخلق على الوجه المعتاد من البشر، وإلا فعيسى بشر قائم بنفسه ليس هو كلاماً صفة للمتكلم يقوم به، وكذلك إذا قيل عن المخلوق: أنه أمر الله، فالمراد أن الله كونه بأمره، كقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾ [هود].

فالرب تعالى أحد صمد، لا يجوز أن يتبعض ويتجزء، فيصير بعضه في غيره، سواء سمي ذلك روحاً أو غيره، فبطل ما يتوهمه النصارى من كونه ابناً له، وتبين أنه عبد من عباد الله.

وقد قيل: منشأ ضلال القوم أنه في لغة من قبلنا يعبر عن الرب بالأب، وبالابن عن العبد المربى الذي يربه الله ويربيه، فقال المسيح: عمدوا الناس باسم الأب والابن، وروح القدس، فأمرهم أن يؤمنوا بالله ويؤمنوا بعبده ورسوله المسيح، ويؤمنوا بروح القدس جبريل، فكانت هذه الأسماء لله، ولرسوله الملكي، ورسوله البشري، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

وقد أخبر تعالى: في غير آية أنه أيد المسيح بروح القدس، وهو جبريل عند جمهور المفسرين، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧].

فعند جمهور المفسرين أن روح القدس هو جبريل، بل هذا قول ابن عباس(١) وقتادة والضحاك والسدي وغيرهم، ودليل هذا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ

(١) راجع «تفسير ابن الجوزي» (١/ ١١٢) وأخرج الطبري أقوال قتادة والسدي والضحاك، وروى عن شهر ابن حوشب مرفوعاً بسند ضعيف (١/ ٤٠٤) قال ابن كثير في «تفسيره» والدليل على أن روح القدس هو جبريل ما رواه البخاري تعليقاً أن النبي ﷺ قال لحسان: «اللهم أيّد حسان بروح القدس كما نافح عن نبيك». وأخرجه أبو داود والترمذي، وفي الصحيحين أن حسان قال لأبي هريرة أنشدك الله أسمعت رسول الله ﷺ يقول: «أجب عني اللهم أيده بروح القدس»، فقال اللهم نعم. وفي بعض الرويات أن رسول الله ﷺ قال لحسان: «اهجهم وجبريل معك» انتهى ملخصاً من «تفسير ابن كثير» (١/ ١٢٢).

﴿ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [النحل]، وروى الضحاك عن ابن عباس(١): أنه الاسم الذي كان يحي به الموتى.

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم(٢): أنه الإنجيل، وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل: ٢]، فما ينزله الله في قلوب أنبيائه مما تحيا به قلوبهم من الإيمان الخالص يسميه روحاً، وهو ما يؤيد الله به المؤمنين من عباده فكيف بالمرسلين منهم؟ والمسيح عليه السلام من أولي العزم، فهو أحق بهذا من جمهور الرسل والأنبياء.

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقد ذكر الزجاج في تأييده بروح القدس(٣) ثلاثة أوجه(٤):

أحدها: أنه أيده به لإظهار أمره ودينه.

الثاني: لدفع بني إسرائيل عنه إذا أرادوا قلته.

الثالث: أنه أيده به في جميع أحواله.

ومما يبين ذلك أن لفظ الابن في لغتهم ليس مختصاً بالمسيح، بل عندهم أن الله تعالى قال في التوراة لإسرائيل: أنت ابني بكري، والمسيح كان يقول: أبي وأبوكم فيجعله أبا للجميع، ويسمى غيره ابناً له(٥)، فعلم أنه لا اختصاص للمسيح بذلك، ولكن النصارى يقولون: هو ابنه بالطبع، وغيره ابنه بالوضع، فيفرقون فرقاً لا دليل عليه، ثم قولهم هو ابنه بالطبع يلزم عليه من المحالات عقلاً وسمعاً ما يبين بطلانه.

---

(١) تفسير ابن الجوزي (١/ ١١٣)، وأخرجه الطبري (١/ ٤٠٤) وذكره ابن كثير برواية ابن أبي حاتم (١/ ٤٠٥) وبه فسره أبو عبيدة في «مجاز القرآن» (١/ ٣٦٨).

(٢) ابن الجوزي (١/ ١١٣) وأخرجه الطبري (١/ ٤٠٤) وذكره ابن كثير بروايته (١/ ٤٠٥).

(٣) سقط من النسختين «بروح القدس».

(٤) راجع «تفسير ابن الجوزي» (١/ ١١٢ ـ ١١٣).

(٥) في النسختين «ويسمى غيره ابناً له كما يسمى هو ابناً له».

فصل

وأما ما يقوله الفلاسفة القائلون بأن العالم قديم صدر عن علة موجبة بذاته، وأنه صدر عنه عقل، ثم عقل، إلى تمام عشرة عقول، وتسعة أنفس، وقد يجعلون العقل بمنزلة الذكر، والنفس بمنزلة الأنثى فهؤلاء قولهم أفسد من قول مشركي العرب وأهل الكتاب عقلاً وشرعاً، ودلالة القرآن على فساده أبلغ، وذلك من وجوه:

أحدها: أن هؤلاء يقولون بقدم الأفلاك، وقدم هذه الروحانيات التي يثبتونها، ويسمونها المجردات والمفارقات، والجواهر العقلية، وأن ذلك لم يزل قديماً أزلياً، وما كان قديماً أزلياً امتنع أن يكون مفعولاً بوجه من الوجوه، ولا يكون مفعولاً إلا ما كان حادثاً، وهذه قضية بديهية عند جماهير العقلاء، وعليها الأولون والآخرون من الفلاسفة، وسائر الأمم، ولهذا كان جماهير الأمم يقولون كل ممكن يمكن أن يوجد، وأن لا يوجد فلا يكون إلا حادثاً، وإنما ادعى وجود ممكن قديم معلول طائفة من المتأخرين: كابن سينا، ومن وافقه، زعموا: أن الفلك قديم معلول لعلة قديمة، وأما الفلاسفة القدماء فمن كان منهم يقول بحدوث الفلك، وهم جمهورهم، ومن كان قبل أرسطو، فهؤلاء موافقون لأهل الملل، ومن قال بقدم الفلك كأرسطو وشيعته، فإنما يثبتون له علة غائية يتشبه الفلك بها، لا يثبتون له علة فاعلة، وما يثبتونه من العقول والنفوس فهو من جنس الفلك، كل ذلك قديم واجب بنفسه، وإن كان له علة غائية، وهؤلاء أكفر من هؤلاء المتأخرين، لكن الغرض أن يعرفو أن قول هؤلاء ليس قول أولئك.

الثاني: أن هؤلاء يقولون: إن الرب واحد، والواحد لا يصدر عنه إلا واحد، ويعنون بكونه واحداً أنه ليس له صفة ثبوتية أصلاً، ولا يعقل فيه معان متعددة، لأن ذلك عندهم تركيب، ولهذا يقولون: لا يكون فاعلاً وقابلاً لأن جهة الفعل غير جهة القبول، وذلك يستلزم تعدد الصفة المستلزم للتركيب، ومع هذا يقولون: أنه عاقل ومعقول وعقل، وعاشق ومعشوق وعشق، ولذيذ وملتذ ولذة، إلى غير ذلك من المعاني المتعددة، ويقولون: أن كل واحدة من هذه الصفات هي الصفة الأخرى، والصفة هي الموصوف، والعلم هو القدرة، وهو الإرادة والعلم هو العالم وهو القادر.

ومن المتأخرين منهم من قال: العلم هو المعلوم، فإذا تصور العاقل أقوالهم حق

التصور تبين له أن هذا الواحد الذي أثبتوه لا يتصور وجوده إلا في الأذهان، لا في الأعيان، وقد بسط الكلام عليه، وبين فساد ما يقولونه في التوحيد والصفات، وبين فساد شبه التركيب من وجوه كثيرة في مواضع غير هذا، وإذا كان كذلك فالأصل الذي بنوا عليه قولهم: «إن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد» أصل فاسد.

الثالث: أن يقال قولهم بصدور الأشياء من ما فيها من الكثرة والحدوث عن واحد بسيط في غاية الفساد.

الرابع: أنه لا يعلم في العالم واحد بسيط صدر عنه شيء لا واحد ولا اثنان، فهذه الدعوى الكلية لا يعلم ثبوتها في شيء أصلاً.

الخامس: أنهم يقولون صدر عنه واحد، وعن ذلك الواحد عقل ونفس وفلك، فيقال: إن كان الصادر عنه واحداً من كل وجه، فلا يصدر عن هذا الواحد إلا واحد أيضاً، فيلزم أن يكون كل ما في العالم إنما هو واحد عن واحد وهو مكابرة، وإن كان في الصادر الأول كثرة ما بوجه من الوجوه فقد صدر عن الأول ما فيه كثرة ليس واحداً من كل وجه، فقد صدر عن الواحد ما ليس بواحد.

ولهذا اضطرب مُتأخِّروهم، فأبو البركات[1] صاحب «المعتبر» أبطل هذا القول ورده غاية الرد، وابن رشد الحفيد[2] زعم أن الفلك بما فيه صادر عن الأول، والطوسي[3] وزير الملاحدة يقرب من هذا، فجعل الأول شرطاً في الثاني، والثاني شرطاً في الثالث، وهم مشتركون في الضلال وهو إثبات جواهر قائمة بنفسها أزلية مع الرب لم تزل ولا تزال معه[4] لم تكن مسبوقة بعدم، وجعل الفلك أيضاً أزلياً، وهذا

---

(١) أبو البركات هبة الله بن علي بن ملكاً البلدي البغدادين المعروف بأوحد الزمان، كان يهودياً فأسلم وكان في خدمة المستنجد بالله، وحظى عنده، له مشاركة في المنطق والفلسفة توفي سنة ٥٥٠هـ.

(٢) محمّد بن أحمد بن أحمد، القرطبي، أبو الوليد المعروف بابن رشد الحفيد.
عالم ذو الفنون، له مشاركة في الفقه، والطب، والمنطق، والفلسفة، والعلوم الرياضية والإلهية، صنف نحو خمسين كتاباً توفي سنة ٥٩٥هـ.

(٣) محمّد بن محمّد بن الحسن، نصير الدين الرافضي، عالم فيلسوف رياضي شارك في أنواع من العلوم، كان هولاكو يكرمه ويجله ويطيعه فيما يشير به، توفي سنة ٦٧٢هـ.

(٤) في النسختين «لم تزل ولا تزال معه لكن مسبوقة بعدم».

وحده فيه من مخالفة صريح المعقول والكفر بما جاءت به الرسل ما فيه كفاية، فكيف إذا ضم إليه غير ذلك من أقاويلهم المخالفة للعقل والنقل؟.

الوجه السادس: أن الصوادر المعلومة في العالم إنما تصدر عن اثنين، وأما واحد وحده فلا يصدر عنه شيء، كما تقدم التنبيه عليه في المتولدات من الأعيان والأعراض. وكل ما يذكرونه من صدور الحرارة عن الحار، والبرودة عن البارد، والشعاع عن الشمس، وغير ذلك، فإنما هو صدور أعراض، ومع هذا فلا بد لها من أصلين.

وأما صدور الأعيان عن غيرها فهذا لا يعلم إلا بالولادة المعروفة، وتلك لا تكون إلا بانفصال جزء من الأصل، وهذا الصدور والتولد والمعلولية التي يدعونها في العقول والنفوس والأفلاك يقولون أنها جواهر قائمة بأنفسها صدرت عن جوهر واحد بسيط، فهذا من أبطل قول قيل في الصدور والتولد، لأن فيه صدور جواهر عن جوهر واحد، وهذا لا يعقل، وفيه صدوره عنه من غير جزء منفصل من الأصل، وهذا لا يعقل، وهم غاية ما عندهم أن يشبهوا هذا بحدوث بعض الأعراض كالشعاع عن الشمس، وحركة الخاتم عن حركة اليد، وهذا تمثيل باطل، لأن تلك ليست علة فاعلة، وإنما هي شرط فقط، والصادر هناك لم يكن عن أصل واحد، بل عن أصلين، والصادر عرض لا جوهر قائم بنفسه.

فتبين أن ما ذكره هؤلاء من التولد العقلي الذي يدعونه من أبعد الأمور عن التولد والصدور، وهو أبعد من قول النصارى ومشركي العرب، وهم جعلوا مفعولاته بمنزلة صفة أزلية لازمة لذاته، وقد ذكرنا أن هذا مما يمتنع أن يقال فيه أنه متولد عنه، وحينئذ فهم في دعواهم إلهية العقول والنفوس والكواكب أكفر من هؤلاء وهؤلاء.

ومن جعل من المنتسبين إلى الملل منهم هؤلاء هم الملائكة، فقوله في جعل الملائكة متولدين[١] عن الله شر من قول العرب وعوام النصارى، فإن أولئك أثبتوا ولادة حسية، وكونه صمداً يبطلها، لكن ما أثبتوه معقول، وهؤلاء ادعوا تولداً عقلياً باطلاً من كل وجه أبطل مما ادّعته النصارى من تولد الكلمة عن الذات، فكان نفي ما ادعوه أولى من نفي ما ادعاه أولئك لأن المحال الذي يعلم امتناعه في الخارج لا يمكن

(١) في النسختين «متولدين عن شيء من قول العرب»

تصوره موجوداً في الخارج، فإنه يمتنع وجوده في الخارج (بل هو يفرض في الذهن وجوده في الخارج)[١]، وذلك إنما يمكن إذا كان له نظير من بعض الوجوه فيقدر له في الوجود الخارجي ما يشبهه، كما إذا قدر مع الله إله آخر، وقدر أن له ولداً فإنه يشبه من له ولد من العباد، ومن له شريك من العباد، ثم يبين امتناع ذلك عليه، فكلما كان المحال أبعد عن مشابهة الموجود كان أعظم استحالة.

والولادة التي ادعتها النصارى ثم هؤلاء الفلاسفة، أبعد عن مشابهة الولادة المعلومة من الولادة التي ادعاها بعض مشركي العرب وعوام النصارى واليهود فكانت هذه الولادة العقلية أشد استحالة من تلك الولادة الحسية، إذ الولادة الحسية تعقل في الأعيان القائمة بنفسها، وأما الولادة العقلية فلا تعقل في الأعيان أصلاً، وأيضاً فأولئك أثبتوا ولادة من أصلين، وهذا هو الولادة المعقولة، وهؤلاء أثبتوا ولادة من أصل واحد، وأولئك أثبتوا ولادة بانفصال جزء، وهذا معقول. وهؤلاء أثبتوا ولادة بدون ذلك، وهو لا يعقل، وأولئك أثبتوا ولادة قاسوها على ولادة الأعيان للأعيان، وهؤلاء أثبتوا ولادة قاسوها على تولد الأعراض عن الأعيان، فعلم أن قول أولئك أقرب إلى المعقول وهو باطل كما بين الله فساده وأنكره، فقول هؤلاء أولى بالبطلان، وهذا كما أن الله إذا كفر من أثبت مخلوقاً يتخذ شفيعاً معبوداً من دون الله، فمن أثبت قديماً دون الله يعبد، ويتخذ شفيعاً كان أولى بالكفر، ومن أنكر المعاد من قوله بحدوث هذا العالم فقد كفره الله، فمن أنكره مع قوله بقدم هذا العالم فهو أعظم كفراً عند الله تعالى.

وهذا كما أن النبي ﷺ لما نهى أمته عن مشابهة[٢] فارس المجوس والروم النصارى فنهيه عن مشابهة اليونان[٣] المشركين والهند المشركين أعظم وأعظم، وإذا كان ما دخل في بعض المسلمين من مشابهة اليهود والنصارى وفارس والروم مذموماً عند الله ورسوله فما دخل من مشابهة اليونان والهند والترك والمشركين وغيرهم من الأمم الذين هم أبعد عن الإسلام من أهل الكتاب ومن فارس والروم أولى أن يكون مذموماً عند الله تعالى، وأن يكون ذمه أعظم من ذلك.

---

(١) ما بين القوسين من النسختين المطبوعتين.

(٢) في النسختين «عن مشابهة فارس والروم النصارى».

(٣) كذا في النسختين، وهو الصواب، وفي الفتاوى «عن مشابهة الروم واليونان».

فهؤلاء الأمم (الذين هم أبعد عن الإسلام)[١] الذين ابتلى بهم أواخر المسلمين، شر من الأمم الذين ابتلى بهم أوائل المسلمين، وذلك لأن الإسلام كان أهله أكمل وأعظم علماً وديناً، فإذا ابتلى بمن هو أرجح من هؤلاء، غلبهم المسلمون لفضل علمهم ودينهم، وأما هؤلاء المتأخرون فالمسلمون وإن كانوا أنقص من سلفهم فإنه يظهر رجحانهم على هؤلاء لعظم بعدهم عن الإسلام، ولكن لما كثرت البدع من متأخري المسلمين استطال عليهم من استطال من هؤلاء، ولبسوا عليهم دينهم، وصارت شبه الفلاسفة أعظم عند هؤلاء من غيرهم، كما صار قتال الترك الكفار أعظم من قتال من كان قبلهم عند أهل الزمان، لأنهم إنما ابتلوا بسيوف هؤلاء، وألسنة هؤلاء، وكان فيهم من نقص الإيمان ما أورث ضعفاً في العلم والجهاد، وكما كان كثير من العرب في زمن النبي ﷺ فهذا هذا.

ومما يبين هذا أن مشركي العرب واليهود والنصارى يقولون إن الله خلق السموات والأرض بمشيئته وقدرته، بل يقولون: أنه خلق ذلك في ستة أيام، وهؤلاء المتفلسفة عندهم لم يحدثها بعد أن لم تكن، فضلاً عن أن يكون ذلك في ستة أيام، ثم يلبسون على المسلمين فيقولون العالم محدث، يعنون بحدوثه أنه معلول بعلة قديمة، فهو بمنزلة قولهم متولد عن الله تعالى، لكن هو أمر لا حقيقة له ولا يعقل.

وأيضاً فمشركو العرب وأهل الكتاب يقرون بالملائكة وإن كان كثير منهم يجعلون الملائكة والشياطين نوعاً واحداً، فمن خرج منهم عن طاعة الله أسقطه وصار شيطاناً، وينكرون أن يكون إبليس كان أبا الجن، وأن يكون الجن ينكحون ويولدون، ويأكلون ويشربون، فهؤلاء النصارى الذين ينكرون هذا مع كفرهم هم خير من هؤلاء المتفلسفة فإن هؤلاء لا حقيقة للملائكة عندهم إلا ما يثبتونه من العقول والنفوس، أو من أعراض تقوم بالأجسام كالقوى الصالحة، وكذلك الجن جمهور أولئك يثبتونها، فإن العرب كانت تثبت الجن، وكذلك أكثر أهل الكتاب، وهؤلاء لا يثبتونها، ويجعلون الشياطين، القوى الفاسدة، وأيضاً فمشركوا العرب مع أهل الكتاب يدعون الله، ويقولون إنه يسمع دعاءهم ويجيبهم.

وهؤلاء عندهم لا يعلم شيئاً من جزئيات العالم، ولا يسمع دعاء أحد ولا يجيب

(١) ما بين القوسين سقط من النسختين المطبوعتين.

أحداً، ولا يحدث في العالم شيئاً ولا سبب للحدوث عندهم إلا حركات الفلك، والدعاء عندهم يؤثر، لأنه تصرف النفس الناطقة في هيولي العالم.

وقد ثبت في الصحيح[١] من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «يقول الله ﷻ: شتمني ابن آدم وما ينبغي له ذلك، وكذبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك، فأما شتمه إياي فقوله إني اتخذت ولداً وأنا الأحد الصمد، الذي لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفؤاً أحد. وأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته».

وهذا وإن كان متناولاً قطعاً لكفار العرب الذين قالوا هذا وهذا، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾ [مريم]، إلى قوله: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ [مريم]، فذكر الله هذا وهذا فتناول النصوص لهؤلاء بطريق الأولى، فإن هؤلاء ينكرون الإعادة والابتداء أيضاً، فلا يقولون: إن الله ابتدأ خلق السماوات والأرض، ولا كان للبشر ابتداء أولهم آدم، وأما شتمهم إياه بقولهم اتخذ ولداً فهؤلاء عندهم الفلك كله لازم له، معلول له أعظم من لزوم الولد والده، والوالد له اختيار وقدرة في حدوث الولد منه، وهؤلاء عندهم ليس لله مشيئة وقدرة في لزوم الفلك له، بل ولا يمكنه أن يدفع لزومه عنه، فالتولد الذي يثبتونه أبلغ من التولد الموجود في الخلق، ولا يقولون: أنه اتخذ ولداً بقدرته، فإنه لا يقدر عندهم على تغيير شيء من العالم، بل ذلك لازم له لزوماً حقيقة أنه لم يفعل شيئاً، بل ولا هو موجود، وإن سموه علة ومعلولاً فعند التحقيق لا يرجعون إلى شيء محصل، فإن في قولهم من التناقض والفساد أعظم مما في قول النصارى.

وقد ذكر طائفة من أهل الكلام أن قولهم بالعلة والمعلول، من جنس قول غيرهم بالوالد والولد، وأرادوا بذلك أن يجعلوهم من جنسهم في الذم، وهذا تقصير عظيم، بل أولئك خير من هؤلاء، وهؤلاء إذا حققت ما يقوله من هو أقربهم إلى الإسلام، كابن رشد الحفيد وجدت غايته أن يكون الرب شرطاً في وجود العالم لا فاعلاً له،

(١) البخاري (٦/ ٩٥).

وكذلك من سلك مسلكهم من المدعين للتحقيق من ملاحدة الصوفية كابن عربي وابن سبعين، حقيقة قولهم إن هذا العالم موجود واجب أزلي، ليس له صانع غير نفسه، وهم يقولون: الوجود واحد، وحقيقة قولهم أنه ليس في الوجود خالق خلق موجوداً آخر، وكلامهم في المعاد والنبوات والتوحيد شر من كلام اليهود والنصارى وعباد الأصنام فإن هؤلاء يجوزون عبادة كل صنم في العالم، لا يخصون بعض الأصنام بالعبادة.

فصل

وقد احتج بـ(سورة الإخلاص) من أهل الكلام المحدث من يقول: الرب تعالى جسم كبعض الذين وافقوا هشام بن الحكم[1]، ومحمد بن كرام، وغيرهما، ومن ينفي ذلك ويقول: ليس بجسم ممن وافق جهم بن صفوان، وأبا الهذيل العلاف[2] ونحوهما، فأولئك قالوا: هو صمد والصمد لا جوف له، وهذا إنما يكون في الأجسام المصمتة، فإنها لا جوف لها، كما في الجبال والصخور وما يصنع من عواميد الحجارة، وكما قيل: إن الملائكة صمد، ولهذا قيل أنه لا يخرج منه شيء، ولا يدخل فيه شيء، ولا يأكل ولا يشرب، ونحو ذلك، ونفي هذا لا يعقل إلا عما هو جسم، وقالوا: أصل ﴿ٱلصَّـمَدُ﴾ الاجتماع، ومنه تصميد المال، وهذا إنما يعقل في الجسم المجتمع، وأما النفاة فقالوا: ﴿ٱلصَّـمَدُ﴾ الذي لا يجوز عليه التفرق والانقسام، وكل جسم في العالم يجوز عليه التفرق والانقسام.

وقالوا أيضاً: (أحد) الذي لا يقبل التجزي والانقسام، وكل جسم في العالم يجوز عليه التفرق والتجزي والانقسام، وقالوا: إذا قلتم هو جسم كان مركباً مؤلفاً من الجواهر الفردة، أو من المادة والصورة، وما كان مركباً مولفاً من غيره كان مفتقراً إليه، وهو سبحانه صمد، والصمد: الغني عما سواه، فالمركب لا يكون صمداً.

فيقال: أما القول بأنه سبحانه مركب مولف من أجزاء، وأنه يقبل التجزي والانقسام والانفصال فهذا باطل شرعاً عقلاً، فإن هذا ينافي كونه صمداً، كما تقدم،

---

(١) هشام بن الحكم الشيباني، أبو محمد الكوفي، شيخ الإمامية في وقته تنسب إليه الفرقة الهشامية له مؤلفات، توفي سنة ١٩٩هـ.

(٢) محمّد بن الهذيل بن عبد الله العلاف، يعد رائد التأليف في علم الكلام عند المعتزلة، قال بفناء الجوهر. يعرف اتباعه بالهذيلية. توفي سنة ٢٢٦هـ.

وسواء أريد بذلك أنه كانت الأجزاء متفرقة، ثم اجتمعت، أو قيل: أنها لم تزل مجتمعة لكن يمكن انفصال بعضها عن بعض، كما في بدن الإنسان وغيره من الأجسام، فإن الإنسان وإن كان لم يزل مجتمع الأعضاء، لكن يمكن أن يفرق بين بعضه من بعض، والله سبحانه منزه عن ذلك، ولهذا قدمنا أن كمال الصمدية له، فإن هذا إنما يجوز على ما يجوز أن يفنى بعضه أو يعدم، وما قبل العدم والفناء لم يكن واجب الوجود بذاته، ولا قديماً أزلياً، فإن ما وجب قدمه امتنع عدمه، وكذلك صفاته التي لم يزل موصوفاً بها وهي من لوازم ذاته، فيمتنع أن يعدم اللازم إلا مع عدم الملزوم.

ولهذا قال من قال من السلف: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ هو الدائم، وهو الباقي بعد فناء خلقه، فإن هذا من لوازم الصمدية، إذ لو قبل العدم لم تكن صمديته لازمة له، بل جاز عدم صمديته فلا يبقى صمداً، ولا تنتفي عنه الصمدية إلا بجواز العدم عليه، وذلك محال، فلا يكون مستوجباً للصمدية، إلا إذا كانت لازمة له، وذلك ينافي عدمه، وهو مستوجب للصمدية، لم يصر صمداً بعد أن لم يكن ـ تعالى وتقدس ـ فإن ذلك يقتضي أنه كان متفرقاً فجمع، وأنه مفعول محدث مصنوع، وهذه صفة مخلوفاته، وأما الخالق القديم الذي يمتنع عليه أن يكون معدوماً أو مفعولاً أو محتاجاً إلى غيره بوجه من الوجوه، فلا يجوز عليه شيء من ذلك، فعلم أنه لم يزل صمداً، ولا يزال صمداً، فلا يجوز أن يقال: كان متفرقاً فاجتمع، ولا أنه يجوز أن يتفرق، بل ولا يخرج منه شيء ولا يدخل فيه شيء.

وهذا مما هو متفق عليه بين طوائف المسلمين، سنِّيّهم وبدعيِّهم، وإن كان أحد من الجهال أو من لا يعرف قد يقول خلاف ذلك، فمثل هؤلاء لا تنضبط خيالاتهم الفاسدة، كما أنه ليس في طوائف المسلمين من يقول إنه مولود ووالد، وإن كان هذا قد قاله بعض الكفار، وقد قال المتفلسفة المنتسبون إلى الإسلام من التولد والتعليل ما هو شر من قول أولئك.

وأما إثبات الصفات له، وأنه يرى في الآخرة، وأنه يتكلم بالقرآن وغيره، وكلامه غير مخلوق، فهذا مذهب الصحابة والتابعين له بإحسان، وأئمة المسلمين وأهل السنة والجماعة من جميع الطوائف، والخلاف في ذلك مشهور مع الجهمية والمعتزلة، وكثير من الفلاسفة والباطنية.

وهؤلاء يقولون إن إثبات الصفات يوجب أن يكون جسماً وليس بجسم، فلا تثبت له الصفات، قالوا: لأن المعقول من الصفات أعراض قائمة بجسم، ولا تعقل صفته إلا كذلك، قالوا: والرؤية لا تعقل إلا مع المعاينة، فالمعاينة لا تكون إلا إذا كان المرئي بجهة، ولا يكون بجهة إلا ما كان جسماً، قالوا: ولأنه لو قام به كلام أو غيره للزم أن يكون جسماً، فلا يكون الكلام المضاف إليه إلا مخلوقاً منفصلاً عنه.

وهذه المعاني مما ناظروا به الإمام أحمد في «المحنة» وكان ممن احتج على أن القرآن مخلوق بنفي التجسيم أبو عيسى محمّد بن عيسى برغوث[١] تلميذ حسين النجار، وهو من أكابر المتكلمين، فإن ابن أبي داود كان قد جمع للإمام أحمد من أمكنه من متكلمي البصرة وبغداد وغيرهم ممن يقول: أن القرآن مخلوق، وهذا القول لم يكن مختصاً بالمعتزلة كما يظنه بعضه الناس، فإن كثيراً من أولئك المتكلمين أو أكثرهم لم يكونوا معتزلة. وبشر المريسي لم يكن من المعتزلة، بل فيهم نجارية، ومنهم برغوث، وفيهم ضرارية، وحفص[٢] الذي ناظر الشافعي كان من الضرارية أتباع ضرار بن عمرو، وفيهم مرجئة، ومنهم بشر المريسي، ومنهم جهمية محضة، ومنهم معتزلة وابن أبي داود لم يكن معتزلياً، بل كان جهمياً ينفي الصفات.

والمعتزلة تنفي الصفات، فنفاة الصفات الجهمية أعم من المعتزلة، فلما احتج عليه برغوث بأنه لو كان يتكلم ويقوم به الكلام لكان جسماً، وهذا منفي عنه. وأحمد وأمثاله من السلف كانوا يعلمون أن هذه الألفاظ التي ابتدعها المتكلمون كلفظ الجسم وغيره ينفيها قوم ليتوصلوا بنفيها إلى نفي ما أثبته الله تعالى ورسوله، ويثبتها قوم ليتوصلوا بإثباتها إلى إثبات ما نفاه الله ورسوله.

فالأولى: طريقة الجهمية: من المعتزلة وغيرهم: ينفون الجسم حتى يتوهم المسلمون، أن قصدهم التنزيه، ومقصودهم بذلك أن الله لا يرى في الآخرة، وأنه لم يتكلم بالقرآن ولا غيره بل خلق كلاماً في غيره، وأنه ليس له علم يقوم به، ولا قدرة

(١) محمّد عيسى الملقب برغوث، كان على مذهب النجار في أكثر مذاهبه وخالفه في تسمية المكتسب فاعلاً وخالفه أيضاً في المتولدات فزعم أنها فعل الله تعالى بإيجاب الطبع.
(٢) حفص الفرد كان من المجبرة وكان أولاً معتزلياً ثم قال بخلق الأفعال وله كتب.

ولا حياة، ولا غير ذلك من الصفات قال الإمام أحمد في خطبته في «الرد على الجهمية والزنادقة»[(١)]:

«الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويبصرون بنوره أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس، وأقبح أثر الناس عليهم! ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين[(٢)]، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، الذين عقدوا ألوية البدعة، وأطلقوا عنان الفتنة، فهم مختلفون في الكتاب[(٣)] مخالفون للكتاب مجتمعون على مخالفة الكتاب، يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم، فنعوذ بالله من فتن المضلين»[(٤)].

والثانية: طريقة هشام وأتباعه، يحكى عنهم: أنهم أثبتوا ما قد نزه الله نفسه عنه من اتصافه بالنقائص، ومماثلته للمخلوقات، فأجابهم الإمام أحمد بطريقة الأنبياء وأتباعهم وهو الاعتصام بحبل الله الذي قال الله فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران]، وقال: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ٢١٣﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿الٓمٓصٓ ١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا

(١) راجع الرد على الزنادقة والجهمية (ص٦).

(٢) في النسختين (تحريف الضالين).

(٣) في النسختين «فهم مختلفون في كتاب مجتمعون على مخالفة الكتاب».

(٤) في النسختين «من الفتن الضالين».

فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الحجرات]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام]، وقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم]، وقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ [الشورى: ١٣].

فهذه النصوص وغيرها تبين أن الله أرسل الرسل، وأنزل الكتب لبيان الحق من الباطل، وبيان ما اختلف فيه الناس، وأن الواجب على الناس اتباع ما أنزل إليهم من ربهم، ورد ما تنازعوا فيه إلى الكتاب والسنة وإن من لم يتبع ذلك كان منافقاً، وإن من

اتبع الهدى الذي جاءت به الرسل فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذلك حشر أعمى ضالاً شقياً معذباً، وإن الذين فرقوا[١] دينهم قد برئ الله ورسوله منهم.

فاتبع الإمام أحمد طريقة سلفه من أئمة السنة والجماعة المعتصمين بالكتاب والسنة، المتبعين ما أنزل إليهم من ربهم، وذلك أن ننظر فما وجدنا الرب قد أثبته لنفسه في كتابه أثبتناه. وما وجدناه قد نفاه عن نفسه نفيناه، وكل لفظ وجد في الكتاب والسنة بالإثبات أثبت ذلك اللفظ، وكل لفظ وجد منفياً نفي ذلك اللفظ، وأما الألفاظ التي لا توجد في الكتاب والسنة، بل ولا في كلام الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وسائر أئمة المسلمين لا إثباتها ولا نفيها، وقد تنازع فيها الناس، فهذه الألفاظ لا تثبت ولا تنفى إلا بعد الاستفسار عن معانيها، فإن وجدت معانيها مما أثبته الرب لنفسه أثبتت، وإن وجدت مما نفاه الرب عن نفسه نفيت، وإن وجدنا اللفظ أثبت به حق وباطل، أو نفى به حق وباطل، أو كان مجملاً يراد به حق وباطل، وصاحبه أراد به بعضها، لكنه عند الإطلاق يوهم الناس أو يفهمهم ما أراد وغير ما أراد، فهذه الألفاظ لا يطلق إثباتها[٢] ولا نفيها، كلفظ الجوهر والجسم والتحيز والجهة ونحو ذلك من الألفاظ التي تدخل في هذا المعنى، فقل من تكلم بها نفياً أو إثباتاً إلا وأدخل فيها باطلاً، وإن أراد بها حقاً.

والسلف والأئمة كرهوا هذا الكلام المحدث، لاشتماله على باطل وكذب، وقولٍ على الله بلا علم، وكذلك ذكر أحمد في رده على الجهمية أنهم يفترون على الله فيما ينفونه عنه، ويقولون عليه بغير علم، وكل ذلك مما حرمه الله ورسوله، ولم يكره السلف هذه لمجرد كونها اصطلاحية، ولا كرهوا الاستدلال بدليل صحيح جاء به الرسول، بل كرهوا الأقوال الباطلة المخالفة للكتاب والسنة، ولا يخالف الكتاب والسنة إلا ما هو باطل، لا يصح بعقل ولا سمع.

ولهذا لما سئل أبو العباس ابن سريج[٣] عن التوحيد فذكر توحيد المسلمين وقال: وأما توحيد أهل الباطل فهو الخوض في الجواهر والأعراض، وإنما بعث (الله) النبي ﷺ

---

(١) في النسختين «الذين فارقوا دينهم». (٢) في الحسينية «لا يطلق إلى إثباتها».

(٣) أبو العباس أحمد بن عمر بن سريج البغدادي القاضي الشافعي، كان يلقب بالباز الأشهب، منه انتشر المذهب الشافعي، وكان فهرست كتبه يشتمل على أربعمائة مصنف. توفي سنة (٣٠٦هـ).

بإنكار ذلك، ولم يرد بذلك أنه أنكر هذين اللفظين، فإنهما لم يكونا قد أحدثا في زمنه، وإنما أراد إنكار ما يعنى بهما من المعاني الباطلة، فإن أول ما أحدثهما الجهمية والمعتزلة، وقصدهم بذلك إنكار صفات الله تعالى أو أن يرى، أو أن يكون له كلام يتصف به، وأنكرت الجهمية أسماءه أيضاً.

وأول من عرف عنه إنكار ذلك الجعد بن درهم[١]، فضحَّى به خالد بن عبد الله القسري بواسط، وقال: يا أيها الناس: ضحوا تقبل الله ضحاياكم، فإني مضح بالجعد بن درهم، أنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً ثم نزل فذبحه.

وكلام السلف والأئمة في ذم هذا الكلام وأهله مبسوط في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا: أن أئمة السنة كأحمد بن حنبل وغيره كانوا إذا ذكرت لهم أهل البدع والألفاظ المجملة: كلفظ الجسم والجوهر والحيز ونحوها لم يوافقهم لا على إطلاق الإثبات، ولا على إطلاق النفي، وأهل البدع بالعكس ابتدعوا ألفاظاً ومعاني، أما في النفي، وإما في الإثبات، وجعلوها هي الأصل المعقول المحكم، الذي يجب اعتقاده، والبناء عليه، ثم نظروا في الكتاب والسنة فما أمكنهم أن يتأولوه على قولهم تأولوه، وإلا قالوا هذا من الألفاظ المتشابهة المشكلة التي لا ندري ما أريد بها. فجعلوا بدعهم أصلاً محكماً، وما جاء به الرسول فرعا له ومشكلاً: إذا لم يوافقه وهذا أصل الجهمية والقدرية وأمثالهم، وأصل الملاحدة من الفلاسفة الباطنية، جميع كتبهم توجد على هذا الطريق، ومعرفة الفرق بين هذا وهذا من أعظم ما يعلم به الفرق بين الصراط المستقيم الذي بعث الله به رسوله، وبين السبل المخالفة له، وكذلك الحكم في المسائل العلمية الفقهية، ومسائل أعمال القلوب وحقائقها وغير ذلك، كل هذه الأمور قد دخل فيها ألفاظ ومعان محدثة، وألفاظ ومعانٍ مشتركة.

فالواجب أن يُجعل ما أنزله الله من الكتاب والحكمة أصلاً في جميع هذه الأمور، ثم يرد ما تكلم فيه الناس إلى ذلك، ويبين ما في الألفاظ المجملة من المعاني الموافقة للكتاب والسنة فتقبل، وما فيها من المعاني المخالفة للكتاب والسنة فترد.

---

(١) من أول القائلين بخلق القرآن، وضحى به خالد القسري في سنة ١١٨هـ.

ولهذا كل طائفة أنكر عليها ما ابتدعت احتجت بما ابتدعته الأخرى، كما يوجد في ألفاظ أهل الرأي والكلام والتصوف، وإنما يجوز أن يقال في بعض الآيات أنه مشكل ومتشابه إذا ظن أنه يخالف غيره من الآيات المحكمة البينة، فإذا جاءت نصوص بينة محكمة بأمر، وجاء نص آخر إن ظاهره يخالف ذلك، يقال في هذا أنه يرد المتشابه إلى المحكم، أما إذا نطق الكتاب أو السنة بمعنى واحد لم يجز أن يجعل ما يضاد ذلك المعنى هو الأصل، ويجعل ما في القرآن والسنة مشكلاً متشابهاً فلا يقبل ما دل عليه.

نعم قد يشكل على كثير من الناس نصوص لا يفهمونها، فتكون مشكلة بالنسبة إليهم لعجز فهمهم عن معانيها، ولا يجوز أن يكون في القرآن ما يخالف صريح العقل والحس إلا وفي القرآن بيان معناه، فإن القرآن جعله الله شفاءاً لما في الصدور، وبياناً للناس، فلا يجوز أن يكون بخلاف ذلك، لكن قد تخفى آثار الرسالة في بعض الأمكنة والأزمنة، حتى لا يعرفون ما جاء به الرسول ﷺ: إما أن لا يعرفوا اللفظ، وإما أن يعرفوا اللفظ ولا يعرفوا معناه، فحينئذ يصيرون في جاهلية بسبب عدم نور النبوة، ومن ههنا يقع الشرك، وتفريق الدين شيعاً، كالفتن التي تحدث بالسيف، فالفتن القولية والعلمية هي من الجاهلية بسبب خفاء نور النبوة عنهم، كما قال مالك بن أنس: إذا قلَّ العلم ظهر الجفاء، وإذا قلت الآثار ظهرت الأهواء.

ولهذا شبهت الفتن بقطع الليل المظلم، ولهذا قال أحمد في خطبته: (الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة بقايا من أهل العلم)، فالهدى الحاصل لأهل الأرض إنما هو من نور النبوة كما قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

فأهل الهدى والفلاح: هم المتبعون للأنبياء وهم المسلمون المؤمنون في كل زمان ومكان، وأهل العذاب والضلال: هم المكذبون للأنبياء ويبقى[1] أهل الجاهلية الذين لم يصل إليهم ما جاءت به الأنبياء فهؤلاء في ضلال وجهل وشرك وشر، لكن الله يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]. وقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ

(١) في النسختين «بنفي أهل الجاهلية».

﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [القصص]، فهؤلاء لا يهلكهم الله ويعذبهم حتى يرسل إليهم رسولاً، وقد رويت آثاراً متعددةً(١) في أن من لم تبلغه الرسالة في الدنيا يبعث إليه رسول يوم القيامة في عرصات القيامة.

وقد زعم بعضهم أن هذا يخالف دين المسلمين، فإن الآخرة لا تكليف فيها، وليس كما قال. إنما ينقطع التكليف إذا دخلوا دار الجزاء: الجنة أو النار، وإلا فهم في قبورهم ممتحنون ومفتونون، يقال لأحدهم: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ وكذلك في عرصات القيامة يقال: ليتبع كل قوم ما كانوا يعبدون، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ومن كان يعبد القمر القمر، ومن كان يعبد الطواغيت الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله في صورة غير الصورة التي رأوه فيها أول مرة، ويقول أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا وفي رواية فيسألهم ويثبتهم. وذلك امتحان لهم، هل يتبعون غير الرب الذي عرفوا أنه الله الذي تجلى لهم أول مرة فيثبتهم الله تعالى عند هذه المحنة، كما يثبتهم في فتنة القبر، فإذا لم يتبعوه لكونه أتى في غير الصورة التي يعرفون، فيكشف عن ساق، فإذا رأوه خروا له سجداً، إلا من كان منافقاً فإنه يريد السجود فلا يستطيعه، يبقى ظهره مثل الطبق وهذا المعنى مستفيض عن النبي ﷺ في عدة أحاديث ثابتة من حديث أبي

---

(١) أخرج أحمد عن الأسود بن سريع أن النبي ﷺ قال: «أربعة يحتجون يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع شيئاً، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في الفترة فأما الأصم فيقول: رب لقد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً، وأما الأحمق فيقول: رب لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفونني بالبعر، وأما الهرم فيقول: رب لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً، وأما الذي مات في الفترة فيقول: رب ما أتاني لك رسول، فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه، فيرسل إليهم رسولاً أن أدخلوا النار، قال: فوالذي نفس محمّد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً، ثم ذكر سند آخر إلى أبي هريرة وذكر أنه روى عنه مثل هذا غير أنه قال: فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً، ومن لم يدخلها سحب إليها» راجع «المسند» (٤/ ٢٤)، وقال الهيثمي ورواه الطبراني، ورجال أحمد في طريق الأسود بن سريع وأبي هريرة رجال الصحيح، وكذا رجال الطبراني فيهما، «مجمع الزوائد» (٧/ ٢١٦) وأخرجه البيهقي في الاعتقاد (٩٢) بالطريقين: وهو عند ابن حبان من حديث الأسود (١٨٢٧ ـ موارد)، ونسبه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٢٥٢) إلى إسحاق بن راهويه، وأبي نعيم في المعرفة، وابن مردويه، وأخرجه ابن جرير في «تفسيره» عن أبي هريرة موقوفاً عليه (١٥/ ٥٤)، وقد ثبت الحديث مرفوعاً والله أعلم.

هريرة[١] وأبي سعيد[٢] وقد أخرجاهما في الصحيحين.

ومن حديث جابر[٣] قد رواه مسلم، ومن حديث ابن مسعود[٤] وأبي موسى[٥].

وهو معروف من رواية أحمد وغيره، فدل ذلك على أن المحنة إنما تنقطع إذا دخلوا دار الجزاء، وأما قبل دار الجزاء امتحان وابتلاء[٦]. فإذا انقطع عن الناس نور النبوة وقعوا في ظلمة الفتن[٧]، وحدثت البدع والفجور[٨]، كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنتين، ومنعني الثالثة سألته أن لا يهلك أمتي بسنة عامة فأعطانيها، وسألته أن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فيجتاحهم فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها»[٩].

والبأس مشتق من البؤس قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥].

وفي الصحيحين[١٠] عن النبي ﷺ: «أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قال: أعوذ بوجهك ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: أعوذ بوجهك ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال هاتان أهون».

---

(١) البخاري (١/ ١٩٤)، ومسلم (١/ ١٦٣ ـ ١٦٧).

(٢) البخاري (٨/ ١٨١)، ومسلم (١/ ١٦٧). (٣) مسلم (١/ ١٦٧).

(٤) أخرجه الحاكم مطولاً في كتاب الأهوال (٤/ ٥٩١ ـ ٥٩٢) وصححه وقال الذهبي: ما أنكره حديثاً على جودة إسناده! وأبو خالد شيعي منحرف، ورواه الطبري من طرق ورجال أحدها رجال الصحيح غير أبي خالد الدالاني وهو ثقة، قاله الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٤٠/ ٣٤٣)، (قلت) أبو خالد الدالاني اسمه يزيد بن عبد الرحمن، قال الذهبي: محدث مشهور، قال أبو حاتم: صدوق وقال أحمد: لا بأس به، وقال ابن حبان، فاحش الوهم، لا يجوز الاحتجاج به، راجع «الميزان» (٤/ ٤٣٢)، ونسبه السيوطي في «الدر المنثور» (٨/ ٢٥٧) إلى إسحاق بن راهويه، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، والآجري في الشريعة والدارقطني في الرؤية، وابن مردويه، والبيهقي في البعث.

(٥) أخرجه الطبراني في «الكبير والأوسط» وقال الهيثمي: فيه فرات بن السائب وهو ضعيف «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٤٣) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» برواية ابن عساكر (٨/ ٣٥٣).

(٦) في النسختين «ما قبل دار الجزاء دار امتحان وبلاء».

(٧) في النسختين «في ظلمة البدع».

(٨) في النسختين «ووقع الشر بينهم» بعد قوله «الفجور».

(٩) مسلم (٢٢١٥). (١٠) البخاري (٥/ ١٩٣).

فدل على أنه لا بد أن يلبسهم شيعاً، ويذيق بعضم بأس بعض، مع براءة الرسول في هذه الحال، وهم فيها في جاهلية.

ولهذا قال الزهري: وقعت الفتنة وأصحاب رسول الله ﷺ متوافرون، فأجمعوا على أن كل دم أو مال أو فرج أصيب بتأويل القرآن فهو هدر، انزلوهم منزلة الجاهلية.

وقد روى مالك بإسناده الثابت عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول: ترك الناس العمل بهذه الآية تعني قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩].

فإن المسلمين لما اقتتلوا كان الواجب الإصلاح بينهم كما أمر الله تعالى، فلما لم يعمل بذلك صارت فتنة وجاهلية.

وهكذا مسائل النزاع التي تنازع فيها الأمة في الأصول والفروع إذا لم ترد إلى الله والرسول لم يتبين فيها الحق، بل يصير فيها المتنازعون على غير بينة من أمرهم، فإن رحمهم الله أقر بعضهم بعضاً، ولم يبغ بعضهم على بعض، كما كان الصحابة في خلافة عمر وعثمان يتنازعون في بعض مسائل الاجتهاد فيقر بعضهم بعض، ولا يعتدي عليه، وإن لم يرحموا وقع بينهم الاختلاف المذموم، فبغى بعضهم على بعض، إما بالقول مثل تكفيره وتفسيقه، وإما بالفعل مثل حبسه وضربه وقتله، وهذه حال أهل البدع والظلم كالخوارج وأمثالهم، يظلمون الأمة ويعتدون عليهم إذا نازعوهم في بعض مسائل الدين، وكذلك سائر أهل الأهواء، فإنهم يبتدعون بدعة، ويكفرون من خالفهم فيها، كما تفعل الرافضة والمعتزلة والجهمية وغيرهم، والذين امتحنوا الناس بخلق القرآن كانوا من هؤلاء، ابتدعوا بدعة وكفروا من خالفهم فيها، واستحلوا منه حقه وعقوبته.

فالناس إذا خفي عليهم بعض ما بعث الله به الرسول ﷺ إما عادلون، وإما ظالمون فالعادل فيهم الذي يعمل بما وصل إليه من آثار الأنبياء ولا يظلم غيره، والظالم الذي يعتدي على غيره، وهؤلاء ظالمون(١) مع علمهم بأنهم يظلمون، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩](٢).

(١) في النسختين «وهؤلاء يظلمون مع علمهم بأنهم يظلمون».
(٢) وجاء في الأصل والنسختين المطبوعتين (وما تفرق) خطأ.

وإلا فلو سلكوا ما علموه من العدل أقر بعضهم بعضاً، كالمقلدين لأئمة الفقه الذين يعرفون من أنفسهم أنهم عاجزون عن معرفة حكم الله ورسوله في تلك المسائل، فجعلوا أئمتهم نواباً عن الرسول، وقالوا: هذه غاية ما قدرنا عليه، فالعادل منهم لا يظلم الآخر، ولا يعتدي عليه بقول ولا فعل، مثل أن يدعي أن قول متبوعه هو الصحيح بلا حجة يبديها، ويذم من يخالفه من أنه معذور.

وكان الذين امتحنوا أحمد وغيره من هؤلاء الجاهلين، فابتدعوا كلاماً متشابهاً نفوا به الحق، فأجابهم أحمد لما ناظروه في المحنة، وذكروا الجسم ونحو ذلك، وأجابهم بأني أقول كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾.

وأما لفظ الجسم فلفظ مبتدع محدث، ليس على أحد، أن يتكلم به البتة، والمعنى الذي يراد به مجمل، ولم تبينوا مرادكم حتى نوافقكم على المعنى الصحيح. فقال ما أدري ما تقولون؟ لكن أقول: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.

يقول: ما أدري ما تعنون بلفظ الجسم، فأنا لا أوافقكم على إثبات لفظ ونفيه، إذا لم يرد الكتاب والسنة بإثباته ولا نفيه، أن لن ندر[١] معناه الذي عناه المتكلم، فإن عنى في النفي والإثبات ما يوافق الكتاب والسنة وافقناه، وإن عنى ما يخالف الكتاب والسنة في النفي والإثبات ما وافق الكتاب والسنة وافقناه، وإن عنى ما يخالف الكتاب والسنة في النفي والإثبات لم نوافقه.

ولفظ «الجسم» و«الجوهر» ونحوهما لم يأت في كتاب الله ولا سنة رسوله، ولا كلام أحد ـ من الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين وسائر أئمة المسلمين ـ التكلم بها في حق الله تعالى، لا بنفي ولا إثبات، ولهذا قال أحمد في رسالته[٢] إلى المتوكل: (لا أحب الكلام في شيء من ذلك إلا ما كان في كتاب الله، أو في حديث عن رسول الله ﷺ أو عن الصحابة أو التابعين لهم بإحسان، وأما غير ذلك فإن الكلام فيه غير محمود) وذكر أيضاً فيما حكاه عن الجهمية أنهم يقولون: ليس فيه كذا ولا كذا

(١) في النسختين «أن لم يدر معناه الذي عناه».

(٢) ذكره أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢١٧) وذكر خبر المحنة بطوله (٩/ ٢٠٤ ـ ٢٢٠).

ولا كذا، وهو كما قال، فإن لفظ[١] الجسم له في اللغة التي نزل بها القرآن معنى، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

قال ابن عباس[٢]: كان طالوت أعلم بني إسرائيل بالحرب، وكان يفوق الناس بمنكبيه وعنقه ورأسه، و﴿بَسْطَةً﴾ السعة.

قال ابن قتيبة[٣]: هو من قولك «بسطت الشيء» إذا كان مجموعاً ففتحته ووسعته، قال بعضهم: والمراد بتعظيم الجسم فضل القوة، إذ العادة أن من كان أعظم جسماً كان أكثر قوة، فهذا لفظ الجسم في لغة العرب التي نزل بها القرآن.

قال الجوهري: قال أبو زيد الأنصاري، الجسم[٤]: الجسد، وكذلك الجسمان[٥] والجسمان، وقال الأصمعي: الجسم، والجسمان، والجسد والجثمان: الشخص، وقال جماعة: جسم الإنسان يقال له «الجسمان»[٦] وقد جسم الشيء أي عظم، فهو جسيم وجسام، والجسام بالكسر جمع جسيم.

قال أبو عبيدة: «تجسمت فلاناً من بين القوم»: أي اخترته، كأنك قصدت جسمه، كما تقول تأتيته أي قصدت أتيه وشخصه، وأنشد أبو عبيدة:

تجسمته من بينهن بمرهف

و«تجسمت الأرض»: إذا أخذت نحوها تريدها، وتجسم من الجسم.

وقال ابن السكيت: تجسمت الأمر: أي ركبتُ أجسمه وجسيمه، أي معظمه، وقال: وكذلك تجسمت الرمل والجبل أي ركبت أعظمه، والأجسم، الأضخم قال عامر بن الطفيل[٧]:

---

(١) في النسختين «فإن للفظ الجسم في اللغة التي...».
(٢) نقله ابن الجوزي في «تفسيره» (١/ ٢٩٤).
(٣) راجع «تفسير غريب القرآن» (٣١٤). (٤) راجع اللسان «جسم».
(٥) سقط كلمة «الجسمان» في «الفتاوى».
(٦) في «الفتاوى» «الجثمان» (بالمثلثة) وهو خطأ.
(٧) عامر بن الطفيل العامري، من شعراء الجاهلية، أدرك الإسلام ولكنه لم يسلم والبيت في اللسان «جسم». والشعر في ديوانه (٢١)، يراجع لسان العرب، مادة (جسم).

لقد علم الحي من عامر ... بأن لنا الذروة الأجسما

فهذا الجسم في لغة العرب، وعلى هذا فلا يقال للهواء جسم، ولا للنفس الخارج من الإنسان جسم، ولا لروحه المنفوخة فيه جسم، ومعلوم أن الله سبحانه لا يماثل شيئاً من ذلك، لا بدن الإنسان ولا غيره فلا يوصف الله تعالى بشيء من خصائص المخلوقين، ولا يطلق عليه من الأسماء ما يختص بصفات المخلوقين، فلا يجوز أن يقال: هو جسم، ولا جسد.

(وأما أهل الكلام) فالجسم عندهم أعم من هذا، وهم مختلفون في معناه اختلافاً كثيراً عقلياً واختلافاً لفظياً اصطلاحياً، فهم يقولون كل ما يشار إليه إشارة حسية فهو جسم، ثم اختلفوا بعد هذا فقال كثير منهم: كل ما كان كذلك فهو مركب من الجواهر الفردة، ثم منهم من قال: الجسم أقل ما يكون جوهراً، بشرط أن ينضم إلى غيره[1]، وقيل بل الجوهران، والجواهر فصاعداً، وقيل بل أربعة فصاعداً، وقيل بل ستة، وقيل بل ثمانية، وقيل بل ستة عشر، وقيل بل اثنان وثلاثون، وهذا قول من يقول إن الأجسام كلها مركبة من الجواهر التي لا تنقسم.

وقال آخرون من أهل الفلسفة كل الأجسام مركبة من الهيولي، والصورة لا من الجواهر الفردة.

وقال كثير من أهل الكلام وغير أهل الكلام:

ليست مركبة لا من هذا ولا من هذا[2]، وهذا قول الهشامية والكلابية والضرارية وغيرهم من الطوائف الكبار، لا يقولون بالجوهر الفرد ولا بالمادة والصورة، وآخرون يدعون إجماع المسلمين على إثبات الجوهر الفرد، كما قال أبو المعالي وغيره: اتفق المسلمون على أن الأجسام تتناهى في تجزئها وانقسامها حتى تصير أفراداً، ومع هذا فقد شك هو فيه، وكذلك شك فيه أبو الحسين البصري[3]، وأبو عبد الله الرازي.

ومعلوم أن هذا القول لم يقله أحد من أئمة المسلمين لا من الصحابة ولا من

---

(١) في النسختين «ينضم إليه غيره».

(٢) في الفتاوى «لا من هذا ولا من هذا، ولا من هذا ولا من هذا» أربع مرات.

(٣) محمّد بن علي بن الطيب، أبو الحسين البصري، شيخ المعتزلة وصاحب التصانيف الكلامية كان فصيحاً بليغاً، عذب العبارة، يتوقد ذكاء، وله اطلاع كبير توفي سنة ٤٣٦هـ.

التابعين لهم بإحسان، ولا أحد من أئمة العلم المشهورين بين المسلمين، وأول من قال ذلك في الإسلام طائفة من الجهمية والمعتزلة، وهذا من الكلام الذي ذمه السلف وعابوه، ولكن حاكي هذا الإجماع لما لم يعرف أصول الدين إلا ما في كتب الكلام، ولم يجد إلا من يقول بذلك اعتقد هذا إجماع المسلمين، والقول بالجوهر الفرد باطل. والقول بالهيولي والصورة باطل، وقد بسط الكلام على هذه المقالات في مواضع أخر.

وقال آخرون: الجسم هو القائم بنفسه، وكل قائم بنفسه جسم، وكل جسم فهو قائم بنفسه، وهو مشار إليه، واختلفوا في الأجسام هل هي متماثلة أم لا؟ على قولين مشهورين.

وإذا عرف ذلك فمن قال: أنه جسم، وأراد أنه مركب من الأجزاء فهذا قوله باطل، وكذلك إن أراد أنه يماثل غيره من المخلوقات فقد علم بالشرع والعقل أن الله ليس كمثله شيء في شيء من صفاته، فمن أثبت لله مثلاً في شيء من صفاته فهو مبطل، ومن قال أنه جسم بهذا المعنى فهو مبطل، ومن قال أنه ليس بجسم بمعنى أنه لا يرى في الآخرة، ولا يتكلم بالقرآن وغيره من الكلام، ولا يقوم به العلم والقدرة وغيرهما من الصفات، ولا ترفع الأيدي إليه في الدعاء، ولا عرج بالرسول ﷺ إليه، ولا يصعد إليه الكلم الطيب، ولا تعرج الملائكة والروح إليه فهذا قول باطل.

وكذلك كل من نفى ما أثبته الله ورسوله وقال إن هذا تجسيم، فنفيه باطل، وتسمية ذلك تجسيماً تلبيس منه (فإنه إن أراد إن هذا في اللغة يسمى جسماً فقد أبطل)[١] وإن أراد أن هذا يقتضي أن يكون جسماً مركباً من الجواهر الفردة أو من المادة والصورة، أو أن هذا يقتضي أن يكون جسماً، والأجسام متماثلة قيل له أكثر العقلاء يخالفونك في تماثل الأجسام المخلوقة. وفي أنها مركبة، فلا يقولون: إن الهواء مثل الماء ولا أبدان الحيوان مثل الحديد والجبال، فكيف يوافقونك على أن الرب تعالى يكون مماثلاً لخلقه، إذا أثبتوا له ما أثبت له الكتاب والسنة؟ والله تعالى قد نفى المماثلات في بعض الخلوقات، وكلاهما جسم كقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

(١) ما بين القوسين سقط من النسختين.

مع أن كلاهما بشر، فكيف يجوز أن يقال: إذا كان لرب السموات علم وقدرة أنه يكون مماثلاً لخلقه؟ والله تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

ونكتة الأمر أن الجسم في اعتقاد هذا النافي يستلزم مماثلة سائر الأجسام، ويستلزم أن يكون مركباً من الجواهر الفردة، أو من المادة والصورة، وأكثر العقلاء يخالفونه في هذا التلازم، وهذا التلازم منتف باتفاق الفريقين، وهو المطلوب.

فإذا اتفقوا على انتفاء النقص المنفي عن الله شرعاً وعقلاً، وبقي بحثهم في الجسم الاصطلاحي، هل هو مستلزم لهذا المحذور؟ وهو بحث عقلي، كبحث الناس في الأعراض[١] هل تبقى أو لا تبقى؟

وهذا البحث العقلي لم يرتبط به دين المسلمين، بل لم ينطق كتاب ولا سنة ولا أثر من السلف بلفظ الجسم في حق الله تعالى لا نفياً ولا إثباتاً، فليس لأحد أن يبتدع اسماً مجملاً يحتمل معاني مختلفة، لم ينطق به الشرع ويعلق به دين المسلمين، ولو كان قد نطق باللغة العربية، فكيف إذا أحدث للفظ معنى آخر؟.

والمعنى الذي يقصده إذا كان حقاً عبر عنه بالعبارة التي لا لبس فيها فإذا كان معتقده أن الأجسام متماثلة، وأن الله ليس كمثله شيء، وهو سبحانه لا سمي له، ولا كفو له، ولا ند له، فهذه عبارات القرآن تؤدي هذا المعنى بلا تلبيس ولا نزاع، وإن كان معتقده أن الأجسام غير متماثلة، وإن كل ما يرى وتقوم به الصفات فهو جسم، فإن عليه أن يثبت ما أثبته الله ورسوله من علمه وقدرته وسائر صفاته. كقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات].

وقوله ﷺ في الاستخارة[٢]: «اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك»[٣].

وقوله في الحديث الآخر: «اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق».

(١) في النسختين «في الأرض هل تبقى أو لا تبقى؟».
(٢) البخاري (٢/ ٥١).
(٣) في النسختين «اللهم أني أستخيرك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق» وهو خلط بين حديثين.

ويقول كما قال[١] رسول الله ﷺ: «إنكم ترون ربكم يوم القيامة عياناً كما ترون الشمس والقمر لا تضامون في رؤيته»[٢]، فشبه الرؤية بالرؤية وإن لم يكن المرئي كالمرئي.

فهذه عبارات الكتاب والسنة، عن هذا المعنى الصحيح بلا تلبيس ولا نزاع بين أهل السنة المتبعين للكتاب والسنة وأقوال الصحابة، ثم بعد هذا من كان قد تبين له معنى من جهة العقل أنه لازم للحق لم يدفعه عن عقله، فلازم الحق حق، لكن ذلك المعنى لا بد أن يدل الشرع عليه فيبينه بالألفاظ الشرعية، وإن قدر أن الشرع لم يدل عليه لم يكن مما يجب على الناس اعتقاده، وحينئذ فليس لأحد أن يدعو الناس إليه، وإن قدر أنه في نفسه حق.

(ومسألة) تماثل الأجسام وتركيبها من الجواهر الفردة قد اضطرب فيها جماهير أهل الكلام، وكثير منهم يقول بهذا تارة وبهذا تارة، وأكثر ذلك لأجل الألفاظ المجملة والمعاني المشابهة، وقد بسط الكلام عليه في غير هذا الموضع.

لكن المقصود هنا: أنه لو قدر أن الإنسان تبين له أن الأجسام ليست متماثلة، ولا مركبة لا من هذا ولا من هذا لم يكن له أن يبتدع في دين الإسلام قوله: إن الله جسم، ويناظر على المعنى الصحيح الذي دل عليه الكتاب والسنة، بل يكفيه إثبات ذلك المعنى بالعبارات الشرعية، ولو قدر أنه تبين له أن الأجسام متماثلة، وأن الجسم مركب، لم يكن له أن يبتدع القول بهذا الاسم، ويناظر على معناه الذي اعتقده بعقله، بل ذلك المعنى المعلوم بالشرع والعقل يمكن إظهاره بعبارة لا إجمال فهيا ولا تلبيس والذين يقولون: إن الجسم مركب من الجواهر، يدعي كثير منهم أنه كذلك في لغة العرب، لأن العرب يقولون هذا أجسم من هذا، يريدون به أنه أكثر أجزاء منه ويقولون: هذا جسيم، أي كثير الأجزاء.

قال: والتفضيل بصيغة أفعل إنما يكون لما يدل عليه الاسم، فإذا قيل: هذا أعلم أحلم، كان ذلك دالاً على الفضيلة فيما دل عليه لفظ العلم والحلم، فلما قالوا:

---

(١) البخاري (١/ ١٣٩ ـ ١٤٣) ومسلم (١/ ٤٣٩).

(٢) رواه النسائي (٣/ ٥٤) وأحمد (٤/ ٢٦٤) عن عمار بن ياسر والحديث صحيح.

أجسم، لما كان أكثر أجزاء دل على أن لفظ الجسم عندهم المراد به المركب، فمن قال جسم وليس بمركب فقد خرج عن لغة العرب.

قالوا: وهذه تخليطة[(١)] في اللفظ، وإن كنّا لا نكفره، إذا لم يثبت خصائص الجسم من التركيب والتأليف، وقد نازعهم بعضهم في قولهم هذا أجسم من هذا، وقالوا: ليس هذا اللفظ من لغة العرب، ما يحكى عن أبي زيد فيقال له: لا ريب أن العرب تقول هذا جسيم أي عظيم الجثة، وهذا أجسم من هذا أي أعظم جثة، لكن كون العرب تعتقد إن ذلك لكثرة الأجزاء التي هي الجواهر الفردة، إنما يكون إذا كان أهل اللغة قاطبة يعتقدون أن الجسم مركب من الجواهر الفردة، والجوهر الفرد هو شيء قد بلغ من الصغر والحقارة إلى أنه لا يتميز يمينه من يساره ومعلوم أن أكثر العقلاء من بني آدم لا يتصور الجوهر الفرد، والذين يتصورونه أكثرهم لا يثبتونه، والذين أثبتوه إنما يثبتونه بطرق خفية طويلة بعيدة، يمتنع أن يكون اللفظ الشائع في اللغة التي ينطق بها خواصها وعوامها أرادا به هذا.

وقد علم بالاضطرار أن أحداً من الصحابة والتابعين لهم بإحسان لم ينطق بإثبات الجوهر الفرد، ولا بما يدل على ثبوته عنده، بل ولا العرب قبلهم، ولا سائر الأمم الباقين على الفطرة، ولا أتباع الرسل، فكيف يدعى عليهم أنهم لم يقولوا لفظ جسم إلا لما كان مركباً مولفاً؟ ولو قلت لمن شئت من العرب الشمس والقمر والسماء مركب عندك من أجزاء صغار كل منها لا يقبل التجزي، أو الجبال أو الهواء أو الحيوان أو النبات لم يتصور هذا المعنى إلا بعد كلفة، ثم إذا تصوره قد يكذبه بفطرته، ويقول: كيف يمكن أن يكون شيء لا يتميز منه جانب عن جانب؟ وأكثر العقلاء من طوائف المسلمين وغيرهم ينكرون الجوهر الفرد، الفقهاء قاطبة تنكره، وكذلك أهل الحديث والتصوف.

ولهذا كان الفقهاء متفقين على استحالة بعض الأجسام إلى بعض، كاستحالة العذرة رماداً، والخنزير ملحاً، ثم تكلموا في هذه الاستحالة هل تطهر أم لا تطهر؟ والقائلون بالجوهر الفرد لا تستحيل الذوات عندهم بل تلك الجواهر التي كانت في

---

(١) في النسختين «تخطئة في اللفظ».

الأول هي بعينها في الثاني، وإنما اختلف التركيب، ولهذا يتكلم بلفظ التركيب في الماء ونحوه من الفقهاء المتأخرين من كان قد أخذ هذا التركيب عن المتكلمين، ويقول: إن الماء يفارق غيره في التركيب فقط، وكذلك القائلون بالجوهر الفرد عندهم إنا لم نشاهد قط إحداث الله تعالى لشيء من الجواهر والأعيان القائمة بنفسها، وإن جميع ما يخلقه من الحيوان والنبات والمعدن والثمار والمطر والسحاب وغير ذلك إنما هو جمع الجواهر وتفريقها، وتغيير صفاتها من حال إلى حال، لا أنه يبدع شيئاً من الجواهر والأجسام القائمة بأنفسها، وهذا القول أكثر العقلاء ينكره، ويقول: هو مخالف للحس والعقل والشرع، فضلاً عن أن يكون الجسم في لغة العرب مستلزماً لهذا المعنى.

ثم الجسم قد يراد به الغلظ نفسه، وهو عرض قائم بغيره، وقد يراد به الشيء الغليظ، وهو القائم بنفسه، فنقول: هذا الثوب له جسم، أي غلظ، وقوله: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

وقد يحتج به على هذا، فإنه قرن الجسم بالعلم الذي هو مصدر، فنقول المعنى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً﴾ في قدره، فجعل بدنه أكبر من بدن غيره، فيكون الجسم هو القدر نفسه لا نفس المقدر، وكذلك قوله تعالى: ﴿تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

أي صورهم القائمة بأبدانهم، كما تقول: أعجبني حسنه وجماله ولونه وبهاؤه فقد يراد صفة الأبدان، وقد يراد نفس الأبدان، وهم إذا قالوا: «هذا أجسم من هذا» أرادوا أنه أغلظ وأعظم منه، أما كونهم يريدون بذلك أن ذلك العظم والغلظ كان لزيادة الأجزاء فهذا مما يعلم قطعاً أنه لم يخطر ببال أهل اللغة، إلا من أخذ ذلك عمن اعتقده من أهل الكلام المحدث الذي أحدث في الإسلام بعد انقراض عصر الصحابة، وأكثر التابعين فإن هذا لم يعرف في الإسلام من تكلم به أو بمعناه إلا في أواخر الدولة الأموية، لما حضر جهم بن صفوان، والجعد بن درهم، ثم ظهر في المعتزلة.

فقد تبين أن من قال: الجسم هو المؤلف المركب، واعتقد أن الأجسام مركبة من الجواهر الفردة فقد ادعى معنى عقلياً ينازعه فيه أكثر العقلاء من بني آدم، ولم ينقل عن أحد من السلف أنه وافقه عليه، وأنه جعل لفظ الحسم في اصطلاحه يدل على معنى لا يدل عليه اللفظ في اللغة، فقد غير معنى اللفظ في اللغة، وادعى معنى عقلياً فيه نزاع طويل، وليس معه من الشرع ما يوافق ما ادعاه من معنى اللفظ، ولا ما ادعاه من

المعنى العقلي، فاللغة لا تدل على ما قال، والشرع لا يدل على ما قال، والعقل لم يدل على مسميات الألفاظ، وإنما يدل على المعنى المجرد، وذلك فيه نزاع طويل، ونحن نعلم بالاضطرار أن ذلك المعنى الذي وجب نفيه لا يحتاج نفيه إلى ما أحدثه هذا من دلالة اللفظ، ولا ما ادعاه من المعنى العقلي، بل الذين جعلوا هذا عمدتهم في تنزيه الرب على نفي مسمى الجسم، لا يمكنهم أن ينزهوه عن شيء من النقائص ألبتة، فإنهم إذا قالوا: هذا من صفات الأجسام، فكل ما أثبتوه هو أيضاً من صفات الأجسام، مثل كونه حياً عليماً قديراً، بل كونه موجوداً قائماً بنفسه فإنهم لا يعرفون هذا في الشاهد إلا جسماً، فإذا قال المنازع: أنا أقول فيما نفيتموه نظير قولكم فيما أثبتموه انقطعوا.

ثم هؤلاء لهم في استحقاق الرب لصفات الكمال عندهم، هل علم بالإجماع فقط، أو علم بالعقل أيضاً، فيه قولان: فمن قال إن ذلك لم يعلم بالعقل كأبي المعالي والرازي وغيرهما لم يبق معهم دليل عقلي ينزهون به الرب عن كثير من النقائص، هذا إذا لم ينف إلا ما يجب نفيه عن الله، مثل نفيه للنقائص، فإنه يجب تنزيه الرب عنها، وينفي عنه مماثلة المخلوقات فإنه كما يجب تنزيه الرب عن كل نقص وعيب يجب تنزيهه عن أن يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفات الكمال الثابتة له، وهذا النوعان يجمعان التنزيه الواجب لله، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ دلت على النوعين.

فقوله: ﴿أَحَدٌ﴾ مع قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ ينفي المماثلة والمشاركة، وقوله: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ يتضمن جميع صفات الكمال، فالنقائص جنسها منفيٌّ عن الله تعالى، وكل ما اختص به المخلوق فهو من النقائص التي يجب تنزيه الرب عنها، بخلاف ما يوصف به الرب، ويوصف العبد بما يليق به: مثل العلم والقدرة والرحمة، ونحو ذلك، فإن هذه ليست نقائص، بل ثبت لله من هذه المعاني فإنه يثبت لله على وجه لا يقاربه فيه أحد من المخلوقات، فضلاً عن أن يماثله فيه، بل ما خلقه الله في الجنة من المآكل والمشارب والملابس، لا يماثل ما خلقه في الدنيا وإن اتفقا في الاسم، وكلاهما مخلوق.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء)[1]، فقد أخبر الله

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري ي «تفسره» (١/ ١٧٤).

أن في الجنة لبناً وخمراً وعسلاً وماءً وحريراً وذهباً وفضة، وتلك الحقائق ليست مثل هذه، وكلاهما مخلوق، فالخالق أبعد عن مماثلة المخلوقات من المخلوق إلى المخلوق.

وقد سمى الله نفسه عليماً حليماً رؤوفاً، رحيماً، سميعاً، بصيراً، عزيزاً، ملكاً، جباراً، متكبراً، مؤمناً، عظيماً، كريماً، غنياً، شكوراً، كبيراً، حفيظاً، شهيداً، حقاً، وكيلاً، ولياً.

وسمى أيضاً بعض مخلوقاته بهذه الأسماء فسمى الإنسان سميعاً بصيراً، وسمى نبيه رؤوفاً رحيماً، وسمّى بعض عباده ملكاً، وبعضهم شكوراً، وبعضهم عظيماً، وبعضهم حليماً وعليماً، وسار ما ذكر من الأسماء مع العلم بأنه ليس المسمى بهذه الأسماء من المخلوقين مماثلاً للخالق جل جلاله في شيء من الأشياء.

فصل

وهذه الألفاظ المحدثة المجملة النافية مثل لفظ «المركب» و«المؤلف» و«المنقسم» ونحو ذلك، قد صار كل من أراد نفي شيء مما أثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات عبر بها عن مقصوده، فيتوهم من لا يعرف مراده أن المراد تنزيه الرب الذي ورد به القرآن، وهو إثبات أحديته وصمديته، ويكون قد أدخل في تلك الألفاظ ما رآه هو منفياً وعبر عنه بتلك العبارة وضعاً له واصطلاحاً اصطلح عليه هو ومن وافقه على ذلك المذهب، وليس ذلك من لغة العرب التي نزل بها القرآن، ولا من لغة أحد من الأمم، ثم يجعل ذلك المعنى هو مسمى الأحد والصمد والواحد، ونحو ذلك من الأسماء الموجودة في الكتاب والسنة، ويجعل ما نفاه من المعاني التي أثبتها الله ورسوله من تمام التوحيد.

واسم «التوحيد» اسم معظم جاءت به الرسل. ونزلت به الكتب فإذا جعل تلك المعاني التي نفاها من التوحيد، ظن من لم يعرف مخالفة مراده لمراد الرسول ﷺ أنه يقول بالتوحيد الذي جاءت به الرسل، ويسمي طائفته الموحدين، كما يفعل ذلك الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم على نفي شيء من الصفات، ويسمون ذلك توحيداً، وطائفتهم الموحدين ويسمون علمهم علم التوحيد، كما تسمي المعتزلة ومن وافقهم نفي القدر عدلاً، ويسمون أنفسهم العدلية وأهل العدل.

ومثل هذه البدع كثيراً جداً يعبر بألفاظ الكتاب والسنة عن معان مخالفة لما أراده الله ورسوله بتلك الألفاظ، ولا يكون أصحاب تلك الأقوال تلقوها ابتداء عن الله ﷻ، ورسوله ﷺ، بل عن شبه حصلت لهم، وأئمة لهم وجعلوا التعبير عنها بألفاظ الكتاب والسنة حجة لهم وعمدة لهم، ليظهر بذلك أنهم متابعون للرسول ﷺ لا مخالفون له، وكثير منهم لا يعرفون أن ما ذكروه مخالف للرسول ﷺ، بل ظن أن هذا المعنى الذي أراده هو المعنى الذي أراده الرسول ﷺ وأصحابه فلهذا يحتاج المسلمون إلى شيئين:

أحدهما: معرفة ما أراد الله ورسوله ﷺ بألفاظ الكتاب والسنة، بأن يعرفوا لغة القرآن التي بها نزل، وما قاله الصحابة والتابعون لهم بإحسان، وسائر علماء المسلمين في معاني تلك الألفاظ، فإن الرسول لما خاطبهم بالكتاب والسنة عرفهم ما أراد بتلك الألفاظ وكانت معرفة الصحابة لمعاني القرآن أكمل من حفظهم لحروفه، وقد بلّغوا تلك المعاني إلى التابعين أعظم مما بلغوا حروفه، فإن المعاني العامة التي يحتاج إليها عموم المسلمين، مثل معنى التوحيد، ومعنى الواحد، والأحد، والإيمان، والإسلام، ونحو ذلك، كان جميع الصحابة يعرفون ما أحب الله ورسوله ﷺ من معرفته ولا يحفظ القرآن كله إلا القليل منهم، وإن كان كل شيء من القرآن يحفظه منهم أهل التواتر، والقرآن مملوء من ذكر وصف الله بأنه أحد، وواحد، ومن ذكر أن إلهكم واحد، ومن ذكر أنه لا إله إلا الله، ونحو ذلك.

فلا بد أن يكون الصحابة يعرفون ذلك، فإن معرفته أصل الدين وهو أول ما دعا الرسول ﷺ إليه الخلق، وهو أول ما قاتلهم إليه، وهو أول ما أمر رسله أن يأمروا الناس به، وقد تواتر عنه أنه أول ما دعا الخلق إلى أن يقولوا لا إله إلا الله، ولما أمر بالجهاد بعد الهجرة قال: «أُمِرْتُ أن أُقَاتِلَ الناسَ حتَّى يَشْهَدُوا أن لا إله إلا الله وأنِّي رسولُ الله»[١].

وفي الصحيحين[٢] أنه لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له: «إِنَّكَ تَأتي قوماً من أهل

---

(١) مرّ تخريجه.

(٢) البخاري (٢/ ١٢٥ ـ ١٣٦)، ومسلم (١/ ٥٠).

الكتاب فَلْيَكُنْ أَوَّلُ ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وإنّي رسولُ الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك [فأعلِمْهم أنَّ الله تعالى قد فرضَ عليهم خمسَ صلوات في اليوم والليلة، فإن هم أطاعُوا لك بذلك][1] فأَعْلِمْهُم أنَّ الله تعالى افترضَ عليهم صدقةٌ تؤخذُ من أَغْنيائهم فتُرَدُّ على فُقَرائهم، فإن هم أطاعُوا لك بذلك، فإيّاك وكرائمَ أَمْوالهم، واتَّقِ دعوة المَظلوم، فإنَّه ليس بينها وبين الله حجابٌ.

فقال لمعاذ: «لِيَكُنْ أوَّل ما تدعوهم إليه التوحيد»، ومع هذا كانوا من أهل الكتاب. كانوا يهوداً، فإن اليهود كانوا كثيرين بأرض اليمن، وهذا الذي أمر به معاذاً موافق لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وفي الآية الأخرى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]، وهذا مطابق لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة].

في الصحيحين[2] عنه ﷺ أنه قال: «الإيمانُ بِضْعٌ وسِتونَ، أو بِضْعٌ وسَبْعُونَ شُعْبَةً، أفضلُها قولَ لا إله إلا الله، وأَدْنَاهَا إماطةُ الأذى عن الطريق. والحَيَاءُ شُعْبَةٌ من الإيمان».

(فالمقصود) أن معرفة ما جاء به الرسول وما أراده بألفاظ القرآن والحديث هو أصل العلم الإيمان والسعادة والنجاة، ثم معرفة ما قال الناس في هذا الباب لينظر المعاني الموافقة للرسول والمعاني المخالفة لها.

والألفاظ نوعان: نوع يوجد في كلام الله ورسوله، ونوع لا يوجد في كلام الله ورسوله، فيعرف معنى الأول، ويجعل ذلك المعنى هو الأصل. ويعرف ما يعنيه الناس بالثاني، ويرد إلى الأول. هذا طريق أهل الهدى والسنة، وطريق أهل الضلال والبدع بالعكس، يجعلون الألفاظ التي أحدثوها ومعانيها هي الأصل، ويجعلون ما قاله الله ورسوله تبعاً لهم، فيردُّونها بالتأويل والتحريف إلى معانيهم، ويقولون: نحن نُفسّر القرآن بالعقل واللغة، يعنون أنهم يعتقدون معنى بعقلهم ورأيهم، ثم يتأولون القرآن عليه بما

(١) ما بين القوسين سقط من النسختين.
(٢) مرّ تخريجه.

يمكنهم من التأويلات والتفسيرات المتضمنة لتحريف الكلم عن مواضعه، ولهذا قال الإمام أحمد: أكثر ما يُخطئ الناس من جهة التأويل والقياس.

وقال: يجتنب المتكلم في الفقه هذين الأصلين المجمل والقياس، وهذه الطريق يشترك فيها جميع أهل البدع الكبار والصغار، فهي طريقة الجهمية والمعتزلة ومن دخل في التأويل من الفلاسفة والباطنية الملاحدة.

فصل

والمعنى الصحيح الذي هو نفي المثل والشريك والندّ قد دل عليه قوله سبحانه: أحد، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾، وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

وأمثال ذلك فالمعاني الصحيحة ثابتة بالكتاب والسنة، والعقل يدل على ذلك.

وقول القائل: الأحد أو الصمد أو غير ذلك هو الذي لا ينقسم ولا يتفرق، أو ليس بمركب ونحو ذلك. هذه العبارات إذا عُني بها أنه لا يقبل التفرق والانقسام فهذا حقٌّ، وأما إن عُني به أنها لا يشار إليه بحال، أو من جنس ما يعنون بالجوهر الفرد أنه لا يشار إلى شيء منه دون شيء، فهذا عند أكثر العقلاء يمتنع وجوده، وإنما يقدر في الذهن تقديراً، وقد علمنا أن العرب حيث أطلقت لفظ «الواحد» و«الأحد» نفياً وإثباتاً لم ترد هذا المعنى. فقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ [التوبة: ٦]. لم يرد به هذا المعنى الذي فسروا به الواحد الأحد، وكذلك قوله: ﴿وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾ [النساء: ١١]، وكذلك قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.

فإن المعنى لم يكن له أحد من الآحاد كفواً له، فإن كان الأحد عبارةً عما لا يتميز منه شيء عن شيء، ولا يشار إلى شيء منه دون شيء، فليس في الموجودات ما هو أحد إلا ما يدعونه من الجوهر الفرد ومن رب العالمين، وحينئذ لا يكون قد نفى عن شيء من الموجودات أن يكون كفواً للرب؛ لأنه لم يدخل في مسمى أحد.

وقد بسطنا الكلام على هذا بسطاً كثيراً في المباحث العقلية والسمعية التي يذكرها نفات الصفات من الجهمية وأتباعهم في كتابنا المسمى (بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية)[1].

---

(١) الكتاب طبع ناقصاً في مجلدين وحقق الآن في المملكة العربية السعودية في عدة رسائل علمية وهو تحت الطبع، وبقي قسم من الكتاب مفقود والله المستعان.

ولهذا لما احتجت الجهمية على السلف ـ كالإمام أحمد وغيره ـ على نفي الصفات باسم الواحد.

قال أحمد[١]: قالوا: لا تكونون مُوَحِّدين أبداً حتى تقولوا قد كان الله ولا شيء، قلنا نحن نقول كان الله ولا شيء، ولكن إذا قلنا أن الله لم يزل بصفاته كلها أليس إنما نصف إلهاً واحداً؟ وضربنا لهم في ذلك مثلاً: فقلنا: أخبرونا عن هذه النخلة، أليس لها جذعٌ وكربٌ وليفٌ وسعفٌ وخوصٌ وجمارٌ واسمها شيء واحد، وسميت نخلة بجميع صفاتها؟ فكذلك الله ـ وله المثل الأعلى ـ بجميع صفاته إله واحد، لا نقول: أنه قد كان في وقت من الأوقات ولا قدرة له حتى خلق لنفسه قدرة، ولا نقول قد كان في وقت من الأوقات لا يعلم. حتى خلق له علماً، ولكن نقول لم يزل عالماً قادراً مالكاً، لا متى ولا كيف. ومما يبين هذا أن سبب نزول هذه السورة الذي ذكره المفسرون يدل على ذلك فإنهم ذكروا أسباباً:

أحدها: ما تقدم عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: انسب[٢] لنا ربّك فنزلت هذه السورة.

والثاني: إن عامر بن الطفيل قال للنبي ﷺ: «إلام تدعونا إليه يا محمّد؟ قال: إلى الله. قال: فصفه لي، أمِنْ ذَهبٍ هو، أم من فضةٍ، أم من حديد؟ فنزلت هذه السورة». وروي ذلك عن ابن عباس[٣] من طريق أبي ظبيان، وأبي صالح عنه.

والثالث: أن بعض اليهود[٤] قال ذلك، قالوا: من أي جنس هو. وممن ورث الدنيا. ولمن يورثُها؟ فنزلت هذه السورة، قاله قتادة والضحاك.

قال الضحاك وقتادة ومقاتل: «جاء ناس من أحبار اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: يا محمّد: صِفْ لنا ربك، لعلّنا نؤمن بك، فإن الله أنزل نعته في التوراة، فأخبرنا به من

---

(١) «الرد على الزنادقة والجهمية» (ص٤٧).
(٢) في النسختين «انعت لنا ربك» ولكن لفظ الحديث عند أحمد والترمذي «انسب».
(٣) ذكره البغوي عن ابن عباس بدون سند، وراجع «تفسير ابن الجوزي» (٩/ ٢٦٦).
(٤) راجع الطبري (٣٠/ ٣٤٣) البغوي (٤/ ٥٤٤)، و«الدر المنثور» (٨/ ٦٧٠ ـ ٦٧١).

أيّ شيء هو؟ ومن أيّ جنس هو: أمن ذهب؟ أم من نحاس هو أم من صُفْرٍ؟ أم من حديد؟ أم من فضة؟ وهل يأكل ويشرب؟ وممن ورث الدنيا؟ ولم يُورثُها؟ فأنزل الله هذه السورة» وهي نسبة الله خاصة.

والرابع: ما روي عن الضحاك عن ابن عباس أن وفد نجران قدموا على النبي ﷺ بسبعة أساقفة من بني الحارث بن كعب: منهم السيّد والعاقب، فقالوا للنبي ﷺ: صف لنا ربك من أي شيء هو؟ قال النبي ﷺ: «إن ربي ليس من شيء، هو بائن من الأشياء»، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾.

فهؤلاء سألوا هل هو من جنس من أجناس المخلوقات؟ وهل هو من مادة، فبين الله تعالى أنه أحدٌ، ليس من جنس شيء من المخلوقات، وأنه صمدٌ ليس من مادة بل هو صمد. لم يَلِدْ ولم يُولَد. وإذا نفى عنه أن يكون مولوداً من مادة الوالد؛ فلأن ينفي عنه أن يكون من سائر المواد أولى وأحرى، فإن المولود من نظير مادته أكمل من ما خلق من مادة أخرى، كما خُلق آدم من الطين، فالمادة التي خُلق منها أولاده أفضل من المادة التي خلق منها هو، ولهذا كان خلقه أعجب. فإذا نزه الرب عن المادة العليا فهو عن المادة السفلى أعظم تنزيهاً، وهذا كما أنه إذا كان منزهاً عن أن يكون أحد كفواً له، فلأن يكون منزهاً عن أن يكون أحد أفضل منه أولى وأحرى.

وهذا مما يبين أن هذه السورة اشتملت على جميع أنواع التنزيه والتحميد، على النفي والاثبات، ولهذا كانت تعدل ثُلث القرآن، فالصمدية تُثبتُ الكمال المنافي للنقائص. والأحدية تُثبتُ الانفراد بذلك وكذلك إذا نزَّه نفسه عن أن يلد فيخرج منه مادة الولد التي هي أشرف المواد، فلأنْ يُنَزِّه نفسه عن أن يخرج منه مادة غير الولد بطريق الأولى والأحرى. وإذا نزه نفسه عن أن يخرج منه مواد للمخلوقات فلأن يُنّزه عن أن يخرج منه فضلات لا تصلح أن تكون مادة بطريق الأولى والأحرى والإنسان يخرج منه مادة الولد، ويخرج منه مادة غير الوالد، كما يخلق من عرقه ورطوبته القمّل والدود وغير ذلك، ويخرج منه المخاط والبصاق وغير ذلك. وقد نزه الله أهل الجنة عن أن يخرج منهم شيء من ذلك، وأخبر رسول الله ﷺ أنهم لا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يبصقون، ولا يتمخطون، وإنه يخرج منهم مثل رشح المسك، وإنهم يجامعون بذكر لا

يخفى، وشهوة لا تنقطع[١]، ولا منّي[٢]، ولا منية، وإذا اشتهى[٣] أحدهم الولد كان حمله ووضعه في زمن يسير.

فقد تضمن تنزيه نفسه عن أن يكون له ولد، وأن يخرج منه شيء من الأشياء، كما يخرج من غيره من المخلوقات، وهذا أيضاً من تمام معنى «الصمد» كما سبق في تفسيره: أنه الذي لا يخرج منه شيء، وكذلك تنزيه نفسه عن أن يولد ـ فلا يكون من مثله ـ تنزيه له أن يكون من سائر المواد بطريق الأولى والأحرى.

وقد تقدم في حديث أبي بن كعب أنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا يُورَثْ، والله تعالى لا يموت ولا يورث، وهذا ردٌّ لقول اليهود: ممن ورث الدنيا، ولمن يُورثها؟

وكذلك ما نقل من سؤال النصارى: صف لنا ربَّك: من أيِّ شيء هو؟ فقال النبي ﷺ: «إن ربي ليس من شيء، هو بائن من الأشياء» وكذلك سؤال المشركين واليهود: أمن فضة هو؟ أم من ذهب هو؟ أم من حديد؟ وذلك لأن هؤلاء عهدوا الآلهة التي يعبدونها من دون الله يكون لها موادُّ صارت منها، فعبّاد الأوثان تكون أصنامهم من ذهب وفضة وحديد وغير ذلك.

وعُبَّاد البشر سواء كان البشر لم يأمروهم بعبادتهم، أو أمروهم بعبادتهم، كالذين يعبدون المسيح وعزيراً، وكقوم فرعون الذين قال لهم: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، وقال لموسى: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء].

وكالذي آتاه الله نصيباً من الملك الذي حاجَّ إبراهيم في ربه إذ قال إبراهيم: ربي الذي يحيي ويميت، قال أنا أحيي وأميت.

---

(١) الطبراني في الكبير (٧٦٧٤) (٧٧٢١) وأبو نعيم في «صفة الجنة» (٣٦٨) وأسانيده لا تخلو من مقال وله شواهد في معناه.

(٢) الطبراني في الكبير (٧٤٧٩) وابن أبي الدنيا في «صفة الجنة» (٢٦٥) والبيهقي في «البعث والنشور» (٣٦٧) والحديث ضعيف والله أعلم.

(٣) الترمذي (٢٥٦٣)، ابن ماجه (٤٣٣٨) أحمد (٣/ ٩، ٨٠) والدارمي (٧٣٣) والحديث صحيح.

وكالدجال[(١)] الذي يدَّعي الإلهية، وما من خلق آدم إلى قيام الساعة فتنة أعظم من فتنة الدجال.

وكالذين قالوا: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٤]، وقد قال غير واحد من السلف: إن هذه أسماء قوم صالحين كانوا فيهم، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوَّروا تماثيلهم، ثم بعد ذلك عبدوهم، وذلك أول ما عبدت الأصنام، وأن هذه الأصنام صارت إلى العرب، وقد ذكر ذلك البخاري في صحيحه[(٢)] عن ابن عباس، قال صارت الأوثان التي في قوم نوح في العرب بعد. أما ودٌّ فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع فكانت لهُذيل، وأما يَغُوث فكانت لمراد؛ ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لِحِمْيَرَ لآل ذي الكلاع؛ أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسمُّوها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت.

ونوح عليه السلام أقام في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى التوحيد، وهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، كما ثبت ذلك في الصحيح[(٣)] ومحمد ﷺ خاتم الرسل، وكلا المرسلين بُعثَ إلى مشركين يعبدون هذه الأصنام التي صورت على صور الصالحين من البشر، والمقصود بعبادتها عبادة أولئك الصالحين. وكذلك المشركون من أهل الكتاب، ومن مبتدعة هذه الأمة وضلَّالها، هذا غاية شركهم، فإن النصارى يصورون في الكنائس صور من يعظمونه من الإنس غير عيسى وأُمِّه؛ مثل مارجرجس وغيره من القداديس، ويعبدون تلك الصور، ويسألونها ويدعونها ويقربون لها القرابين، وينذرون لها النذور، ويقولون هذه تذكرنا بأولئك الصالحين. والشياطين تضلهم كما كانت تضل المشركين: تارة بأن يتمثل الشيطان في صورة ذلك الشخص الذي يدعى ويُعبد فيظن داعيه أنه قد أتى، أو يظن أن الله صور ملكاً على صورته، فإن النصراني

---

(١) في النسختين «كالرجل» مكان «كالدجال» وهو تصحيف.

(٢) في التفسير (٦/ ٧٣).

(٣) في حديث الشفاعة «ائتوا نوحا فإنه أول رسول بعثه الله إلى الأرض» البخاري (٥/ ١٤٧) ومسلم (١/ ١٨٠).

مثلاً يدعو في الأسْر وغيره مارجرجس أو غيره فيراه قد أتاه في الهواء، وكذلك آخر غيره، وقد سألوا بعض بطارقتهم عن هذا كيف يوجد في هذه الأماكن، فقال: هذه ملائكة يخلقهم الله على صورته تغيث من يدعوه. وإنما تلك شياطين أضلت المشركين.

وهكذا كثير من أهل البدع والضلال والشرك المنتسبين إلى هذه الأمة، فإن أحدهم يدعو ويستغيث بشيخه الذي يُعظّمه وهو ميت، أو يستغيث به عند قبره ويسأله، وقد ينذر له نذراً ونحو ذلك، ويرى ذلك الشخص قد أتاه في الهواء ودفع عنه بعض ما يكره، أو كلَّمه ببعض ما سأله عنه، ونحو ذلك فيظنه الشيخ نفسه أتى إن كان حيّاً. حتى أني أعرف من هؤلاء جماعات يأتون إلى الشيخ نفسه الذي استغاثوا به وقد رأوه أتاهم في الهواء فيذكرون ذلك له، هؤلاء يأتون إلى هذا الشيخ، وهؤلاء يأتون إلى هذا الشيخ، فتارة يكون الشيخ نفسه لم يكن يعلم بتلك القضية، فإن كان يحب الرياسة سكت وأوهم أنه نفسه أتاهم وأغاثهم، وإن كان فيه صدق مع جهل وضلال قال: هذا ملك صوره الله على صورتي، وجعل هذا من كرامات الصالحين، وجعله عمدة لمن يستغيث بالصالحين، ويتخذهم أرباباً، وإنهم إذا استغاثوا بهم بعث الله ملائكة على صورهم تغيث المستغيث بهم)[1].

وإنما المقصود أن أصل الشرك في العالم كان من عبادة البشر الصالحين، وعبادة تماثيلهم، وهم المقصودون، ومن الشرك ما كان أصله عبادة الكواكب، إمّا الشمس وإمّا القمر وإمّا غيرهما، وصورت الأصنام طلاسم لتلك الكواكب، وشرك قوم إبراهيم ـ والله أعلم ـ كان من هذا، أو كان بعضه من هذا؛ ومن الشرك ما كان أصله عبادة الملائكة أو الجن، وضعت الأصنام لأجلهم، وإلا فنفس الأصنام الجمادية لم تعبد لذاتها، بل لأسباب اقتضت ذلك، وشرك العرب كان أعظمه الأول، وكان فيه من الجميع.

فإن عمرو بن لُحَيّ هو أول من غَيَّرَ دين إبراهيم عليه السلام وكان قد أتى الشام ورآهم بالبلقاء لهم أصنام يستجلبون بها المنافع، ويدفعون بها المضار، فصنع مثل ذلك في مكة لما كانت خزاعة ولاة البيت قبل قريش، وكان هو سيد خزاعة.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ٢١٤ ـ ٤٦٧).

وفي الصحيحين[١] عن النبي ﷺ أنه قال: (رأيت عمرو بن لُحَيّ بن قمعة بن خندف يَجُرُّ قُصُبَهُ في النار ـ أي أمعاءه ـ وهو أول من غيَّر دين إبراهيم؛ وسيَّب السوائب، وبحر البحيرة). وكذلك ـ والله أعلم ـ شرك قوم نوح، وإن كان مبدؤه من عبادة الصالحين، فالشياطين يجُر الناس من هذا إلى غيره؛ لكن هذا أقرب إلى الناس؛ لأنهم يعرفون الرجل الصالح وبركته ودعاءه، فيعكفون على قبره، ويقصدون ذلك منه، فتارة يسألونه، وتارة يسألون الله به، (وتارة يصلون)[٢]، ويدعون عند قبره ظانين أن الصلاة والدعاء عند قبره أفضل منه في المساجد والبيوت.

ولما كان هذا مبدأ الشرك سدَّ النبي ﷺ هذا الباب، كما سد باب الشرك بالكواكب، ففي صحيح مسلم[٣] عنه أنه قال قبل أن يموت بخمس: «إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تَتَّخِذُوا القبورَ مساجدَ، فإنّي أنْهاكم عن ذلك»[٤].

وفي الصحيحين[٥] عنه أنه ﷺ ذُكرَ له كنيسة بأرض الحبشة، وذكر من حسنها وتصاوير فيها فقال: «إنَّ أولئكَ إذَا ماتَ فيهم الرَّجُلُ الصالحُ بَنَوْا على قبره مسجداً، وصوّرُوا فيه تلك الصُّوَرَ، أولئك هم شِرَارُ الخَلق عند الله يومَ القيامة».

وفي الصحيحين[٦] عنه أنه قال ﷺ في مرض موته: «لعن الله اليهودَ والنَّصَارى اتخذُوا قبور أنبيائهم مساجدَ يُحَذِّرُ ما فعلوا» قالت عائشة: ولولا ذلك لأُبرزَ قبره، ولكن كَرِه أن يُتَّخذ مسجداً».

وفي مسند أحمد وصحيح[٧] أبي حاتم عنه أنه قال ﷺ: «إن من شرار الناس من تدركُهم الساعةُ وهم أحياءُ، والذين يَتَّخِذونَ القبورَ مَسَاجد».

وفي سنن أبي داود[٨] وغيه عنه أنه قال ﷺ: «لا تَتَّخِذُوا قبري عِيْداً، وصَلُّوا عليّ حيث ما كنتم فإنَّ صَلاتكم تَبْلُغُني».

---

(١) البخاري (٤٦٢٣)، ومسلم (٣/ ٢١٩١ ـ ٢١٩٢).
(٢) ما بين القوسين سقط من النسختين.
(٣) مسلم (١/ ٣٧٧ ـ ٣٧٨).
(٤) مرّ تخريجه.
(٥) البخاري (١٣٤١)، ومسلم (١/ ٣٧٦).
(٦) البخاري (٣٤٥٣)، ومسلم (١/ ٣٧٦ ـ ٣٧٧).
(٧) مرّ تخريجه.
(٨) أبو داود (٢٠٤٢) وأحمد في المسند (٢/ ٣٦٧) وهو صحيح.

وفي موطأ مالك[(١)] عنه أنه قال ﷺ: «اللهم لا تَجْعَلْ قبري وَثَناً يُعْبَدُ، اشتَدّ غضبُ الله على قوم اتخذوا قبورَ أنبيائهم مَسَاجدَ».

وفي صحيح مسلم[(٢)] عن أبي الهيَّاج الأسدي قال: قال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ألا أبعثكَ على ما بعثني عليه رسول الله: أمَرَني أن لا أدع قبراً مُشْرِفاً إلا سوَّيتُهُ، ولا تمثالاً إلا طَمَسْتُهُ».

فأمره بمحو التمثالين: الصورة الممثلة على صورة الميت، والتمثال الشاخص المشرف فوق قبره، فإن الشرك يحصل بهذا، وبهذا.

وقد ثبت عن عمر[(٣)] بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان في سفر فرأى قوماً ينتابون مكاناً للصلاة فقال: ما هذا؟ فقالوا: هذا مكان صلى فيه رسول الله ﷺ، فقال:

(إنَّما هلك من كان قبلكم بهذا، إنهم اتخذوا آثار أنبيائهم مساجدَ، من أدركته الصَّلاةُ فَلْيُصَلِّ، وإلا فَلْيَمْضِ).

وبلغه[(٤)] أن قوماً يذهبون إلى الشجرة التي بايع النبي ﷺ أصحابه تحتها فأمر بقطعها.

وأرسل إليه[(٥)] أبو موسى يذكر له أنه ظهر بتستر قبر دانيال، وعنده مصحف فيه أخبارُ ما سيكون، (قد ذكر فيه أخبار المسلمين)[(٦)] وأنهم إذا أجدبُوا كشفوا عن القبر فمُطِرُوا فأرسل إليه عمر يأمره إن يحفر بالنهار ثلاثة عشر قبراً، ويدفنه بالليل في واحد منها لئلا يعرفه الناس؛ لئلا يُفْتَنُوا به، فاتخاذ القبور مساجد مما حرمه الله ورسوله، وإن لم يبنِ عليها مسجداً. وكان بناء المساجد عليها أعظم.

لذلك قال العلماء: يحرمُ بناء المساجد على القبور، ويجب هدمُ كل مسجد بُنِيَ

---

(١) أخرجه مالك عن عطاء بن يسار مرسلاً (١٧٢) ووصله أحمد عن أبي هريرة (٢/ ٢٤٦) والحديث صحيح.
(٢) مسلم (١/ ٦٦٦).
(٣) ذكره ابن حجر في «فتح الباري» (١/ ٥٦٩).
(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف». راجع «الدر المنثور» (٧/ ٥٢٢).
(٥) راجع «تاريخ الطبري» (٤/ ٩٢ ـ ٩٣).
(٦) ما بين القوسين سقط من النسختين.

على قبر، وإن كان الميت قد قبر في مسجد وقد طال مكثه سُوِّي القبر حتى لا تظهر صورتُه، فإن الشرك إنما يحصل إذا ظهرت صورته، ولهذا كان مسجد[١] النبي ﷺ أولاً مقبرةً للمشركين، وفيها نخل وخرب، فأمر بالقبور فنبِشت، وبالنخل فقُطع، وبالخرب فَسُوِّيتْ، فخرج عن أن يكون مقبرة، فصار مسجداً.

ولما كان اتخاذ القبور مساجد، وبناء المساجد عليها محرماً، ولم يكن شيء من ذلك على عهد الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولم يكن يُعرفُ قطُّ مسجدٌ على قبر، وكان قبر الخليل عليه السلام في المغارة التي دفن فيها[٢]، وهي مسدودة لا أحد يدخل إليها، ولا تشُدُّ الصحابةُ الرِّحالَ لا إليه ولا إلى غيره من المقابر؛ لأن في الصحيحين من حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا»[٣].

فكان يأتي من يأتي منهم إلى المسجد الأقصى يُصَلُّون فيه، ثم يرجعون لا يأتون مغارة الخليل، ولا غيرها وكانت مغارة الخليل مسدودة، حتى استولى النصارى على الشام في أواخر المائة الرابعة، ففتحوا الباب وجعلوا ذلك المكان كنيسة، ثم لما فتح المسلمون البلاد اتخذه بعض الناس مسجداً، وأهل العلم ينكرون ذلك.

والذي يرويه بعضهم في حديث الإسراء أنه قيل للنبي[٤] ﷺ: (هذه طَيْبَةُ انزِلْ فصَلِّ، فنزل فصَلَّى، هذا مكان أبيك إنزل فصل)، كذب موضوع، لم يصل النبي ﷺ تلك الليلة إلا في المسجد الأقصى خاصة، كما ثبت ذلك في الصحيح[٥]، ولا نزل إلا فيه.

ولهذا لما قدم الشام من الصحابة من لا يحصي عددهم إلا الله، وقَدِمَها عمر بن

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ١١١)، ومسلم (١/ ٣٧٣).
(٢) وفي النسختين «وكان الخليل في المغاره».
(٣) البخاري (٩٩٥)، ومسلم (١/ ٩٧٦ ـ ١٠١٤).
(٤) راجع ما ذكره السيوطي في «الدر المنثور» من رواية النسائي وابن مردويه عن أنس (٥/ ١٨٥) ومن رواية البزار وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والبيهقي في «الدلائل» عن شداد بن أوس (٥/ ١٩٠) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٧٣ ـ ٧٤) بعد ما عزاه للبزار والطبراني. وفيه إسحاق بن إبراهيم بن العلاء وثقه يحيى بن معين وضعفه النسائي.
(٥) مسلم (١/ ١٤٥).

الخطاب لما فتح بيت المقدس، وبعد فتح الشام لما صالح النصارى على الجزية وشرط عليهم الشروط المعروفة، وقدِمها مرّةً ثالثة حتى وصل إلى سرغ، ومعه أكابر السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، فلم يذهب أحد منهم إلى مغارة الخليل، ولا غيرها من آثار الأنبياء التي بالشام، لا ببيت المقدس، ولا بدمشق، ولا غير ذلك، مثل الآثار الثلاثة التي بجبل قاسيون: في غربيّه الربوة المضافة إلى عيسى ﷺ، وفي شرقيّه المقام المضاف إلى الخليل ﷺ، وفي وسطه وأعلاه مغارة الدم المضافة إلى هابيل لما قتله قابيل، فهذه البقاع وأمثالها لم يكن السابقون الأولون يقصدونها، ولا يزورونها، ولا يرجون منها بركة، فإنها محل الشرك.

ولهذا توجد فيها الشياطين كثيراً، وقد رآهم غير واحد على صورة الإنس، ويقولون لهم رجال الغيب، يظنون أنهم رجال من الإنس غائبين عن الأبصار، وإنما هم جنّ، والجنُّ يسمون رجالاً. كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن].

والإنس سُمُّوا إنسا لأنهم يُؤْنَسون أي يرون. كما قال تعالى: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [النمل: ٧] أي رأيتها.

والجنُّ سُمَّوا جنّاً لاجتنانهم، يجتنون عن الأبصار أي يستترون. كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ [الأنعام: ٧٧].

أي استولى عليه فغطاهُ وستره، وليس أحد من الإنس يستتر دائماً عن أبصار الإنس، وإنما يقع هذا لبعض الإنس في بعض الأحوال: تارة على وجه الكرامة له؛ وتارة يكون من باب السحر وعمل الشياطين، ولبسط الكلام على الفرق بين هذا وبين هذا موضع آخر.

والمقصود ههنا: أن الصحابة والتابعين لهم بإحسان لم يبنوا قط على قبر نبي، ولا رجل صالح مسجداً، ولا جعلوا مشهداً ومزاراً، ولا على شيء من آثار الأنبياء، مثل مكان نزل فيه أو صلى أو فعل فيه شيئاً من ذلك، لم يكونوا يقصدون بناء مسجد لأجل آثار الأنبياء والصالحين، ولم يكن جمهورهم يقصدون الصلاة في مكان لم يقصد الرسول الصلاة فيه، بل نزل فيه أو صلى فيه اتفاقاً، بل كان أئمتهم كعمر بن الخطاب

وغيره ينهى عن قصد الصلاة في مكان صلى فيه رسول الله ﷺ اتفاقاً لا قصداً، وإنما نقل عن ابن عمر[(١)] خاصة أنه كان يتحرّى أن يسير حيث سار رسول الله ﷺ، وينزل حيث نزل، ويصلي حيث صلى، وإن كان النبي ﷺ لم يقصد تلك البقعة لذلك الفعل، بل حصل اتفاقاً، وكان ابن عمر رضي الله عنهما رجلاً صالحاً شديد الاتباع، فرأى هذا من الاتباع، وأما أبوه وسائر الصحابة من الخلفاء الراشدين عثمان وعلي سائر العشرة وغيرهم، مثل مسعود ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب فلم يكونوا يفعلون ما فعل ابن عمر، وقول الجمهور أصح.

وذلك أن المتابعة أن يفعل مثل ما فعل، على الوجه الذي فعل، لأجل أنه فعل، فإذا قصد الصلاة والعبادة في مكان معين كان قصد الصلاة والعبادة في ذلك المكان متابعة له. وأما إذا لم يقصد تلك البقعة فإن قصدها يكون مخالفة لا متابعة له.

وقال رحمه الله: (كون هذه السورة من المحكمات وكون كل مذهب يخالفها باطلاً هو حق لا ريب فيه، بل هذه السورة تعدل ثلث القرآن، كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة وهي صفة الرحمن كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح وعليها اعتمد الأئمة في تنزيه الله كما ذكره الفضيل بن عياض والإمام أحمد وغيرهم من أئمة الإسلام، وهي على نقيض مطلوب الجهمية أدل منها على مطلوبهم كما قررناه في موضعه، وإنما نذكر منه ها هنا ما ييسره الله.

لكن سائر الآيات المذكورة فيها أسماء الله وصفاته مثل آية الكرسي وأول الحديد وآخر الحشر ونحو ذلك هي كذلك، كل ذلك من الآيات المحكمات، لكن هذه السورة ذكر فيها ما لم يذكر في غيرها من اسمه «الأحد» «الصمد») ا.هـ[(٢)].

وقال رحمه الله: (وروى الترمذي وغيره عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن امرأة أبي أيوب عن أبي أيوب قال قال رسول الله ﷺ: «أيعجز أحدكم أن يقرأ في ليلة

---

(١) أخرج ابن سعد في «طبقاته» (٤/ ١٤٥) عن عائشة قالت: ما كان أحد يتبع آثار النبي ﷺ في منازله كما كان يتبعه ابن عمر، راجع «الحلية» (١/ ٣١٠) وانظر باب المساجد التي على طرق المدينة والمواضع التي صلى فيها النبي ﷺ من صحيح البخاري. «فتح الباري» (١/ ٥٦٧ ـ ٥٧١).

(٢) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٤٦٠).

ثلث القرآن من قرأ قل هو الله أحد الله الصمد فقد قرأ ثلث القرآن»، قال الترمذي هذا حديث حسن فقد أخبر أنها ثلث القرآن (فإن قيل) الحديث المتقدم قد رواه مسلم أيضاً بلفظ آخر أنه قال: «أيعجز أحدكم أن يقرأ في ليلة ثلث القرآن قالوا وكيف نقرأ ثلث القرآن قال قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن»، فقوله تعدل ثلث القرآن بين أنها في نفسها ليست ثلثه ولكن تعدل ثلثه أي في الثواب (قلنا): لا منافاة بين اللفظين؛ فإنها ثلثه؛ باعتبار المعنى وهي تعدل ثلثه باعتبار الحروف أو هي بلفظها ومعناها ثلثه فتعدل ثلثه لأن ذلك اللفظ صريح في معناه وحيث قال: جزأ القرآن ثلاثة أجزاء فجعل قل هو الله أحد جزأ من تلك الأجزاء فأخبر أن القرآن تجزأ ثلاثة أجزاء إنما هي جزء من تلك الأجزاء وهذا لا يصلح أن يراد به مجرد الثواب دون السورة، ولهذا كان النبي ﷺ يجمع بين اللفظين كما في الحديث الذي رواه أبو حازم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «احشدوا فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن فحشد من حشد ثم خرج نبي الله ﷺ فقرأ قل هو الله أحد ثم دخل فقال بعضنا لبعض قال رسول الله ﷺ سأقرأ عليكم ثلث القرآن وإني لأرى هذا خبراً جاءه من السماء ثم خرج نبي الله ﷺ فقال إني قلت سأقرأ عليكم ثلث القرآن ألا وإنها تعدل ثلث القرآن»، قال الترمذي حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه والذي يبين أن قوله (تعدل) يدخل فيه حروفها ما رواه البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري عن قتادة بن النعمان: «أن رجلاً قام في زمن النبي ﷺ يقرأ من السحر ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ لا يزيد عليها فلما أصبح أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له وكان الرجل يتلقاها فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن» وهذا أيضاً من حديث أبي سعيد رواه البخاري من حديث أبي سعيد نفسه وكذلك رواه أبو داود والنسائي) ا.هـ(١).

وقال رحمه الله: (والصفة والوصف تارة يراد به الكلام الذي يوصف به الموصوف؛ كقول الصحابي في ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ أحبها لأنها صفة الرحمن) ا.هـ(٢).

---

(١) الفتاوى التسعينية (٥/٢١٨ ـ ٢١٩) والأحاديث التي فيه كلها ثابتة صحيحة.

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٣٥).

وقال في عموم معناها:

(وقد أنزل الله سورتي الإخلاص ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾﴾ [الكافرون] و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ الواحدة في توحيد العلم، ولهذا كان القول فيها ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾ وهي جملة إنشائية فعلية، والأخرى في توحيد العلم، وهي قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ وبهذا كان القول جملة خبرية اسمية، والكلام: إما إنشاء، وإما إخبار، فالإخبار يكون عن العلم، والإنشاء يكون عن الإرادة) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (فإن ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ تعدل ثلث القرآن، إذ كان القرآن باعتبار معانيه ثلاثة أثلاث: ثلث توحيد، وثلث قصص، وثلث أمر ونهي، لأن القرآن كلام الله والكلام: إما إنشاء، وإما إخبار، والإخبار: إما عن الخالق، وإما عن المخلوق.

والإنشاء: أمر ونهي وإباحة، فقل «هو الله أحد» فيها ثلث التوحيد الذي هو خبر عن الخالق، وقد قال ﷺ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ تعدل ثلث القرآن وعدل الشيء ـ بالفتح ـ يكون ما ساواه، من غير جنسه، كما قال تعالى: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة: ٩٥]، وذلك يقتضي: أن له من الثواب ما يساوي الثلث في القدر، ولا يكون مثله في الصفة، كمن معه ألف دينار وآخر معه ما يعدلها من الفضة والنحاس، وغيرهما، ولهذا يحتاج إلى سائر القرآن، ولا تغني عنه هذه السورة مطلقاً، كما يحتاج من معه نوع من المال إلى سائر الأنواع، إذ كان العبد محتاجاً إلى الأمر والنهي والقصص.

وسورة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ فيها التوحيد القولي العلمي، الذي تدل عليه الأسماء والصفات، ولهذا قال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾ ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (ومعاني القرآن ثلاثة أصناف توحيد وقصص وأمر ونهي و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ متضمنة ثلث التوحيد ولا يستحب قراءتها ثلاثاً إلا إذا قرئت منفردة. وقال في موضع آخر: السنة إذا قرأ القرآن كله أن يقرأها كما في المصحف. وأما إذا قرأها منفردة أو مع بعض القرآن ثلاثاً فإنها تعدل القرآن وإذا قيل ثواب قراءتها

(١) بيان تلبيس الجهمية (١/٤٧٩ ـ ٤٨٠).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٨٥١ ـ ٨٥٢).

مرة يعدل ثلث القرآن فمعادلة الشيء للشيء يقتضي تساويها في القدر لا تماثلهما في الوصف كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة: ٩٥] ولهذا لا يجوز أن يستغني بقراءتها ثلاث مرات عن قراءة سائر القرآن لحاجته إلى الأمر والنهي والقصص كما لا يستغني من ملك نوعاً شريفاً من المال عن غيره ويحسن ترجمة القرآن لمن يحتاج إلى تفهيمه إياه بالترجمة) ا. هـ[١].

وقال رحمه الله: (وسورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ أفضل من ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون] وتلك أمر بأن يقال ما هو صفة الرب، وهذه أمر بأن يقال ما هو إنشاء خبر عن توحيد العبد، وكان النبي ﷺ يقدم ذلك الصنف، كقوله في الحديث الصحيح: «اللهم لك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن أنت الحق وقولك الحق، ووعدك حق، والجنة حق والنار حق، والنبيون حق، ومحمد حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهي لا إله إلا أنت»[٢].

فهذا الذكر تضمن الأنواع الثلاثة، فقدم ما هو خبر عن الله واليوم الآخر ورسوله، ثم ذكر ما هو خبر عن توحيد العبد وإيمانه ثم ختم بالسؤال، وهذا لأن خبر الإنسان عن نفسه سلوك يشهد فيه نفسه، وتحقيق عبادة الله ﷻ، وأما الثناء المحض فهو لا يشهد فيه إلا الله ﷻ بأسمائه وصفاته، وما جرد فيه ذكر الله تعالى أفضل مما جرد فيه الخلق أيضاً، ولهذا فضلت سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ وجعلت تعدل ثلث القرآن، لأنها صفة الرحمن وذكره محضاً لم تشب بذكر غيره، لكن في ابتداء السلوك لا بد من ذكر الإنشاء ولهذا كان مبتدأ الدخول في الإسلام: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله) ا. هـ[٣].

وقال رحمه الله: (وقد أنزل الله ﷻ سورتي الإخلاص: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ إحداهما في توحيد القول والعلم، والثانية في توحيد العمل

---

(١) الفتاوىٰ (٤/ ٣٠).
(٢) مرّ تخريجه.
(٣) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٣٨٩ ـ ٣٩٠).

والإرادة؛ فقال في الأول: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ فأمره أن يقول هذا التوحيد وقال في الثاني: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون] فأمره أن يقول ما يوجب البراءة من عبادة غير الله وإخلاص العبادة لله) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (وكان النبي ﷺ يقرأ في ركعتي الفجر تارة (سورة الإخلاص) و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ ففي: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ عبادة الله وحده وهو دين الإسلام، وفي ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ صفة الرحمن، وأن يقال فيه ويخبر عنه بما يستحقه وهو الإيمان، هذا هو التوحيد القولي وذلك هو التوحيد العملي) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (والتوحيد يتضمن توحيد القول والعلم، وتوحيد القصد والعمل فالأول: كما في سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾.

والثاني: كما في سورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ فلا بد من وصفه بما يستحقه من صفات الكمال، ولا بد من أن يعبد وحده لا شريك له، وهو دين الإسلام) ا.هـ[3].

وقال رحمه الله: (إن السلف جعلوا سورة الإخلاص أصلاً في الرد على المشبهة والمعطلة من قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾) ا.هـ[4].

وقال رحمه الله: (ولما سأل المشركون النبي[5] عن نسب ربه أنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ فلم يخرج من شيء ولا يخرج منه شيء ولا له مثل) ا.هـ[6].

وقال في تفسير ﴿ٱلصَّمَدُ﴾:

وقال رحمه الله: (ولهذا كانت الإشارة إليه من تمام دعائه، وذلك من تحقيق كونه ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ الذي يصمد العباد إليه؛ فإن قصده بالباطن والظاهر والقلب وسائر الجسد

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤).
(٢) مجموع الفتاوى (١٩/ ١٧١).
(٣) مجموع الفتاوى (١/ ٣٦٧) (١٥/ ١٦٤) نظرية العقد (١٠).
(٤) مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب (٩/ ١٥).
(٥) مرّ تخريجه.
(٦) النبوات (٧١).

أكمل من قصده بالقلب فقط، فيكون الإشارة إليه من تمام كونه صمداً، ويكون اسم ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ مستلزماً لذلك، فكونه موجوداً يوجب المباينة التي تقتضي الإشارة إليه، وكونه صمداً مقصوداً يقتضي الدعاء المتضمن الإشارة إليه، والإشارة إلى غيره بالدعاء إشراك به، وإخراج له عن أن يكون أحداً) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.

فالصمد اسم يتضمن إثبات صفات الكمال ونفي النقائص، وهو العليم الكامل في علمه، القدير الكامل في قدرته، الحكيم الكامل في حكمته.

ولنا مصنف مبسوط في تفسير هذه السورة، وآخر في بيان أنها تعادل ثلث القرآن، وذكرنا كلام علماء المسلمين من الصحابة والتابعين في معنى ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ وأن عامة ما قالوه حق، كقول من قال منهم: «إن الصمد الذي لا جوف له» ومن قال منهم: «إنه السيد الذي انتهى سؤدده» كما قيل: «إنه المستغني عن كل ما سواه، وكل ما سواه محتاج إليه»، وكما قيل: «إنه العليم الكامل في علمه، والقدير الكامل في قدرته» إلى سائر صفات الكمال.

وذكر تعالى في هذه السورة أنه أحد ليس له كفواً أحد، فنفى بذلك أن يكون شيئاً من الأشياء له كفواً، وبين أنه أحد لا نظير له) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾، ولا يصفون أحداً من المخلوقين بخصائص الخالق ـ جل جلاله ـ بل كل ما سواه من الملائكة والأنبياء وسائر الخلق فقير إليه عبد له، وهو الصمد الذي يحتاج إليه كل شيء، ويسأله كل أحد وهو غني بنفسه لا يحتاج إلى أحد في شيء من الأشياء) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (وقد دل عليها سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن بقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ فاسمه ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ يجمع معاني صفات

(١) بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٤٥٠).
(٢) الجواب الصحيح (٤/ ٤٠٧ ـ ٤٠٨).
(٣) الجواب الصحيح (٢/ ١٤٣).

الكمال، كما قد بسط ذلك في تفسير هذه السورة وفي غير موضع، وهو كما في تفسير ابن أبي طلحة، عن ابن عباس[١]، أنه المستوجب لصفات السؤدد ـ العليم الذي قد كمل في علمه، الحكيم الذي قد كمل في حكمته، إلى غير ذلك مما قد بين، وقوله ﴿أَحَدٌ﴾ يقتضي أنه لا مثل له ولا نظير، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (من معاني ﴿ٱلصَّمَدُ﴾، وهو الذي يفتقر إليه كل شيء، ويستغني عن كل شيء، بل الأشياء مفتقرة من جهة ربوبيته، ومن جهة إلهيته، فما لا يكون به لا يكون، وما لا يكون له لا يصلح ولا ينفع ولا يدوم، وهذا تحقيق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة]) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (قال ابن مسعود، وابن عباس، والحسن وسعيد بن جبير، وخلق من السلف: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ الذي لا جوف له، وقال آخرون: هو السيد الذي كمل في سؤدده، وكلا القولين حق؛ فإن لفظ ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ في اللغة يتناول هذا وهذا، والصمد في اللغة السيد؛ و﴿ٱلصَّمَدُ﴾ أيضاً المصمد، والمصمد المصمت، وكلاهما معروف في اللغة.

ولهذا قال يحيى بن أبي كثير: الملائكة صمد، والآدميون جوف، وهذا أيضاً دليل آخر، فإنه إذا كانت الملائكة ـ وهم مخلوقون من النور كما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من نار؛ وخلق آدم مما وصف لكم»[٤] فإذا كانوا مخلوقين من نور؛ وهم لا يأكلون ولا يشربون؛ بل هم صمد ليسوا جوفاً كالإنسان، وهم يتكلمون ويسمعون ويبصرون ويصعدون وينزلون كما ثبت ذلك بالنصوص الصحيحة، وهم مع ذلك لا تماثل صفاتهم وأفعالهم صفات الإنسان وفعله؛ فالخالق تعالى أعظم مباينة لمخلوقاته من مباينة الملائكة للآدميين؛ فإن كليهما مخلوق والمخلوق أقرب إلى مشابهة المخلوق من المخلوق إلى الخالق سبحانه وتعالى) ا.هـ[٥].

وقال رحمه الله: (ومنزه عن أن يماثله غيره في صفات كماله، فهذان المعنيان

---

(١) مرّ تخريجه.
(٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ٩٨ ـ ٩٩).
(٣) مجموع الفتاوى (٥/ ٥١٥).
(٤) مرّ تخريجه.
(٥) مجموع الفتاوى (٥/ ٣٥٣ ـ ٣٥٤).

جمعا التنزيه، وقد دل عليهما قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾، فالاسم (الصمد) يتضمن صفات الكمال، والاسم (الأحد) يتضمن نفي المثل كما قد بسط الكلام على ذلك في تفسير هذه السورة) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ والصمد الذي لا جوف له، ولا يأكل ولا يشرب، وهذه السورة هي نسب الرحمن) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ فالصمدية تثبت له الكمال، والأحدية تنفي مماثلة شيء له في ذلك، كما قد بسطنا ذلك في غير هذا الموضع) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (ثم يقال: قد أخبر الله تعالى في كتابه أنه ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ وقد قال عامة السلف من الصحابة والتابعين وغيرهم: إن ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ هو الذي لا جوف له، وقالوا أمثال هذه العبارات التي تدل على أن معناه أنه لا يتفرق، واللغة تدل على ذلك؛ فإن هذا اللفظ وهو لفظ ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ يقتضي الجمع والضم، كما يقال: صمدت المال إذا جمعته، وقد قال من قال من حذاق أهل الكلام وغيرهم: إن هذا تفسير المجسمة؛ لأن الأجسام نوعان: أجوف، ومصمت، كالطعام منها أجوف ومنها مصمت، فالحجر ونحوه مصمت، قالوا: هذا يقتضي أنه جسم صمت لا جوف له.

وهذا يدل على أن صمديته تنافي جواز التفرق والانحلال عليه.

فلا يخلو إما أن تكون هذه الآية قد دلت على ذلك، أو لم تدل عليه، فإن كانت دلت على ذلك وعلى أنه مصمت لا جوف له يمتنع عليه التفرق بطل قولك إن كل جسم يصح عليه التفرق والانحلال؛ وإن لم تكن دلت على ذلك فأنت لم تذكر دليلاً عقلياً على امتناع التفرق عليه ولا نصاً ولا إجماعاً وإذا كان ذلك لم تكن حجتك تامة؛ فإن هذه إحدى مقدمات الدليل، فإذا لم يكن مدلولاً عليها لم يكن المذكور دليلاً، وإذا لم يكن دليلاً لم يصح نفي كونه جسماً بهذا الدليل) ا.هـ[٤].

وقال رحمه الله: (كما نزه عنه نفسه في (سورة الاخلاص) كما تقدم التنبيه عليه

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٣٢٩).
(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٨٦).
(٣) الصفدية (٢/ ٢٢٨).
(٤) بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٢٤٨).

بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ فإن الصمد فيه من معنى الاجتماع والقوة والسؤدد ما ينافي الانقسام والافتراق) ا.هـ[(١)].

وقال رحمه الله: (فكل ما سوى الله فقير إليه دائماً، لا يستغني عنه طرفة عين، وهذا من معاني اسمه ﴿ٱلصَّمَدُ﴾. فـ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ الذي يحتاج إليه كل شيء وهو مستغنٍ عن كل شيء، وكما أن غنى الرب ثبت له لنفسه، لا لعلة (جعلت غنياً، فكذلك) فقر المخلوقات وحاجتها إليه ثبت لذواتها، لا لعلة جعلتها مفتقرة إليه) ا.هـ[(٢)].

وقال رحمه الله: (وقد ثبت لفظ (الكامل) فيما رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ إن ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ هو المستحق للكمال، وهو السيد الذي كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحكم الذي قد كمل في حكمه، والغني الذي قد كمل في غناه، والجبار الذي قد كمل في جبروته، والعالم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الشريف الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله ﷻ.

وهذه الصفة لا تنبغي إلا له، ليس له كفؤ ولا كمثله شيء، وهكذا سائر صفات الكمال، ولم يعلم أحد من الأمة نازع في هذا المعنى؛ بل هذا المعنى مستقر في فطر الناس، بل هم مفطورون عليه، فإنهم كما أنهم مفطورون على الإقرار بالخالق؛ فإنهم مفطورون على أنه أجل وأكبر، وأعلى وأعلم وأعظم وأكمل من كل شيء) ا.هـ[(٣)].

وقال رحمه الله: (﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾، فالصمد: السيد المستوجب لصفات الكمال، والأحد الذي ليس له كفو ولا مثال) ا.هـ[(٤)].

وقال رحمه الله: (فهذه طريقة الرسل وأتباعهم من سلف الأمة وأئمتها: إثبات مفصل، ونفي مجمل، إثبات صفات الكمال على وجه التفصيل، ونفي النقص والتمثيل، كما دل على ذلك سورة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ وهي تعدل ثلث

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٩٥).
(٢) الرد على المنطقيين (٣٤٦).
(٣) مجموع الفتاوى (٦/ ٧٢).
(٤) الجواب الصحيح (١/ ٧٣).

القرآن (كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح)، وقد كتبنا تصنيفنا (مفرداً) في تفسيرها وآخر في كونها تعدل ثلث القرآن.

فاسمه الصمد يتضمن صفات الكمال: كما روى الوالبي، عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنه قال: [هو] العليم الذي كمل في علمه، والقدير الذي كمل في قدرته، والسيد الذي كمل في سؤدده، والشريف الذي كمل في شرفه، والعظيم الذي كمل في عظمته، والحليم الذي كمل في حلمه، والحكيم الذي كمل في حكمته، وهو الذي كمل في أنواع الشرف والسؤدد، هو الله (سبحانه وتعالى) هذه صفته (لا تنبغي إلا له).

والأحد يتضمن نفي المثل عنه، والتنزيه الذي يستحقه (الرب) يجمعه نوعان: (أحدهما) نفي النقص عنه، و(الثاني) نفي مماثلة شيء من الأشياء فيما يستحقه من صفات الكمال، فإثبات صفات الكمال له مع نفي مماثله غيره له يجمع ذلك، كما دلت عليه هذه السورة) ا.هـ[1].

وقال في معنى (الأحد) و(الصمد):

(وقد قدمنا أن كلا النوعين يوجب اختصاص الرب سبحانه وتعالى بأنه الأحد وبأنه الصمد؛ فإن كونه (أحداً) يوجب أن لا يشرك به في العبادة ولا الاستغاثة فلا يدعى غيره، والاسم ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ جاء معرفاً ليبين أنه هو الصمد الذي يستحق أن يصمد إليه نوعي الصمد، وهذان الاسمان لم يذكرا في القرآن إلا في هذه السورة التي قد ثبت عن النبي ﷺ من غير وجه أنها تعدل ثلث القرآن، مثل ما روي عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة، فشق ذلك عليهم، وقالوا أينا يطيق ذلك يا رسول الله، قال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ تعدل ثلث القرآن» رواه البخاري، وروي عنه أيضاً عن قتادة بن النعمان: «أن رجلاً كان في زمن النبي ﷺ يقرأ في الفجر ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ يرددها لا يزيد عليها، فيما أصبح أتى رجل إلى النبي ﷺ، فقال يا رسول الله فلاناً بات الليلة يقرأ من السحر ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ يرددها لا يزيد عليها، كأن الرجل يتقالها، فقال النبي ﷺ: فوالذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن» وروى مسلم عن أبي هريرة، قال: «خرج

---

(١) منهاج السنة (٢/ ١٨٥ ـ ١٨٧).

إلينا رسول الله ﷺ قال: اقرأ عليكم ثلث القرآن فقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ حتى ختمها»، وروى مسلم أيضاً عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «أيعجز أحدكم أن يقرأ في ليلة ثلث القرآن، قالوا وكيف يقرأ ثلث القرآن قال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ تعدل ثلث القرآن» وعن عائشة أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً على سرية وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بقل هو الله أحد، فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فقال سلوه لأي شيء يصنع ذلك، فسألوه فقال إنها صفة الرحمن ﷻ، فأنا أحب أن أقرأ بها، فقال رسول الله ﷺ أخبروه أن الله يحبه» رواه البخاري ومسلم.

وقد قال من قال من العلماء هي ثلث القرآن؛ لأن القرآن ثلاثة أقسام: قسم توحيد، وقسم قصص، وقسم أمر ونهي، وهذه فيها التوحيد، وهذا الذي قاله إنما يتم إذا كانت جامعة للتوحيد، والأمر كذلك؛ فإن هذين الاسمين يستلزمان سائر أسماء الله الحسنى وما فيها من التوحيد كله قولاً وعملاً، والنبي ﷺ ذكر هذين الاسمين فقال: «الله الواحد الصمد تعدل ثلث القرآن» وذلك أن كونه أحداً وكونه الصمد يتضمن أنه الذي يقصده كل شيء لذاته ولما يطلب منه، وأنه مستغنٍ بنفسه عن كل شيء، وأنه بحيث لا يجوز عليه التفرق والفناء وأنه لا نظير له في شيء من صفاته ونحو ذلك مما ينافي الصمدية، وهذا يوجب أن يكون حياً، عالماً قديراً، قدوساً سلاماً مهيمناً عزيزاً، جباراً متكبراً) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (وبينا أن سورة الإخلاص ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ تنزهه عن الممتنع من هذين؛ فاسمه ﴿أَحَدٌ﴾ منع التشبيه الممتنع عليه، واسمه ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ منع الانقسام والتركيب الممتنع عليه ولكن هؤلاء النفاة غلوا في ذلك وتعدوا حدود الله فيه فزادوا على الحق من الباطل شيئاً كثيراً، كما أن من المثبتة من غلا في الإثبات وتعدى حدود الله حتى زاد على إثبات الحق زيادات باطلة، والله يهدينا الصراط المستقيم، وليس هذا موضع الشرح والبسط لما تضمنته هذه السورة العظيمة من أصول التوحيد والإيمان؛ فإنها كثيرة عظيمة، إذ (الأحدية) و(الصمدية) ينتظمان أصول التوحيد والإيمان والدين في أسماء الله وصفاته في دينه، إذ دينه الحق يتبع ما هو عليه سبحانه في نفسه.

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (١/٤٥٨ ـ ٤٥٩) والآثار والأحاديث التي فيها كلها سبق تخريجها.

ولما كان الدين عند الله هو الإسلام، والإسلام هو الاستسلام لله وحده، وله ضدان الإشراك والاستكبار، فالمستكبر استكبر عن الإسلام له، والمشرك استسلم لغيره وإن كان قد استسلم له، فمعنى ﴿أَحَدٌ﴾ يوجب الإخلاص لله المنافي للشرك، ومعنى ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ يوجب الاستسلام لله وحده المنافي للاستكبار؛ فإن الصمد يتضمن صمود كل شيء إليه وفقره إليه.

وأيضاً فدين الله واحد، لا تفرق فيه، و﴿ٱلصَّمَدُ﴾ يناسب اجتماعه، فالله سبحانه وتعالى هو الإله الواحد، ودينه واحد، وعباده المؤمنون مجتمعون يعتصمون بحبله غير مفترقين، واسمه ﴿أَحَدٌ﴾ يقتضي التوحيد، و﴿ٱلصَّمَدُ﴾ يقتضي الاجتماع وعدم التفرق، فإن ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ فيه معنى الاجتماع وعدم التفريق، والتوحيد أبداً قرين الاجتماع؛ لأن الاجتماع فيه الوحدة، والتفرق لا بد فيه من التثنية والتعدد كما أن الإشراك مقرون بالتفرق، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم]، ولهذا كان شعار الطائفة الناجية هو السنة والجماعة، دون البدعة والفرقة؛ فإن أصل السنة توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، وأصل البدع الإشراك بالله شركاً أصغر أو أكبر) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (يوضح هذا ما قد قدمنا أن اسمه ﴿أَحَدٌ﴾ نفى أن يكون له مثل في شيء من الأشياء، فهو ينفي التشبيه الباطل، واسمه ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ ينفي أن يجوز عليه التفرق والانقسام وما في ذلك من التركيب والتجسد، وذلك لأنه سبحانه وصف نفسه بالصمدية كما وصف بالأحدية وهو سبحانه (ليس كمثله شيء) في جميع صفاته بل هو كامل في جميع نعوته كما لا يشبهه في شيء؛ فهو كامل الصمدية، كما أنه كامل الأحدية) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (وكان الأئمة كالإمام أحمد والفضيل بن عياض وغيرهما إذا أرادوا أن يذكروا ما يستحقه الله من التنزيه ذكروا (سورة الإخلاص) التي تعدل ثلث القرآن، وأنها مستوفية كل ما ينفى في هذا الباب؛ ولهذا لما ناظرت الجهمية الإمام

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (٢/٣٠٩ ـ ٣١٠). (٢) بيان تلبيس الجهمية (٢/٦٩).

أحمد كأبي عيسى محمد بن عيسى برغوث وغيره من البصريين والبغداديين، وذكروا الجسم وملازمه، ذكر لهم أحمد (سورة الإخلاص) فإن ما فيها من التنزيه هو الحق دون ما أدخلوه في لفظ الجسم من الزيادات الباطلة.

وذلك أن ما يذكرونه يدور على أصلين نفي التشبيه ونفي التجسيم الذي هو التركيب والتأليف؛ ولهذا يذكر من العقائد التي يبغى فيها التنزيه: الاعتقاد السليم من التشبيه والتجسيم، فأصل كلامه كله يدور على ذلك، . ولا ريب أنهم نزهوا الله بنفي هذين الأمرين عن أمور كثيرة يجب تنزيهه عنها، وما زادوه من التعطيل فإنما قصدوا به التنزيه والتقديس وإن كانوا في ذلك ضالين مضلين.

و(سورة الإخلاص) تستوفي الحق من ذلك؛ فإن الله يقول: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ وهذان اسمان ﴿أَحَدٌ﴾ و﴿ٱلصَّمَدُ﴾ لم يذكرهما الله إلا في هذه السورة، وهما ينفيان عن الله ما هو متنزه عنه من التشبيه والتمثيل، ومن التركيب والانقسام والتجسيم؛ فإن اسمه ﴿أَحَدٌ﴾ ينفي المثل والنظير كما تقدم الكلام على ذلك في أدلته السمعية، وبينا أن الأحد في أسماء الله ينفي عنه أن يكون له مثل في شيء من الأشياء، فهو أحد في كل ما هو له، واسمه ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ ينفي عنه التفرق، والانقسام والتمزق وما يتبع ذلك من تركيب ونحوه؛ فإن اسم ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ يدل على الاجتماع.

وكذلك كل واحد من معنييه اللذين يتناولهما هذا الاسم، وهو: أن ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ هو السيد الذي كمل سؤدده ويصمد إليه في الأمور، والصمد هو الذي لا جوف له، كما يقال: الملائكة صمد والآدمي أجوف، والمصمت ضد الأجوف فإن اسم السيد يقتضي الجمع والقوة؛ ولهذا يقال: السواد هو اللون الجامع للبصر، والبياض اللون المفرق للبصر، ويقال للحليم: السيد؛ لأن نفسه تجتمع فلا تتفرق وتتميز من الغيظ والواردات عليها، وكذلك هو الذي يصبر على الأمور، والصبر يقتضي الجمع والحبس والضم؛ وضده الجزع الذي يقتضي التفرق، وكذلك التعزي والتعزز، وعزته فتعزى أو هو لا يتعزى وهو ضد الجوع؛ فإن التعزز والتعزي يقتضي الاجتماع والقوة، والجزع يقتضي التفرق والضعف.

والإنسان له في سؤدده وعزته حالان: (أحدهما) أن يستغني بنفسه عن غيره ويعز

بنفسه عن غيره فلا يحتاج إلى الغير الذي يحتاج إليه غيره لغناه و لا يخاف منه لعزته، و(الثاني) أن يكون هو قد احتاج إليه غيره ويكون قد أعز غيره فغلبه وأعزه فمنعه، فيكون الناس قد صمدوا له أي قصدوه وأجمعوا له، وهذا هو الصمد السيد، وذلك إنما يكون من كمال سؤدده وصمديته التي تنافي تفرقه وتمزقه وضعفه.

ولفظ ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ يدل على أنه لا جوف له، وعلى أنه السيد؛ ليس كما تقول طائفة من الناس: أن ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ في اللغة إنما هو السيد، ويتعجبون مما نقل عن الصحابة والتابعين من أن ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ هو الذي لا جوف له؛ فإن أكثر الصحابة والتابعين فسروه بهذا، وهم أعلم باللغة وبتفسير القرآن، ودلالة اللفظ على هذا أظهر من دلالتها على السؤدد؛ وذلك أن لفظ (ض م د) يدل على الاجتماع والانضمام المنافي للتفرق والخلو والتخويف، كما يقال صمد المال وصمده وتصمد إذا جمعه وضم بعضه إلى بعض، ومنه في الاشتقاق الأكبر الصمت والمصمت؛ فإن التاء والدال أخوان متقاربان إلى بعض في المخرج، والاشتقاق الأكبر هو ما يكون فيه الكلمتان قد اشتركت في جنس الحرف، فالكلمتان اشتركت في الصاد والتاء، والتاء والدال أخوان، يقال صمت يصمت صماتاً، واصمت اصماتاً، وهو جمع وضم ينافي الانفتاح والتفريج؛ ولهذا يقال للعظام ونحوها من الأجسام؛ منها أجوف، ومنها مصمت.

فظهر أن اسمه ﴿أَحَدٌ﴾ يوجب تنزيهه عن ما يجب نفيه عنه من التشبيه ومماثلة غيره له في شيء من الأشياء، واسمه ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ يوجب تنزيهه عما يجب نفيه من الانقسام والتفرق ونحو ذلك مما ينافي كمال صمديته، ﷻ عما يقول الظالمون علواً كبيراً) ا.هـ(١).

وقال رحمه الله: (إن أهل اللغة قالوا: اسم (الأحد) لم يجيء اسماً في الإثبات إلا لله؛ لكنه مستعمل في النفي والشرط والاستفهام، كقوله تعالى في نفس السورة التي ذكرها: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ وكقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن

(١) بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٥٧ ـ ٦٠).

يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [الجن] وقال تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾﴾ [الكهف] وقال: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾﴾ [الليل]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٥] ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ [هود: ٨١]) ا.هـ(١).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ فبين أنه أحد صمد، واسمه الأحد يتضمن نفي المثل، واسمه الصمد تضمن جميع صفات الكمال، كما بينا ذلك في الكتاب المصنف في تفسير قل هو الله أحد) ا.هـ(٢).

وقال رحمه الله: (قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ قال ابن عباس: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ العليم الذي كمل في علمه، العظيم الذي كمل في عظمته، القدير الكامل في قدرته، الحكيم الكامل في حكمته، السيد الكامل في سؤدده.

وقال ابن مسعود وغيره: هو الذي لا جوف له، و﴿أَحَدٌ﴾ الذي لا نظير له، فاسمه ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ يتضمن اتصافه بصفات الكمال ونفي النقائض عنه، واسمه (الأحد) يتضمن اتصافه أنه لا مثل له، وقد بسطنا الكلام على ذلك في تفسير هذه السورة وفي كونها تعدل ثلث القرآن) ا.هـ(٣).

وفي تفسير ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾﴾:

(﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾.

فكما نزه نفسه عن الولادة نزه نفسه عن اتخاذ الولد) ا.هـ(٤).

وفي تفسيره ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾:

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (١/٤٩٣ ـ ٤٩٤).
(٢) منهاج السنة (٢/٥٢٩ ـ ٥٣٠).
(٣) مجموع الفتاوى (١١/ ٢٥٠ ـ ٢٥١).
(٤) الجواب الصحيح (٤/١٥٣).

(فقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾، فلم يكن أحد يكافيه في شيء من الأشياء: فلا يساويه شيء ولا يماثله شيء، ولا يعادله شيء) ا.هـ(١).

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ فنفى أن يكون أحد كفواً له) ا.هـ(٢).

وقال رحمه الله: (لقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾ [الشورى: ١١] وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ أي لا شبيه ولا نظير ولا مساوي ولا مثل، أو لم تعلم أنه لما تجلى للجبل تدكدك لعظم هيبته وشامخ سلطانه؟ فكما لا يتجلى لشيء إلا اندكّ: كذلك لا يتوهمه أحد إلا هلك، فرد بما بين الله في كتابه من نفسه عن نفسه التشبيه والمثل والنظير والكفؤ) ا.هـ(٣).

وفي تفسير الآية (٣، ٤) قال:

(فقوله سبحانه: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ نفي لهذا كله؛ فلأن هؤلاء كلهم مولودون؛ والله لم يولد، ولهذا لما ذكر الله المسيح في القرآن قال: ﴿ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [البقرة: ٨٧] بخلاف سائر الأنبياء، كقوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ﴾ [المائدة: ١٧] وقوله: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [المائدة: ٧٥] وقوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ [المائدة: ١١٠] وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [المائدة: ١١٦] وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠] وقوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٧].

وفي ذلك فائدتان إحداهما بيان أنه مولود، واللهُ لم يولد، والثانية نسبته إلى مريم، بأنه ابنها ليس هو ابن الله.

وأما قوله: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ﴾ الآية [النساء: ١٧٢] وقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ﴾ [التوبة: ٣٠]: فإنه حكى قولهم الذي

(١) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٣٦٦).
(٢) الجواب الصحيح (٤/ ٤٣٥).
(٣) مجموع الفتاوى (٥/ ٦٣).

قالوه، وهم قد نسبوه إلى الله أنه ابنه، فلم يضمنوا ذلك قولهم المسيح بن مريم.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ نفي للشركاء والأنداد، يدخل فيه كل من جعل شيئاً كفواً لله في شيء من خواص الربوبية، مثل خلق الخلق، والإلهية كالعبادة له، ودعائه ونحو ذلك.

فهذه نكت تبين اشتمال كتاب الله على إبطال قول من يعتقد في أحد من البشر الإلهية؛ باتحاد أو حلول أو غير ذلك) ا.هـ[1].

وفي معنى لم يلد:

(فقال تعالى في السورة التي تعدل ثلث القرآن ـ التي هي صفة الرحمن، ولم يصح عن النبي ﷺ في فضل سورة من القرآن ما صح في فضلها، حتى أفرد الحفاظ مصنفات في فضلها، كالدارقطني، وأبي نعيم، وأبي محمد الخلال[2]، وأخرج أصحاب الصحيح فيها أحاديث متعددة ـ قال فيها: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾، وعلى هذه السورة اعتماد الأئمة في التوحيد، كالإمام أحمد، والفضيل بن عياض، وغيرهما من الأئمة قبلهم وبعدهم.

فنفى عن نفسه الأصول والفروع والنظراء، وهي جماع ما ينسب إليه المخلوق من الآدميين والبهائم والملائكة والجن، بل والنبات ونحو ذلك؛ فإنه ما من شيء من المخلوقات إلا ولا بد أن يكون له شيء يناسبه: إما أصل، وأما فرع، وإما نظير، أو اثنان من ذلك، أو ثلاثة.

وهذا في الآدميين والجن والبهائم ظاهر.

وأما الملائكة: فإنهم وإن لم يتوالدوا بالتناسل فلهم الأمثال والأشباه؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات]، قال بعض السلف: لعلكم تتذكرون، فتعلمون أن خالق الأزواج واحد.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/٤٤٨ ـ ٤٤٩).

(٢) مصنف الخلال طبع بتحقيقين، وأما البقية فلا أعرف عنها شيئاً.

ولهذا كان في هذه السورة الرد على من كفر من اليهود والنصارى والصابئين والمجوس والمشركين.

فإن قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ رد لقول من يقول: أن له بنين وبنات من الملائكة أو البشر، مثل من يقول: الملائكة بنات الله، أو يقول: المسيح، أو عزير ابن الله، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٠] وقال تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الصافات] وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة] وقد أخبر أن هذا مضاهاة لقول الذين كفروا من قبل.

وقد قيل: إنهم قدماؤهم، وقيل: مشركو العرب، وفيهما نظر، فإن مشركي العرب الذين قالوا هذا ليسوا قبل اليهود والنصارى. وقدمائهم(١) منهم، فلعله الصابئون المشركون، الذين كانوا قبل موسى والمسيح بأرض الشام ومصر وغيرها، الذين يجعلون الملائكة أولاداً له، كما سنبينه.

وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾ [النحل: ٦٢] وهو قول من قال من العرب: إن الملائكة بنات الله.

وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [النحل] وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ

---

(١) كذا في الأصل، ولعل الصواب الرفع.

﴿ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف].

وهذا القدر الذي عابه الله على من جعل الملائكة بناته من العرب، مع كراهتهم أن يكون لهم بنات، فنظيره في النصارى؛ فإنهم يجعلون لله ولداً، وينزهون أكابر أهل دينهم عن أن يكون لأحدهم صاحبة أو ولداً، فيجعلون لله ما يكرهونه لأكابر دينهم.

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾ [النساء].

فنهى أهل الكتاب عن الغلو في الدين، وعن أن يقولوا على الله إلا الحق، وذكر القول الحق في المسيح، ثم قال لهم: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ لأنهم كفروا بالله بتثليثهم، وكفروا برسله بالاتحاد والحلول، فكفروا بأصلي الإسلام العام، التي هي الشهادة لله بالوحدانية في الألوهية، والشهادة للرسل بالرسالة، وذكر أن المسيح والملائكة لا يستنكفون عن عبادته؛ لأن من الناس من جعل الملائكة أولاده كالمسيح، وعبدوا الملائكة والمسيح.

ولهذا قال: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران] فذكر الملائكة والنبيين جميعاً.

وقد نفى في كتابه عن نفسه الولادة، ونفى اتخاذ الولد جميعاً، فقال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء: ١١١] وقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ الآية [المؤمنون: ٩١] وقال: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [الفرقان: ٢] وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء] وقال: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء].

ومعلوم أن الذين خرقوا له بنين وبنات بغير علم، والذين قالوا: ولد الله، وإنهم لكاذبون، والذين قالوا: المسيح ابن الله، وعزير ابن الله: لم يرد عقلاؤهم ولادة حسية، من جنس ولادة الحيوان بانفصال جزء من ذكره في أنثاه، يكون منه الولد، فإن النصارى والصابئين متفقون على نفي ذلك، وكذلك مشركو العرب، ما أظن عقلاؤهم كانوا يعتقدون ذلك، وإنما وصفوا الولادة العقلية الروحانية، مثل ما يقوله النصارى: إن الجوهر الذي هو الله من وجه، وهو الكلمة من وجه، تدرعت بإنسان مخلوق من مريم، فيقولون تدرع اللاهوت بالناسوت فظاهره، ـ وهو الدرع والقميص ـ بشر، وباطنه ـ وهو المتدرع ـ لاهوت، هو الابن الذي هو الكلمة لتولد هذا من الأب الذي هو جوهر الوجود.

فهذه مركبة عندهم من أصلين:

أحدهما: أن الجوهر الذي هو الكلمة تولد من الجوهر الذي هو الأب، كتولد العلم والقول من العالم القائل.

والثاني: أن هذا الجوهر اتحد بالمسيح وتدرع به، وذلك الجوهر هو الأب من وجه، وهو الابن من وجه، فلهذا حكى الله عنهم تارة أنهم يقولون: المسيح ابن الله، وتارة أنهم يقولون: إن الله هوالمسيح بن مريم.

وأما حكايته عنهم أنهم قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] فالمفسرون يقولون: الله والمسيح وأمه، كما قال: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] ولهذا قال في سياق الكلام: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥] أي غاية المسيح: الرسالة، وغاية أمه: الصديقية، لا يبلغان إلى اللاهوتية؛ فهذا حجة هذا. وهو ظاهر.

ومن الناس من يزعم أن المراد بذلك الأقانيم الثلاثة، وهي الأب والابن وروح القدس، وهذا فيه نظر.

(فأما قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام]، فإن قوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي مبدعهما، كما ذكر مثل ذلك في البقرة، وليس المراد أنهما بديعة سماواته وأرضه، كما تحتمله العربية لولا السياق، لأن المقصود نفي ما زعموه من خرق البنين والبنات له، ومن كونه اتخذ ولداً.

وهذا ينتفي بضده كونه أبدع السموات، ثم قال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ وذكر ثلاث أدلة على نفي ذلك.

أحدها: كونه ليس له صاحبة؛ فهذا نفي الولادة المعهودة: وقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ نفي للولادة العقلية، وهي التولد؛ لأن خلق كل شيء ينافي تولدها عنه، وقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ يشبه ـ والله أعلم ـ أن يكون لما ادعت النصارى أن المتحد به هو الكلمة التي يفسرونها بالعلم، والصابئة القائلون بالتولد والعلة، لا يجعلونه عالماً بكل شيء ـ ذكر أنه بكل شيء عليم، لإثبات هذه الصفة له، رداً على الصابئة، ونفيها عن غيره رداً على النصارى.

وإذا كان كذلك فقول من قال بتولد العقول والنفوس ـ التي يزعمون أنها الملائكة ـ أظهر في كونهم يقولون إنه ولد الملائكة، وأنهم بنوه وبناته فالعقول بنوه، والنفوس بناته: من قول النصارى.

ودخل في هذا من تفلسف من المنتسبة إلى الإسلام، حتى إني أعرف كبيراً لهم سئل عن العقل والنفس: فقال بمنزلة الذكر والأنثى، فقد جعلهم كالابن والبنت، وهم يجعلونهم متولدين عنه تولد المعلول عن العلة؛ فلا يمكنه أن يفك ذاته عن معلوله ولا معلوله عنه، كما لا يمكنه أن يفصل نفسه عن نفسه، بمنزلة شعاع الشمس مع الشمس وأبلغ.

وهؤلاء يقولون: إن هذه الأرواح التي ولدها متصلة بالأفلاك: الشمس والقمر والكواكب، كاتصال اللاهوت بجسد المسيح، فيعبدونها كما عبدت النصارى المسيح، إلا أنهم أكفر من وجوه كثيرة؛ وهم أحق بالشرك من النصارى؛ فإنهم يعبدون ما يعلمون أنه منفصل عن الله، وليس هو إياه، ولا صفة من صفاته، والنصارى يزعمون أنهم ما يعبدون إلا ما اتحد بالله، لا لما ولده من المعلولات.

ثم من عبد الملائكة والكواكب وأرواح البشر وأجسادهم: اتخذ الأصنام على صورهم وطبائعهم؛ فكان ذلك أعظم أسباب عبادة الأصنام.

ولهذا كان الخليل إمام الحنفاء: مخاطباً لهؤلاء الذين عبدوا الكواكب والشمس والقمر، والذين عبدوا الأصنام مع إشراكهم واعترافهم بأصل الجميع.

وقد ذكر الله قصتهم في القرآن في موضع، وأولئك هم الصابئون المشركون الذين ملكهم نمرود، وعلماؤهم الفلاسفة من اليونانيين وغيرهم، الذين كانوا بأرض الشام والجزيرة والعراق وغيرها، وجزائر البحر قبل النصارى، وكانوا بهذه البلاد، في أيام بني إسرائيل، وهم الذين كانوا يقاتلون بني إسرائيل، فيغلبون تارة ويغلبون تارة، وسنحاريب وبخت نصر ونحوهما: هم ملوك الصابئة بعد الخليل، والنمرود الذي كان في زمانه.

فتبين بذلك ما في القرآن من الرد لمقالات المتقدمين قبل هذه الأمة والكفار والمنافقين فيها: من إثبات الولادة لله، لأن ذلك وإن كان كثير من الناس لا يفهم دلالة

القرآن على هذه المقالات؛ لأن ذلك يحتاج إلى تصور مقالتهم بالمعنى لا بمجرد اللفظ، وإلى تصور معنى القرآن، والجمع بينهما، فتجد المعنى الذي عنوه قد دلّ القرآن على ذكره وإبطاله.

وأما اتحاد[١] الولد فيفسر بعين الولادة، وهو من باب الأفعال، لا من باب الصفات، كما يقوله طائفة من النصارى في المسيح) ا.هـ[٢].

(١) كذا في الأصل ولعلها بالخاء والذال معجمتين.

(٢) مجموع الفتاوى (٢/٤٣٨ ـ ٤٤٧).

سورة الفلق

وقال في سبب نزولها:

(قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾.

وقد ذكر طائفة من المفسرين أنها (نزلت) بسبب حسد اليهود للنبي ﷺ حتى سحروه: سحره لبيد بن الأعصم اليهودي[(١)]) ا.هـ[(٢)].

وفي تفسير الآية (٢) قال:

(قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾، ولا فرق في ذلك بين إبليس وغيره) ا.هـ[(٣)].

وقال في الاستعاذة:

(وأما قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ فيشترك فيه النوعان، فإنه يستعاذ من الشر الموجود أن لا يضر، ويستعاذ من الشر الضار المفقود أن لا يوجد) ا.هـ[(٤)].

وقال شيخ الإسلام، ناصر السنة، قامع البدعة تقي الدين أحمد بن تيمية، نفعنا المولى بعلومه ـ وهو مما كتبه في القلعة:

---

(١) البخاري (١٠/ ١٩٢ ـ ١٩٩ ـ الفتح)، مسلم (٤/ ١٧١٩).
(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٢٠).
(٣) منهاج السنة (١٠/ ١٢٠).
(٤) مجموع الفتاوى (١٨/ ٢٨٩).

فصل

في ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝﴾، قال تعالى: ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٥]، وقال تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦]، والفلق: فعل بمعنى مفعول، كالقبض بمعنى المقبوض فكل ما فلقه الرب فهو فلق.

قال الحسن: الفلق كل ما انفلق من شيء، كالصبح والحب والنوى.

قال الزجاج: وإذا تأملت الخلق بان لك أن أكثره عن انفلاق كالأرض بالنبات والسحاب بالمطر(١).

وقد قال كثير من المفسرين: انفلق الصبح، فإنه يقال: هذا أبين من فلق الصبح، وفرق الصبح(٢).

وقال بعضهم: الفلق الخلق كله(٣)، وأما من قال: إنه واد في جهنم(٤) أو شجرة في جهنم(٥)، أو أنه اسم من أسماء جهنم(٦)، فهذا أمر لا تعرف صحته، لا بدلالة الاسم عليه، ولا بنقل عن النبي ﷺ ولا في تخصيص ربوبيته بذلك حكمه، بخلاف ما إذا قال: رب الخلق أو رب كل ما انفلق، أو رب النور الذي يظهره على العباد بالنهار، فإن في تخصيص هذا بالذكر ما يظهر به عظمة الرب المستعاذ به.

وإذا قيل: الفلق يعم ويخص، فبعمومه للخلق أستعيذ من شر ما خلق.

وبخصوصه للنور النهاري أستعيذ من شر غاسق إذا وقب. فإن الغاسق قد فسر بالليل، كقوله: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨].

وهذا قول أكثر المفسرين، وأهل اللغة. قالوا: ومعنى ﴿وَقَبَ﴾ دخل في كل شيء.

---

(١) زاد المسير (٩/ ٢٧٣).
(٢) زاد المسير (٩/ ٢٧٢) ولكنه قال واللغويون قالوا: ويقال.
(٣) ابن جرير (٣٠/ ٣٥١)، زاد المسير (٩/ ٢٧٣) ذكره عن ابن عباس والضحاك.
(٤) زاد المسير (٩/ ٢٧٣) عن وهب والسدي وابن السائب وكذا رواية عن ابن عباس.
(٥) زاد المسير (٩/ ٢٧٣)، عن عبد الله بن عمرو وفي نسخة عبد الله بن عمر وهو في القرطبي كذلك.
(٦) زاد المسير (٩/ ٢٧٣) عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن يزيد الحبلي.

قال الزجاج[١] «الغاسق» البارد، وقيل: الليل غاسق لأنه أبرد من النهار.

وقد روى الترمذي والنسائي عن عائشة «أن النبي ﷺ نظر إلى القمر فقال: يا عائشة تعوذي بالله من شره، فإنه الغاسق الذي وقب»[٢].

وروي من حديث أبي هريرة مرفوعاً «أن الغاسق النجم»[٣] وقال ابن زيد: هو الثريا[٤]، وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها، وترتفع عند طلوعها، وهذا المرفوع قد ظن بعض الناس منافاته لمن فسره بالليل فجعلوه قولاً آخر، ثم فسروا وقوبه بسكونه.

قال ابن قتيبة[٥]: ويقال: الغاسق القمر إذا كسف واسود. ومعنى وقب: دخل في الكسوف، وهذا ضعيف، فإن ما قال رسول الله ﷺ لا يعارض بقول غيره، وهو لا يقول إلا الحق، وهو لم يأمر عائشة بالاستعاذة منه عند كسوفه، بل مع ظهوره، وقد قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢].

فالقمر آية الليل، وكذلك النجوم إنما تطلع فترى بالليل فأمره بالاستعاذة من ذلك أمر بالاستعاذة من آية الليل ودليله وعلامته، والدليل مستلزم للمدلول، فإذا كان شر القمر موجوداً فشر الليل موجود، وللقمر من التأثير ما ليس لغيره، فتكون الاستعاذة من الشر الحاصل عنه أقوى، ويكون هذا كقوله عن المسجد المؤسس على التقوى «هو مسجدي هذا»[٦] مع أن الآية تتناول مسجد قباء قطعاً.

وكذلك قوله عن أهل الكساء «هؤلاء أهل بيتي»[٧]، مع أن القرآن يتناول نساءه، فالتخصيص لكون المخصوص أولى بالوصف، فالقمر أحق ما يكون بالليل بالاستعاذة. والليل مظلم، تنتشر فيه شياطين الإنس والجن ما لا تنشر بالنهار ويجري فيه من أنواع الشر ما لا يجري بالنهار من أنواع الكفر والفسوق والعصيان والسحر والسرقة والخيانة

---

(١) زاد المسير (٩/ ٢٧٤).
(٢) الترمذي (٣٣٦٦)، أحمد (٦/ ٢٠٦) الحاكم (٢/ ٥٤١) وهو صحيح.
(٣) رواه ابن جرير (٣٠/ ٣٥٢) وضعف ابن كثير رفعه.
(٤) زاد المسير (٩/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥).
(٥) زاد المسير (٩/ ٢٧٤).
(٦) مرّ تخريجه.
(٧) مرّ تخريجه.

والفواحش وغير ذلك، فالشر دائماً مقرون بالظلمة، ولهذا إنما جعله الله لسكون الآدميين وراحتهم، لكن شياطين الإنس والجن تفعل فيه من الشر ما لا يمكنها فعله بالنهار، ويتوسلون بالقمر وبدعوته، والقمر وعبادته، وأبو معشر البلخي له «مصحف القمر» يذكر فيه من الكفريات والسحريات ما يناسب الاستعاذة منه. فذكر سبحانه الاستعاذة من شر الخلق عموماً، ثم خص الأمر بالاستعاذة من شر الغاسق إذا وقب، وهو الزمان الذي يعم شره، ثم خص بالذكر السحر، والحسد.

فالسحر يكون من الأنفس الخبيثة، لكن بالاستعانة بالأشياء كالنفث في العقد، والحسد يكون من الأنفس الخبيثة أيضاً إما بالعين، وإما بالظلم وباللسان واليد، وخص من السحر النفاثات في العقد، وهن النساء، والحاسد الرجال في العادة، ويكون من الرجال ومن النساء.

والشر الذي يكون من الأنفس الخبيثة من الرجال والنساء هو شر منفصل عن الإنسان، ليس هو في قلبه كالوسواس الخناس.

وفي سورة الناس ذكر ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ [٤] فإنه مبدأ الأفعال المذمومة من الكفر والفسوق والعصيان ففيها الاستعاذة من شر ما يدخل الإنسان من الأفعال التي تضره من الكفر والفسوق والعصيان، وقد تضمن ذلك الاستعاذة من شر نفسه.

وسورة الفلق فيها الاستعاذة من شر المخلوقات عموماً وخصوصاً، ولهذا قيل فيها برب الفلق، وقيل في هذه برب الناس، فإن فالق الإصباح بالنور يزيل بما في نوره من الخير ما في الظلمة من الشر.

وفالق الحب والنوى بعد انعقادها يزيل ما في عقد النفاثات فإن فلق الحب والنوى أعظم من حل عقد النفاثات.

وكذلك الحسد هو من ضيق الإنسان وشحه لا ينشرح صدره لإنعام الله عليه.

فرب الفلق يزيل ما يحصل بضيق الحاسد وشحه، وهو سبحانه لا يفلق شيئاً إلا بخير، فهو فالق الإصباح بالنور الهادي، والسراج الوهاج الذي به صلاح العباد، وفالق الحب والنوى بأنواع الفواكه والأقوات التي هي رزق الناس ودوابهم.

والإنسان محتاج إلى جلب المنفعة من الهدى والرزق وهذا حاصل بالفلق.

والرب الذي خلق للناس ما تحصل به منافعهم يستعاذ به مما يضر الناس، فيطلب منه تمام نعمته بصرف المؤذيات عن عبده الذي ابتدأ بإتمامه عليه، وفلق الشيء عن الشيء هو دليل على تمام المقدرة، وإخراج الشيء من ضده كما يخرج الحي من الميت، والميت من الحي. وهذا من نوع الفلق، فهو سبحانه قادر على دفع الضد المؤذي بالضد النافع)[١].

وقال شيخ الإسلام قدس الله روحه:

فصل
في سورة الفلق والناس

في ﴿ٱلْفَلَقِ﴾ أقوال ترجع إلى تعميم وتخصيص، فإنه فسر بالخلق عموماً، وفسر بكل ما يفلق منه كالفجر والحب والنوى وهو غالب الخلق، وفسر بالفجر، وأما تفسيره بالمنار أو بجب، أو شجرة فيها، فهذه مرجعه إلى التوقيف. و«الغاسق» قد روي في الحديث المرفوع عن عائشة في الترمذي والنسائي «أن النبي ﷺ نظر إلى القمر، وقال لها: يا عائشة تعوذي بالله من هذا، فهذا الغاسق إذا وقب»[٢].

قال ابن قتيبة: «الغاسق» القمر إذا كسف فاسود ومعنى وقب دخل في الكسوف.

والمشهور عند أهل التفسير واللغة أن «الغاسق» الليل ﴿وَقَبَ﴾ دخل في كل شيء فأظلم، و«الغسق» الظلمة.

وقال الزجاج «الغاسق»، البارد، فقيل لليل غاسق لأنه أبرد من النهار، أو يقال: الغسق السيلان والإحاطة، وغسق الليل سيلانه وإحاطته بالأرض. وإذا فسر بالقمر، فقد يقال: وقوبه أي دخوله. وهو دخوله في الكسوف، ولا منافاة بين تفسيره بالليل وبالقمر، فإن القمر آية الليل، فهنا ثلاث مراتب الليل مطلقاً، ثم القمر مطلقاً، ثم القمر حال كسوفه وهذا مناسب لما ذكر في المستعاذ به، فإن عموم الفلق للخلق بإزاء من شر ما خلق، وخصوصه بالفجر الذي هو ظهور النور بإزاء الغاسق إذا وقب، الذي هو دخول الظلام.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ٥٠٤ ـ ٥٠٨). (٢) سبق تخريج هذا الحديث.

وقال ابن زيد: الغاسق: الثريا إذا سقطت، وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها، وقد تقع عند طلوعها، ويشبه ـ والله أعلم ـ أن يكون من الحكمة في ذلك أن النور هو جنس الخير، والظلمة جنس الشر، وفي الليل يقع من الشرور النفسانية ما لا يقع في النهار، والقمر له تأثير في الأرض لا سيما حال كسوفه، فإن النبي ﷺ قال: «إنهما آيتان يخوف الله بهما عباده»[1] والتخويف إنما يكون بانعقاد سبب الخوف، ولا يكون ذلك إلا عند سبب العذاب، أو مظنته، فعلم أن الكسوف مظنة حدوث عذاب لأهل الأرض.

ولهذا شرع عند الكسوف الصلاة الطويلة، والصدقة والعتاقة، والدعاء لدفع العذاب، وكذلك عند سائر الآيات التي هي إنشاء العذاب كالزلزلة، وظهور الكواكب، وغير ذلك وهو أقرب الكواكب التي لها تأثير في الأرض بالترطيب واليبس وغير ذلك.

ولهذا كان الطالبون للمنفعة والمضرة من الكواكب إنما يأخذون الأحداث بحسب سير القمر، فإذا كانت في شرفه كالسرطان كان الوقت عندهم سعيداً.

وإذا كان في العقرب وهو هبوطه كان نحساً، فهذا في علمهم، وكذلك في عملهم من السحر وغيره: القمر أقرب المؤثرات، حتى صنفوا «مصحف القمر» لعبادته وتسبيحه، فوقع ترتيب المستعاذ منه في هذه السورة على كمال الترتيب، انتقالاً من الأعم الأعلى الأبعد إلى الأخص الأقرب الأسفل، فجعلت أربعة أقسام:

الأول: من شر المخلوقات عموماً، وقول الحسن: إنه إبليس وذريته، وقول بعضهم: إنه جهنم: ذِكْرٌ للشر الذي هو لنا شر محض من الأرواح والأجسام.

والثاني: شر الغاسق إذا وقب، فدخل فيه ما يؤثر من العلويات في السفليات من الليل وما فيه من الكواكب. كالثريا وسلطانه الذي هو القمر، ودخل في ذلك سحر التمرسحات[2] الذي هو أعلى السحر وأرفعه.

الثالث: شر النفاثات في العقد، وهن السواحر اللواتي يتصورن بأفعال في أجسام.

---

(١) البخاري (١٠٦٠)، ومسلم (٩٠١). (٢) كذا في الأصل.

و«الرابع» الحاسد، وهي النفوس المضرة سفهاً، فانتظم بذلك جميع أسباب الشرور، ثم خص في «سورة الناس» الشر الصادر من الجن والإنس، وهو الأرواح المضرة.

فصل

وتظهر المناسبة بين السورتين من وجه آخر، وهو أن المستعاذ منه هو الشر، كما أن المطلوب هو الخير: إما من فعل العبد، وإما من غير فعله، ومبدأ فعله للشر هو الوسواس، الذي يكون تارة من الجن، وتارة من الإنس وحسم الشر بحسم أصله ومادته أجود من دفعه بعد وقوعه، فإذا أعيذ العبد من شر الوسواس الذي يوسوس في الصدور، فقد أعيذ من شر الكفر والفسوق والعصيان.

فهذا في فعل نفسه، وتعم الآية أيضاً فعل غيره لسوء معه.

فكانت هذه السورة للشر الصادر من العبد.

وأما الشر الصادر من غيره فسورة «الفلق» فإن فيها الاستعاذة من شر المخلوقات عموماً وخصوصاً والله أعلم)[١].

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ٥٣٣ ـ ٥٣٦).

سورة الناس

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾.

وقال في معنى الوسوسة:

(وقد قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ والقول الصحيح الذي عليه أكثر السلف أن المعنى: من شر الموسوس من الجنة ومن الناس ـ من شياطين الإنس والجن) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (فقد بيَّن الصادق المصدوق أن من الرؤيا ما هو من حديث النفس، ومنها ما هو من وسوسة الشيطان، وقد أمرنا سبحانه أن نستعيذ من هذين الوسواسين في قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ وقد قيل: إن المعنى: من الذي يوسوس في صدور الناس: من الجنة ومن الناس، وأنه جعل الناس أولاً تتناول الجنة والناس، فسماهم ناساً، كما سماهم رجالاً قاله الفراء، وقيل: المعنى: من شر الموسوس في صدور الناس من الجن، ومن شر الناس مطلقاً. قاله الزجاج. ومن المفسرين كأبي الفرج بن الجوزي من لم يذكر غيرهما[3] وكلاهما ضعيف، والصحيح أن المراد القول الثالث، وهو [أن]

---

(١) الرد على المنطقيين (٥٠٦).
(٢) الرد على المنطقيين (٤٨٢).
(٣) زاد المسير (٩/٢٧٩).

الاستعاذة من شر الموسوس من الجنة ومن الناس في صدور الناس، فأمر بالاستعاذة من شر شياطين الإنس والجن) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله:

فصل

في ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ إلى آخرها. قوله: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾: فيها أقوال، ولم يذكر ابن الجوزي إلا قولين، ولم يذكر الثالث، وهو الصحيح.

وهو أن قوله من الجنة والناس لبيان الوسواس، أي الذي يوسوس من الجنة، ومن الناس في صدور الناس؛ فإن الله تعالى قد أخبر أنه جعل لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، وإيحاؤهم هو وسوستهم، وليس من شرط الموسوس أن يكون مستتراً عن البصر، بل قد يشاهد، قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝٢٠ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢١﴾ [الأعراف].

وهذا كلام من يعرف قائله، ليس شيئاً يلقى في القلب لا يدرى ممن هو، وإبليس قد أمر بالسجود لآدم فأبى واستكبر، فلم يكن ممن لا يعرفه آدم، وهو ونسله يرون بني آدم من حيث لا يرونهم، وأما آدم فقد رآه.

وقد يرى الشياطين والجن كثير من الإنس، لكن لهم من الاجتنان والاستتار ما ليس للإنس.

وقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨]، وفي التفسير والسيرة: أن الشيطان جاءهم في صورة بعض الناس.

وكذلك قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦﴾ [الحشر].

---

(١) منهاج السنة (٥/ ١٨٧).

وفي حديث أبي ذر عن رسول الله ﷺ نعوذ بالله من شياطين الإنس والجن، قلت: أو للإنس شياطين؟.

قال: نعم،. شر من شياطين الجن[١].

وأيضاً: فالنفوس لها وسوسة كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦].

فهذا توسوس به نفسه لنفسه، كما يقال: حديث النفس، قال النبي ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به»[٢]. أخرجاه في الصحيحين.

فالذي يوسوس في صدور الناس نفسه، وشياطين الجن، وشياطين الإنس.

والوسواس الخناس يتناول وسوسة الجنة، ووسوسة الإنس وإلا أي معنى للاستعاذة من وسوسة الجن فقط، مع أن وسوسة نفسه وشياطين الإنس هي مما تضره، وقد تكون أضر عليه من وسوسة الجن؟!.

وأما قول الفرّاء[٣]: إن المراد من شر الوسواس الذي يوسوس في صدور الناس: الطائفتين من الجن والإنس، وأنه سمى الجن ناساً كما سماهم رجالاً[٤]، وسماهم نفراً فهذا ضعيف؛ فإن لفظ الناس أشهر وأظهر وأعرف من أن يحتاج إلى تنويعه إلى الجن والإنس، وقد ذكر الله تعالى لفظ الناس في غير موضع.

وأيضاً فكونه يوسوس في صدور الطائفتين صفة توضيح وبيان، وليس وسوسة الجن معروفة عند الناس وإنما يعرف هذا بخبر، ولا خبر هنا، ثم قد قال: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ فكيف يكون لفظ الناس عاماً للجنة والناس، وكيف يكون قسيم الشيء قسماً منه، فهو يجعل الناس قسيم الجن، ويجعل الجن نوعاً من الناس وهذا كما يقال: أكرم العرب من العجم والعرب، فهل يقول هذا أحد؟!.

---

(١) النسائي (٨/ ٢٧٥) مختصراً وأحمد (٥/ ١٧٨، ١٧٩) والبزار (١٦٠ ـ كشف) والطبراني (٧٨٧١) وضعفه ابن كثير في تفسيره وكذا صاحب المجمع (١/ ١٠٩).

(٢) البخاري (٢٥٢٨)، ومسلم (١٢٧).

(٣) معاني القرآن (٣/ ٣٠٢) بالمعنى.

(٤) معاني القرآن (٣/ ٣٠٢) بالمعنى.

وإذا سماهم الله تعالى رجالاً لم يكن في هذا دليل على أنهم يسمون ناساً، وإن قدر أنه يقال جاء ناس من الجن فذاك مع التقييد، كما يقال إنسان من طين وماء دافق، ولا يلزم من هذا أن يدخلوا في لفظ الناس، وقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]، فالناس كلهم مخلوقون من آدم وحواء، مع أنه سبحانه يخاطب الجن والإنس.

والرسول ﷺ مبعوث إلى الجنسين، لكن لفظ الناس لم يتناول الجن، ولكن يقول: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وكذلك قول الزجاج: إن المعنى ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ الذي هو الجنة، ومن شر الناس فيه ضعف، وإن كان أرجح من الأول، لأن شر الجن أعظم من شر الإنس فكيف يطلق الاستعاذة من جميع الناس، ولا يستعيذ إلا من بعض الجن؟!.

وأيضاً فالوسواس الخناس إن لم يكن إلا من الجنة فلا حاجة إلى قوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ﴾ ومن ﴿ٱلنَّاسِ﴾ فلماذا يخص الاستعاذة من وسواس الجنة دون وسواس الناس.

وأيضاً فإنه إذا تقدم المعطوف اسماً كان عطفه على القريب أولى، كما أن عود الضمير إلى الأقرب أولى، إلا إذا كان هناك دليل يقتضي العطف على البعيد، فعطف الناس هنا على الجنة المقرون به أولى من عطفه على الوسواس. ويكفي أن المسلمين كلهم يقرؤون هذه السورة من زمن نبيهم ولم يُنْقَلْ هذان القولان إلا عن بعض النحاة. والأقوال المأثورة عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان ليس فيها شيء من هذا بل إنما فيها القول الذي نصرناه، كما في تفسير معمر عن قتادة ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾، قال: إن في الجن شياطيناً، وإن في الإنس شياطيناً، فنعوذ بالله من شياطين الإنس والجن، فبين قتادة أن المعنى الاستعاذة من شياطين الإنس والجن.

وروى ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾، قال: الخناس الذي يوسوس مرة ويخنس مرة من الجن والإنس[١]، فبين ابن زيد أن الوسواس الخناس من الصنفين وكان يقال: شياطين الإنس أشد على الناس من شياطين الجن: شيطان الجن يوسوس ولا تراه، وهذا يعاينك معاينة.

---

(١) ابن جرير (٣٠/ ٣٥٥).

وعن ابن جريج[١] ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ قال: إنهما وسواسان فوسواس من الجنة فهو ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾، ووسواس من نفس الإنسان فهو قوله: ﴿وَٱلنَّاسِ﴾. وهذا القول الثالث وإن كان يشبه قول الزجاج فهذا أحسن منه، فإنه جعل من الناس الوسواس الذي من نفس الإنسان، فمعناه أحسن، ذكر الثلاثة ابن أبي حاتم في تفسيره.

وأيضاً فإنه ذكر في الآية ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾.

فإن كان المقصود أن يستعيذ الناس بربهم وملكهم وإلههم من شر ما يوسوس في صدورهم، فإنه هو الذي يطلب منه الخير الذي ينفعهم، ويطلب منه دفع الشر الذي يضرهم، والوسواس أصل كل شر يضرهم؛ لأنه مبدأ للكفر والفسوق والعصيان، وعقوبات الرب إنما تكون على ذنوبهم، وإذا لم يكن لأحدهم ذنب، فكل ما يصيبه نعمة في حقه، وإذا ابتلي بما يؤلمه فإن الله يرفع درجته ويأجره، إذا قدر عدم الذنب مطلقاً، لكن هذا ليس بواقع منهم، فإن كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون.

وقد قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝٧٢ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ﴾ [الأحزاب]، فغاية المؤمنين الأنبياء فمن دونهم هي التوبة، قال الله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٣٧﴾ [البقرة].

وقال نوح: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]، وقال إبراهيم وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٢٨﴾ [البقرة]، وقال موسى: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

ودعاء نبينا بمثل ذلك كثير معروف.

فكان الوسواس مبدأ كل شر، فإن كانوا قد استعاذوا بربهم، وملكهم وإلههم من شره، فقد دخل في ذلك وسواس الجن والإنس، وسائر شر الإنس إنما يقع بذنوبهم، فهو جزاء على أعمالهم، كالشر الذي يقع من الجن بغير الوسواس، وكما يحصل من العقوبات السماوية وهم لم يستعيذوا هنا من شر المخلوقات مطلقاً، كما استعاذوا في

(١) عزاه صاحب الدر (٦/ ٤٢٠) لابن المنذر.

سورة الفلق، بل من شر الذي يكون مبدأه في نفوسهم، وإن كان ذكر رب الناس ملك الناس إله الناس يستعيذوا[١] به ليعيذهم، وليعيذ منهم، وهذا أعم المعنيين، فذلك يحصل بإعاذته من شر الوسواس الموسوس في صدور الناس، فإنه هو الذي يوسوس بظلم الناس بعضهم بعضاً، وبإغواء بعضهم بعضاً، وبإعانة بعضهم بعضاً على الإثم والعدوان. فما حصل لإنسي شر من إنسي إلا كان مبدأه من الوسواس الخناس، وإلا فما يحصل من أذى بعضهم لبعض إذا لم يكن من الوسواس، بل كان من الوحي الذي بعث الله به ملائكته كان عدلاً، كإقامة الحدود وجهاد الكفار، والاقتصاص من الظالمين، فهذه الأمور فيها ضرر وأذى للظالمين من الإنس، لكن هي بوحي الله لا من الوسواس، وهي نعمة من الله في حق عباده، حتى في حق المعاقب، فإنه إذا عوقب كان ذلك كفارة له إن كان مؤمناً، وإلا كان تخفيفاً لعذابه في الآخرة بالنسبة إلى عذاب من لم يعاقب في الدنيا.

ولهذا كان محمّد ﷺ رحمة في حق العالمين باعتبار ما حصل من الخير العام به، وما حصل للمؤمنين به من سعادة الدنيا والآخرة، وباعتبار أنه في نفسه رحمة، فمن قبلها وإلا كان هو الظالم لنفسه، وباعتبار أنه قمع الكفار والمنافقين فنقص شرهم، وعجزوا عما كانوا يفعلونه بدونه، وقتل من قتل منهم، فكان تعجيل موته خيراً من طول عمره في الكفر له وللناس، فكان محمّد ﷺ رحمة للعالمين بكل اعتبار، فلا يستعاذ منه ومن أمثاله من الأنبياء وأتباعهم المؤمنين، وهم من الناس، وإن كانوا يفعلون بأعدائهم ما هو أذى وعقوبة وألم لهم، فلم تبق الاستعاذة من الناس إلا مما يأتي به الوسواس إليهم، فيستعاذ برب الناس ملك الناس إله الناس على هذا التقدير من شر الوسواس الذي يوسوس للمستعيذ، ومن شر الوسواس الذي يوسوس لسائر الناس، حتى لا يحصل منهم شر للمستعيذ، فإذا لم يكن للناس شر إلا من الوسواس كانت الاستعاذة من شر الذي يوسوس لهم تحصيلاً للمقصود، وكان حسماً للمادة، وأقرب إلى العدل، وكان مخرجاً لأنبياء الله وأوليائه أن يستعاذ من شرهم، وأن يقرنوا بالوسواس الخناس، ويكون ذلك تفضيلاً للجن على الإنس وهذا لا يقوله عاقل.

---

(١) كذا في الأصل.

فإن قيل: فإن كان أصل الشر كله من الوسواس الخناس، فلا حاجة إلى ذكر الاستعاذة من وسواس الناس، فإنه تابع لوسواس الجن.

قيل: بل الوسوسة نوعان: نوع من الجن، ونوع من نفوس الإنس، كما قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦].

فالشر من الجهتين جميعاً، والإنس لهم شياطين كما للجن شياطين، والوسوسة من جنس الوشوشة بالشين المعجمة، يقال: فلان يوشوش فلاناً، وقد وشوشه إذا حدثه سراً في أذنه.

وكذلك الوسوسة، ومنه وسوسة الحلي لكن هو بالسين المهملة أخص.

و﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ الذي يربيهم بقدرته ومشيئته وتدبيره، وهو رب العالمين كلهم، فهو الخالق للجيمع ولأعمالهم.

و﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾ الذي يأمرهم وينهاهم، فإن الملك يتصرف بالكلام، والجماد لا ملك له، فإنه لا يعقل الخطاب، لكن له مالك، وإنما الملك لمن يفهم عنه، والحيوان يفهم بعضه عن بعض، كما قال: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦]، و﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟﴾ [النمل: ١٨]، فلهذا كان له ملك من جنسه، ومن غير جنسه كما كان سليمان ملكهم، والإله: هو المعبود الذي هو المقصود بالإرادات، والأعمال كلها، كما قد بسط الكلام على ذلك.

وقد قيل: إنما خص الناس بالذكر، لأنهم مستعيذون أو لأنهم المستعاذ من شرهم، ذكرهما أبو الفرج، وليس لهما وجه، فإن وسواس الجن أعظم، ولم يذكره، بل ذكر الناس؛ لأنهم المستعيذون، فيستعيذون بربهم الذي يصونهم، وبملكهم الذي أمرهم ونهاهم، وبإلههم الذي يعبدونه من شر الذي يحول بينهم وبين عبادته، ويستعيذون أيضاً من شر الوسواس الذي يحصل في نفوس الناس منهم، ومن الجنة؛ فإنه أصل الشر الذي يصدر منهم، والذي يرد عليهم.

فصل

وبهذا يتبين بعض هذه الاستعاذة والتي قبلها كما جاءت بذلك الأحاديث عن النبي ﷺ أنه لم يستعذ المستعيذون بمثلهما، فإن الوسواس أصل كل كفر وفسوق

وعصيان فهو أصل الشر كله، فمتى وقي الإنسان شره وقي عذاب جهنم، وعذاب القبر، وفتنة المحيا والممات، وفتنة المسيح الدجال، فإن جميع هذه إنما تحصل بطريق الوسواس ووقي عذاب الله في الدنيا والآخرة، فإنه إنما يعذب على الذنوب، وأصلها من الوسواس، ثم إن دخل في الآية وسواس غيره بحيث يكون قوله: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ استعاذة من الوسواس الذي يعرض له، والذي يعرض للناس بسببه، فقد وقي ظلمهم، وإن كان إنما يريد وسواسه فهم إنما يسلطون عليه بذنوبه وهي من وسواسه.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْۗ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وقال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ﴾ [النساء: ٧٩]. والوسواس من جنس الحديث والكلام.

ولهذا قال المفسرون في قوله: ﴿مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥۖ﴾ [ق: ١٦] قالوا: ما تحدث به نفسه.

وقد قال ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به»(١).

وهو نوعان: خبر، وإنشاء.

فالخبر: إما عن ماضٍ، وإما عن مستقبل.

فالماضي يذكره به، والمستقبل يحدثه بأن يفعل هو أموراً، أو أن أموراً ستكون بقدر الله، أو فعل غيره، فهذه الأماني والمواعيد الكاذبة.

والإنشاء: أمر ونهي وإباحة.

والشيطان تارة يحدث وسواس الشر، وتارة ينشئ الخير(٢) وكان ذلك بما يشغله به من حديث النفس.

قال تعالى في النسيان: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث.

(٢) كذا في الأصل، ولعل الصواب: «ينسى الخير» أو «ينشرء الخبر».

﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]، وقال فتى موسى: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الكهف: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٤٢].

وثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أذن المؤذن أدبر الشيطان وله ضراط، حتى لا يسمع التأذين، فإذا قضي التأذين أقبل، فإذا ثوب بالصلاة أدبر، فإذا قضي التثويب أقبل، حتى يخطر بين المرء ونفسه فيقول: اذكر كذا، اذكر كذا، لما لم يذكر حتى يظل الرجل لم يدر كم صلى».

فالشيطان ذكره بأمور ماضية، حدث بها نفسه، مما كانت في نفسه من أفعاله، ومن غير أفعاله، فبتلك الأمور نسي المصلي كم صلى ولم يدر كم صلى، فإن النسيان أزال ما في النفس من الذكر وشغلها بأمر آخر حتى نسي الأول.

وأما إخباره بما يكون في المستقبل من المواعيد والأماني فكقوله: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وفي هذه الآية أمره ووعده.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ [البقرة]، ففي هذه أيضاً أمره ووعده، وقال موسى لما قتل القبطي: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٥].

وقد قال غير واحد من الصحابة كأبي بكر وابن مسعود فيما يقولونه باجتهادهم: «إن كان صواباً فمن الله، وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان»، فجعلوا ما يلقى في النفس من الاعتقادات التي ليست مطابقة من الشيطان، وإن لم يكن صاحبها آثماً؛ لأنه استفرغ وسعه، كما لا يأثم بالوسواس الذي يكون في الصلاة من الشيطان، ولا بما يحدث به نفسه.

وقد قال المؤمنون: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقد قال الله: قد فعلت، والنسيان للحق من الشيطان، والخطأ من الشيطان. قال تعالى:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام].

وقد قال ﷺ: «من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها»[١].

ولما نام هو وأصحابه عن الصلاة في غزوة خيبر قال لأصحابه: «ارتحلوا فإن هذا مكان حضرنا فيه شيطان».

وقال «إن الشيطان أتى بلالاً فجعل يهديه كما يهدى الصبي حتى نام»[٢].

وكان النبي ﷺ وكل بلالاً أن يوقظهم عند الفجر، والنوم الذي يشغل عما أمر به، والنعاسُ من الشيطان وإن كان معفواً عنه.

ولهذا قيل: النعاس في مجلس الذكر من الشيطان وكذلك الاحتلام في المنام من الشيطان، والنائم لا قلم عليه.

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «الرؤيا ثلاثة، رؤيا من الله، ورؤيا من الشيطان ورؤيا ما يحدث به المرء نفسه في اليقظة فيراه في النوم»[٣]، وقد قيل: إن هذا من كلام ابن سيرين، لكن تقسيم الرؤيا إلى نوعين: نوع من الله ونوع من الشيطان صحيح عن النبي ﷺ بلا ريب، فهذان النوعان من وسواس النفس، ومن وسواس الشيطان يغشى القلب كطيف الخيال، فينسيه ما كان معه من الإيمان حتى يعمى عن الحق، فيقع في الباطل، فإذا كان من المتقين كان كما قال الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف].

فإن الشيطان مسهم بطيف منه يغشى القلب، وقد يكون لطيفاً، وقد يكون كثيفاً إلا أنه غشاوة على القلب تمنعه إبصار الحق. قال النبي ﷺ: «إن العبد إذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه فذلك الران الذي قال الله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين]»[٤].

---

(١) مرّ تخريجه.
(٢) مرّ تخريجه.
(٣) مرّ تخريجه.
(٤) مرّ تخريجه.

لكن طيف الشيطان غير رين الذنوب، هذا جزاء على الذنب. والغين ألطف من ذلك، كما في الحديث الصحيح عنه ﷺ قال: «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة»[١].

فالشيطان يلقي في النفس الشر، والملك يلقي الخير، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الملائكة وقرينه من الجن، قالوا: وإياك يا رسول الله قال: وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم»[٢]، وفي رواية: «فلا يأمرني إلا بخير» أي استسلم وانقاد، وكان ابن عيينة يرويه فأسلم بالضم، ويقول: إن الشيطان لا يسلم، لكن قوله في الرواية الأخرى: فلا يأمرني إلا بخير، دل على أنه لم يبق يأمره بالشر، وهذا إسلامه، وإن كان ذلك كناية عن خضوعه وذلته، لا عن إيمانه بالله، كما يقهر الرجل عدوه الظاهر ويأسره.

وقد عرف العدو المقهور أن ذلك القاهر يعرف ما يشير به عليه من الشر فلا يقبله، بل يعاقبه على ذلك، فيحتاج لانقهاره معه إلى أن لا يشير عليه إلا بخير لذلته وعجزه لا لصلاحه ودينه، ولهذا قال ﷺ: «إلا أن الله أعانني عليه فلا يأمرني إلا بخير» وقال ابن مسعود: أن للملك لمة، وإن للشيطان لمة، فلمة الملك إيعاد بالخير، وتصديق بالحق، ولمة الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالحق[٣].

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، أي يخوفكم أولياءه بما يقذف في قلوبكم من الوسوسة المرعبة، كشيطان الإنس الذي يخوف من العدو فيرجف ويخذل.

وعكس هذا قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١٢].

وقال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِۖ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء].

---

(١) مرّ تخريجه.
(٢) مرّ تخريجه.
(٣) مرّ تخريجه.

والتثبت جعل الإنسان ثابتاً لا مرتاباً، وذلك بإلقاء ما يثبته من التصديق بالحق والوعد بالخير. كما قال ابن مسعود: لمة الملك وعد بالخير وتصديق بالحق. فمتى علم القلب أن ما أخبر به الرسول حق صَدَّقَه، وإذا علم أن الله قد وعده بالتصديق وثق بوعد الله فثبت، فهذا يثبت بالكلام، كما يثبت الإنسان الإنسان في أمر قد اضطرب فيه بأن يخبره بصدقه، ويخبره بما يبين له أنه منصور فيثبت، وقد يكون التثبت بالفعل بأن يمسك القلب حتى يثبت كما يمسك الإنسان الإنسان حتى يثبت.

وفي الحديث عن النبي ﷺ: «من سأل القضاء واستعان عليه وكل إليه، ومن لم يسأل القضاء ولم يستعن عليه أنزل الله عليه ملكاً يسدده» فهذا الملك يجعله سديد القول بما يلقي في قلبه من التصديق بالحق والوعد بالخير، وقد قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ [الأحزاب: ٤٣].

فدل ذلك على أن هذه الصلاة سبب لخروجهم من الظلمات إلى النور.

وقد ذكر إخراجه للمؤمنين من الظلمات إلى النور في غير آية كقوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ [الحديد: ٩].

وقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ [إبراهيم: ١].

وفي الحديث: «إن الله وملائكته يصلون على معلمي الناس الخير».

وذلك أن هذا بتعليمه الخير يخرج الناس من الظلمات إلى النور، والجزاء من جنس العمل، ولهذا كان الرسول أحق الناس بكمال هذه الصلاة.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، والصلاة هي الدعاء، إما بخير(١) يتضمن الدعاء، وإما بصيغة الدعاء، فالملائكة يدعون للمؤمنين.

(١) كذا في الأصل، والصواب: بخبر.

كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «والملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه: أللهم اغفر له، اللهم ارحمه ما لم يحدث».

فبين أن صلاتهم قولهم: «اللهم اغفر له اللهم ارحمه» وفي الأثر «إن الرب يصلي فيقول: سبقت ـ أو غلبت ـ رحمتي غضبي».

وهذا كلامه سبحانه هو خبر وإنشاء يتضمن أن الرحمة تسبق الغضب وتغلبه، وهو سبحانه لا يدعو غيره أن يفعل، كما يدعوه الملائكة وغيرهم من الخلق، بل طلبه بأمره وقوله، وقسمه، كقوله: لأفعلن كذا، وقوله: كن فيكون، وقوله: لأفعلن كذا. قسم منه كقوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ [ص: ٨٥]، وقوله: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، وقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥]، وقوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة]، وهذا وعد مؤكد بالقسم بخلاف قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [غافر: ٥١].

فإن هذا وعد خبر ليس فيه قسم، لكنه مؤكد باللام التي يمكن أن تكون جواب قسم.

وقوله: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ [الفتح: ٢٠]، وقوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧]. ونحو ذلك وعد مجرد.

وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١].

فأخبر أنه يوحي إلى البشر تارة وحياً منه، وتارة يرسل رسولاً فيوحي إلى الرسول بإذنه ما يشاء.

والملائكة رسل الله، ولفظ الملك يتضمن معنى الرسالة فإن أصل الكلمة ملأك على وزن مفعل، لكن لكثرة الاستعمال خففت، بأن ألقيت حركة الهمزة على الساكن قبلها، وحذفت الهمزة، وملاك مأخوذ من المألك والملأك، بتقديم الهمزة على اللام، واللام على الهمزة، وهو الرسالة، وكذلك الألوكة بتقديم الهمزة على اللام.

قال الشاعر[1]:

أبلغ النعمان عني مألكاً   أنه قد طال حبسي وانتظاري

وهذا بتقديم الهمزة، لكن الملك هو بتقديم اللام على الهمزة وهذا أجود، فإن نظيره في الاشتقاق الأكبر لاك يلوك إذا لاك الكلام، واللجام.

والهمزة أقوى من الواو، ويليه في الاشتقاق الأوسط أكل يأكل، فإن الآكل يلوك ما يدخله في جوفه من الغذاء والكلام والعلم ما يدخل في الباطن ويغذى به صاحبه.

قال عبد الله بن مسعود: إن كل آدب يحب أن تؤتي مأدبته، وإن مأدبة الله القرآن، والآدب المضيف، والمأدبة الضيافة، وهو ما يجعل من الطعام للضيف[2].

فبين أن الله ضيف عباده بالكلام الذي أنزله إليهم فهو غذاء قلوبهم وقوتها، وهو أشد انتفاعاً به، واحتياجاً إليه من الجسد بغذائه.

وقال علي ﷺ: الربانيون هم الذين يغذون الناس بالحكمة ويربونهم عليها[3].

وقد قال ﷺ: إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»[4].

وقد أخبر الله تعالى أن القرآن شفاء لما في الصدور، والناس إلى الغذاء أحوج منهم إلى الشفاء في القلوب والأبدان.

وفي الصحيحين عنه ﷺ قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة أمسكت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها طائفة أمسكت الماء فشرب الناس وسقوا وزرعوا، وكانت منها طائفة إنما هي قيعان لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به من الهدى والعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»[5].

---

(١) الشعر لعدي بن زيد في ديوانه (٩٣).

(٢) روى الدارمي (٣١٨٩) (٣١٩٧) عن عبد الله بن مسعود أثرين قريبين من هذا.

(٣) مرّ تخريجه.   (٤) مرّ تخريجه.

(٥) مرّ تخريجه.

فأخبر أن ما بعث به للقلوب كالماء للأرض، تارة تشربه فتنبت، وتارة تحفظه، وتارة لا هذا، ولا هذا، والأرض تشرب الماء وتغتذي به حتى يحصل الخير، وقد أخبر الله تعالى أنه روح تحيا به القلوب، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى]، وإذا كان ما يوحيه إلى عباده تارة يكون بوساطة ملك وتارة بغير وساطة، فهذا للمؤمنين كلهم مطلقاً لا يختص به الأنبياء.

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ﴾ [القصص: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة]، وإذا كان قد قال: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ الآية [النحل: ٦٨]، فذكر أنه يوحي إليهم، فإلى الإنسان أولى، وقال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ﴾ [فصلت: ١٢]، وقد قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ [الشمس]، فهو سبحانه يلهم الفجور والتقوى للنفس، والفجور يكون بواسطة الشيطان وهو إلهام وسواس، والتقوى بواسطة ملك وهو إلهام وحي، هذا أمر بالفجور، وهذا أمر بالتقوى، والأمر لا بد أن يقترن به خبر.

وقد صار في العرف لفظ الإلهام إذا أطلق لا يراد به الوسوسة، وهذه الآية مما تدل على أنه يفرق بين إلهام الوحي، وبين الوسوسة، فالمأمور به إن كان تقوى الله فهو من إلهام الوحي، وإن كان من الفجور فهو من وسوسة الشيطان.

فيكون الفرق بين الإلهام المحمود وبين الوسوسة المذمومة هو الكتاب والسنة، فإن كان مما ألقي في النفس مما دل الكتاب والسنة على أنه تقوى لله فهو من الإلهام المحمود، وإن كان مما دل على أنه فجور فهو من الوسواس المذموم. وهذا فرق مطرد لا ينتقض، وقد ذكر أبو حازم في الفرق بين وسوسة النفس والشيطان فقال: ما كرهته نفسك لنفسك فهو من الشيطان فاستعذ بالله منه وما أحبته نفسك لنفسك فهو من نفسك فانهها عنه.

وقد تكلم النظار في العلم الحاصل في القلب عقب النظر والاستدلال فذكروا فيه ثلاثة أقوال، كما ذكر ذلك أبو حامد[1] «في مستصفاه» وغيره قول الجهمية وقول

---

(١) المستصفى في علم أصول الفقه للغزالي مطبوع عدّة طبعات.

القدرية، وقول الفلاسفة، وكثير من أهل الكلام لا يذكر إلا القولين: قول الجهمية، وقول القدرية، وذلك أنهم يذكرون في كتبهم ما يعرفونه من أقوال من يعرفونه تكلم في هذا، وهم لا يعرفون إلا هؤلاء، والمسألة هي من فروع القدر، فإن الحاصل في نفس حادث فيها، فالقول فيه كالأقوال في أمثاله.

ومذهب جهم ومن وافقه كأبي الحسن الأشعري، وكثير من المتأخرين المثبتة هو مذهب أهل السنة والجماعة، أن الله خالق كل شيء، وأن الله خالق أفعال العباد، لكنه لا يثبت سبباً ولا قدرة مؤثرة، ولا حكمة لفعل الرب، فأنكر الطبائع والقوى التي في الأعيان، وأنكر الأسباب والحكم فلهذا لم يجعل لشيء سبباً. بل يقول: هذا حاصل بخلق الله وقدرته. ولم يذكروا له سبباً، وهم صادقون في إضافته إلى قدره، وأنه خالقه خلافاً للقدرية، لكن من تمام المعرفة إثبات الأسباب ومعرفتها.

وأما القدرية من المعتزلة وغيرهم فبنوه على أصلهم، وهو أن كل ما تولد عن فعل العبد فهو فعله لا يضاف إلى غيره، كالشبع والري وزهوق الروح، ونحو ذلك فقالوا: هذا العلم متولد عن نظر العبد أو تذكر النظر.

والمتفلسفة بنوه على أصلهم: في أن ما يحدث من الصور هو من فيض العقل الفعال عند استعداد المواد القابلة، فقالوا: يحصل في نفوس البشر من فيض العقل الفعال عند استعداد النفس باستحضار المقدمتين، وهذا القول خطأ، والذي قبله أقرب منه والأول أقرب، وليس في شيء منها تحقيق الأمر في ذلك، وحقيقته أن الله وكل بالإنس ملائكة وشياطين يلقون في قلوبهم الخير والشر، فالعلم الصادق من الخير، والعقائد الباطلة من الشر، كما قال ابن مسعود: لمة الملك تصديق بالحق، ولمة الشيطان تكذيب بالحق.

وكما قال النبي ﷺ في القاضي: «أنزل الله عليه ملكاً يسدده»(١).

وكما أخبر الله أن الملائكة توحي إلى البشر ما توحيه وإن كان البشر لا يشعر بأنه من الملك، كما لا يشعر بالشيطان الموسوس، لكن الله أخبر أنه يكلم البشر وحياً، ويكلمه بملك يوحي بإذنه ما يشاء، والثالث التكليم من وراء حجاب.

---

(١) مرّ تخريجه.

وقد قال بعض المفسرين: المراد بالوحي هنا الوحي في المنام، ولم يذكر أبو الفرج غيره، وليس الأمر كذلك، فإن المنام تارة يكون من الله، وتارة يكون من النفس، وتارة يكون من الشيطان، وهكذا ما يلقى في اليقظة، والأنبياء معصومون في اليقظة والمنام.

ولهذا كانت رؤيا الأنبياء وحياً، كما قال ذلك ابن عباس وعبيد بن عمير، وقرأ قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

وليس كل من رأى رؤيا كانت وحياً، فكذلك ليس كل من ألقي في قلبه شيء يكون وحياً، والإنسان قد تكون نفسه في يقظته أكمل منها في نومه كالمصلي الذي يناجي ربه، فإذا جاز أن يوحى إليه في حال النوم فلماذا لا يوحى إليه في حال اليقظة، كما أوحي إلى أم موسى، والحواريين، وإلى النحل؟!.

لكن ليس لأحد أن يطلق القول على ما يقع في نفسه أنه وحي لا في يقظة، ولا في المنام إلا بدليل يدل على ذلك، فإن الوسواس غالب على الناس، والله أعلم)[1].

تم بحمد الله

(١) مجموع الفتاوى (١٧/٥٠٩ ـ ٥٣٢).

فهرس الجزء السابع

الموضوع الصفحة

تفسير سورة الغاشية

تفسير سورة الفجر

تفسير سورة البلد

الموضوع | الصفحة

تفسير سورة الشمس

الموضوع | الصفحة

تفسير سورة الليل

تفسير سورة الضحى

الموضوع الصفحة

تفسير سورة العلق

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

تفسير سورة الكافرون

الموضوع | الصفحة

الموضوع — الصفحة

تفسير سورة النصر

تفسير سورة المسد

تفسير سورة الإخلاص

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

تفسير سورة الفلق

تفسير سورة الناس

الموضوع — الصفحة

تم بحمد الله

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

دار ابن الجوزي 8428146
161803